

التاريخ الباهي في الدولة النابكيتية (بالموصل)

تأليف

علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم
عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري
(٥٥٥ - ٦٣٠ هـ)

تحقيق

عبد الفتاد أحمد طليمات

ماجستير في التاريخ
كلية الآداب - جامعة عين شمس

ملترزم الطبع والنشر
دار الكتب الحديثة بالقاهرة
ومكتبة المشني ببغداد

مقدمة

كتاب « التاريخ الباهر في الدولة الآتابكية » أحد كتب ابن الأثير التاريخية الهامة ، خصه بأخبار دولة إسلامية حاكمة ظهرت في النصف الغربي من دولة الخلافة العباسية ، أسسها عماد الدين زنكي ابن قسيم الدولة آقسنقر الحاجب بمدينة الموصل سنة ٥٢١ هـ ، (١١٢٧ م) وشملت في عهد ابنه نور الدين محمود ، الموصل ، الجزيرة ، والشام ، ومصر ، واليمن .

وقد اخترت تحقيق مخطوط الكتاب ودراسته ، ودراسة مؤلفه موضوعاً لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي من جامعة عين شمس . تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ، أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة .

وقد نوقشت الرسالة في اليوم العاشر من شهر يوليو عام ١٩٦٢ ، بمدرج المغفور له محمد شفيق غربال بكلية الآداب بجامعة عين شمس .

وكانت لجنة المناقشة مكونة من : الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ، رئيساً .

وعضوية :

الأستاذ الدكتور أحمد فكرى ، أستاذ الآثار الإسلامية ، ورئيس قسم التاريخ بجامعة الاسكندرية .

والأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة أستاذ التاريخ الإسلامي ، ورئيس قسم التاريخ بجامعة القاهرة (سابقاً) .

وقد أجازت اللجنة ، الرسالة بتقدير « جيد جداً » .

وقد حملت النسخة التي قدمت للمناقشة عنوان : « تاريخ الدولة الآتابكية — ملوك الموصل » وهو العنوان الذى اختارته له المكتبة الأهلية ببائيس — والمخطوط لا يحمل عنواناً — والمسجل بها تحت رقم : ٨١٨ من المجموعة العربية . غير انى رأيت أنه من الافق ، أن يحمل الكتاب العنوان الذى ذكره المؤلف فى كتابه الآخر « الكامل فى التاريخ » ، وهو العنوان الذى يحمله الكتاب الذى بين يدى القارئ الآن .

والإني إذ أحمد الله جل شأنه ، لما وفقني إليه من النجاح فيما قمت به من عمل ، أتقدم بخالص الشكر إلى أستاذي الكبير ، الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ، لتفضله بالموافقة على الإشراف على الرسالة ، ولما قدمه إليّ من توجيهات وتصويبات أثناء اشتغالي في تحضيرها .

كذلك أشكر السيد الدكتور عز الدين إسماعيل . مدرس النقد الأدبي بكلية الآداب بجامعة عين شمس لتفضله بمراجعة الشعر الوارد بالمخطوط ، وضبط أوزانه ، ونقويم أخطائه .

والله الموفق إلى سواء السبيل .

عبد القادر أحمد طه

مصر الجديدة : شهر شعبان ١٣٨٢
شهر يناير ١٩٦٣

المؤلف

ابن الأثير الجزري

(٥٥٥ - ٦٣٠ هـ / ١١٦٠ - ١٢٣٢ م)

اسم ولقبه : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ،
المعروف بابن الأثير الجزري ، الملقب عز الدين .

مولده : ولد ابن الأثير بجزيرة ابن عمر ، من أعمال الموصل ، في اليوم الرابع من شهر جمادى الأولى
سنة ٥٥٥ (١) ، ثم انتقل والده به وبأخويه إلى الموصل في سنة ٥٧٩ (٢) ، حيث أقاموا بها إقامة دائمة .

أسرته : وكان والد ابن الأثير موظفا عند ملوك الموصل منذ حكم عماد الدين زنكي ، وقد أخبرنا
بهذا ، ابن الأثير وحده في ثنايا كتابه « الباهر » ، أما غيره من المؤرخين وأصحاب التراجم . فلم يهتموا
بالترجمة له ، كذلك لم يتعرضوا له بالذكر حين ترجموا للمؤلف وأخويه .

وأول خبر ذكره ابن الأثير عن والده ، هو ما أورده في ترجمته لعماد الدين زنكي في « الباهر »
حيث يذكر أن والده سار إلى قلعة جعبر في سنة ٥٤١ ، حينما كان يحاصرها عماد الدين ، ونزل عنده
الوزير جمال الدين — وزير عماد الدين — الذي كان يرافقه في الحصار ، ولما علم عماد الدين بوصوله ، أرسل
إليه أحد غلمانه يسأله عن أخبار حصار قلعة « فنك » — وكان عسكر عماد الدين يحاصرها في نفس
الوقت الذي كان عماد الدين يحاصر بنفسه قلعة جعبر — فأخبر الوالد ، الغلام بما يطمئن عماد الدين (٣) .
ولم يذكر ابن الأثير شيئاً عن وظيفة والده في الدولة في تلك السنة ، غير أننا نرجح أنه كان عامل
الوزير على جزيرة ابن عمر ، ويؤيد هذا الترجيح ، ما ذكره ابن الأثير في الخبر الخاص بالملك سليمان

(١) ابن خلسكان (ج / ١ / ص ٤٣٨) .

(٢) اعتمدنا في تحديد هذا التاريخ لانتقال ابن الأثير إلى الموصل مع والده وأخويه على ما ذكره اليوناني في ذيل
مرآة الزمان (ج / ١ / ص ٦٤) ، عن ضياء الدين — أخى ابن الأثير — بأنه ولد بجزيرة ابن عمر « وانتقل
إلى الموصل مع والده في رجب سنة تسع وسبعين وخمسة » والمؤرخون يجمعون على أن والد ابن الأثير ، انتقل بأبنائه
جميعاً إلى الموصل ، دون تحديد السنة ، وأقاموا بها .

(٣) أنظر ما يلي ، ص / ٧٨ ، (من النص) .

شاه السلجوقي سنة ٥٥٥ ، ذلك أن قطب الدين مودودا صاحب الموصل ، كان قد قبض على الملك سليمان شاه وحبسه بالموصل ، فلما توفي السلطان مسعود بن محمد السلجوقي في سنة ٥٥٥ ، أرسل أمراء همدان إلى قطب الدين ، يطلبون منه إرسال سليمان شاه إليهم لكي يولوه سلطاناً عليهم خلفاً للسلطان مسعود ، فاتفق قطب الدين مع سليمان شاه ، على أن يكون سليمان شاه سلطاناً وقطب الدين أتابكاً له وجمان الدين وزيراً للسلطان ، ثم عزم جمال الدين على أن يجعل والد ابن الأثير نائباً عنه بالعراق الذي يتبع سلطة سليمان شاه ، ولكن المشروع كله فشل لأسباب ذكرها ابن الأثير في الخبر (١) .

كذلك يذكر ابن الأثير خبراً آخر عن والده ، ويذكر فيه صراحة أنه كان يعمل في خدمة جمال الدين وزير الموصل وأنه كان نائباً عنه ، والخبر لا يحدد هذه النيابة . وإن كنا نرجح أنه كان نائباً عنه في جزيرة ابن عمر (٢) .

ثم يحدد الخبر الذي يذكره ابن الأثير عن والده في سنة ٥٦٥ ، في ترجمته لقطب الدين مودود صاحب الموصل ، أن والده كان يتولى رئاسة ديوان جزيرة ابن عمر وخزانتها (٣) . ثم لا يذكر ابن الأثير أكثر من هذا عن والده كموظف .

وكانت أسرة ابن الأثير على جانب من الثراء ، حيث يذكر المؤرخ أن أسرته كانت تملك عدة بساتين بقرية العقيمة من أعمال جزيرة ابن عمر (٤) ، كذلك كانت تملك قرية بأسفل الموصل يقال لها « قصر حرب » ويقول ابن الأثير ، إنه جمع أكثر مادة كتابه « الكامل في التاريخ » في دار لهم بهذه القرية (٥) .

كذلك كان والد ابن الأثير يشتغل بالتجارة إلى جانب وظيفته ، حيث يذكر المؤرخ خبر استيلاء الصليبيين — في سنة ٥٦٧ — على مراكب للمسلمين قادمة من مصر إلى الشام ، وكان لوالده فيها تجارة (٦) . ويذكر أيضاً في أخبار سنة ٥٨٨ ، أن الفرنج استولوا على قافلة برية للمسلمين بنواحي الخليل . وكان لابن الأثير — أو لوالده — تجارة في هذه القافلة فنهبت (٧) .

ولم يترجم ابن الأثير لوالده بعد وفاته ، لافي « الكامل » ولا في « الباهر » ، كذلك لم يترجم له أحد من المؤرخين أو أصحاب التراجم . ولذلك فنحن نجعل تاريخ وفاته ، غير أن ابن الأثير ، ذكر خبراً في « الباهر » يبين منه أنه كان موجوداً في سنة ٥٨٧ في الموصل ، وخلاصة الخبر أن عز الدين مسعودا ، صاحب الموصل ، حاصر جزيرة ابن عمر في هذه السنة ، وخرج معه مجد الدين أبو السعادات — أخو المؤرخ — فلما عاد عز الدين إلى الموصل ، أمر عسكره ألا يدخلوا المدينة ، وأن يعسكروا خارجها

- | | |
|---|---|
| (١) أنظر ما يلي ، ص / ١٤٧ ، (من النص) . | (٢) أنظر ما يلي ، ص / ١١٨ ، (من النص) . |
| (٣) أنظر ما يلي ، ص / ١٤٧ ، (من النص) . | (٤) أنظر ما يلي ، ص / ١٤٧ ، (من النص) . |
| (٥) الكامل ، ج / ٥ / ص / ٢٠ . | (٦) أنظر ما يلي ، ص / ١٥٥ ، (من النص) . |
| (٧) الكامل ، ج / ٩ / ص / ٢٢٠ . | |

فنصب مجد الدين خيمته مع الجند ولم يدخل الموصل ، ولكن عز الدين صرح له بدخولها ، وقال له :
إن والدك أمير الدين له مدة مارآك ، ولا شك أنه اشتاكك (١) .

وكان عز الدين المؤرخ ، أوسط أخويه مجد الدين وضياء الدين سنا ، فقد ولد بمجد الدين أبو السعادات
المبارك سنة ٥٤٤ ، وولد عز الدين سنة ٥٥٥ ، وأما ضياء الدين نصر الله ، فإنه ولد سنة ٥٥٨ . وكان
أول المتوفين من الإخوة ، مجد الدين حيث توفي سنة ٦٠٦ ، ثم تلاه عز الدين المؤرخ فتوفي سنة ٦٣٠ ،
أما ضياء الدين فإنه توفي سنة ٦٣٧ . (٢)

وقد اتجه كل من الإخوة الثلاثة إتجاها خاصا في حياتهم العلمية . فقد اختار مجد الدين العلوم
الدينية ، واختار ضياء الدين الأدب ، أما عز الدين فقد اختار التاريخ ، فاشتهر كل منهم في ميدانه ، فقد
نال مجد الدين شهرته في مؤلفاته في الحديث والتفسير والكتابة والرسائل ، واشتهر ضياء الدين بمؤلفاته
الأدبية وفي مقدمتها المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر . أما عز الدين فإنه اشتهر بمؤلفاته التاريخية ،
وفي مقدمتها كتابه « السكامل في التاريخ » .

وقد خدم كل من مجد الدين وضياء الدين الزنكيين وكبار موظفيهم . فقد كان مجد الدين كاتب الإنشاء
لمجاهد الدين قايمار وزير عز الدين مسعود صاحب الموصل ، ثم تولى ديوان رسائل عز الدين مسعود
نفسه ، ثم ديوان ابنه نور الدين أرسلان شاه من بعده . ثم عرض له مرض منعه من الكتابة ، فأقام
في داره يغشاه الأكلب والعلماء ، وأنشأ رباطا بقرية « قصر حرب » ووقف أملاكة عليه وعلى داره
التي يسكنها بالموصل . وقد ألف كتبه كلها أثناء مرضه (٣) .

أما ضياء الدين ، فإنه وزر للملك الأفضل بن صلاح الدين الأيوبي صاحب دمشق ، فأساء السيرة
حتى أثار عليه الناس فهموا بقتله . ولما خرجت دمشق من يد الأفضل ، التحق بمجد الدين بخدمة الظاهر
غازي صاحب حلب ، ولكن لم يطل مقامه عنده وخرج مغاضبا له وسار إلى الموصل ، ولكن لم تطب
له الإقامة بها ، فرحل منها إلى إربل فلم يستقم حاله بها أيضا ، فرحل عنها إلى سنجار ، ولكنه لم يلبث
أن عاد إلى الموصل واستقر بها ، فالتحق بخدمة ملكها ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود
بوظيفة كاتب الإنشاء ، وذلك سنة ٦١٨ . ولما مات ناصر الدين محمود كتب لبدر الدين لؤلؤ بعد أن
آلت إليه الموصل . وفي سنة ٦٣٧ سيره بدر الدين رسولا إلى خليفة بغداد ففات بها (٤) .

أما عز الدين المؤرخ فالراجح أنه لم يدخل في خدمة ملوك الموصل ، حيث أنه لم يذكر هو نفسه ،
ولم يذكر من ترجم له أنه شغل وظيفة ما . إلا أن ابن خلكان يذكر في ترجمته له ، أنه سفر لبعض ملوك الموصل
من الزنكيين إلى بغداد ، ولكنه لم يسم هؤلاء الملوك (٥) . أما ابن كثير ، فإنه يذكر في ترجمته لابن

(١) أنظر مابلي ، ص / ١٨٦ (من النص) . (٢) شذرات الذهب ، ج / ٥ / ص / ٢٢ / ١٣٧ / ١٨٧ .

(٣) ابن خلكان ، ج / ١ / ص / ٥٥٧ وما بعدها . (٤) ابن خلكان ، ج / ٢ / ص / ٢٠٨ .

(٥) ابن خلكان ، ج / ١ / ص / ٤٣٨ .

الآثير ، أنه وزر لبعض ملوك الموصل ، ولكنه لم يسم هؤلاء الملوك أيضاً (١) . ولا شك أن هذا وهم من ابن كثير .

حياته : ولد ابن الآثير — كما ذكرنا من قبل — في جزيرة ابن عمر في اليوم الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ٥٥٥ ، ثم انتقل إلى الموصل مع والده وأخويه في سنة ٥٧٩ ، أى وهو ابن أربع وعشرين سنة . ومعنى هذا ، أنه نشأ وربى وتلقى دروسه الأولى في جزيرة ابن عمر . والواقع أنه ليس لدينا معلومات عن طفولة ابن الآثير وصباه ومراحل تعليمه في صغره . فقد ضن ابن الآثير بالترجمة لنفسه ، كذلك ضن من ترجم له بتفاصيل نشأته ، وإن كان من المفروض أن والده اهتم بتعليمه وتعليم أخويه إهتماماً كبيراً ، ظهر أثره في نبوغ الإخوة الثلاث كل في ميدانه .

تعليمه : ومن الطبيعي أن يكون ابن الآثير قد حفظ القرآن في صغره ، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة في أحد المكاتب حسب عادة أهل عصره . ولما شب عن الطوق ، انتقل إلى مرحلة الدراسة العميقة . جلس إلى الشيوخ يتلقى عليهم العلم ، فدرس الحساب ، واللغة . والفقه ، والحديث . وابعثه درس غير ذلك من العلوم ، كالأصول ، والفرائض ، والمنطق ، والهيئة ، والنجوم ، والقراءات ، فإن من شيوخه من كان يتقن أكثر من علم .

سيوخه : وقد ترجم ابن الآثير لبعض شيوخه في كتابه « السكامل في التاريخ » ، ومن ترجم لهم : شيخه عبد الله بن سويده ، المتوفى سنة ٥٨٤ ، فقال عنه : « في هذه السنة توفى شيخنا أبو محمد عبد الله ابن عبد الله بن سويده التكريتي ، كان عالماً بالحديث ، وله تصانيف حسنة (٢) » .

وشيوخه ابن أفضل الزمان ، المتوفى سنة ٥٨٥ : « وفيها — في صفر — توفى شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن وهبان ، المعروف بابن أفضل الزمان ، بمكة . وكان رحمه الله عالماً متبحراً في علوم كثيرة خلاف فقه مذهبه ، الأصولين ، والحساب ، والفرائض ، والنجوم ، والهيئة ، والمنطق ، وغير ذلك . وختم أعماله بالزهد ولبس الخشن ، وأقام بمكة حرسها الله تعالى مجاوراً فتموت بها . وكان من أحسن الناس صحبة وخلاقاً (٣) » .

وشيوخه ابن رواحه ، وقد قتل سنة ٥٨٥ في وقعة عكا ، فقد حضرها مع صلاح الدين الأيوبي ، فلما انهزم قلب جيش صلاح الدين من الصليبيين ، وصل الصليبيون إلى التل الذي عليه خيمة صلاح الدين وقتلوا من مروا به ، ونهبوا ، وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة ، منهم ، شيخنا جمال الدين أبو علي بن

(١) ابن كثير . ج ١٣ / ص ١٣٩ . (٢) السكامل ، ج ٩ / ص ١٩٨ .

(٣) السكامل ، ج ١٣ / ص ٢٠٥ .

رواحة الخوى ، وهو من أهل العلم ، وله شعر حسن ، وما ورث الشهادة من بعيد ، فإن جده عبد الله ابن رواحة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتله الروم يوم مؤتة (١) . »

وشيوخه ابن صدقة ، المتوفى سنة ٥٩٣ هـ ، وفيها توفى شيخنا أبو القاسم يعيش بن صدقة بن علي الفراتي الضرير ، المقيمه الشافعي . كان إماماً في الفقه ، مدرساً صالحاً ، كثير الصلاح . سمعت عليه كثيراً ، لم أر مثله ، رحمه الله تعالى . ولقد شاهدت منه عجباً يدل على دينه وإرادته بعمله وجه الله تعالى . وذلك أني كنت أسمع عليه ببغداد سنن أبي عبد الرحمن النسائي — وهو كتاب كبير — والوقت ضيق ، لأنني كنت مع الحجاج قد عدنا من مكة حرسها الله ، فبينما نحن نسمع عليه مع أخى الأكبر مجد الدين أبي السعادات ، إذ قد أتاه إنسان من أعيان بغداد ، وقال له : قد برز الأمر لتهضر ، الأمر كذا ، فقال : أنا مشغول بسماع هؤلاء السادة ووقتهم يفوت ، والذي يراد مني لا يفوت . فقال : أنا لا أحسن أذكر هذا في مقابل أمر الخليفة . فقال : لا عليك ، قل ، قال أبو القاسم لا أحضر حتى يفرغ السماع . فسألناه ليشي معه ، فلم يفعل ذلك وقال : إقرءوا ، فقرأنا . فلما كان الغد ، حضر غلام لنا وذكر أن أمير الحاج الموصلي قد رحل ، فعظم الأمر علينا . فقال [الشيخ] : ولم يعظم عليكم العود إلى أهلكم وبلدكم ؟ فقلنا : لأجل فراغ هذا الكتاب . فقال : إذا رحلتهم أستعير دابة وأركبها ، فأسير معكم وأنتم تقرأون ، فإذا فرغتم عدت . فضي الغلام ليتزود ونحن نقرأ ، فعاد وذكر أن الحجاج لم يرحلوا ، ففرغنا من الكتاب . فانظر إلى هذا الدين المتين ، يرد أمر الخليفة وهو يخافه ويرجوه ، ويريد [أن] يسير معنا ونحن غرباء لا يخافنا ولا يرجونا (٢) . »

وشيوخه ابن كليب الحراني ، المتوفى سنة ٥٩٦ هـ : « وفي هذه السنة — في ربيع الأول — توفى شيخنا أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن كليب الحراني ، المقيم ببغداد . وله ست وتسعون سنة وشهران . وكان عالي الإسناد في الحديث . وكان ثقة صحيح السماع (٣) . »

وشيوخه ابن شبة النحوي ، المتوفى سنة ٦٠٣ هـ : « وفيها — في شوال — مات شيخنا أبو الحرم مكي ابن ريان بن شبة النحوي المقرئ بالموصل . وكان عارفاً بالنحو واللغة والقراءات ، لم يكن في زمانه مثله ، وكان ضريراً . وكان يعرف سوى هذه العلوم ، من : الفقه ، والحساب وغير ذلك معرفة حسنة . وكان من خيار عباد الله وصالحهم . كثير التواضع ؛ لا يزال الناس يشتغلون عليه من بكرة إلى الصبح (٤) . »

وشيوخه ابن طبرزد ، المتوفى سنة ٦٠٧ هـ : « وفيها توفى شيخنا أبو حفص عمر بن محمد بن المعصر بن طبرزد البغدادي ، وكان عالي الإسناد (٥) . »

وشيوخه الخطيب الطوسي ، المتوفى سنة ٦٢٢ هـ ، في الوباء الذي انتشر في الموصل في هذه السنة ومات

(٢) الكامل ، ج ٩ / ص ٢٣٩ .

(٤) الكامل ، ج ٩ / ص ٢٩٠ .

(١) الكامل ، ج ٩ / ص ٢٠٣ .

(٣) الكامل ، ج ٩ / ص ٢٤١ .

(٥) الكامل ، ج ٩ / ص ٣٠٥ .

منه كثيرون ، « فممن مات فيه شيخنا عبد المحسن بن عبد الله الخطيب الطوسي ، خطيب الموصل . وكان من صالحى المسلمين ، وعمره ثلاث وثمانون سنة وشهور (١) » .

وشيوخه ابن العديم ، المتوفى سنة ٦٢٨ : « وفيها توفى القاضى ابن غنائم بن العديم الحلبي ، الشيخ الصالح . وكان من المجتهدين فى العبادة والرياضة والعاملين بعلمهم . فلو قال قائل ، إنه لم يكن فى زمانه أعبد منه لكان صادقا ، فرضى الله عنه وأرضاه ، فإنه من جملة شيوخنا . سمعنا عليه الحديث ، وانتفعنا برؤيته وكلامه (٢) » .

وكان ابن الأثير ينهز فرصة سفره إلى العراق والشام ، فيجتمع بشيوخها ويسمع منهم الحديث . فقد سمع ببغداد من عبد المؤمن بن كليب ، وعبد الوهاب بن سكيمة مسند العراق . وسمع بدمشق من القائم بن صصرى مسند الشام وزين الأمان بن عساكر .

وكان ابن الأثير محل تقدير وثناء من عرفه من معاصريه ومن جاء بعده واستفاد من مؤلفاته . فمن معاصريه ابن خلكان وسبط ابن الجوزى . أما ابن خلكان ، فقد كان على اتصال وثيق به ، وسبب ذلك أن والده — والد ابن خلكان — كان صديقا لابن الأثير ، لذلك كان ابن الأثير يكرم ابن خلكان ويقربه إليه . يقول ابن خلكان عن ابن الأثير ، إنه « كان إماما فى حفظ الحديث ومعرفة ما يتعلق به ، وحافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة . وخبيرا بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم » . ويقول أيضاً : « وكان بيته مجمع الفضل لأهل الموصل والواردين عليها » . ويذكر أنه اجتمع بابن الأثير فى حلب سنة ٦٢٦ ، وقد كان ابن الأثير ضيفاً على الطواشى شهاب الدين طغريل الخادم أتابك الملك العزيز بن الملك الظاهر صاحب حلب ، وكان طغريل كثير الإقبال على ابن الأثير حسن الاعتقاد فيه ، مكرماً له . يقول ابن خلكان ، إنه لما اجتمع بابن الأثير عند طغريل وجسده « رجلاً مكلاً فى الفضائل وكرم الأخلاق ، وكثرة التواضع ، فلازمت الردد إليه ، وكان بينه وبين الوالد — رحمه الله تعالى — مؤانسة أكيدة فكان بسببها يباليغ فى الرعاية والإكرام (٣) » .

وأما شمس الدين يوسف سبط ابن الجوزى ، فإنه لم يترجم له بالرغم من أنه نقل عنه فى كتابه « مرآة الزمان » غير أنه كان يقدره ويلقبه بالأستاذ ، فهو حين يشغل عنه خبر وفاة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، يقول : « وذكر الأستاذ الجزرى فى تاريخه (٤) » .

ويصفه ابن كثير بأنه « الإمام العلامة » ، ويقول ، إنه أقام بالموصل فى آخر عمره ، « موقراً معظماً إلى أن مات (٥) » .

ويقول عنه الذهبي ، « كان صدراً معظماً كثير الفضائل (٦) » .

(١) الكامل ، ج ٩ / ص ٣٦٤ . (٢) الكامل ، ج ٩ / ص ٣٨٧ .

(٣) ابن خلكان ، ج ٢ / ص ٤٣٨ . (٤) مرآة الزمان ، ج ٨ / ص ٣٢٠ .

(٥) ابن كثير ، ج ١٣ / ص ١٣٩ . (٦) شذرات الذهب ، ج ٥ / ص ١٢٧ ، عن « النور » للذهبي .

ويقول عنه ابن العباد الحنبلي : « كان إماماً ، نسابه ، مؤرخاً ، إخبارياً ، أديباً ، نبيلاً ، محتشماً (١) » .

وفاته :

وقد توفي ابن الأثير في شهر شعبان من سنة ٦٣٠ هـ ، وهو المشهور (٢) . غير أن بعض المؤرخين يشذ عن ذلك ، مثل : السبكي ، فيذكر أنه توفي في شهر رمضان من السنة (٣) . وأبو شامة يذكر أنه توفي في شعبان سنة ٦٣١ هـ (٤) .

مؤلفاته :

سبق أن ذكرنا أن ابن الأثير اتجه الوجهة التاريخية في حياته العلمية . ونرجع السبب في هذا إلى ما كان يسمعه من أبيه في شبابه من أخبار الزنكيين ، حيث يذكر في مقدمة كتابه « التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية » ، أن والده كان يحدثه عن أخبار الموصل وملوكها من بني زنكي ، وما نلاحظه من كثرة النقل عن والده في هذا الكتاب ، ولا شك أن القصص التاريخية قد استهواه ، فأكب على قراءة كتب التاريخ ، حتى إذا بلغ المرحلة التي يجب عليه فيها أن يحدد اتجاهه العلمي ، اختار التخصص في علم التاريخ والتأليف فيه ، يدلنا على هذا ، مؤلفاته التي تركها في المكتبة الإسلامية ، فبالرغم من أنه بلغ درجة الإمامة في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به ، كما يقول ابن خلكان (٥) ، فإنه لم يعن بالتأليف في علم الحديث ، أو في غيره من العلوم التي درسها ، بينما مؤلفاته المعروفة لدينا كلها في التاريخ .

يقول في مقدمة كتابه « السكامل في التاريخ » : « أما بعد . فإنني لم أزل محبا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها ، مؤثراً للاطلاع على الجلى من حوادثها وخافياً ، مائلاً إلى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاويها . . . » . فابن الأثير بصريح بجنبه للتاريخ ، وميله إلى المعرفة ، وهذا ما حداه إلى الاتجاه الوجهة التاريخية .

ترك ابن الأثير في المكتبة التاريخية الإسلامية أربع كتب ، هي :

١ — اللباب في تهذيب الأنساب .

٢ — أسد الغابة في معرفة الصحابة .

٣ — السكامل في التاريخ .

٤ — التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل) .

ومن أسماء هذه الكتب ، نرى أن ابن الأثير قد اهتم بالتاريخ بفروعه المختلفة ، اهتم بالتاريخ العام

(٢) ويحدد ابن العلاء الحنبلي في شذرات الذهب ، ج ٥ /

(٣) طبقات الشافعية ، ج ٥ / ص ١٢٧ .

(٥) ابن خلكان ج ١ / ص ٤٣٨ .

(١) شذرات الذهب ، ج ٥ / ص ١٣٧ .

ص ١٣٧ ، أنه توفي في الخامس والعشرين من الشهر .

(٤) الذيل على الروضتين ، ص ١٦٢ .

الممثل في « الكامل في التاريخ » ، وبالتراجم الممثل في « أسد الغابة » ، وبالأنساب الممثل في « اللباب » .
كذلك اهتم بالتاريخ الخاص ، فأرخ لإحدى الأسر الحاكمة في الاسلام ، وهي أسرة بني زنبكي في كتاب
« التاريخ الباهر » ، فجمع بذلك علم التاريخ كله ، فأحسن فيه وأجاد ، وحاز ثقة من جاء بعده من
المؤرخين القدامى ، ومن المهتمين بالدراسات التاريخية الإسلامية من المحدثين .

ولابن الأثير كتاب آخر لا يمت إلى التاريخ بصلة ، عنوانه « تحفة العجائب وطرفة العرائب » (١)
وأحسب أن ابن الأثير أراد أن يرفه عن نفسه بتأليفه هذا الكتاب ، فجمع فيه ما استرعى انتباهه من
قراءاته المختلفة . يقول في مقدمة الكتاب إنه ذكر فيه « ما أظهرته الحكمة الإلهية ، وما أبدعته القدرة
الربانية من عجائب الخلق ، وغرائب الموجودات ، وطرزتها من ملح الأجناد (الأخبار) »
ونوادر الأشعار .

اللباب في تهذيب الأنساب :

كتاب « الأنساب » الذي تهذبه ابن الأثير ، هو لأبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني
المروزي ، من رجال القرن السادس ، فقد توفي سنة ٥١٠ . فقام ابن الأثير على تهذيبه واختصاره ،
وقد ذكر سبب إقدامه على هذا العمل في مقدمة الكتاب ، فقال بعد أن مدح الكتاب وأشاد بالسمعاني
وعمله ، أن السمعاني « قد أطل واستقصى حتى خرج عن حد الأنساب وصار بالتواريخ أشبه ، ومع
ذلك ففيه أوهام » فشرع هو في « اختصار الكتاب والتنبيه على ما فيه من غلط وسهو » . ثم ذكر
بمجهودده وعمله في التهذيب بالتفصيل .

أسد الغابة في معرفة الصحابة :

وهذا الكتاب ، كما يدل عليه عنوانه ، تراجم للصحابة والصحابييات الذين صحبوا النبي في حياته .
وقد ذكر في مقدمة الكتاب سبب تأليفه ، فقال : إنه لم يعجبه من ترجم للصحابة غير أبي عبد الله
ابن منده الأصفهاني ، وأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، والأمام أبي عمر بن عبد البر القرطبي ،
غير أن كلا منهم سلك طريقا يختلف عن الآخر ، وذكر بعضهم أسماء لم يذكرها صاحبه ، فرأى أن
يجمع بين هذه الكتب وأن يضيف إليها ما شذ من كتاب أبي علي الغساني ، الذي استدرك فيه على كتاب
ابن عبد البر . ثم ذكر طريقته في الجمع واستدراكاته في مقدمة طويلة .

الطامل في التاريخ :

عن طريق هذا الكتاب نال ابن الأثير شهرته كمؤرخ من مؤرخي القرن السادس باعتبار مولده

(١) مخطوط بدار السكتب المصرية ، تحت رقم : ٤٩٩ جغرافيا .

وباعتبار مدة نصف القرن الذى عاشه فيه ، ومن رجال القرن السابع باعتبار وفاته وباعتبار مدة ثلث القرن الذى عاشه فيه . والواقع أن ابن الأثير قد أحسن فى تأليف هذا الكتاب ، فقد جمع فيه أخبار العالم الإسلامى شرقه وغربه وما بينهما ، وهذا ما لم يسبقه إليه أحد .

يقول ابن الأثير فى مقدمة كتابه ، إن من أسباب تأليفه الكتاب ، أنه وجد من سبقه من المؤرخين ، أن « الشرق منهم قد أخل بذكر أخبار الغرب ، والغربى قد أهمل أحوال الشرق ، فكان الطالب إذا أراد أن يطالع تاريخا احتاج إلى مجلدات كثيرة وكتب متعددة ، مع ما فيها من الإخلال والإملا . فلما رأيت الأمر كذلك ، شرعت فى تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما ، ليسكون تذكرة لى أراجعه خوف النسيان ، وآتى فيه بالحوادث والكائنات ، من أول الزمان متتابعة يتلو بعضها بعضا إلى وقتنا هذا ، أى حتى سنة ٦٢٨ .

التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية :

وهذا الكتاب الذى أعدناه للنشر ، ألفه ابن الأثير عن دولة أقامتها أسرة من الأسرات الحاكمة فى الإسلام ، هى أسرة عماد الدين زنكى بن قسيم الدولة آقسنقر الحاجب ، والتى يطلق عليها ابن الأثير ، « الدولة الأتابكية » ، نسبة إلى لقب « أتابك » (١) الذى أطلق على عماد الدين — مؤسس الدولة — بعد أن ولى إمرة الموصل سنة ٥٢١ .

قدم ابن الأثير كتابه بمقدمة أظهر فيها علاقة أسرته الوثيقة بملوك الموصل ، ولخص فيها جهادهم للصليبيين ، ثم ذكر سبب تأليفه الكتاب .

ثم بدأ بسرد أخبار الدولة فبدأ بقسيم الدولة آقسنقر — والد عماد الدين زنكى — فذكر صلته بالسلطان السلجوقى ملكشاه ، وولايته على حلب من قبله ، واشترأك فى مشاكل الأسرة السلجوقية بسبب التنافس على السلطنة بعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ . ثم ذكر مقتل قسيم الدولة سنة ٤٨٧ ، فى حرب منافسة بينه وبين تاج الدولة تغش السلجوقى صاحب دمشق . وختم ابن الأثير أخبار قسيم الدولة بترجمة له ، أظهر فيها حسن سياسته فى حلب وعدالة حكمه .

ثم تناول أخبار عماد الدين زنكى — الابن الوحيد لقسيم الدولة — منذ مقتل والده حتى وفاته سنة ٥٤١ ، فذكر رعاية أصحاب أبيه له ونشأته تحت رعايتهم ، فقد كان عماد الدين فى نحو العاشرة من عمره حين توفى أبوه . ثم استقلاله بنفسه لما أن اشتد ساعده ، والتحاقه بخدمة أمراء الموصل ، واشترأك معهم فى حروبهم المحلية وحروبهم ضد الصليبيين ، ثم انتقاله إلى خدمة السلطان محمود السلجوقى ، وولايته شحنةكية واسط والبصرة وبغداد ، ثم بعد ذلك ولايته على الموصل سنة ٥٢١ . وهنا يأخذ ابن الأثير فى تفصيل الخطوات التى اتبعها عماد الدين لتكوين دولة تحمل اسمه ، تضم بعض

(١) أنظر معنى لقب « أتابك » فيما يلى من النص ، ص / ١٨ / حاشية / ٨ .

إمارات الجزيرة والشام . كذلك ذكر الأخبار التي تشير إلى الصعوبات التي اعترضت طريقه أثناء تكوين دولته ، والتي تتمثل في الخليفة العباسي ، والسلطان السلجوقي ، وأمراء الجزيرة والشام المسلمين ، ثم الصليبيين . وقد أفاض ابن الأثير في سرد حروب عماد الدين ضد الصليبيين وجهوده في استرداد كثير من البلاد التي استولوا عليها ، سواء في الجزيرة أو في الشام .

ثم تناول ابن الأثير انقسام الدولة بعد وفاة عماد الدين سنة ٥٤١ هـ ، بين ولديه سيف الدين غازي الذي ملك الموصل والجزيرة ، ونور الدين محمود الذي استقل بحلب وتوابعها بالشام .

دون ابن الأثير أخبار سيف الدين غازي بن عماد الدين ، وكان عهد سيف الدين قصيرا (٥٤١ - ٥٤٤) ، ومن أبرز أعماله ، أنه منع خلافا خطيرا كاد أن يقع بينه وبين أخيه نور الدين . ثم إنه حافظ على أملاك الدولة بالجزيرة من الطامعين بها من أمراءها ، ثم كان له الأثر الكبير في منع سقوط دمشق في يد امبراطور الروم الذي حاصرها مع الصليبيين سنة ٥٤٣ هـ .

ثم سرد ابن الأثير أخبار قطب الدين مودود ، الذي خلف أخاه سيف الدين على الموصل (٥٤٤ - ٥٦٥) . فذكر الخلاف الذي حدث بينه وبين أخيه نور الدين بسبب مدينة سنجار والذي انتهى بالصلح بينهما . ثم ذكر مشروع سلطنة سليمان شاه السلجوقي على همدان ، وتعيين قطب الدين أتابكا له ومديرا لشؤون سلطنته وفشل هذا المشروع . كذلك سرد خبر النزاع على ملك الموصل بين ولدي قطب الدين أثناء مرضه ، وأثر نفوذ رجال الدولة في هذا النزاع ، الذي انتهى بملك ابنه سيف الدين غازي (الثاني) سنة ٥٦٥ هـ .

كذلك تناول ابن الأثير أخبار نور الدين محمود (٥٤١ - ٥٦٩) . فذكر استيلاءه على حلب بعد وفاة أبيه ، وجهاده للصليبيين . واسترداده بعض البلاد الإسلامية منهم . كذلك ذكر استيلاءه على دمشق سنة ٥٤٩ هـ ، ومصر سنة ٥٦٤ هـ ، والموصل سنة ٥٦٦ هـ . كذلك تحدث عن الخلاف الذي نشب بين نور الدين وصلاح الدين بعد أن حل صلاح الدين محل عمه أسد الدين شيركوه في مصر ، لاختلاف وجهات النظر بينهما في حرب الصليبيين .

ثم ذكر ابن الأثير أزمة الاستخلاف التي حدثت في البيت الزنكي بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ . بسبب صغر سن الصالح إسماعيل ، الابن الوحيد لنور الدين ، والتي آلت الدولة بسببها إلى صلاح الدين الأيوبي . ماعدا الموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر .

وفي الفترة ما بين سنتي ٥٦٩ و ٦٠٧ هـ ، أرخ ابن الأثير لملوك الموصل تأريحا مختصرا ، ذكر فيه أخبار سيف الدين غازي (الثاني) بن قطب الدين مودود الذي استمر حكمه حتى سنة ٥٧٦ هـ ؛ وأخبار عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود الذي خلف أخاه سيف الدين ، وقد ظل يحكم الموصل حتى وفاته سنة ٥٨٩ هـ وكذلك أخبار نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود ، ودام حكمه إلى سنة ٦٠٧ هـ .

فدون أخباراً قليلة عن علاقتهم بصلاح الدين وخلفائه ؛ وكانت علاقة تتأرجح بين الخصومة والود .
ثم ذكر ملك القاهر مسعود بن نور الدين أرسلان شاه سنة ٦٠٧ .

وختم ابن الأثير أخبار كل ملك من ملوك الأسرة الزنكية بترجمة له ، فصل فيها أخلاقه ومآثره ،
وما أفادته الموصل في عهده .

كذلك ترجم ابن الأثير لبعض كبار رجال الدولة من الوزراء والقواد ؛ وأبرز في هذه التراجم ،
أثر بعضهم في نشأة الدولة وارتقائها ، وأثر بعضهم الآخر في إضعافها .

ملاحظات على « الباهر » :

وهناك بعض ملاحظات على ابن الأثير في كتابه « الباهر » .

فقد ترجم لبعض الشخصيات التي لا تمس موضوع الكتاب إلا مساً خفيفاً ، مثل ترجمته للطغرائي ،
ونظام الملك ، وسليمان بن قتيلش ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان .

ولم يدون ابن الأثير أخبار الصراع بين الزنكيين — خلفاء نور الدين — وبين صلاح الدين وخلفائه ،
وسبب ذلك أن أخبار هذا الصراع ، تظهر ضعف الزنكيين أمام صلاح الدين وخلفائه ، وهزائمهم في
حروبهم معهم ، كذلك تثبت أخبار الصراع ، خضوع الزنكيين لصلاح الدين وخلفائه خضوعاً تاماً ،
فتجنب ابن الأثير إثبات هذه الأخبار التي تجرح أصحابها ، لئلا يخذش كبرياء الملك القاهر الذي ألف له
الكتاب ، واكتفى بإحالة القارئ إلى كتابه الكبير « السكامل في التاريخ » ، ويسميه في « الباهر » ،
« المستقصى في التاريخ » .

كذلك خرج في بعض الحوادث على مبدأ الحيدة الذي اتبعه في كتابه الآخر ، ففي « السكامل » ،
فسر هذه الحوادث من واقعها وعلى وجهها الصحيح ، بينما فسرهما في « الباهر » تفسيراً مغالفاً ، لإرضاء
للملك القاهر . مثال ذلك ، الخبر الذي ذكره في « الباهر » ، عن قصد ديبس بن صدقة بغداد سنة ٥١٦ ،
وخبر حصار عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود — جد الملك القاهر — جزيرة ابن عمر . وخبر
حصار الملك العادل الأيوبي مدينة سنجار سنة ٦٠٦ .

وضغط ابن الأثير بعض الأخبار في « الباهر » ، ضغطاً كبيراً ، فجاءت قليلة التفاصيل ، وإن كان
قد حرص على إحالة القارئ إلى كتابه « السكامل » ، للإستزادة من تفاصيل الخبر .

والملاحظة الأخيرة ، وجود اختلافات في تواريخ بعض الحوادث والأخبار بين « الباهر » ،
و « السكامل » ، أشيرنا إليها في حواشي المخطوط .

وابن الأثير ، وإن كان ذكر أخبار الزنكيين ورجال دولتهم في كتابه الكبير « الكامل » . إلا أنه في كتابه « الباهر » قد أمدنا بمعلومات قيمة لم يذكرها في « الكامل » ، فهو قد أعطانا معلومات عن مصير عماد الدين بعد مقتل والده وتنقله في خدمة أمراء الموصل واشتراكه معهم في حروبهم منذ صغره ، ومن ذلك عرفنا سر نجاحه الحربى والمدنى . كذلك أمدنا بمعلومات عن كيفية نجاحه في تكوين دولته وسياسته الحازمة في حكمه .

كذلك أمدنا بمعلومات قيمة عن حياة نور الدين الخاصة والعامة لم يذكرها في « الكامل » ، بحيث أصبحت شخصية نور الدين واضحة المعالم للباحث والدارس .

وقد تخللت تراجم الزنكيين وكبار رجال دولتهم معلومات ، لم ترد في « الكامل » ، عن النظم الزنكية وعن جهودهم في تحسين أحوال الموصل الداخلية ، في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والعلمية .

كذلك أبدع ابن الأثير في وصفه المعارك التي دارت بين الصليبيين وبين كل من عماد الدين ونور الدين وإبراز الجهود الضخمة التي كان يبذلها كل من الزنكيين والصليبيين من ناحية الاستعداد للعمليات الحربية ، واستماتة كل من الفريقين في القتال . والكتاب بعد ذلك ، يعد مكلا لما ينقص من أخبار الزنكيين في كتاب « الكامل في التاريخ » .

أسلوب ابن الأثير في « الباهر » :

كتب ابن الأثير كتابه « الكامل » بأسلوب المؤرخ الذى تهمة المادة التاريخية أكثر مما تهمة البلاغة والأساليب البيانية ، فهو في « الكامل » يسرد حقائق بعبارات موجزة ؛ بينما جمع في « الباهر » بين المؤرخ والأديب فاستعمل السجع بتوسع كبير . وذلك لى يتيسر له الوصف المؤثر في المناسبات الخطيرة ، مثل وصفه المعارك التي دارت بين الصليبيين وبين عماد الدين ونور الدين ، وغير ذلك من المناسبات ، فمنجد مثلاً أنه افتتح كتابه بمقدمة مسجوعة ، وختمه أيضاً بخاتمة مسجوعة .

ويستشهد ابن الأثير بالشعر في كثير من المناسبات وللإشادة بالزنكيين ، بعضه لشعراء معاصرين للزنكيين مثل : محمد بن نصر بن صغير بن عبد الله القيسرانى ، وسعد بن محمد المعروف بالحيص بيص ، وأحمد بن منير الطرابلسى . وبعضه لشعراء غير معاصرين كأبى تمام ، كذلك استشهد بأبيات من الشعر لم نستطع الاهتداء إلى أصحابها .

كذلك يضرب ابن الأثير الأمثال في بعض المناسبات ، وذلك عند سخريته بالصليبيين وهزائمهم من المسلمين . ففي سنة ٥٦٥ حاصر الصليبيون دمياط للاستيلاء على مصر ؛ ولكنهم هزموا هزيمة منكرة ، ورجعوا إلى بلادهم ، فيسخر منهم ابن الأثير ، فيقول : « وهذا موضع المثل ، ذهب النعام تطلب قرنين فعاتت بلا أذنين » . وفى سنة ٥٦٧ ، استولى الصليبيون على مركبين تجارين للمسلمين برغم

الهدنة التي بينهم وبين نور الدين ، فطلب نور الدين منهم ردهما ، فأبوا ، فأغار نور الدين على حصن عرقة — وهو لهم — وخربه ، واستولى منهم على « صافيتا » و « العريمة » ، عندئذ أعادوا المركبين وطلبوا من نور الدين تجديد الهدنة ، فقال ابن الأثير ساخرا بهم : « فكانوا في ذلك كما يقال : اليهودى لا يعطى الجزية حتى يلطم . وكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن ، فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها » .

مصادره :

ذكر ابن الأثير في مقدمة الكتاب ، أنه اعتمد في مادته على ما سمعه من والده ، وقد أكثر من الرواية عنه . غير أنه ذكر مصادر أخرى رجع إليها — وإن كان رجوعه إليها في مناسبات قليلة — مثل : « تاريخ دمشق » لابن عساكر (١) ، « وأخبار حلب » لابن العديم (٢) ، والعماد الكاتب من بعض مصنفاته (٣) . كذلك نقل عن بعض الشخصيات المعاصرة للحوادث ذكر أسماء بعضها وأهمل ذكر بعضها الآخر فضلا عن أن مادة الكتاب ، هي نفس مادة كتاب « الكامل » مع فارق واحد هو فارق الأسلوب الذي تحدثنا عنه من قبل (٤) .

المخطوطة :

مخطوطة « التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية » نسخة وحيدة ليس لها أخت ، وهي موجودة بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٨١٨ من المجموعة العربية بعنوان : « تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل » . وقد أحضرت النسخة ميكرو فيلم من باريس ، فوجدت أن المخطوطة لا تحمل عنواناً ، وقد جاء عنوانها عند مؤلفها ابن الأثير — في كتابه الآخر « الكامل في التاريخ » ، في عدة مواضع منه ، هكذا : « التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية » ، « الباهر » ، « الباهر في أخبار دولتهم » (٥) ، فاعتمدنا نحن العنوان الكامل ، الذي ظهرت به الطبعة التي بين يدي القارئ . كذلك لا تحمل المخطوطة اسم المؤلف ، غير أن هذه الصعوبة أمكن التغلب عليها حيث يوجد بالمخطوطة ما يؤكد إلى أن مؤلفها هو ابن الأثير ، حيث يشير في أماكن منها إلى والده وإلى أخيه مجد الدين أبي السعادات ، وإلى كتابه « الكامل في التاريخ » .

وتقع المخطوطة في ٤٦١ صفحة ، وتحتوي كل صفحة على ثلاثة عشر سطرا ، ويختلف عدد الكلمات في السطور ، ما بين سبع وعشرة كلمات .

(١) س/٨٩ . (من النص) . (٢) ص/١٢٦ . (من النص) . (٣) ص/١٧٤ . (من النص) .
(٤) يعد المحقق بحثا مستفيضا عن ابن الأثير ، مع دراسة مؤلفاته ومنها « الكامل في التاريخ » وتحديد مصادره .
(٥) الكامل في التاريخ ، ص/٨ / ٣٠٩ / ٣١٠ ، ٩ / ص / ١٣ / ١٤ / ١٢٥ .

والخط الذى كتب به نسخ ظاهر جميل فى مجموعه .

والأخطاء الإملائية كثيرة ، وأكثر منها ، الأخطاء الناتجة عن عدم دقة الناسخ فى تنقيط الحروف .

ولا يعترف الناسخ بحرف « الألف » لفعل الجمع ، مثل : ضربوا ، حاصروا ، نزلوا ، إلا فى حالات قليلة جداً ، فأضفناها نحن ، ولم نشر إليها فى الحواشى لكثرتها .

وحرف « التاء » له عند الناسخ أمر عجيب ، فهو يصر على كتابتها مفتوحة فى حين يجب كتابتها مربوطة ، مثل : مدينة ، فيكتب اللفظ : مدينه . ويكتبها مربوطة ، فى حين يجب كتابتها مفتوحة ، مثل : (نهر) الفرات ، فيكتب اللفظ : الفراءه .

كذلك يطيب له أحياناً أن يقلب حرف الضاد ، ظاء ، مثل : غضنفر ، فيكتب اللفظ : غظنفر . وأن يقلب حرف الظاء إلى حرف الضاد ، مثل : المظفر ، فيكتب اللفظ : المضفر .

كذلك اتبع طريقة عصره وعصر من سبقه فى إهمال إثبات الهمزة ، سواء كانت فى أول الكلمة أو وسطها أو فى آخرها ، مثل : تتضاءل ، استئصال ، دماءنا ، أعداء . فيكتبها : تتضال ، استيصال ، دمانا ، أعدا . وهو إذ يهمل الهمزة فى موضعها ، فإنه يضعها فى غير محلها ، مثل : بنو ، لا . فيكتبها : بنوء ، لاء .

فقمنا نحن على تهذيب النص من هذه العيوب ، ولكن لم نشر إليها كلها فى الحواشى لكثرتها بحيث إذا أشرنا إليها كلها ترحم النص .

كذلك لم يوحد الناسخ الرسم الهجائى لأسماء بعض الأعلام والأماكن ، مثل : بزآن ، سلجق ، كربوغا ، الرها . فيكتبها أيضاً : بوزان ، سلجوق ، كربوقا ، الرها (بدون همزة) وقد أثبتنا الأسماء كما هى فى النص ، لأن المؤرخين القدامى ، استعملوا كلا الرسمين

وقد يسقط من الناسخ لفظ عند النسخ ثم يتنبه له فيكتبه بين السطور بخط دقيق ، أو فى هامش الصفحة ، وقد يخطئ فى كتابة كلمة فيمحوها ويكتبها صحيحة .

وفى المخطوطة بياض فى أماكن قليلة متفرقة منها ، وقد أشرنا إليه فى حواشى النص . ولا نستطيع الجزم عما إذا كان البياض من الناسخ بسبب عدم استطاعته قراءة ما فى مكانها ، أو أنه من ابن الأثير نفسه . وقد استطعنا ملء بعض هذا البياض ، ولم نوفق إلى بعضه الآخر ، برغم رجوعنا إلى مراجع أخرى .

وقد رجعنا فى تقويم النص ، إلى المراجع التى نقل أصحابها من النص الاصل الذى لم نعر عليه بعد ، مثل : « الروضتين فى أخبار الدولتين » ، لأبى شامة ، « وفيات الأعيان » ، لابن خلكان ، « الكواكب الدرية فى السيرة النورية » ، لابن قاضى شهاب . غير أننا اعتمدنا اعتماداً تاماً على أبى شامة ، لأنه أكثر

من غيره نقلا من « النص » ، ونقوله منه أطول من غيره . وقد لاحظنا أن هناك اختلافا كبيرا بين ألفاظ مخطوطنا وبين ألفاظ أبي شامة وابن قاضي شبهة ، مما يدل على أن الناسخ تصرفا تصرفا كبيرا أثناء نسخه ، ولو رمنا استبدال ألفاظ مخطوطنا بما في « الروضتين » و « الكواكب » لأصبح لدينا نسخة تختلف كثيراً عن النسخة الحالية ، وقرينة جدا من نسخة ابن الأثير الأصلية .

وقد احتاج « النص » ، لإضافة بعض الألفاظ وذلك لتقويم بعض العبارات ، فأضفناها من المراجع التي نقلت عن « النص » ، الأصلي أو من نسخة « دى سلاين » — التي سوف نتحدث عنها فيما بعد — أو اجتهداً منا ، ووضعنا اللفظ بين الحاصرتين [] ، للدلالة على أنه إضافة ، وأشرنا في الحاشية إلى المرجع الذي أضفنا اللفظ منه .

أما تحقيق الأخبار ، فقد رجعنا إلى كتاب المؤلف الآخر « الكامل في التاريخ » ، لأن مادة الأتابكة — كما ذكرنا من قبل — هي نفس مادة « الكامل » ، مع الاستعانة بالمراجع التي أشرنا إليها في الحواشي .

التاريخ الباهر والطبعة الفرنسية :

اهتم الفرنسيون بنشر المخطوطات العربية التي أرخت للحروب الصليبية في مجموعة أطلقوا عليها اسم : مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية الشرقيين .

Recueil Des Historiens Des Croisades. Historiens Orientaux.

وخطة المجموعة في النشر ، هي طبع النص العربي ، مع ترجمة له باللغة الفرنسية . وقد طبع « التاريخ الباهر » في هذه المجموعة — وهو الجزء الثاني منها — بعنوان : « تاريخ دولة الأتابكة ملوك الموصل » . وقام على إخراجه المستشرق الفرنسي « دى سلاين » .

وقد قمنا نحن على إعداده للنشر مرة أخرى لأسباب ، أهمها :

أولاً : ندرة الكتاب المطبوع في المجموعة الفرنسية . فقد طبع الكتاب في باريس سنة ١٨٧٦ ، أي منذ حوالي قرن من الزمان ، ولا يوجد منه سوى نسخ قليلة جداً في دار الكتب المصرية والمكتبة العامة لجامعة القاهرة ، فهو لذلك قليل التداول بين المهتمين بدراسة الأسرة الزنكية (أو الأتابكية كما يسميها ابن الأثير) .

ثانياً : بالرغم من أن المستشرق الفرنسي « دى سلاين » بذل مجهوداً لا بأس به في تهذيب « النص » وتصويب ألفاظه وتحقيق أخباره ، فإننا لاحظنا — عند مقابلة نسخته على النص المخطوط — ما يلي :

١ — خطأ « دى سلاين » ، ألفاظاً صحيحة في النص ، واستبدلها بألفاظ أخرى ، بعضها بعيدة عن المعنى المقصود في العبارة ، وبعضها الآخر لا لضرورة لتغييرها ، مثال ذلك :

- تتضام : متصل . فى عبارة النص (١) : وحاله من القرب تتضام (فى النص تتضال) دونها درجات المقربين (ص/١) .
- شكواه : شكاوته . فى عبارة النص : فلقيه صبي ديلى مستغيثا به فقربه منه لسمع شكواه فقتله (ص/٩) .
- توضاً : توضوا . فى عبارة النص : وكان من جملة عباداته أنه لم يُحدث إلا توضاً (ص/٩) .
- وعزالتك : وأزمتك . فى عبارة النص : وإن كنت وزيرى فاسلك ما يسلكه الوزراء وإلا أطبقت دواتك وعزلتك (ص/١٠) .
- المصانع : الصنائع . فى عبارة النص : وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البركثيرا ، منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة (ص/١١) . (والمصانع هى ما يخزن فيها الماء) .
- طرف : طريق . فى عبارة النص : وهو الذى بنى منارة القرون فى طرف البرما يل الكوفة (ص/١١) .
- وأرضت : وعرضت . فى عبارة النص عن وفاة السلطان ملكشاه : ولم يجلس أصحابه للعزاء سواه ، وأرضت زوجته العسكر وحلقته لولدها محمود (ص/١١) .
- ليملكه : ليملكها . فى عبارة النص : وكان جاولى قد عبر إلى الشام ليملكه . (ص/١٧) .
- فبايعه : فبايعوه . فى عبارة النص : فبايعه أولاد الخلفاء والأمراء . (ص/٢٢) .
- فليكن : فليكون . فى عبارة النص : إذا أراد الإنسان أن يضع على رأسه حجرا ، فليكن من جبل كبير (ص/٢٧) .
- أمثالها : أمثالهم . فى عبارة النص : والتركان تقول فى أمثالها . (ص/٢٧) .
- نازها : بان لها . فى عبارة النص : فلما نازها الشهيد سارحسام الدين (ص/٣٦) .

- الحصن : القصر . فى عبارة النص : وكان هذا الحصن أضر شىء على أهل حلب (ص/ ٣٩)
- ابتغى : يبتغى . فى عبارة النص : فلم ينج من المعركة إلا من اتخذ الليل جملاً ، أو ابتغى بالاختفاء بين القتلى مؤثلاً . (ص / ٤١) .
- الهواء : الهوى . فى عبارة النص . وأكثر من إرسال السهام وحجارة المجانيق حتى كادت تحجب الهواء . (فى النص أيضا : الهوى) (ص / ٦٠) .
- بأدى المعالم : يا ذى المعلم . فى بيت الشعر : بأدى المعالم أطرقت شرفاته
إطراق منجذب القرينة عان (ص/ ٦٠)
- الخدمة : خدمتك . فى عبارة النص : أننى بلغنى أن ولدى فارق الخدمة (ص / ٦٥) .
- شوهدت : شاهدت . فى عبارة النص : فلوشوهدت وقعاته لم تذكرو قعة الهباه (ص/ ٧٥)
- تسلطهم : تسلطهم . فى عبارة النص : لانه رأى من تسلطهم على السلطان (ص/ ١١٥)
- دبر ، وقدر : دبروا ، وقدروا . فى عبارة النص : وكان الأمر على مادبر ، والحال على ما قدر (ص/ ١٢٤)
- الشهادة : العبادة . فى عبارة النص : وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى . (ص/ ١٢٧)
- لتنقذهن : لتنقذهن . فى عبارة النص : هذه شعور نسائى من قصرى يستغن بك لتنقذهن من الفرنج . (ص / ١٣٨) .
- الخشوع : الخضوع . فى بيت الشعر : جمع الشجاعة والخشوع لربه
ما أحسن المحراب فى المحراب (ص / ١٦٥)
- للفسوق : للفسق . فى عبارة النص : وللتقى شروق ، وما للفسوق سوق (ص/ ١٧٤)
- سألفه : سابقة . فى عبارة النص : وكان رجلاً كبيراً له خدمة سألفه (ص/ ١٨٦)
- فلم يعلم : فلم علم . فى عبارة النص : فبلغ الخبر إلى مجاهد قايماز فلم يعلم بخدومه نور الدين الخبر (ص / ١٩١)
- أودعت : أوضعت . فى عبارة النص : وقد أودعت الكتب غدراتهم فهى باقية إلى يوم القيامة . (ص / ١٩٥)

لداته : لذاته
أشغال : الاشغال

في بيت الشعر : ساد الملوكة لسبع عشرة حجة
ولداته إذ ذاك في أشغال (ص / ٢٠٢)

سجره ونجره : شجرة ونجره . في عبارته النص : ولم يزل في حجرة ، وبين سجره ونجره . (ص / ٢٠٢)

هذا قليل من كثير من ألفاظ النص التي استبدلها « دى سلين » بغيرها من غير ضرورة تدعو لذلك ، ولم نشأ أن نذكرها في حواشي النص لئلا نثقل على المتن ، وإنما اكتفينا بإيراد الألفاظ التي أثبتناها هنا على سبيل التمثيل فقط .

٢ — وقف « دى سلين » في ضبط بيت الشعر :

تلك المسكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا
فقد ورد في النص ثراً ، هكذا : هذه المسكارم لافعتا ب لين شبا بما فعادوا بعد وأبوالا . فأثبت في طبعته ثراً وبأخطائه (ص / ١١٨) .

وكذلك وقف في ضبط البيت :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
وقد ورد الشطر الأول من البيت في « النص » : وليس الله بمستنكر . فأثبت « دى سلين » :
كما ورد في النص . (ص / ٢٠٤) .

كذلك حرف البيت :

فاسم الغمام لديه وهو كهوور آل وأسماء البحار جداول
فأثبت الشطر الأول من البيت : . قسم الغمام لديه وهو كهوور (ص / ١٥٠) .

٣ — أسقط « دى سلين » بعض المعلومات من بعض الأخبار ، كذلك أسقط نسب الخليفة المستظهر بالله كله ، وقد أشار هو إلى أنه أسقطه عن قصد ، لأنه لا يتصل بالموضوع الذي يهمه ، وهو أخبار الحروب الصليبية (١) . كذلك أسقط عن عمد خبر يتعلق بتقسيم الدولة آقسنقر البرسقي (٢) .

أما العبارات التي سقطت من طبعة « دى سلين » ، سواء كان عن عمد أم عن غير عمد :

١ — « وقالوا [له] إنه يأخذ أموالك فيتصرف بها فلم يمكنه أن يغير عليه » (٣) .

٢ — « يؤتى الملك من يشاء وينزعه من يشاء يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (١) .

٣ — « وكان له سردار بالموصل يكون معه مفاتيح داره فبالغه أن ولد السردار قد سرق » . فأسقط من هذه العبارة كلمات حرفت الخبر ، فجاءت : « وكان له سردار قد سرق » (٢) .

٤ — كذلك خطأ « دى سلين » بعض التواريخ والمعلومات رغم صحتها في النص :

(١) ورد في « النص » ، أن صاحب غزنة من أولاد محمود بن سبكتكين قتل أرسلان بيغو بن سليجق . فأبدل « دى سلين » اسم محمود ، به محمد (٣) . وهذا خطأ ، لأنه لم يحكم غزنة أحد من أولاد محمد ، وكان الحكم فيها لعقب غيره .

(ب) ورد في « النص » أن مسير عز الدين مسعود لحصر جزيرة ابن عمر كان في سنة ٥٨٧ هـ ، فأبدل « دى سلين » السنة ، بسنة ٥٨١ هـ (٤) .

ورد في « النص » ، في خبر بني منقذ أصحاب شيزر ، « فأولد أبو سلامة مرشد عدة أولاد ذكور » فأبدل « دى سلين » اسم ، أبو سلامة ، بأبي أسامة (٥) .

وبرغم هذه الملاحظات ، فإننا لا نعني أن محمود « دى سلين » كان ضئيلا ، وإنما بذل مجهودا يشكر عليه نجاح في بعضه ، وفشل في بعضه الآخر .

وأود هنا أن أقرر ، أن « دى سلين » وفر على وقتنا كان لابد أن أنفقه في البحث عن معلومات عن ناسخ المخطوطة ، فإن الناسخ لم يذكر اسمه ولا تاريخ نسخه للمخطوطة ، كذلك دلت على المراجع التي نقلت عن « الباهر » ، والتي لابد للرجوع إليها لتهديب ألفاظ النص ، وتوضيح ما فيه من غموض .

أما ناسخ المخطوطة ، فقد قال عنه « دى سلين » إنه مسيحي ماروني ، ويؤيد « دى سلين » مسيحية الناسخ ، بأسقاطه عبارات التي المتصلة بالعقائد الإسلامية ، ويعني « دى سلين » ما أسقطه الناسخ من التصليية على النبي فترك مكانها بيضا (٦) . واستدل الناشر ، على أن الناسخ ، ماروني ، من جمال خطه « الذي فيه خصائص الانتظام والأناقة التي هي منميزات الخط الماروني » . ثم يذكر الناشر ، أن الناسخ كان من رجال أواخر القرن السابع عشر الميلادي . ونحن لا نستطيع معارضة « دى سلين » أو تأييده فيما ذكره عن الناسخ ، إلا في حالة واحدة ، وهي مسيحيته ، فإننا نؤيده في هذا ، لإسقاطه التصليية على النبي . أما ما عدا هذا فإننا نقف منه موقف المحايدين .

ويذكر « دى سلين » . عن الناسخ ، إنه يجمل قواعد اللغة العربية ، ولا يفهم شيئا في الشعر والنثر . كذلك لا يفهم الأسلوب الصحيح للغة ، بالإضافة إلى أنه لم يكن على حظ من التعليم يمكنه من فهم

(١) ص/١٣٧ (من النص) . (٢) ص/١٩٩ (من النص) . (٣) ص/٩ (من النص) . (٤) ص/١٨٤ (من النص) . (٥) ص/١١٠ (من النص) . (٦) ص/١ (من النص) .

نص المخطوطة فهما تاما ، لذلك ارتكب كثيرا من الأخطاء عندما كان ينسخ القطع التي كان لا يفهمها ، كذلك حذف بعض الكلمات وكثيرا من العبارات من النص ، وأخطأ في أسماء الأماكن الواردة في النص ، فبعض هذه الأخطاء نتيجة الجهل ، وبعضها الآخر نتيجة الإهمال . وقد بالغ « دى سلاين » في تجريح الناسخ ، ونحن قد أشرنا إلى أخطائه في حواشي النص . وهي أخطاء معظمها ناتج عن عدم دقته في تنقيط الحروف .

ثم يذكر الناشر عمله في إخراج النص ، والمجهود الذي بذله في تهذيبه وتحقيقه ، فيقول ، إنه لمعرفته بخصائص قواعد اللغة العربية ، ولدراسته الأساليب الصحيحة لكبار النashرين ، ولمعرفته بالشعر استطاع أن يعالج أخطاء النص . وهذه مبالغة من الناشر في تقدير نفسه ، وما ذكرناه عن تصرفه بألفاظ النص ، يدل على عدم تمكنه من اللغة بالمقدار الذي يقدر به نفسه ، بالإضافة ، إلى أنه هو نفسه يقرر أنه وقف عاجزا عن معالجة بعض ألفاظ النص الغامضة أو الخاطئة ، فأثبتها كما هي ووضعها بين حاصرتين .

ثم يذكر الناشر المراجع التي رجع إليها في تنقيح النص ، وهي :

- ١ — الروضتين في أخبار الدولتين ، لأبي شامة .
- ٢ — الكامل في التاريخ ، لابن الأثير .
- ٣ — تاريخ ابن خلدون . (وفيات الأعيان) .
- ٤ — الموسوعات الجغرافية وكتابات المؤرخين العرب . (من غير تحديد) .

المخَطوط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ذي النعم الباهية والآية الظاهرة والمنن
الزاهر الذي امن على عباده وتليك المملوك وتامير
الامراء فجعلهم شبيهاً لك القوي عن الضعيف والخذ
للشرف من الشرف نخسده عبيد ما انعم فاجزل
واحسن فافضل واصلي علي

أما بعد فإني غفرنا

من انعام هذه الدولة العزيرة القاهرة والأيام المتأبكية
الزاهرة وشملنا من احسانها وانال الشان عز سلطانها
فقد اشتهر خبره وطاب مخبره وطارد كنه في الافاق
وتجدت به الرفاق لم يخل من بين يديها وبغتها
توليها ودرجته في العلا يرفع نصبنا اليها وعتبة

اختيال العروس ورفلت من صايبا رأيد في احسن ليوس وانقحر
به دهنه على سائر الدهور

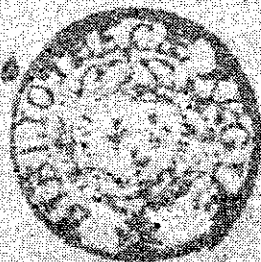
اذا نحن اثينا عليك بصلح فانك كانتى وفوق الذي ينبغي
وان جرت الالفاظ يوما بوجه لترك انسانا فانك الذي تعني
هذه نبد ليبي من محاسنه يليق بهذا المختصر وقطره من بحر
مكارمه تنسب هذا المختصر لو اوردتها مفضلته لحننا عما
اعتمدناه وتركنا ما قصدناه ونحن انشأنا الله تعالى فاني
على كثير من ذلك في المستقصى في التاريخ وانتبه
الموفق للصواب وهو حسينا ونفسه

الوكيد والحمد لله

ولي علي سيدنا محمد وآله

وصحبه الابرار وسلم

تليما كبيرا



الإسلام والمسلمين وما حفظ من ثغورهم بجلادهم ، وما صب (١) على الفرنج من العذاب بأيديهم (٢) واستنقذه من ممالكهم بجهادهم ، وأخلد محاسن أعمالهم على مر الدهور ، وتعاقب السنين والشهور ، جزاء لإحسانهم المستمر ، وطولهم الثابت المستقر ، وكانت (٣ - أ) الأعذار تحول بيني وبين ما أومله من هذا الغرض ، والعوائق تحيل جواهر إمكانى إلى العرض . ولما استأثر الله تعالى بالمولى السعيد نور الدين — تغمده الله الكريم برضوانه ، وأسكنه فسيح جناته — وقام بالملك بعده ولده المولى المالك الملك القاهر العادل العالم المؤيد المنصور ، عز الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أبو الفتح مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر ناصر أمير المؤمنين — نسب كأن عليه من شمس الضحى نورا ، ومن فلق الصباح غمورا (٣) ، لازالت الأقدار جارية على وفق اختياره ، ومقتضى إثاره ، ولا برحت الحوادث عن جنباته الشريف مصروفة ، وأعين الكوراث عن دولته القاهرة مطروقة — وملا ذلك الدست ، وشرف ذلك الصدر ، وظهرت هذه الشمس بعد أفول ذلك البدر ، ولا غرو إذا أشبه الوالد الولد ، وقام الشبل (٣ - ب) في عزيمة (٤) الأسد :

وأنت من القوم الذين هم هم إذا زال منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب بدا كوكب يأوى إليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
وما زال منهم حيث كانت مهالك (٥) تسير المنايا حيث سارت كتابيه

وحيث كانت الحال هذه ، تجدد ذلك العزم ، وأحببت أن أجلو مناقب الموالى الملوك السعداء من آبائه عليه ، وأزف عقيلة محاسنهم إليه ، وأذكر من مشاهدتهم (٦) في نصرة الدين وذبحهم عن حوزة المسلمين ، ما انتهى إليه علمى ، وأثبتته قلبى : شعر

أخيار قوم بنوا (٧) وما نقضوا (٨) فالذكر يحيا (٩) وإن هم قبضوا
جادوا فما قصرت أكتفهم (١٠) عن غرض فى الندى ولا عرضوا
وانتهزوا فرصة التمكن إذ تصوروا أن مكثها عرض

(٤ - أ) فى دولة القاهرة الملك عز الدين عن كل من مضى عوض
قال . ليعلم قدر الله نعمة الله تعالى عنده أولا وآخرا ، ويقتدى بأفعالهم وارداً وصادراً ،

(١) بالأصل : وما صبهم . (٢) بالأصل : بما يديهم . (٣) بالأصل : عمورا . (٤) بالأصل : عريضة . (٥) بالأصل : كان مهالك . (٦) بالأصل : مشاهدتهم . (المراد فى النص ، موافقتهم فى الحروب) . (٧) بالأصل : بنو . (٨) بالأصل : نقضوا . (٩) بالأصل : يحيا . (١٠) بالأصل : أكتفهم . (والبيت مكسور فى شطره الثانى . ويمكن له بدل اللفظ : غرض ، باللفظ : غاية ، فيصح الوزن ويكون المعنى أكمل) .

وليتيقن (١) أنه لم يكن لأحد من الملوك المتقدمين والخلفاء الراشدين ، منقبة دينية ودينية (٢) وتجربة في حفظ (٣) الممالك والرايا شرعية وسياسية ، إلا وفي بيته الشريف — ثبت الله تعالى قواعده ، وشد من عزه معاقده — ما يضاهاها ، وظهر عنهم ما يماثلها وينالها ، « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٤) » . لا بل والله من قاس غيرهم بهم قاس التمد إلى البحر ، والمخشب (٥) إلى الدر ، والهشيم بخضرة الربيع ، والأرض الجرز (٦) بنضرة الروض المربع ، ولكأن القائل إياهم أراد بقوله :

لم تحمل الأرض ملوكا مثليهم	ولا أظلتها السماوات العلى
معاد كل راغب وراهب	إذا أتى ديارهم ألقى العصي
لا ينطق العوراء في نادهم	ولا يحلون إلى الجهل الحبي
(٤ - ب) لا يصطلى بنارهم عند اللقاء	ويصطلى بنارهم عند (٧) القرى
هم النجوم طالع وآفل	يعلوهم غرس (٨) إذا غرس (٩) ذوى
هم الجبال امتنعت أن ترتقى	هم البحور ليس يعلوها القذى
إن سئلوا لم يبتخلوا أو عاهدوا	لم يغدروا أو ذكروا (١٠) طاب الشنا

ونقلت أكثره عن والدى رحمه الله تعالى ، فإنه كان راوية (١١) حسنتهم ، وعين الخبر بحركاتهم وسكناتهم ، وقد فانتى كثير مما سمعته منه ، لأننى جمعت هذا القدر من حفظى بعد وفاته ، ولم أثبت به بقلبى فى حياته ، ومع هذا فإننى تعمدت ترك الإكثار ، لميل الناس فى زماننا إلى الاختصار ، وابتدأت بذكر المولى الشهيد الكبير قسيم الدولة آقسنقر رضى الله عنه ، لأنه أول من ملك منهم فيما علمناه ، وذكرت ما حضره من الحروب قبل ملكه وبعده ، وكذلك ولده المولى الشهيد عماد الدين (٥ - أ) زنى قدس الله روحه . ولم أذكر أحداً غير ملوك هذا البيت الشريف ، إلا وفاة (١٢) خليفة واستخلاف آخر ، وموت سلطان سلجقى وولاية غيره ، إذا الضرورة تدعو إليه ، وبالله التوفيق وهو المستعان وهو حسبي ونعم الوكيل .

(١) بالأصل : ولينيقن . (٢) بالأصل : وديناوية . (٣) بالأصل : حفص . (٤) سورة الحديد : ٢١ .
(٥) الخشب : قطع الزجاج المنكسر ، وقيل الحرف . محيط المحيط (مادة : خشب) . (٦) الأرض الجرز :
ز : الأرض التى لا نبات فيها . (مختار الصحاح) . (٧) بالأصل : عن . (٨) بالأصل : عرش .
(٩) بالأصل عرس . (١٠) بالأصل : ذكر . (١١) بالأصل : رواية . (١٢) بالأصل : وافته .

في ذكر ابتداء حال قسم الدولة آقسنقر

رضى الله عنه

قال صاحب التاريخ . كان قسم الدولة (١) تركيا (٢) من أصحاب (٣) السلطان جلال الدولة ركن الدين (٤) ملكشاه بن ألب أرسلان وأترابه ، ومن ربي معه في صغره وصحبه إلى حين كبره ، فلما أفضت السلطنة بعد أبيه إليه ، وأفاضت تاجها عليه ، رعى لقسم الدولة صحبته ، فجعله من أعيان أمرائه ، وأخص أوليائه ، فصادف الإحسان أهله ، ورفع قدره وأعلى محله ، واعتمد عليه السلطان في مهماته ، وأفضى إليه بأسراره في خلواته وجلواته ، ووثق به ووثقا حسده عليه سائر أمرائه (٥ - ب) وأجناده ، لما رأى من شجاعته وحزمه وسداده ، وتقدم عنده تقدما فاق فيه سائر الناس ، واختصه السلطان للقرب والإيناس (٥) ، وزاد قدره علوا إلى أن صار يتقيه مثل نظام الملك مع تحكمه على السلطان ، وتمكنه من المملكة بعلو المنصب وكثرة الأعوان ، فأشار على السلطان بأن يوليه مدينة حلب وأعمالها ، ويحكمه في عساكرها وأموالها ، ويضيف إلى حكمه غيرها من البلاد الشامية ، وكان قصده أن يتخذ عند قسم الدولة يدا ، ويبعده عن خدمة السلطان . ومن أعظم الدلائل على علو منزلته وسمو مرتبته لقبه ، وهو قسم الدولة ، وكانت الألقاب حينئذ مصونة [لا تعطى إلا لمستحقها (٦)] حتى إن السلطان — مع جلالته — لم يكن يعرف إلا بجلال الدولة ولم يكن لقبه في الدين مشهورا . وكان قسم الدولة أيضا يقف إلى جانب (٦ - أ) تحت السلطنة عن يمينه ولا يتقدمه أحد ، وصار ذلك أيضا لعقبه من بعده . وهكذا كان سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي رضى الله عنهما يقف عند السلطان غياث الدين مسعود ، ولما توجه المولى السعيد شرف الدين بن المولى المعظم قطب الدين قدس الله روحهما إلى همدان — وبها حينئذ السلطان ألب أرسلان [بن] طغرل بن محمد وأتابكة البهلوان ، وهو أخو السلطان لأمه والبلاد له وبحكمه ليس للسلطان معه غير اسمه — وكان البهلوان يقف عن يمين التخت ، فلما حضر شرف الدين انتقل البهلوان عن مقامه ، وقال لشرف الدين : هذا لكم

- (١) في زبدة الخلب (ح / ٢ / ص / ١٠٣) . أن اسم أبيه « النعمان » ، وفي الحاشية (رقم : ٤) ، آل ترعان .
- (٢) في زبدة الخلب (ح / ٢ / ص / ١٠٣ / حاشية / ٤) ، أنه من قبيلة « ساب يم » . (٣) في ابن واصل (ح / ١ / ص / ١١) ، أن قسم الدولة كان مملوكا للسلطان ألب أرسلان السلجوقي فرني مع ولده السلطان ملكشاه . وفي ابن خلكان (ح / ٢ / ص / ٢٥٢) ، أنه كان مملوكا للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان . وفي زبدة الخلب (ح / ٢ / ص / ١٠٣) ، « وقيل إنه كان مملوكا لملكشاه » ، وقيل إنه لصيق به . وفي السكامل (ح / ٨ / ص / ١٤٥) ، أنه كان زوج دادة السلطان ملكشاه . (٤) لم يلقب أحد من المؤرخين ، السلطان ملكشاه بلقب « ركن الدين » سوى ابن الأثير ، ولما لقبه « جلال الدين » ، والسلطان السلجوقي باللقب بـ « ركن الدين » هو بركياروق بن ملكشاه . (أنظر زامباور : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص / ٥٢ / ٧٤) . (٥) يظهر أن قسم الدولة حجب للسلطان ملكشاه . حيث يطلق كل من ابن واصل (ح / ١ / ص / ١١) : ابن خلكان (ح / ٢ / ص / ٢٥٢) : ابن كثير (ح / ١٢ / ص / ١٤٧) ، على قسم الدولة لقب الحاجب ، فهو عندهم « قسم الدولة آقسنقر الحاجب » .
- (٦) الإضافة من ، الروضتين (ح / ١ / ص / ١٤) .

من قديم الزمان ليس لأحد غيركم أن يقف [فيه] مع حضوركم . وكل هذا يدل على ما ذكرناه من جلالة قدر قسم الدولة وعلو محله .

ذكر مسير قسم الدولة

مع نحر الدولة بن جهير إلى الموصل بأمر السلطان ملكشاه

(٦ - ب) في سنة سبع (١) وسبعين وأربعمائة ، سير السلطان ملكشاه الوزير نحر الدولة ابن جهير وزير الخليفة (٢) إلى ديار بكر ليملكها ويحلي عنها بني مروان (٣) على ما ذكرناه في المستقصى في التاريخ (٤) ، وسير عميد الدولة بن نحر الدولة بن جهير — وكان زوج ابنة نظام الملك — إلى الموصل ، وكانت لشرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلي ، وسير معه جيشا عظيما ، وجعل المقدم على الجيش قسم الدولة آقسنقر ، وتقدم إلى عميد الدولة ليكون فعله في حروبه وحصاره برأى قسم الدولة ، لمعرفته بتدبير الجيوش وحصر البلاد وشجاعته في حروبه كلها ، فساروا نحو الموصل ، فلقبهم في الطريق الأمير أرتق بن أكسب التركاني — جد ملوك الحصن (٥) وماردين يومنا هذا — ومعه خلق كثير من التركان فاستصحبوه معهم — وكان مشهورا بالعقل والدين — فلما وصلوا إلى الموصل حصروها وضيقوا على من بها (٧ - أ) وأرسل أرتق إلى من بها يشير عليهم بالدخول في طاعة السلطان وترك العصيان عليه ، وخوفهم عاقبة فعلهم إن امتنعوا وأصروا على الخلاف ، فقبلوا نصحه وأذعنوا له وأطاعوا وسلبوا البلد (٦) ، فأخذ عميد الدولة ما كان به من مال شرف الدولة وأهله وذخائره . وكان السلطان عازما على أخذ جميع البلاد التي لشرف الدولة واستئصال ملك العرب ، فأتاه الخبر بخروج أخيه تكش عن طاعته بخراسان واجتماع العساكر عليه ، فأرسل مؤيد الملك بن نظام الملك إلى شرف الدولة فطيب قلبه ، وذكر له أن أباه نظام الملك قد شفع فيه إلى السلطان فأجاب شفاعته ، وأمره بالمسير معه إلى خدمة السلطان ، فسار صحبته ولقي السلطان بالبوازيج (٧) ، فخلع عليه ورد عليه الموصل وجميع ما أخذ له من أهل ومال ، وسار السلطان نحو خراسان فظفر بأخيه .

(١) في الكامل (٨/ص/١٣٣) سنة ست وسبعين ، وكذلك في ابن كثير (١٢/ص/١٢٤) ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص/٦٩ . (٢) لم يكن نحر الدولة وزيراً للخليفة المقتدى بأمر الله حين أرسله السلطان ملكشاه إلى ديار بكر ، وإنما كان معزولا واستوزر الخليفة ابنه عميد الدولة ، ثم عزله الخليفة في صفر سنة ٧٦٦ هـ ؛ فطلب ملكشاه من الخليفة أن يرسل إليه بنى جهير — وكان ملكشاه بأصبهان — فأرسلهم إليه ، فأكرمهم ملكشاه ، وعقد لفخر الدولة على ديار بكر وأرسله إليها في نفس السنة بالعساكر . (الكامل ، ٨/ص/١٣٣) . (٣) بالأصل : بني مروان . (٤) المستقصى في التاريخ هو كتاب « الكامل في التاريخ » لابن الأثير . (٥) الحصن : هو حصن كيفا . وأرتق بن أكسب هو جد ملوك بني أرتق ، وترجمته في ، ابن خلكان (١/ص/٧٦) . (٦) في السلوك (١/ص/٣٣) ، أن السلطان ملكشاه أرسل قسم الدولة آقسنقر — والد عماد الدين — إلى الموصل فملكها . وهذا وهم من المقرئ ، وسببه تشابه اسمه باسم آقسنقر البرسقي الذي ولي الموصل سنة ٥١٥ هـ ، في عهد السلطان محمود ابن محمد بن ملكشاه . (٧) البوازيج : في (ياقوت) : بلد قرب تكريت على فم نهر الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة ، ويقال لها بوازيج الملك . .

(٧ - ب) ذكر ملك قسيم الدولة مدينة حلب وغيرها

كانت حلب لشرف الدولة مسلم وكانت أنطاكية للروم قد ملكوها سنة ثمان (١) وخمسين وثلاثمائة ، ولم يزالوا بها إلى سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، وكان صاحبها حينئذ روميا يسمى الفردوس (٢) ، فسار عنها إلى بلاد الروم ، فكتب أهلها (٣) إلى سليمان بن قتلمش — وهو جد هذا الملك غياث الدين كيخسرو (٤) صاحب قونية وغيرها — وراسلوه ليحضر عندهم ليسلوا إليه أنطاكية ، فسار إليهم وتسلم البلد وملكه ، وقتل من أهله خلقا كثيرا ، وأخذ منهم مالا عظيما . وكان لشرف الدولة على صاحب أنطاكية الرومي جزية يأخذها منه كل سنة ، فلما ملك البلد سليمان ، أرسل إليه شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الروم ، وتهدهد وخوفه عاقبة (٨ - أ) معصية السلطان ، فأعاد الجواب : إنني في طاعة السلطان وهذا الفتح بسعاده ، والخطبة والسكة له فيه ، ولست بكافر حتى أعطيك ما كنت تأخذه من الروم ، فأعاد شرف الدولة الجواب يتهدهد ويلزمه بالمال ، فأخذت سليمان الحمية فسار إلى بلد شرف الدولة ونهبه ، فقصده الذين نهبهم واستغاثوا إليه ، فقال لهم : صاحبكم أحوجني إلى ما فعلته ، وإلا فليس من عادتي أخذ مال مسلم ، ورد عليهم ما أخذ منهم ، فجمع شرف الدولة العرب والتركمان عن بكرة أبيهم وسار نحو أنطاكية ، فلقيه سليمان في أول أعمالها مما يلي حلب في صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فاقتتلوا أشد قتال فانهزمت العرب والتركمان عن شرف الدولة (٥) ، فاضطر إلى الهزيمة فقتل منهزماً وذاق عاقبة بغيه . وكان ملكه (٨ - ب) من السندية (٦) بالعراق على نهـر عيسى إلى

(١) ذكر ابن الأثير في « الكامل » تاريخين مختلفين عن استيلاء الروم على أنطاكية ، التاريخ الأول ، شهر المحرم سنة ٣٥٩ (٧/ص/٢٦) والتاريخ الآخر سنة ٣٥٨ (٨/ص/١٣٦) وهو التاريخ الذي ذكره هنا وبدون تحديد الشهر . وكان المسلمون قد استولوا على أنطاكية من الروم سنة ١٥ هـ ، أثناء فتوح الشام . (٢) في ابن الفلاس (١١٥/ص) ، الكامل (٨/ص/١٣٦) ، الفردوس . (٣) لم يكتب أهل أنطاكية إلى سليمان ليسلوه البلد ، ودليل هذا أنهم قاتلوه كما يتبين من الخبر نفسه . والخبر الذي ذكره ابن الأثير في « الكامل » (٨/ص/١٣٦) أوضح مما ذكر هنا . فهو يذكر أن الفردوس كان مسيئاً إلى أهل أنطاكية وإلى جنده ، حتى أنه حبس ابنه . فانهز الابن فرصة مسير والده إلى الروم فاتفق وشحنة البلد على استدعاء سليمان بن قتلمش لتسليم البلد إليه ، فسار سليمان إليها واجتمع بالشحنة في شهر شعبان ، فقاتله أهل البلد فهزموهم واستولى عليها عنوة . ومعنى هذا أن سليمان جاء على غير رضا من أهل أنطاكية .

ويعلق « دى سلين » على اسم الفردوس وعلى الخبر نفسه بقوله (١٤/ص) : « من الممكن أن يكون المؤلف كتب الاسم « الفردوس » (يعني دى سلين أن ابن الأثير كتب الاسم صحيحاً ، ثم حرفة ناسخ الخطوط) ، وفي هذه الحالة يكون المقصود هو ابن « فيلاريت » حاكم أنطاكية ، ويكون هو الذي ثار عندما علم بنية أبيه على اعتناق الإسلام ، كما تقول « آن كومنين » في كتاب « السكسياد » Alexiade (الكتاب الخامس ، ص ١١٦) حتى أنه رحل إلى نيقية وحرض سليمان على الميـر إلى أنطاكية للاستيلاء عليها ، وبدوا رواية بنت ألكسيس غير محتملة ، والمقول أن نفترض أن فيلاريت أرسل ابنه إلى سليمان لكي يعقد محادثة معه . » ويتضح أن فرض دى سلين ، لالعلاقة بينه وبين استيلاء سليمان على أنطاكية . (٤) كان غياث الدين صاحباً لقونية وغيرها من سنة ٥٨٨ — ٥٩٢ ، من سنة ٦٠١ — ٦٠٧ (زامباور) . (٥) في الكامل (٨/ص/١٣٧) ، أنه كان مع شرف الدولة ، أمير التركمان « جبق » ، فركه « جبق » وانضم إلى سليمان برجاله ، فلما رأى العرب ذلك ، انهزموا وتبعهم شرف الدولة منهزماً . (٦) السندية : في (ياقوت) بكسر أوله وسكون ثانيه ، نسبة إلى السند . وهي قرية من قرى بغداد على نهر عيسى بين بغداد والأنبار .

منبج (١) وما بينهما من البلاد الفراتية : كهيت (٢)، والأنبار (٣) وغيرها ، وملك الموصل (٤)، وديار ربيعة (٥)، والجزيرة (٦) بأسرها ، وملك مدينة حلب . وكان عادلا حسن السيرة عظيم السياسة . ولما قتل شرف الدولة قصد سليمان مدينة حلب فحصرها (٧) فأرسل إليه أهلها : إذا انفصل الأمر بينك وبين تاج الدولة تنش، سلمنا إليك البلد. وكان تاج الدولة له مدينة دمشق ونواحيها قد أقطعه (٨) إياها أخوه السلطان ملكشاه (٩)، وقد سار نحو حلب بعد قتل شرف الدولة ليملكها ، وكان معه أرتق بن أكسب — وقد أقطعه تاج الدولة البيت المقدس (١٠) — فلما أرسل أهل حلب إلى سليمان ما ذكرناه ، سار نحو تاج الدولة فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا صبر فيه الفريقان ، وانجلى الحرب عن هزيمة (٩ — أ) عسكر سليمان ، وثبت هو فقتل . وسار تاج الدولة إلى حلب فحصرها فملك المدينة وحصر القلعة ، فكتب أهلها السلطان ملكشاه ليسلموها إليه وهو بالرها (١١). وكان سبب مسيره إليها ، أن ابن عطير النخري كان قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار وسلمها إليهم ، فدخلوها وأخربوا المساجد وأجلوا المسلمين عنها (١٢) ، فسار ملكشاه إليها هذه السنة (١٣) فحصرها وفتحها وأقطعها الأمير بزان ، فلما أتاه رسل أهل حلب بالتسليم إليه، سار إليهم. فلما بلغ خبر مسيره إلى تاج الدولة رحل عن حلب إلى دمشق . ووصل السلطان إلى حلب ، وبالقلعة

(١) منبج : في (ياقوت) ، مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة . بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ . (٢) هيت : في (ياقوت) ، بالكسر وآخره تاء مثناة . بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ، ذات نخل كثير وخيرات واسعة ، وهي مجاورة للبرية . (٣) الأنبار : في (الاصطخرى ص/٥٤) تقع شرقي الفرات ، وهي ذات نخل وزرع وشجر . وفي (ياقوت) ، أنها تقع غربي بغداد ، بينهما عشرة فراسخ . (٤) الموصل : في (الاصطخرى ص/٥٣) ، مدينة على غربي دجلة ، صحيحة التربة والهواء ، ليس لأهلها سوى ماء دجلة للشرب ، وليس لهم من دجلة زرع ولا شجر إلا الشيء اليسير في عدوة دجلة من شرقها ، وزروعهم مباحس ، وفواكههم تحمل من سائر النواحي . وهي مدينة عامة أبينتها بالجس والحجارة ، كبيرة غناء . (٥) ديار ربيعة : في (ياقوت) ، تقع بين الموصل ورأس عين نحو بقاء الموصل ، ونصيبين ، ورأس عين ، ودينسر ، والحابور جميعه وما بين ذلك من المدن والقرى . ويرجع بين ديار بكر وديار ربيعة ، وسميت كلها ديار ربيعة لأنهم كلهم (أى القبائل التي تسكنها) من ربيعة . وهذا الاسم لهذه البلاد قديم ، كانت العرب تحله قبل الإسلام في بواديها . (٦) الجزيرة : في (ياقوت)، جزيرة أقور بالقاف ، وهي التي بين دجلة والفرات ، مجاورة للشام ، وتشتمل على ديار مضر . وديار بكر . وسميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات بهامدن جليلة ، وحصون وقلاع كثيرة ، ومن أمهات مدنها : حران ، والرقعة ، والرها ، ورأس عين ، ونصيبين ، وسنجار ، والحابور ، وماردين ، وآمد ، وميافارقين ، والموصل . (٧) في الكامل (ح/٨ / ص/١٣٧) ، أن سليمان قصد حلب وحاصرها في مستهل ربيع الأول من السنة ، فأقام عليها إلى خامس ربيع الآخر فلم يبلغ منها غرضاً فرحل عنها . (٨) بالأصل : أقطعها إياها . (٩) كان ذلك سنة ٤٧١ ، (الكامل ، ح/٨ / ص/١٢٦) . (١٠) عن إقطاع تنش ، بيت المقدس ، لأرتق ، أنظر ، الكامل (ح/٨ / ص/١٣٤ / ١٣٥ / ١٤٠) . (١١) الرها : في (ياقوت) ، الرها ، بضم أوله والماء والقصير ، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ . وفي باركر (ص/٥٦) أنها شديدة القرب من الطريق التجاري الكبير الذي يمتد على الفرات إلى الرقة ، ومنها يتفرع إلى طريقتين ، أحدهما يسير إلى أنطاكية ، والآخر يتجه إلى دمشق . (١٢) جاء الخبر عن ابن عطير والرها في الكامل (ح/٨ / ص/١٦ — حوادث سنة ٤٢٩) هكذا : « وفيها صالح ابن وثاب النخري — صاحب حران — الروم الذين بالرها لعجزه عنهم ، وسلم إليهم ربح الرها : وكان تسلمه على ما ذكرناه أولاً (أنظر ، ص/١١ من المرجع) فتركوا من الحصن الذي للبلد ما فيه ، وكثر الروم بها ، وخاف المسلمون على حران منهم . وعمر الروم الرها العمارة الحسنة وحصنوها » . (١٣) في الكامل (ح/٨ / ص/١٤٠) ، أن ملكشاه حصر الرها سنة ٤٧٩ ، وهو في طريقه إلى حلب للاستيلاء عليها بدعوة من أهلها .

سالم بن مالك بن بدران العقيلي — وهو ابن عم شرف الدولة — فسلمها إلى السلطان بعد قتال ، وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جعبر ، وكان قد ملكها هذه السفرة من صاحبها جعبر النيزي ، وكان شيخاً كبيراً أعمى ، فبقيت (٩ — ب) بيد سالم وأولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي رضى الله عنهما ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى . فلما ملك السلطان حلب ، أرسل إليه الأمير نصر بن علي بن المقلد بن منقذ الكنانى (١) صاحب شيزر ودخل في طاعته وسلم إليه لاذقية (٢) ، وفامية (٣) ، وكفرطاب (٤) فأجابه ملكشاه إلى الصلح وترك قصده . ثم إن نظام الملك أشار على السلطان بتسليم حلب وأعمالها ، وحماة ، ومنبج ، ولاذقية ، وما معها إلى قسيم الدولة آقسنقر فأقطعه الجميع ، فبقيت بيده إلى أن قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى . وأقطع السلطان مدينة أنطاكية للأمير ياغى سيان ، وهو صاحب صلاح الدين محمد الياغيسيانى (٥) الذى صار (٦) أمير حاجب المولى الشهيد عماد الدين زنكى . ولما استقر (١٠ — أ) قسيم الدولة في الشام ، ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده . وأن السلطان استدعاه إلى العراق (٧) فقدم إليه في تجميل عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه ، فاستحسن ذلك منه ، وعظم محله عنده ، ثم أمره بالعود إلى حلب فعاد إليها ، ولما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشاً إلى تكريت فملكها .

معرفة حسنة

يذكر أهل التواريخ أنه ليس من مشهورى (٨) العرب من قتل هو وأبوه وجده وجد أبيه ، غير عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد . فإن عبد الله قتله الحجاج ، والزبير رضى الله عنه قتل يوم الجمل ، وقتل العوام وخويلد في الجاهلية . وليس من مشهورى الترك من هو هكذا ، غير (٩) قليج أرسلان [فقد] قتله جاولى سقاووا بالخابور غريقاً . وهذا سليمان قتله تاج الدولة تنش كما ذكرناه . وأما أبوه قتلش بن أرسلان بيغو (١٠ — ب) بن سليجق (١٠) فقتله صاحب مدينة

-
- (١) بالأصل : الكنانى . (والتصحیح من ، الكامل ، ٨/ص/١٤١) . (٢) لاذقية : في (ياقوت) ، اللاذقية ، بالذال المعجمة مكسورة وقاف مكسورة وباء مشددة . مدينة في ساحل بحر الشام ، وهى غربي « جبلة » ، بينهما ستة فراسخ . وهى مدينة عتيقة رومية . فيها أبنية قديمة مكيّة . وهى بلد حسن في وطاء من الأرض وله مرفأ جيد محكم وقلعتان متصلتان على تل مشرف على الرض ، والبحر على غربها وهى على ضفته . (٣) فامية : في (ياقوت) ، أفامية : مدينة حصينة من سواحل الشام ، وكورة من كور حمص ويسمى بعضها بعضهم ، فامية . (٤) كفرطاب : في (ياقوت) ، بالطاء المهملة وبعد الألف باء موحدة . بلدة بين المعرة (معرة النعمان) ومدينة حلب في برية معطشة ، ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج . (٥) بالأصل : الياغيساني ، (والتصحیح من اسم ياغى سيان ، الوارد في النص نفسه . ومن الكامل ، ٨/ص/١٨٦) . (٦) بالأصل : الذى كان . وما بالأصل خطأ ، لأن صلاح الدين صار حاجباً لعماد الدين بعد أن ولي الموصل سنة ٥٢١ بينما السلام هنا عن سنة ٤٨٧ . (٧) في الكامل (٨/ص/١٥٩) أن ذلك كان في سنة ٤٨٤ ، للاحتفال بالميلاد ببغداد . (٨) بالأصل : مشهور . (٩) بالأصل : غيرة . (١٠) يرد هذا الاسم أيضاً في النس ، هكذا : سلجوق . وكل من الرسمين يستعمله المؤرخون القدامى .

أستوا (١) لأنه جمع خلقا كثير من الأتراك وخرج على السلطان ألب أرسلان (٢)، فلقبه صاحب أستوا (٣) فقاتله، فانهزم قتلى وسقط عن فرسه فمات. وأما أبوه أرسلان بيغو بن سلاجق، فإن صاحب غزنة من أولاد محمود (٤) بن سبكتكين أخذه فقتله، وأخذ ابنه قتلى حتى خلصه الملك داود والد السلطان ألب أرسلان لما ملك خراسان.

ذكر قتل نظام الملك وزير السلطان ملكشاه رحمه الله

في عاشر رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة، قتل الوزير نظام الملك أبو علي الحسن بن إسحاق، قتله صبي ديلبي بعد الإفطار، وقد تفرق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرهم من أصناف الناس، وحمل في محفة لنقرس كان به إلى خيمة الحرم، فلقبه صبي ديلبي مستغيثا به فقربه (١١ — أ) منه ليسمع شكواه فقتله، وقتل الصبي أيضاً، فعدمت الدنيا واحدا الذي لم تر مثله. وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين، إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام كأنه أتاه وأخذه من محفته، فاستبشر نظام الملك بذلك، وأظهر السرور به، وقال: هذا أبغى وإياه أطلب. وبلغ من الدنيا مبلغا عظيما لم ينله غيره.

وكان عالما، فقيها، دينيا، خيرا، متواضعا، عادلا يحب أهل الدين ويكرمهم ويجزل صلاتهم. وكان أقرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء، وكان يناظرهم في المحافل، ويبحث عن غوامض المسائل، لأنه اشتغل بالفقه في حدائمه مدة.

وأما صدقاته ووقوفه فلا حد لها، ومدارسه في العالم مشهورة، لم يخل بلد من شيء منها، حتى جزيرة ابن عمر (٥) — التي هي في زاوية من الأرض لا يؤبه لها — بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة، وهي الآن تعرف بمدرسة رضى الدين.

وأعماله (١١ — ب) الحسنة، وصناعاته الجميلة مذكورة في التواريخ، لم يسبقه من كان قبله ولا أدركه من كان بعده، رحمه الله ورضى عنه.

وكان من جملة عباداته أنه لم يحدث إلا تَوْضُأً، ولا تَوْضُأً (٦) إلا وصلى. وكان يقرأ القرآن حفظا، ويحافظ على أوقات (٧) الصلوات محافظة لا يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة، حتى إنه كان إذا أغفل المؤذن أمره بالأذان، وإذا سمع الأذان أمسك عن كل ما هو فيه، واشتغل بإجابته ثم بالصلاة. وأما ابتداء أمره، فإنه كان يحب التصرف، فاتصل بأمر كان صاحب بلخ يعرف بالأمير ياخر

(١) أستوا: في (ياقوت)، بالضم ثم السكون وضم التاء المثناة وواو وألف. كورة من نواحي نيسابور.
(٢) بالأصل: أرب ألب أرسلان. (٣) بالأصل: استوى. (٤) خطأ «ديلين» ما في النص واستبدل الاسم بمحمد بن سبكتكين. وهذا خطأ من «ديلين»، لأن عمدا لم يحكم أولاده في غزنة، وإنما كان الحكم فيها لعقب غيره من أبناء سبكتكين. (أنظر، زامباور). (٥) جزيرة ابن عمر: في (ياقوت): (٥/٢ ص ٧٩، ٥/٣ ص ١٠٢)، بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام، ولها رستاق خصب واسع الحيرات. وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة لآ من ناحية واحدة شبه الهلال. ثم عمل هناك خندق أجرى فيه الماء ونصب عليه رعى فأحاط بها الماء من جميع جوانبها بهذا الخندق.
(٦) بالأصل: توضىء. (٧) بالأصل: الأوقات.

— وكان مقدم عسكر الملك جعري بك داود جد السلطان ملكشاه — وكان ياخر لا يعطيه إلا ما يقوم به حسب ، وفي آخر كل سنة يصادره بما يفضل معه ، فضجر من هذه الحال ، وأخفى أولاده — وكان له نحر الملك ومؤيد الملك — وركب فرسه وهرب . وكان فرسه (١٢ — أ) بطيشا ، فدعا الله تعالى أن يرزقه فرسا يخلصه عليه ، فلم يسر إلا قليلا حتى لقيه تركاني تحت فرس جيد فسلمه إليه وأخذ فرسه عوضه ، وقال له : يا حسن أذكر هذه . قال نظام الملك : فلما ركبت الفرس قويت نفسي ، وعلمت أن السعادة قد جاءت ، ووصلت إلى مرو ، ودخلت على الملك داود فأخذ بيدي وسلمني إلى ولده الملك عضد الدولة ألب أرسلان وقال : تسلمه واتخذه والدا لا تخالفه . ثم إن الأمير ياخر سأل عني فلم يجدني وأخبر بهرني ، فسار بنفسه في طلبي حتى دخل على الملك داود فطلبني منه ، وقال : إنه أخذ ما لي وهرب ، فقال له داود : حديثك مع ولدي ألب أرسلان ، فلم يحسر يخاطبه فيه . ووزر (١) نظام الملك للسلطان ألب أرسلان قبل أن يلب السلطنة في حياة عمه السلطان طغرل بك . فلما توفي طغرل بك سعى نظام (١٢ — ب) الملك في أخذ السلطنة لصاحبه ألب أرسلان ، وقام المقام الذي تعجز عنه الجيوش والكثرة ، واستقرت السلطنة له ، وبقي معه إلى أن توفي . ثم وزر بعده لابنه السلطان ملكشاه إلى أن قتل . وكان قد تحكم عليه إلى حد لا يقدر السلطان على خلافه لكثرة مما ليكه ومحبة الأمراء والعساكر له ، وميل عامة الناس وخاصتهم إليه بحسن سيرته وعدله .

ذكر وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان رضى الله عنه

في منتصف شوال سنة خمس (٢) وثمانين [وأربعمئة] توفي السلطان ركن الدين ملكشاه رضى الله عنه . وسبب وفاته أنه أكل لحم صيد فأكثر منه ، فأخذته حمى حادة فتوفي منها . وكان مولده [في] جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وأربعمئة ، فكان عمره ثمانياً (٣) وثلاثين سنة وستة أشهر . وكان ملكه نحو عشرين سنة .

وكان أحسن الناس صورة ومعنى (١٣ — أ) ويكفيه أن من جملة حسناته ، نظام الملك ، وكانت سعادتهما متقاربة (٤) . حكى لي والدي رحمه الله تعالى — ثم إنى (٥) رأيت ما حكاه بعد ذلك مذكوراً في كتب التواريخ (٦) — قال : إن السلطان ملكشاه عتب على نظام الملك في شيء فعله بعض أولاده ، وقال له في جملة عتبه : إن كنت شريكى في الملك فعرفنى ، وإن كنت وزيرى فاسلك ما يسلكه الوزراء وإلا أطبقت دواتك وعزلتك . فقال للرسول : قل للسلطان عنى ، إن كنت ما تعلم أنتى شريكك فاعلم ، واذكر ما فعلت معك حين خرج عليك أعمامك وإخوتك ونازعوك في الملك وكادوا يقهرونك ، فتوليت ردهم بنفسى ، وقمت المقام الذى تعلمه حتى صفا لك الملك والسلطنة ، وذكر له عدة مواقف جزع فيها ملكشاه وخاف ، فردها نظام

(١) بالأصل : وزر . (٢) بالأصل : خمسة . (٣) بالأصل : ثمانية . (٤) بالأصل : متقاربة .

(٥) بالأصل : إن . (٦) لعل ابن الأثير يقصد كتاب « المنتظم » لابن الجوزى . غير مقتل ملكشاه ،

كما جاء في السكامل (ح/٨/١٦٣) يطابق خبر ابن الجوزى (ح/٩/ص/٦٩) ويتفق معه في كثير من المعلومات والألفاظ .

الملك بالرأى والحرب، فأين كان هذا [من] كلامه ذلك الوقت. وأما قوله إنه يطبق (١٣ - ب) الوقت دواتي (١)، فقل له: أعلم أن هذه الدواة متعلقة بزر قلنسوته التي على رأسه، فتمى أطبق هذه سقطت تلك. فيقال إن هذا كان سبب قتل نظام الملك، وأن السلطان وضع ذلك الديلى حتى قتله، وصح قول نظام الملك، لما طبقت دواته لم يعش السلطان غير خمسة وثلاثين يوماً ومات. وكان هذا كالكرامة لنظام الملك. وكانت (٢) مملكة السلطان ملكشاه قد (٣) اتسعت [اتساعاً] عظيماً، أطاعته (٤) البلاد جميعها وملكها، وخطب له من حدود الصين إلى الداروم من أرض الشام، وأطاعه اليمن والحجاز، وكان يأخذ خراج ملك القسطنطينية كل سنة، وأطاعه صاحب طراز (٥)، وأسيديجاب (٦)، وكاشغر (٧)، وبلاساغون (٨) وغيرها من الممالك البعيدة، وملك (٩) سمرقند (١٠) وجميع ما وراء النهر (١١). ثم إن صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان إليه، فلما قارب كاشغر (١٤ - أ) هرب صاحبها منه فسار في طلبه، ولم يزل حتى ظفر به وأحسن إليه واستصحبه معه إلى أصفهان. وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر كثيراً، منها ما أصلحه وعمله من المصانع (١٢) بطريق مكة، وحفر من الأنهار، وبنى مدرسة عند قبر الإمام أبي حنيفة. رضى الله عنه، وبنى الجامع الذى بظاهر بغداد عند دار السلطنة. وهو الذى بنى منارة القرون (١٣) فى طرف البر بما يلى الكوفة بمكان يعرف بالسبيع (١٤)، وبنى مثلها بسمرقند أيضاً. ولما مات ضببطت زوجته [تركان (١٥)] خاتون العسكر، وكتمت موته فلم يلبث أحد وجهاً، ولم يشق عليه ثوب، ولم يسمع بسلطان مثله توفى فلم يصل أحد عليه. ولم يجلس أصحابه للغزاء سواه. وأرضت زوجته العسكر وحلفتهم لولدهما محمود، وعمره أربع سنين، وسارت إلى أصفهان.

(١) بالأصل: دواتى. (٢) بالأصل: فسكانت. (٣) بالأصل: وقد. (٤) بالأصل: اطاعة. (٥) : طراز: فى (ياقوت): قال أبو سعد، بالفتح، ورواه غيره بالكسر وآخره زائى لاجماعاً، بلد قريب من أسيديجاب من تغور الترك. (٦) أسيديجاب: فى (ياقوت): أسيديجاب، بالفتح ثم السكون وكسر الفاء (تلاحظ أنه ذكرها فى « طراز » بالياء) وباء ساكنة وجيم وألف وباء موحدة. لاسم بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر فى حدود تركستان، ولها ولاية واسعة وقرى كاللدى كثيرة. (٧) كاشغر: فى (ياقوت): مدينة وقرى ورماتيق، يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي. وهى فى وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون. (٨) بلاساغون: فى (ياقوت): السين مهملة والغين معجمة. بلد عظيم فى تغور الترك وراء نهر سيجون قريب من كاشغر. (٩) بالأصل: والملك. (١٠) سمرقند: فى (ياقوت): بفتح أوله وثانيه. ويقال لها بالعربية « سمران ». بلد معروف مشهور بما وراء النهر، وهو قصبة الصغد، مبنية على جنوب وادى الصغد مرتفعة عليه. وينقل ياقوت عن الأزهري: بناها شمر أبو كرب، فسميت « شمركنت »، فأعربت فقيل: سمرقند، هكذا تلفظ به العرب فى كلامها وأشعارها. (١١) ما وراء النهر: فى (ياقوت): يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان. فما كان فى شرقيه يقال له بلاد الهياطلة، وفى الإسلام سموه ما وراء النهر. وما كان فى غربيه فهو خراسان وولاية خوارزم وخوارزم ليست من خراسان إنما هى إقليم برأسه. وما وراء النهر من أنزه الأقاليم وأكثرها خيراً. (١٢) المصانع: هى الصهاريج التى يخزن فيها الماء. فى الكامل (ح/٩/ص/٨٨) أن جمال الدين وزير الموصل، المتوفى سنة ٥٥٩ هـ، « عمل بمرقات مصانع للماء وأجرى إليها الماء من نهران ... » (١٣) منارة القرون: سميت هكذا لأن السلطان ملكشاه وضع فيها قرون الذهبى وحوافر الحجر الوحشية التى صادها فى هذه المنطقة عندما خرج لتوديع الحاج فى إحدى السنين (الروضتين، ح/١/ص/٥٦). (١٤) بالأصل: السبيعي. والتصحيح من (ياقوت)، حيث يذكر: محلة السبيع. بفتح أوله وكسر ثانيه ثم ياء وآخره عين مهملة. وهى المحلة التى كان يسكنها الحاجج بن يوسف التقي. وهى مسماة بقبيلة السبيع، رهط أبى أسحاق السبيعي. (١٥) الإضافة من (الكامل ح/٨/ص/١٦٢).

وظهر الملك بركياروق بن ملكشاه - وهو الأكبر - فطلب السلطنة فأخذها (١٤-ب) وتوفي محمود .
ثم ظهر السلطان محمد بن ملكشاه ، فنازع أخاه بركياروق ، وجرت بينهما حروب كثيرة دامت
نحو اثنتي عشرة سنة ، إلى أن توفي بركياروق واستقرت السلطنة لمحمد (١) .
وفي مدة تلك الحروب ظهر الفرنج إلى الساحل ، وملكوا أنطاكية (٢) أولاً ثم غيرها من البلاد ،
وقد استوفينا ذلك في المستقصى في التاريخ .

ذكر صالح قسيم الدولة آقسنقر

وتاج الدولة تنش بن ألب أرسلان وما شهدته من الحروب معه (٣)

قد ذكرنا أن السلطان ملكشاه كان قد أقطع أخاه تاج الدولة مدينة دمشق وأعمالها وما جاورها
كطبرية والبيت المقدس وغيرها ، فلما توفي ملكشاه واختلف أولاده وهم صغار ، جمع تاج الدولة
العساكر وسار نحو حلب وبها قسيم الدولة آقسنقر ، فعلم قسيم الدولة أن أولاد صاحبه صغار ،
وأن الملك لا يستقيم لهم لصغرهم (١٥ - أ) وللخلف الواقع بينهم ، ولم يكن له طاقة بتاج الدولة
فصالحه وخطب له بحلب ، وراسل نور الدين [بوزان (٤)] صاحب حران وياغى سيان صاحب
أنطاكية يشير عليهما بطاعة تاج الدولة حتى ينظروا ما يكون من أولاد ملكشاه ، ففعلوا ذلك ،
وساروا معه نحو الرجة فملكها ، وخطب لنفسه بالسلطنة في محرم سنة ست وثمانين وأربعمائة .
ثم سار إلى نصيبين فحصرها ، فسيب أهلها ففتحها عنوة وقهراً ، وقتل بها خلقاً كثيراً ، واستناب
[بها] محمد بن شرف الدولة العقيلي .

وراسل ناصر الدولة إبراهيم بن قريش بن بدران - وهو صاحب الموصل حينئذ - يأمره بالخطبة
له وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد ، فامتنع عليه ، وسار كل واحد منهما إلى صاحبه ، فالتقيا بالمضيق من
بلد الموصل ، وكان على ميمنة تاج الدولة ، قسيم الدولة آقسنقر ، وعلى ميسرة بوزان ، فحملت
العرب على بزان فانهزم ، وحمل قسيم الدولة (١٥-ب) على العرب مما يليه فنهزمهم ، وأسر إبراهيم
وجماعة من أمراء العرب ، فقتلهم تاج الدولة صبراً وملك بلادهم جميعها ، الموصل وغيرها .
وسار في ربيع الآخر من هذه السنة إلى ميفارقين (٥) فملكها وسائر بلاد ديار بكر .

(١) عن خلاف البيت السلجوقي بعد وفاة السلطان ملكشاه ، أنظر ، الكامل ، (٨/ص/١٦٤ ، وما بعدها) .
(٢) كانت لغارة الصليبيين على الشام سنة ٤٩١ ، واستولوا على أنطاكية في نفس السنة . (٣) لم يذكر
ابن الأثير خبر الحصومة بين قسيم الدولة وتاج الدولة تنش في هذا الكتاب ، وإنما ذكره في الكامل (٨/ص/١٦٠)
في أخبار سنة ٤٨٥ ، تحت عنوان : « ذكر استيلاء تنش على حمص وغيرها من ساحل الشام » . (٤) الإضافة
من الكامل (٨/ص/١٦٧) . وصلة قسيم الدولة ببوزان صلة قديمة ، فقد كان كل منهما من ممالك السلطان ملكشاه .
(ابن خلكان ، ٢٥٢/ص/١ - طبعة محمد فريد رفاعي) . ولقب بوزان عند ابن واصل (١/ص/١٩) :
مجاهد الدولة . (٥) ميفارقين : في (ياقوت) : بفتح أوله وتشديد ثانيه ثم فاء ، وبعد الألف راء وقاف
مكسورة وياء ونون . أبها بالقرب من آمد ، وأشهر مدينة بديار بكر . (٨/ص/٢١٤ / ٢١٦) .

ثم سار منها إلى أذربيجان (١) فقصده الملك ركن الدين بركياروق — وكان قد ملك كثيراً من البلاد منها: الري وهمدان وما بينهما — فلما تقارب العسكران ، قال قسيم الدولة لبوزان : إنما أطعنا هذا الرجل لننظر ما يكون من أولاد (٢) صاحبنا ، والآل فقد ظهر بركياروق ، والرأي والمروءة تقتضى بأننا نقصده ونكون معه ، ففارقا (٣) تاج الدولة وسارا إلى بركياروق وصارا معه ، فلما رأى تاج الدولة ذلك ، رجع إلى الشام ، وأقام قسيم الدولة عند بركياروق ، فخرج عليه خاله إسماعيل بن ياقوق ثم أطاعه ، فخلا به قسيم الدولة وبوزان وبسطوه في الحديث (١٦ — أ) فأعلمهم أنه يريد السلطنة وقتل بركياروق ، فوثبا عليه فقتلاه محافظة على صاحبهما ، ثم أمرهما ركن الدين بالعود إلى الشام لينعما (٤) تاج الدولة عن البلاد إن قصدها فعادا .

ذكر وفاة أمير المؤمنين المقتدى بأمر الله وولاية ابنه المستظهر بالله

في المحرم (٥) من سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، توفي الإمام المقتدى بأمر الله أمير المؤمنين رضى الله عنه فجأة . واسمه أبو القاسم عبد الله بن الأمير محمد بن القائم بأمر الله . وعمره تسع (٦) وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام .

وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة (٧) أشهر .

وأنشأ ببغداد عدة محال ، منها : البصلية ، والبساتين التي كانت بباب الأزج ، والحلبة ، والأجمة ، ودرب القيार ، والمقندية ، وخرابة ابن جردة ، والخاتونية (٨) .

وهو استوزر نخر الدولة أبا نصر محمد بن محمد بن جبير ، وهو من الموصل . وكانت (٩) خلافته بعهد من جده القائم بأمر الله (١٦ — ب) أمير المؤمنين ، وأمه تركية . وكان لين الجانب ، كثير الحلم . وعاش وادعاه مرفها .

وتوفي وقد علم على منشور السلطان بركياروق بالسلطنة (١٠) . وكنتم القهرمانة شمس النهار موته ، وأحضرت الوزير وأعيان الدولة وجددت البيعة لأولده أبي العباس أحمد المستظهر بالله أمير المؤمنين ، فلما بايعوا أظهرت وفاة المقتدى .

ولما بويع المستظهر بالله أرسل إلى السلطان بركياروق لأخذ البيعة — وكان ببغداد — فأنفذ بركياروق وزيره عز الملك (١١) بن نظام الملك والأمير برسق (١٢) وكوهر اثنين شحنة بغداد ، فبايعوا ،

-
- (١) بالأصل : اذربيجان . (والامم بحرف في النص باستمرار) . (٢) بالأصل : اولاده . (٣) في ابن المديم (ح/٢/ص/١٠٨) ، أن سبب انفصال قسيم الدولة وبوزان عن تاج الدولة هو تقريره ياغيستان وميله إليه . وقيل أنه لم يولهما شيئاً من البلاد التي فتحها . فتركا لهذا السبب . (٤) بالأصل : لينعنا . (٥) في السكامل (ح/٨/ص/١٧٠) ، أن وفاته كانت في يوم السبت خامس عشر المحرم . (٦) في السكامل (ح/٧/ص/١٧٠) ، ثمان وثلاثون . (٧) في السكامل (ح/٨/ص/١٧٠) ، وثمانية أشهر غير يومين . وما في النص أصح لأن المقتدى بويع بالخلافة يوم الخميس ١٣ شعبان سنة ٤٦٧ ، وتوفي يوم السبت ١٥ محرم سنة ٤٨٧ . (٨) في السكامل (ح/٨/ص/١٧٠) والخاتونيتين . (٩) بالأصل : وكانة . (١٠) بالأصل : وبالسلطنة . (١١) بالأصل : وعز الملك . (١٢) بالأصل : يرسق ، (والتصحیح من ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص/٦٥) .

ثم بايع هو ، فلما تمت بيعة السلطان أحضر الغزالي (١) والشاشي (٢) وغيرهما من العلماء فبايعوا .
ثم أرسل إلى غزنة ، وما وراء النهر ، وكرمان ، والشام لأخذ البيعة .
ولما استخلف (٣) أقر عميد الدولة بن جهير على وزارته .

ذكر نسب المستظهر بالله (٤)

هو المستظهر بالله (١٧ — أ) أبو العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الأمير الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الأمير أبي أحمد الموفق بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم أبي إسحاق بن محمد الرشيد أبي جعفر هارون بن المهدي أبي عبد الله محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهم ، بينه وبين العباس عشر خلفاء ووليا عهد ، وأربعة لم يلوا الخلافة ولا ولاية العهد .

فأما الخلفاء : فالمقتدى ، والقائم ، والقادر ، والمقتدر ، والمعتضد ، والمتوكل ، والمعتصم ، والرشيد ، والمهدي ، والمنصور .

وأما وليا (د) العهد : فالذخيرة محمد بن القائم — وهو والد المقتدى بأمر الله — (١٧ — ب) والموفق الناصر لدين الله أبو أحمد بن المتوكل — وهو جد المقتدر بالله — .
وأما الذين لم يلوا الخلافة ولا ولاية العهد : فإسحاق — والد القادر بالله — ، ومحمد — والد المنصور — ، وأبوه علي ، وعبد الله بن العباس .

وقد ولي الخلافة من بنى العباس من غير آباء المستظهر سبعة عشر (٦) خليفة ، وهم : أبو العباس عبد الله بن محمد السفاح (٧) — أول خلفاء بنى العباس — ، والهادي موسى بن المهدي ، والأمين محمد والمأمون عبد الله ابنا الرشيد ، والواثق — وهو أخو المتوكل — . ثم المنتصر والمعتز والمعتمد أولاد المتوكل . ثم المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم — وهو ابن أخى المتوكل — . ثم المهتدي محمد بن الواثق ابن المعتصم . وولى المستكنى علي بن المعتضد بالله وأخوه القاهر بالله . ثم ولى الراضى بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله ، وأخوه المتقي بالله أبو إسحاق إبراهيم . ثم ولى المستكنى بالله عبد الله (١٨ — أ) ابن المستكنى بالله بن المعتضد بالله . ثم ولى المطيع لله أبو القاسم الفضل ، وولده الطائع لله أبو بكر عبد الله .

(١) هو الإمام حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي ، توفي سنة ٥٠٥ . (أنظر ترجمته في شذرات الذهب ، ح/٤/ص/١٠) .
(٢) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين شيخ الشافعية ، المعروف بالمستظهرى . توفي سنة ٥٠٧ . (أنظر ترجمته في شذرات الذهب ، ح/٤/ص/١٦) .
(٣) بالأصل : استخلف .
(٤) : أسقط « دى سلين » نسب الخليفة المستظهر بالله في طبعته . وقد أشار في (ص/٢٨) أنه حذفه لأنه لا جديد فيه ، ولا يتصل في شئ ، بتاريخ الحروب الصليبية . (٥) بالأصل : ولى . (٦) بالأصل : سبع عشرة .
(٧) بالأصل : ابن السفاح (والتصحیح من شذرات الذهب ، ح/١/ص/١٩٤) .

ذكر قتل قسيم الدولة آقسنقر رضى الله عنه

فى جمادى الأولى من سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، قتل قسيم الدولة آقسنقر وبوزان صاحب حران . وكان سبب قتلها ، أن تاج الدولة تنش لم يزل يجمع العساكر بعد عوده من أذربيجان إلى الآن ، فكثرت جمعه ، وعظم حشده ، وسار عن دمشق نحو حلب ، فاجتمع قسيم الدولة وبوزان وأمدهما السلطان ركن الدين بركياروق بالأمير كرى بوغا (١) — وهو الذى صار فيما بعد صاحب الموصل — فلما اجتمعوا وبلغهم مسير تاج الدولة عن دمشق ، تقدموا نحوه والتقوا برويان [على] نهر سبعين (٢) بالقرب من تل السلطان ، بينه وبين حلب نحو ستة فراسخ ، واقتتلوا واشتد القتال ، فحاصر بعض عسكر قسيم الدولة وانهمزوا (١٨ - ب) وتبعهم الباقون ، وثبت قسيم الدولة فأخذ أسيرا وأحضر عند تاج الدولة ، فقال له : لو ظفرت بى ما كنت صنعت . قال : كنت أقتلك . قال : فأنا أحكم عليك بما كنت تحم على فقتله صبورا . وسار نحو حلب ، وكان قد دخل إليها الأمير كرى بوغا وبوزان فحفظاها (٣) منه ، ولج فى قتلها حتى ملكها وأخذها أسيرين ، وأرسل إلى حران والرها ليملكهما — وكانتا لبزان — فامتنع من بهما (٤) من التسليم إليه ، فقتل بوزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين . وأما كرى بوغا فإنه أرسله إلى حمص فسجنه بها إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة .

وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظا لهم . وكانت بلاده بين عدل عام ، ورخص شامل ، وأمن (٥) واسع ، وكان قد شرط على أهل كل قرية فى بلاده ، متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس ، غرم أهلها جميع (١٩ - أ) ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير ، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا ، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ، فأمنت الطرق ، وتحديث الركبان بحسن سيرته . وأما وفاءه وحسن عهده فكفاه (٦) نفرا أنه قتل فى حفظ بيت صاحبه وولى نعمته .

ذكر حال عماد الدين (٧) زنكى بعد [قتل] والده رضى الله عنهما

لما قتل قسيم الدولة آقسنقر ، لم يخلف من الأولاد غير ولد واحد ، وهو المولى الشهيد عماد الدين زنكى ، وكان حينئذ صبيا له من العمر نحو عشر سنين ، فاجتمع عليه نماليك والده وأصحابه ، وفيهم زين الدين على ، وهو صبي أيضا .

ثم إن الأمير كرى بوغا خلع من السجن بحمص بعد قتل تاج الدولة سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وتوجه إلى حران — وقد اجتمع معه عسكر صالح — فملكها . ثم صار إلى نصيبين فملكها أيضا .

(١) جاء رسمه أيضا فى النص : كرى بوغا . وكل من الرسمين مستعمل عند المؤرخين القدامى .

(٢) بالأصل : برويان ونهر سبعين . (٣) بالأصل : فحفظها . (٤) بالأصل : بها .

(٥) بالأصل : أمر . (والتمحيص من السكامل ، ح/٨/ص/١٧١) . (٦) بالأصل : فسكنه .

(٧) بالأصل : ذكر حال ولده عماد الدين ... (وقد حذف المحقق اللفظ : ولده ، لعدم ضرورته فى العنوان) .

ثم إلى الموصل فملكها (١) وأزال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي، (١٩ — ب) فإنه كان مالكا لها. وسار نحو ماردين فملكها أيضا.

وعظم شأنه وهو في طاعة ركن الدين بركياروق، فلما ملك البلاد أحضر بمالِك (٢) قسيم الدولة آقسنقر، وأمرهم بإحضار عماد الدين زنكي. وقال: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربته، فأحضره عنده، فأقطعهم الإقطاعات السنية وجمعهم على عماد الدين زنكي، واستعان بهم في حروبه، وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها، فلم يزلوا معه.

ثم أن كربوقا (٣) توجه إلى آمد وصاحبها من أمراء التركان، فاستنجد صاحبها بمعين الدولة سقمان بن أرتق (٤) — جد صاحب الحصن يومنا هذا (٥) —، فجمع من التركان خلقا كثيرا وسار نحو آمد وتصاف هو وقوام الدولة كربوقا، فرأى كثرة التركان يخافهم، فأخذ عماد الدين زنكي وألقاه بين بمالِك والده، وقال لهم: قاتلوا عن ابن صاحبكم، فحينئذ اشتد قتالهم وحمى الوطيس (٦) فهزموا سقمان وأسروا ياقوتى (٢٠ — أ) ابن أخيه، فحبسه كربوقا ثم أطلقه. وكان هذا أول مصاف حضرة الشهيد عماد الدين بعد قتل والده. ولم يزل عماد الدين [مع] كربوقا إلى أن توفي (٧) سنة أربع وتسعين وأربعمائة (٨).

وملك بعده موسى التركاني (٩) من أصحابه، فلم تطل أيامه وقتل. وملك الموصل شمس الدولة جكرمش (١٠) — وهو أيضا من بمالِك السلطان ملكشاه — وأخذ الشهيد عماد الدين وقربه وأحبه، واتخذ ولدا لمعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمسمائة. ولا جرم أن الشهيد قدس الله روحه، رعى هذا الجكرمش (١١) لما ملك الموصل وغيرها من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كورى (١٢)، فأكرمه وقدمه وأقطعه إقطاعا كثيرا، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذ صهرا.

ثم ملك الموصل بعد جكرمش، جاولى سقاوا (١٣) فاتصل به عماد الدين زنكي، وقد كبر فظهرت عليه أمارات السعادة (٢٠ — ب) والشهامة، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد، وكان

(١) في السكامل (ج/٨/ص/١٨٠)، أنه ملكها في ذى القعدة سنة ٤٨٩. (٢) بالأصل: بمالِك. (٣) بالأصل: أمر. (٤) كان سقمان بن أرتق صاحب حصن كينا وآمد من سنة ٤٩٥ إلى سنة ٤٩٨ (زامبور). وقد توفي سنة ٤٩٨. (انظر ترجمته في شذرات الذهب، ج/٣/ص/٤٠٩). (٥) كان صاحب حصن كينا في سنة ٦٠٧ — وهى السنة التى ألف فيها ابن الأثير كتابه هذا — هو ناصر الدين محمود بن محمد الأرتقى (٥٩٧ — ٦١٩ (زامبور). (٦) بالأصل: القطيس. (٧) بالأصل: توفى. (٨) في السكامل (ج/٨/ص/٢١٠) أن كربوقا توفي في ذى القعدة سنة ٤٩٥. (٩) كان موسى التركاني نائبا عن كربوقا بحصن كينا، فلما مات كربوقا كتبه أعيان الموصل ليسلموا إليه البلد، فسار إليه وقتل منفرجه الذى عهد إليه كربوقا بالموصل عند وفاته، وتسلم البلد. وقد قتل موسى في نفس السنة (السكامل، ج/٨/ص/٢١٠). (١٠) كان جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر، فقاتل موسى التركاني وهزمه، واستولى على الموصل بعد أن قتل موسى بيد بعض الغلمان القوامية. (السكامل، ج/٨/ص/٢١١). (١١) بالأصل: الجكرمش. (١٢) بالأصل: السورى. (وال تصحيح من الروضتين، ج/١/ص/٢٧). (١٣) ملك جاولى الموصل من سنة ٥٠٠ إلى سنة ٥٠٢.

جاولى قد عبر إلى الشام ليلسكه من الملك رضوان . فأرسل السلطان إلى الموصل الأمير مودود [بن التونتكين (١)] وأقطعها إياها سنة ثنتين (٢) وخمسمائة ، فلما اتصل الخبر بجاولى فارقه الشهيد وغيره من الأمراء ، وفهم الأمير التونتاش الأبرى ، وهذا كان سبب المعرفة بينه وبين الشهيد ، فلما ملك أكرمه وأعظمه وأكثر إقطاعه . فحكى لى والدى قال : كنت أراه إلى جانب المولى الشهيد لا يتقدم عليه أحد من الأمراء ، وله عقب بالموصل إلى الآن فى خدمة الدولة القاهرة (٣) .

فلما استقر الأمير مودود بالموصل ، واتصل به الشهيد عماد الدين عرف له ذلك ، مضافاً إلى منزلة أبيه ، ولما رأى منه من العقل والشجاعة ، فزاد فى إقطاعه وشهد معه حروبه . فمما بلغنى منها ، أن الأمير مودوداً سار إلى الغزاة بالشام (٤) ففتح فى طريقه قلعا من شبختان (٥) كانت للفرنج (٢١ - أ) وقتل من بها منهم ، ثم سار إلى الرها فحصرها ولم يقدر على فتحها ، وكانت عقيلة ومكرمة وفضيلة قد ادحرها الله سبحانه وتعالى للمولى الشهيد .

فاستوضحت سبل الآمال حايدة	عن الملوك إلى أعلام حسبها
أبهرهم (٦) فضلا ، أغرهم (٧) بذلا	أغرمهم (٨) [أبدأ] فعلا ومنتسبا
أشتم (٩) أشوس مضروبا (١٠) سرادقه	على الممالك مرخى (١١) دونها الحجبا
ممتنع (١٢) العز ، معمور الفناء [به]	مظفر العزم ، والآراء منتخبا
من معشر طالما شبوا (١٣) بكل وغى	ناراً يظل (١٤) أعاديهم لها خطبا

ثم إن الأمير مودوداً رحل عنها وعبر الفرات (١٥) إلى الشام ، فحصر تل باشر (١٦) خمسة وأربعين يوماً ولم يبلغ منها غرضاً . ثم سار عنها إلى معرة النعمان (١٧) فحصرها ، وجاء إليه الأمير طغتكين (١٨) صاحب دمشق ، فلما رأى كثرة عسكره خاف أن يأخذ منه دمشق (١٩) ، فشرع فى

- (١) الإضافة من ، الكامل (ح/٨/ص/٢٥٢) (٢) بالأصل : ستين .
- (٣) أى دولة الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاء صاحب الموصل (٦٠٧ - ٦١٥) .
- (٤) سنة ٥٠٥ . (الكامل ، ح/٨/ص/٢٦٢) (٥) بالأصل : شختان (والاسم محرف بالأصل باستمرار)
- (٦) بالأصل : ثم أبهرهم . (٧) بالأصل : وأغرمهم . (٨) بالأصل : وأغرمهم . (٩) بالأصل : أشتم .
- (١٠) بالأصل : مضروبا . (١١) بالأصل : مرخ . (١٢) بالأصل : ممتنع . (١٣) بالأصل : شبق .
- (١٤) بالأصل : بطل . (١٥) بالأصل : الفرات . (ويرد الاسم بالأصل بالبناء المربوطة باستمرار) .
- (١٦) تل باشر : فى (ياقوت) : قلعة حصينة ، وكورة واسعة فى شمال حلب ، بينها وبين حلب يومان ، وأهلها نصارى وأرمن ، ولها رىض وأسواق ، وهى عامرة آهلة . (١٧) معرة النعمان : فى (ياقوت) : « مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص ، وتقع بين حلب وحماة » . وكان حصار تل باشر ومعرة النعمان سنة ٥٠٥ .
- (الكامل ، ح/٨/ص/٢٦٢) . (١٨) هو ظهير الدين طغتكين . كان من أمراء تاج الدولة تنش السلجوق صاحب دمشق ، وزوجه تنش بأم ولده دقاق ، ثم صار أتابكا لدقاق . ولما مرض دقاق مرض الموت أوصى بولاية طغتكين على دمشق وحضانة ابنه الصغير تنش (الثانى) وتوفى طغتكين سنة ٥٢٢ . (مرآة الزمان ، ج/٨/ص/١١) ، (شذرات الذهب ، ح/٤/ص/٦٥) . ويرسم ابن الأثير وغيره من المؤرخين اسم طغتكين : طغتكين (بالبناء المثناة) وكل من الرسامين مستعمل عند المؤرخين . (١٩) فى الكامل (ح/٨/ص/٢٦٣) : « ونزل على الأمير مودود ، فاطلع من الأمراء على نيات فاسدة فى حقه ، فخاف أن تؤخذ منه دمشق » .



صلح الفرنج سرّاً من مودود فصالحوه ، وكانوا قد ضعفوا (٢١-ب) عن قتال المسلمين لكثرتهم فإن السلطان محمداً ، كان قد أمد الأمير مودوداً بعسكر مقدمهم الأمير سبكان القطبي صاحب تبريز وغيرها ، فرض سبكان واشتد مرضه فعاد ، فأدركه الموت ببالس (١) ، فأخذ أصحابه تابوته وقصدوا بلاده ، فاعتزضهم إيلغازي (٢) بن أرتق ليأخذهم ، فصافوه (٣) وجعلوا تابوت سبكان في القلب كما كان حياً ، وقاتلوا فظفروا ، وانهزم إيلغازي وعادوا إلى بلادهم .

فلما رأى مودود تفرق العساكر ، واصلح طغديكين [للفرنج] ضعفت نفسه وعاد عن الفرنج ، ولم يكن في عسكره من ظهر اسمه غير الشهيد ، وأذن لعسكره في العود والإستراحة ثم الإجتماع لقتال الفرنج فتفرقوا .

وراسل (٤) [مودود] طغديكين وأصلحه وجمع العساكر وعاد إلى الشام ، وحضر عنده أتاك طغديكين وساروا جميعاً إلى طبرية (٥) وحصروها وقاتلوا قتالاً شديداً (٦) . وظهر (٧) من أتاك (٨) الشهيد رضى الله عنه شجاعة لم يسمع بمثليها (٢٢ - أ) فمنها : أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد ، فحمل عليهم هو ومن معه ، وهو يظن أنهم يتبعونه فتخلفوا عنه وتقدم وحده ، وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد ، ووصل رحله إلى الباب فأثر فيه وقاتلهم عليه ، وهو ينتظر وصول من كان معه ليقاتلوا الفرنج ويتقدم باقي العسكر فيملكون البلد ، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالماً ، فعجب الناس من إقدامه أولاً ومن سلامته آخراً ، وهذه الحادثة مشهورة بالشام لاسيما عند الفرنج .

وجمع الفرنج فرسانهم ورجالهم وملوكهم وقماصتهم ، فيهم الملك بردويل (٩) صاحب القدس ، وعكا (١٠) ، وصور (١١) وغيرها ، وجوسلين صاحب تل باشر والرها وغيرها ، فتصافوا ثالث

(١) بالس : في (ياقوت) : بلدة بالشام بين حلب والرقّة ، بينها وبين الفرات أربعة أميال . (٢) هو إيلغازي ابن أرتق بن أكسب ، صاحب مارددين . توفي سنة ٥١٦ هـ . وكان له جهاد مشكور في قتال الصليبيين . ترجمته في شذرات الذهب (حـ / ٤ / ص ٤٨ ، الكامل حـ / ٨) وأخباره في الكامل موزعة على السنين . (٣) بالأصل : فصافوه . (٤) بالأصل : وأرسل . (٥) طبرية : في (ياقوت) : بلدة مطلة على البحيرة المعروفة ببخيرة طبرية ، وهي في طرف جبل ، وجبل الطور مطل عليها . وهي من أعمال الأردن في طرف الغور . بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وكذلك بينها وبين بيت المقدس ، وبينها وبين عكا يومان . وهي مستطيلة على البحيرة ، عرضها قليل حتى تنتهي إلى جبل صغير ، فعنده آخر العمارة . (٦) كانت موقعة طبرية سنة ٥٠٧ هـ (الكامل ، حـ / ٨ / ص ٢٦٦) (٧) بالأصل : ظهر . (٨) المقصود به عماد الدين زنكي . وقد لقب بهذا اللقب ، لقيامه على تربية الملك ألب أرسلان بن السلطان محمد السالجي ، وذلك حين ولاء السلطان محمود لأمرة الموصل سنة ٥٢١ هـ . وأتاك . لفظ تركي مركب من مقطعين : « آنا » أو « آطا » ومعناه « أب » و « بك » ومعناه « أمير » (صريح الأعشى ، حـ / ٤ / ص ١٨) فاللقب معناه « الأب الأمير » . (٩) بردويل : ذكره ابن الأثير في الكامل (حـ / ٨ / ص ٢٦٦) ، بغدوين . (١٠) عكا : في (ياقوت) : عكا . فتح أوله وتشديد نازيه . اسم بلد على ساحل بحر الشام (البحر المتوسط) من عمل الأردن . وينقل ياقوت عن البشاري : أنها مدينة حصينة ، ولم تكن على هذه الحصانة حتى قدمها ابن طولون . وقد رأى « صور » واستداره الحائط على مبنائها — فأحب أن يتخذ لعكا مثل تلك الميناء . (١١) صور : في (ياقوت) : يضم أوله وسبكون ثانية وآخره راء . مدينة مشهورة ، كانت من غور المسلمين . وهي مشرفة على بحر

[عشر (١)] [محرم [سنة ٥٠٧ (١)] عند بحيرة طبرية ، فظفر المسلمون وانهزم الفرنج لعنهم الله ، ووصلوا إلى مضيق دون طبرية فاجتمعوا به ولم يكن فيه سعة ، فتبعهم (٢) (٢٢-ب) المسلمون . فلما كان من الغد وصل إلى الفرنج عسكر قوى من أنطاكية وغيرها ، فقويت نفوسهم واحتموا ، وحصرهم المسلمون وهم على رأس جبل [غرب طبرية (٣)] والمسلمون في الغور ، وصابروهم ستة وعشرين يوماً ، واشتد الحر على المسلمين لمقامهم في الغور ، فرحلوا نحو بيسان (٤) ، فنزل إليهم الفرنج وتوافقوا خمسة أيام ، وانقطعت المائدة عن المسلمين لبعدهم عن بلادهم ، فعادوا إلى مرج الصفر ، وأذن الأمير مودود للعسكر في الرجوع إلى بلادهم والاجتماع إليه في الربيع ، فلما تفرقوا دخل دمشق (٥) ، وأقام بها ، فخرج يوماً يصلي الجمعة ، فلما صلاها وخرج إلى صحن الجامع ويده بيد طغديكين ، وثب عليه إنسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات (٦) ، وكان صائماً فحمل إلى دار طغديكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل ، وقال : لا لقيت الله إلا صائماً ، فإنني ميت لا محالة سواء أفطرت أو صمت . وتوفي (٧) في بقية (٢٣ - أ) يومه رحمه الله . فقبل إن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه ، وقيل بل خافه طغديكين فوضع عليه من يقتله .

وكان خيراً عادلاً حسن السيرة . فحدثني والدي رحمه الله تعالى قال : كتب ملك الفرنج إلى طغديكين يقول له : إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها ، لحقيق (٨) على الله أن يبيدها (٩) . فلما قتل الأمير مودود ، أقطع السلطان محمد الموصل وغيرها للأمير جيوش بك ، وسير معه ولده الملك مسعوداً إلى الموصل ، ثم إنه جهز آقسنقر البرسقي في العساكر وسيره إلى قتال الفرنج . وكتب [إلى] عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه ، فساروا وفيهم الشهيد عماد الدين زنكي ، وكان يعرف في عساكر العجم بزنسكي الشامي (١٠) ، وكان قد ظهر عنده من الشجاعة ما لا يوصف ، لاسيما بعد ما فعله بطبرية ، فلما اجتمعت العساكر على البرسقي ، سار إلى الرها في خمسة عشر ألف فارس ، فحصرها (١١) وقاتل من بها من الفرنج (٢٣ - ب) والأرمن ، فضاقت الميرة عن العسكر ، فرحل إلى سميساط (١٢) ، وهي أيضاً للفرنج ، فأخرب بلدها وبلد

السام داخلة في البحر مثل الكف على الساعد ، يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الجانب الرابع ، الذي منه شروع بابها . وهي حصينة جداً ركيئة ، لا مسيل إليها إلا بالخلدان . وهي معدودة في أعمال الأردن ، بينها وبين عكة ستة فراسخ ، وهي شرقي عكة . (١) الإضافة من ، الكامل (ح/٨/ص/٢٦٦) . (٢) بالأصل : تبعمهم . (٣) الإضافة من ، الكامل (ح/٨/ص/٢٦٦) . (٤) بالأصل : بيسان . (٥) في الكامل (ج/٨/ص/٢٦٦) أن مودوداً دخل دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٠٧ . (٦) بالأصل : جرحات . (٧) في ابن القلانسي (ص/١٨٧) أنه توفي في يوم الجمعة الأخيرة من شهر ربيع الآخر من السنة . (٨) بالأصل : الحقيق . (٩) بالأصل : ييدها .

(١٠) عرف عماد الدين زنكي بذلك ، تميزاً له عن سمي له ، هو زنكي بن برسقي صاحب همدان . (الكامل ح/٨/ص/٢٦٢) (١١) كان ذلك في ذي الحجة سنة ٥٠٨ . (الكامل ، ح/٨/ص/٢٦٩) . (١٢) سميساط : في (ياقوت) : بضم أوله وفتح ثانيه ثم ياء مثناة من تحت ساكنة وسين أخرى ثم بعد الألف طاء مهملة ، مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ، ولها قلعة في شقي منها ، يسكنها الأرمن .

سروج (١) ، وعاد إلى شبختان فأخرب ما فيه للفرنج ، وأبلى عماد الدين زنكي في هذه المواقف كلها بلاءً حسناً ، وعادت العساكر تتحدث بما فعله عماد الدين وما ظهر له من الشجاعة ، وعاد البرسقي إلى بغداد ، وأقام عماد الدين بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك إلى سنة أربع عشرة وخمسة ، وقد علا قدره وظهر اسمه .

وفي سنة إحدى عشرة وخمسة [ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله (٢)] قال : وفيها غرقت سنجار (٣) من سيل (٤) المطر وهلك منها خلق كثير . ومن أعجب ما يحكى أن السيل (٥) حمل مهداً فيه طفل ، فعلق المهد في شجرة ونقص الماء ، فسلم ذلك الطفل وغرق غيره من الماهرين بالسباحة .

وفيها أيضاً زلزلت إربل (٦) وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة .

(٢٤ - أ) ذكر وفاة السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه

وجلوس ولده مغيث الدين محمود في السلطنة

في الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة إحدى عشرة (٧) وخمسة ، توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه . وكان مرضه في شعبان من هذه السنة ، وكان مرضه السل . فلما كان يوم النحر جلس للناس تجلداً ، وكانت الأراجيف (٨) قد كثرت عليه ، وأكل الناس الطعام بحضرته ثم ضعف بعد ذلك . فلما كان في اليوم الثالث والعشرين من ذى الحجة أيس من نفسه ، فأحضر ولده الملك محموداً — وكان عمره حينئذ أربع عشرة سنة — فلما رآه قبله وبكى ، فبكى ولده ، فأمره أن يجلس على تخت السلطنة وينظر في أمور الناس ، فقال : إنه يوم غير مبارك — يعنى من طريق النجوم — . فقال : صدقت ، ولكن على أهلك ، وأما عليك فبارك هو (٢٤ - ب) بالسلطنة . فخرج وجلس على التخت ، ولبس التاج . وتوفي السلطان محمد من ليلته ، وأظهرت وفاته من الغد ، وقرئت وصيته على ولده يأمره بالعدل والإحسان . وكان مولد السلطان محمد

(١) سروج : في (ياقوت) : بلدة قريبة من حران من ديار مصر . (٢) الإضافة من الروضتين (ح/١/ص/٢٨) . وأبو شامة نقل حرفياً من النص خبر مقتل مودود حتى خبر الزلزلة . (٣) سنجار : في (ياقوت) : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، وهي في لطف جبل عال . وبينها وبين نصيبين ثلاثة أيام . (٤) بالأصل : سيل . (٥) بالأصل : السيل . (٦) إربل : في (ياقوت) : قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط . ولقبتها خندق عميق ، وهي في طرف من المدينة ، وسور المدينة يتقاطع في نصفها . وهي على تل عال من التراب عظيم واسع الرأس . وفي هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية وجامع للصلاة . وهي شبيهة بقلعة حلب إلا أنها أكبر وأوسع . وهي بين الرايين . وتعد من أعمال الموصل ، وبينها مسيرة يومين . (٧) بالأصل : أحد عشرة . (٨) بالأصل : الأراجيف .

ثامن عشر شعبان سنة أربع وسبعين وأربعمائة. وكان عمره سبعا وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام. وأول ما خطب له بالسلطنة ببغداد في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وقطعت خطبته عدة مرار، ولقي من المشاق والأخطار ما لم يلقه أحد، إلى أن توفي أخوه السلطان ركن الدين بركيارق (١)، فحينئذ استقرت له السلطنة وصفت له، ودانت البلاد وأصحاب الأطراف لطاعته، وكان اجتمع الناس عليه بعد موت أخيه إثنى (٢) عشرة سنة وستة أشهر.

وكان عادلا حسن السيرة، شجاعا. وأطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد. ومن عدله أنه اشترى عدة بمالك من بعض التجار (٢٥ - أ) وأمر أن يوفي الثمن من عامل خوزستان، فأوصل البعض ومطل بالباقي، فحضر التاجر مجلس الحكم، وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان واستغاث إليه، فأمر من يستعلم حاله، فلما سأله عن حاجته ذكرها له، وأعلمه أنه قد حضر مجلس الحكم (٣)، وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان ليطلب بماله، فعاد الحاجب وأعلم السلطان حاله، فعظم عليه وضاق صدره، وأمر في الحال أن يحضر عامل خوزستان، ويلزم بمال التاجر، وألزمه مصادرة على ذلك لئلا يمتل هو ولا غيره بمال يحال عليهم. ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكم، وكان يقول كثيرا: لقد ندمت على تركي الحضور بمجلس الحكم، ولو فعلته لا قتدى (٤) بي غيري، ولم يتمتع أحد عن أداء الحق. وهذه الفضيلة أيضا مما دخرها الله تعالى لهذا البيت الشريف الأتابكي، فإن الملك العادل نور الدين (٢٥ - ب) محمود بن زنكي، فعل ما ندم السلطان محمد على تركه. ولما علم الأمراء وغيرهم [أن] من خلق السلطان محبة العدل وأداء الحق وكراهة الظلم ومعاقبة من يفعله، إقتدوا (٥) [به]. وأمن (٦) الناس، وظهر العدل.

ثم إن السلطان محمود أقام بالسلطنة، وجرى بينه وبين عمه السلطان سنجر (٧) حرب، انهزم فيها السلطان محمود وعاد إلى عمه بغير عهد، فأكرمه وأقطعه من البلاد من حد خراسان إلى الداروم بأقصى الشام، وهي من الممالك: همذان، وأصفهان، وبلد الجبال جميعه، وبلاد كرمان، وفارس، وخوزستان، والعراق، وأذربيجان، وأرمينية، وديار بكر، وبلاد الموصل، والجزيرة، وديار مضر (٨)، وديار ربيعة، والشام، وبلد الروم الذي بيد أولاد قلع أرسلان، وما بين هذه الممالك من البلاد، ورأيت منشوره بذلك.

ولم يكن لعماد الدين في هذه الحرب أثر، ولا شهداها ليستقصي ذكرها (٢٦ - أ) فلماذا أعرضنا عن شرحها وأشرنا إليها لتعرف.

(١) توفي السلطان بركيارق سنة ٤٩٨ هـ. (الكامل، ج ٨/ص ٢٣٢) (٢) بالأصل: اثني عشر.

(٣) بالأصل: قد أحضر غلام مجلس الحكم. (والتصحيح من الروضتين ج ١/ص ٢٨). (٤) بالأصل: لا قدى.

(٥) بالأصل: اقتدوا. (٦) بالأصل: من. (٧) هو السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان،

واسمه العربي أحمد. وقد ولي سلطنة فارس سنة ٥١٢ هـ، وتوفي في ربيع الأول سنة ٥٥٣ هـ. (شذوات الذهب،

ج ٤/ص ١٦١). (٨) بالأصل: ديار مصر.

ذكر وفاة أمير المؤمنين المستظهر بالله

وخلافة المسترشد بالله

قال . وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر من سنة اثنى عشرة وخمسة ، توفي الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله من تراق (١) ظهرت به . وكان عمره إحدى (٢) وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام . وخلافته أربعاً (٣) وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً . ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين [من السلجوقية (٤)] خطب لهم ببغداد ، وهم : تاج الدولة تنش ، وركن الدين بركيارق بن ملكشاه ، وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه . وكان رضى الله عنه كريم الأخلاق ، لين الجانب ، مشكور المساعي ، يحب العلم والعلماء . وصنفت له التصانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرهما . وكان يسارع إلى أعمال البر والمثوبات ، لا يرد مكرمة تطلب منه ، كثير الوثوق إلى من يوليه الأعمال ، لا يصغى إلى (٢٦ - ب) سعاية ساع . وكانت أيامه أيام سرور وأمن للرعية ، وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره ، وإذا تعرض سلطان أو غيره إلى أذى أحدهم بالغ في إنكار ذلك والزجر (٥) عنه . وكان حسن الخط ، جيد التوقعات لا يقاربه فيها أحد ، تدل على فضل عزيز (٦) وعلم واسع . ولما توفي صلى عليه ابنه المسترشد بالله ، ودفن في حجرة كانت له يألفها . ولما فرغ من الصلاة عليه ودفنه جلس للبيعة ، فبايعه أولاد الخلفاء والأمراء والفقهاء والقضاة ومشايخ الصوفية . وكان المتولي لأخذ البيعة قاضى القضاة على بن محمد الدامغانى ، ومن بايعه الشيخ أبو النجيب السهروردى ، ووعظه موعظة بليغة تتضمن العدل والإحسان .

ذكر الحرب بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود

وما أثر [عن] عماد الدين فيها

قال . لما ولي السلطان محمود السلطنة ، أقر أخاه الملك مسعودا على (٢٧ - أ) الموصل مع أتاكه جيوش بك ، فبقى مطيعاً لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسة ، حينئذ خرج عن طاعته . وكان سبب ذلك أن ديس بن صدقة الأسدى كان في عسكر السلطان محمد ، وقد أخذ بلد الحلة (٧) منه . فلما ملك السلطان محمود أقطعه الحلة وأعادها إليها ، فلما وصل إلى الحلة ، كاتب الأمير جيوش بك

(١) بالأصل : تراق . والتراق ، دمل يطلم في الحلق . (النجوم الزاهرة ، ج ٥ / ص ٢١٦) (٢) بالأصل : احدا .

(٣) بالأصل : أربعة . (٤) الإضافة من الروضتين (ج ١ / ص ٢٨) . (٥) بالأصل : وانزجر .

(٦) بالأصل : عزيز . (٧) الحلة : في (ياقوت) : أنها علم على عدة مواضع ، وأشهرها حلة بني مزيد ،

وهي مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد .

وحسن له العصيان على السلطان محمود، ووعدته المساعدة على طلب السلطنة للملك مسعود، وكان غرضه أن يختلفوا، فينال من التمكن والجاه، ماناله أبوه سيف الدولة صدقة باختلاف السلطانيين بركيارق ومحمد — وقد ذكرناه في المستقصى — . وكان الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن علي (١) الطغراني (٢) الأصفهاني قد اتصل بالملك مسعود فاستوزره وأشار بذلك أيضاً. وكان لجيوش بك مع الموصل، ولاية أذربيجان، فلما شرع في جمع الجيوش بلغ ذلك إلى السلطان محمود، فأرسل إليه وإلى أخيه مسعود يرغبهما ويعدهما الإحسان (٢٧ — ب) إن عاودا الطاعة، ويهددهما إن أصرا على المعصية، فلم يرجعا، وقوى طمعهما لما بلغهما تفرق العساكر عن السلطان محمود، وأظهرا العصيان، وخطب للملك مسعود بالسلطنة. وكان عماد الدين زنكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه، ويحذرهم عاقبة العصيان، فلم يرجعا إلى قوله، وبلغ قوله إلى السلطان فعرفه له.

ثم إن الملك مسعود (٣) وجيوش بك سارا في العساكر نحو السلطان، ينتهزان الفرصة بقلة عسكره وتفرقهم، فجمع من قرب إليه من عساكره فبلغت عدتهم نحو خمسة عشر ألف فارس، والتقوا عند عقبة أسد آباد (٤) في ربيع الأول، فدام القتال بينهم إلى الليل، ثم انهزم الملك مسعود وجيوش بك ومن معهما، وأسر جماعة من أمراء عسكرهما والأعيان، منهم الأستاذ أبو إسماعيل الطغراني وزير مسعود، فقتله السلطان وقال: قد صح عندى (٢٨ — أ) فساد اعتقاده ودينه، وكان قد جاوز ستين سنة. وكان حسن الكتابة جيد الشعر، فمن شعره:

تمت أن ألقاك في الدهر مرة فلم أك في هذا التنى بمرزوق
سوى ساعة التوديع دامت فكم منى أنالت وما قامت بها آملا سوقى (٥)
فبالت أن الدهر كل زمانه وداع ولكن لا يكون بتفريق

فأما الملك مسعود، فإنه سار منهزما إلى مكان (٦) بينه وبين الواقعة اثني عشر (٧) فرسخا فاختفى فيه، وأرسل ركائيا كان معه إلى أخيه يطلب الأمان. فأرسل إليه البرسقي بأمانه وتطبيب (٨) قلبه فأحضره معه عند السلطان، فأمر الناس كلهم ببلقائه وأكرمه وأحسن إليه، ولما لقيه بكى (٩) كل واحد منهما إلى صاحبه، واعتذر مسعود لقبول عذره وخلطه بنفسه في كل أموره.

وأما جيوش بك فإنه سار وانتظر الملك مسعود فلم يره، فسار إلى الموصل وجمع الغلات والعساكر ليمتنع بها (٢٨ — ب) فلما بلغه خبر اتصال مسعود بأخيه السلطان محمود علم أنه لا مقام له، فسار جريدا إلى السلطان فأمنه وأكرمه، وأخذ الموصل منه وأقره على أذربيجان.

(١) بالأصل: الحسين ابن إسماعيل. (والتصحیح من الكامل، شذرات الذهب. ٤/ص/٤١).
(٢) بالأصل: الطغراني. (والتصحیح من، الكامل، ٨/ص/٢٩٢). (٣) بالأصل: مسعود.
(٤) بالأصل: سد آباد. (٥) بالأصل: شوقى. (٦) في الكامل (٨/ص/٢٩٢) جبل.
(٧) بالأصل: اثنا عشره. (٨) بالأصل: ويطييب (والتصحیح من، الكامل، ٨/ص/٢٩٢).
(٩) بالأصل: ابكى.

ذكر ولاية البرسقي الموصل

ثم إن السلطان أقطع آقسنقر البرسقي بلد الموصل وأعمالها ، كالجزيرة ، وسنجار ، ونصيبين وغيرها في صفر سنة خمس عشرة وخمسمائة وسيره إليها ، وأمره بحفظ عماد الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند إشارته ، فسار إلى الموصل ، وفعل مع عماد الدين ما أمره به السلطان ، وزاد على ذلك لمكانه من العقل والشجاعة ، وتقدم (١) والده في الأيام الركنية (٢) وكانت سيرة ملكشاه عندهم (٣) كالشريعة المتبعة ، فأعظم الناس عندهم أكثرهم اتباعا لسيرته .

ذكر إقطاع عماد الدين زنكي مدينة واسط (٤)

في سنة ست عشرة وخمسمائة ، أقطع أتابك عماد الدين زنكي مدينة واسط وولى شحنة (٥) البصرة . وكان سبب ذلك أن الأمير (٢٩ — أ) ديبس بن صدقة الأسدى صاحب الحلة ، كان قد تقدم منه مع الملك مسعود والأمير جيوش بك ما ذكرناه ، فبلغ ذلك السلطان [محمود (٦)] وانضاف إلى ذلك شكوى أمير المؤمنين المسترشد بالله منه إلى السلطان ، فأرسل إلى البرسقي يأمره بالإنحذار إلى بغداد بعساكر الموصل ومحاربة ديبس ، فأنحدر إليها في عساكره ومعه عماد الدين زنكي ، وسار عن بغداد نحو الحلة فلقيه ديبس عند نهر بشير ، فانهزم عسكر البرسقي من غير قتال . وسبب ذلك أنه رأى خللا في مدينته وبها (٧) الأمراء البكجية ، فأمر أن تلقى خيمته وتنصب عند الميسرة لتقوى قلوبهم ، حين ألقى الخيمة رأت الميسرة ذلك فظنت الهزيمة ، فانهزموا وتبعهم الناس والبرسقي . وقيل بل أعطى رقعة فيها أن جماعة [من (٨)] العسكر يزدون الفتك به ، فخاف على نفسه وساء ظنه ، وانصرف من مكانه وانهزم الناس ، وعاد إلى بغداد ثانياً ربيع الآخر ، فلما انهزم البرسقي (٢٩ — ب) لم يعرض ديبس لنهر ملك ولا غيره ، وأرسل إلى الخليفة أنه على الطاعة ، ويطلب أن يخرج النواب إلى الأعمال .

(١) بالأصل : واتقدم (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٢٩) . (٢) الإشارة هنا إلى السلطان ملكشاه ، (انظر عن تلقيب ابن الأثير ، لملكشاه بركن الدين ، فيما سبق ص/٤/حاشية ٤) . (٣) أى عند السلاطين السلاجقة خلفاء ملكشاه .

(٤) واسط : في الاصطلاحى (ص/٥٨) : أنها نصفان على شط دجلة متقابلان ، بينهما جسر من سفن في كل جانب وفي كل جانب مسجد جامع ، وهى محدثة في الإسلام ، أحدثها الحجاج بن يوسف (الثقفى) وبها خضراء الحجاج . وهى مدينة تحيط بحددها الغربى البادية بعد مزارع سيرة ، وهى خصبة كثيرة الشجر والنبيل والزروع ، وهى أصح هواء من البصرة ، وليس لها بطاغ ، وأراضى رساتيقها متصلة معمورة . (٥) الشحنة : لفظ فارسى ، معناه : محافظ المدينة ، نائب الملك ، رئيس البوليس (المعجم في اللغة الفارسية) . وفى (القاموس المحيط) ، الشحنة : جمعها شحن . وهى في الأصل ما يقام للدواب من العلف الذى يكفيها يومها وليلتها ، وفى البلد ، من فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان . (٦) الإضافة من ، الكامل (ح/٨/ص/٣٠٧) . (٧) بالأصل : وبها .

(٨) الإضافة من ، الكامل (ح/٨/ص/٣٠٧) .

ثم إن السلطان ولي البرسقي شخنية العراق جميعه ، وزوجه خاتون بهشت (١) جهان والدة أخيه الملك مسعود ، وأقام البرسقي ببغداد إلى شعبان من هذه السنة ، وترددت الرسل بينه وبين ديبس في الصلح فلم يتم ذلك . فأرسل ديبس عسكرياً إلى واسط — وكان من بها من العساكر قد كاتبوا البرسقي فصاروا معه — فلما سمع من بها بمسير عسكر ديبس إليهم ، أرسلوا يطلبون المدد من البرسقي ، فأمدهم بالأمير التوتاش الأبري وبعاد الدين زنكي وأقطعاه البلد ، وأمرهم بطاعته ، فصافوا عسكر ديبس فهزموهم وأسروا أكثرهم ، وعاد الباقون منهزمين إلى ديبس .

وأقام عماد الدين زنكي بواسط . وأرسل البرسقي إليه أيضاً فولاه شخنية البصرة وأمره بحمايتها ، فوليا (٣٠ — أ) وحماها ، وانتقل إليها وأقام بها لحفظها لكثرة تطرق العرب إليها والإغارة عليها مرة بعد أخرى . فلما سكنها (٢) لم يتعرض إليها أحد ، وسكن ما كان بها من الفتن ، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه أحد ، فازداد شأنه عظماً (٣) .

وتجنب ديبس قصد ولايته لعله أنه لا ينال منها غرضاً (٤) ، وأنفذ عسكرياً نحو المدائن ، تخاف أهل بغداد ، وعبر البرسقي إلى الجانب الغربي عازماً على قصد ديبس ، وناهيك هذا شرفاً لعماد الدين ، حيث يترك ديبس ولايته مع بعدها عن بغداد ويقصد المدائن وهي إلى جانب بغداد والبرسقي في العساكر قريب منها (٥) .

وبطل الحج هذه السنة من العراق لهذا السبب .

ذكر هزيمة ديبس وعسكر بغداد

وما ظهر لعماد الدين زنكي من الشجاعة

لما ورد ديبس وعساكره إلى المدائن وعبر البرسقي إلى الجانب الغربي (٣٠ — ب) ليسير إليه ، أرسل الخليفة المسترشد بالله إلى ديبس ينهيه عن العصيان ، ويهدده إن أصر على المخالفة ، بقصد بلده ، فغضب ديبس وحلف ليقصد بغداد وليخربنها ويقتل أهلها ، وجمع العرب وأطمعهم في نهب بغداد فكثرت جمعه . فلما علم الخليفة بما كان منه ، سار عن بغداد ومعه العسكر ، وعليه قباء أسود وعمامة سوداء وطرحه ، وعلى كتفه بردة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويده القضيب ، وعبر في الزبزب (٦) ومعه وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك ، ونقيب النقباء (٧) ، وشيخ

(١) بالأصل : بهشت . (والتصحيح من « دي سلين » ، ص/٤٦) . (٢) بالأصل : سكنها . (٣) بالأصل : عظيماً . (٤) بالأصل : غرض . (٥) هذا تمجيد من ابن الأثير لعماد الدين كعادته . فهو هنا يفسر مجرى الحوادث تفسيراً آخر يختلف عن تفسيره في « الكامل » حيث يذكر في « الكامل » (٨/ص/٣١٠ — حوادث سنة ٥١٧) أن ديبس سار إلى بغداد للإنتقام من الخليفة والسلطان . (٦) الزبزب ، نوع من السفن . (لسان العرب) . (٧) هو علي بن طراد الزينبي ، (الكامل) . ٨/ص/٣١٠ . ورجته في ، شذرات الذهب (٤/ص/١١٧ — وفيات سنة ٥٣٨) .

الشيوخ صدر الدين إسماعيل (١) ، وقاضى القضاة الزينبي (٢) وغيرهم . فلما سمع البرسقى بمسير الخليفة ركب وعاد إلى لقائه ، فحين رأى الشمسية ترجل هو ومن معه وقبلوا الأرض . فلما نزل الخليفة في الخيمة ، أحضر البرسقى والأمراء واستحلفهم ، ثم سار نحو الحلة - وقد تأخر ديبس عن المدائن - فالتقوا بالمباركة من أعمال النيل (٣) ، ورتب البرسقى عسكره (٣١ - أ) ، فجعل في الميمنة عماد الدين زنكى في عسكره ، والأمير أبا بكر إلياس البكجى (٤) ، ووقف الخليفة في موكبه خلف العسكر بحيث يرونه والقراء (٥) بين يديه ، والمصاحف منشورة ، وتقدم إلى أهل بغداد بقرأة القرآن والدعاء له ، فغتموا ذلك اليوم ألف ختمة ودعوا له بالنصر .

فلما توافقت العساكر ، حملت ميسرة ديبس - ومقدمها عنتر بن أبي العسكر - على الأمير أبي بكر إلياس ومن معه ، فتراجعوا على أعقابهم ، ثم حمل عليهم عنتر أيضاً حملة ثانية ، فكان حالها كالأولى ، وأشرفوا على الهزيمة ، فلما رأى عماد الدين زنكى ذلك ، حمل في عسكر واسط على عنتر وأصحابه ، وأطبقوا (٦) [عليه] من خلفه ، وعاد الأمير أبو بكر ، فبقى عنتر ومن معه في الوسط : فأخذوا باليد ، وقتل منهم الكثير . وكان البرسقى قد جعل له كميناً ، فلما اشتدت الحرب ، ظهر الكمين من وراء عسكر ديبس ، فانهزمت العرب ومن معهم وديبس ، فألقوا نفوسهم (٣١ - ب) في النيل ، فغرق منهم خلق (٧) كثير سوى من قتل وأسر .

ولما رأى المسترشد بالله فعل عنتر بميمنة البرسقى ، وأن من بها قد أشرف على الهزيمة ، جرد سيفه وتقدم وهو يكبر ، وقد عزم على أن يباشر الحرب بنفسه ، فكفاه عماد الدين زنكى ، فلما تم الظفر ، قدمت الأسرى إلى المسترشد بالله ، فأمر بقتلهم صبراً .

وكان عسكر ديبس عشرة آلاف فارس وإثنى عشر [ألف (٨)] راجل ، وعسكر (٩) الخليفة والبرسقى ثمانية آلاف فارس وخمسة آلاف راجل ، ولم يقتل من عسكرهما غير عشرين فارساً . ووقع نساء ديبس وسراريه (١٠) في الأسر ، غير زوجته ابنة إيلغازى بن أرتق وابنة عميد الدولة ابن جهير ، فإنهما كانتا بمشهد الحسين عليه السلام .

وكانت الواقعة في أول المحرم سنة سبع عشرة وخمسمائة . وعاد المسترشد إلى بغداد فدخلها يوم عاشوراء .

(١) هو شيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل بن أبي سعيد الصوفي ، مات ببغداد سنة ٥٤١ هـ ، ترجمته في ، شذرات الذهب (١٢٨/ص/٤/ح - وفیات سنة ٥٤١) . (٢) هو قاضى العراق ، أبو القاسم على بن نور الهدى - أبى طالب الحسين بن محمد بن على العباسى . توفي سنة ٥٤٣ هـ . ترجمته في ، شذرات الذهب (١٣٥/ص/٤/ح - وفیات سنة ٥٤٣) . (٣) النيل : (في (ياقوت) : نهر من أنهار الرقة ، حفره (هارون) الرشيد على ضفة نيل الرقة . (٤) في ، الكامل (٣١١/ص/٨/ح) ، أبا بكر بن إلياس البكجى . (٥) بالأصل : والقرايين . (٦) بالأصل : ولطبقوا . (٧) بالأصل : خلفاً . (٨) بالإضافة من ، الكامل (٣١١/ص/٨/ح) . (٩) بالأصل : والعسكر . (١٠) بالأصل : وسراريه .

وثار العامة ببغداد ، فنهبوا مشهد باب التين وما عند الضريحين ، وقلعوا أبواب المشهد ، فشكى العلويون (١) ذلك (٣٢ — أ) إلى الخليفة فأنكره ، وسير نظراً الخادم أمير الحاج إلى المشهد لتأديب من فعل ذلك والتنكيل (٢) به ، ففعل بهم ما أمر ، واسترد من النهب ما أمكنه ورده على أصحابه . وأما ديبس فإنه لما انهزم ، التحق بالملك طغرل بن السلطان محمد وصار معه من خواص أصحابه ، وكان عاصياً على أخيه السلطان محمود .

ذكر مفارقة الشهيد عماد الدين البرسقي

واتصاله بالسلطان محمود

قال . ولما فارق ديبس العراق ولحق بطغرل ، أمنت البلاد ، فأرسل السلطان محمود إلى البرسقي يأمره بالعود إلى الموصل والاشتغال بجهاد الإفرنج ، وولى شحنة بغداد يرشق (٣) الزكوى ، فعاد البرسقي في سنة سبع (٤) عشرة وخمسمائة .

وكان أتابك عماد الدين زنكي حينئذ بالبصرة ، فأرسل البرسقي إليه يعلمه الحال ، ويستدعيه ليسير معه إلى الموصل . فحدثني والدي قال : حدثني جماعة ممن كان مع الشهيد ، قالوا : جمع الشهيد أصحابه (٣٢ — ب) وقال لهم : قد ضجرنا بما نحن فيه . كل يوم قد يملك البلاد أمير وتؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته ، ثم تارة بالعراق ، وتارة بالموصل ، وتارة (٥) ببلاد الجزيرة ، وتارة بالشام ، فهم تشيرون أصنع . فقال له زين الدين علي بن بكتكين — وكان أوثق أصحابه عنده وأكثرهم صحة له — فقال : يا مولانا ، التركان تقول في أمثالها ، إذا أراد الإنسان [أن] يضع على رأسه حجراً فليكن من جبل كبير ، ولكن نحن إذا كنا لا بد وأن نخدم الناس ، فلأن نخدم السلطان أولى ، فقبل رأيه ، وسار من البصرة إلى السلطان محمود ، وأقام عنده ، فلم ير منه ما كان يرجوه ، وأنفق ما كان معه من مال . وكان كلما ضاق به الأمر ، يقول لزين الدين : يا علي ، قد وضعنا على رؤوسنا حجراً عظيماً كما أردت . إلا أنه كان يقف إلى جانب تحت السلطان لا يتقدمه أحد . فلما كان بعض الأيام ، ركب السلطان ليلعب بالكرة ، فدخل الميدان فأخذ الجوكان (٦) (٣٣ — أ) بيده ، واستدعى عماد الدين زنكي وناولته إياه ، وقال له : إلعب معنا . ثم قال السلطان للأمرء معاتباً لهم وموبخاً : أما تستحيون ، يحيى إليكم فلان — وهو من قد عرفتموه وعرفتم محل والده في الدولة — فلم يكن فيكم من يحمل له شيئاً ولا يعمل له دعوة ، والله لقد

(١) بالأصل : العلويون . (٢) بالأصل : والتنكيل . (٣) بالأصل : يرشق . (٤) والنصح من . السكامل (٨/ص/٣١٦ : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص/١٤٦) . (٥) في ، السكامل (٨/ص/٢٣٧) أن عزله عن شحنة العراق كان سنة ٥١٨ . (٥) بالأصل : تار .

(٦) الجوكان : هو الحجين الذي تضرب به الكرة ، ويعبر عنه بالصولجان أيضاً ، وكانت الجوكان عصا مدهونة ، طولها نحو أربعة أذرع ، وبرأسها خشبة مخروطية معقوفة تزيد عن نصف ذراع . (الساوك ، ٨/ص/١٣٥) حاشية (١) .

تركته لم أرسل إليه نفقة ولا أعطيته إقطاعاً لأنظر فعلكم . وبالع في لومهم ، ثم قال له : قد زوجتك امرأة الأمير كندغدى ، وأمر له ببال . وكان هذا كندغدى من أكابر أمراء السلطان محمد والسلطان محمود ، فجعله [السلطان محمود] مع أخيه الملك طغرل أتابكا له ومديراً لدولته ، فحسن له العصيان على أخيه السلطان محمود ، وجمع له العساكر الكثيرة وعظم شأنه ، فاتفق أنه مات في تلك السنة ، وخلف ولداً صغيراً وزوجة ، ومن الأموال والبرك (١) والسلاح ما لا يقدر عليه إلا سلطان ، فلما كان الآن ، وقال لعماد (٣٣ - ب) الدين ليتزوجها ، أرسل إليها يقول لها : إني قد زوجتك بعماد الدين زنكى . فامتنعت ثم أجابت . فقال . فركب زنكى من غد دخوله بها ومعه ولد كندغدى (٢) ، وهو في موكب عظيم من أصحابه وأصحاب كندغدى ، وأخرجت له زوجته من الخيام والبرك ما ليس لأحد في العسكر مثله .

ذكر إقطاعه البصرة من السلطان

ثم إن السلطان أتاه في ذلك الوقت الخبر بأن العرب قد اجتمعت ونهبت البصرة ، فأمر أتابك عماد الدين بالمسير إليها ، وأقطعها إياها (٣) لما كان بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي — وقت اختلاف العساكر والحروب — وأمره بالحفظ والإحتياط . وكان قد قيل للسلطان إن الخليفة قد باشر الحرب ، وأحب جمع العساكر ، وخوف [من] ناحيته (٤) ، فتقدم (٥) إلى عماد الدين بمراعاة أحوال واسط والتطاع إلى معرفة حالها ، فإن قصدتها عسكر (٣٤ - أ) من الخليفة يسير إليها ويحفظها ، فسار إلى العراق وأقام بالبصرة ، وأحسن السياسة لأهلها والحماية لهم من العرب وغيرهم ، وصار يرسل طوائف من عسكره فيوقعون بالأعراب ، فأمنت البلاد والطرق ، وواصل السلطان بأخبار العراق حتى لم يخف عليه منها شيء ، فعظم ذلك عند السلطان وزاد محله عنده .

ذكر ولايته شحنة بغداد

كان قد جرى بين (٦) يرنقش الزكوى شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة ، فتهده المسترشد ، فسار (٧) عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة (٨) وخمسائة ، شاكياً من المسترشد بالله ، وحذر السلطان جانبه ، وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه عن العراق ،

-
- (١) البرك : هو المتاع الخاص من ثياب وقاش . (السلوك ، ح / ١ / ق / ١ / ص / ١٣٤ — حاشية / ٦) .
 (٢) هو خالصك بن كندغدى وقد جعل السلطان محمود ، جمال الدين الجواد محمد بن على بن أبي منصور وزيراً لخاصبك وأرسله مع عماد الدين . (تاريخ دولة آل سلجوق ، ص / ١٩٢) .
 (٣) كان ذلك في سنة ٥١٨ . (الكامل ، ح / ٨ / ص / ٣١٦) . (٤) بالأصل : ناحية .
 (٥) بالأصل : فقدم .
 (٦) بالأصل : من . (٧) بالأصل : وسار . (٨) في ، الكامل (ح / ٨ / ص / ٣٢١) ، سنة عشرين .

وقال له : إن تأخرت عن العراق إزداد قوة ومنعك عن البلاد . فتجهز السلطان إلى العراق ، فأرسل إليه الخليفة يطلب منه أن لا يأتي بغداد هذه الدفعة لخراب (٣٤-ب) البلاد والغلاء (١) الذى بها ، وبذل له على تأخره ما لا كثيراً . فلما سمع السلطان الرسالة لم يجب إلى التأخر عن العراق وصمم العزم على الحركة .

فلما بلغ الخبر إلى الخليفة عبر هو وأهله وحرمه وأرباب المناصب إلى الجانب الغربى فى ذى القعدة . مظهرآ للغضب والانتزاع عن بغداد إن قصدھا السلطان . فلما خرج من داره بكى (٢) الناس بكاء عظيما ، واتصل الخبر بالسلطان (٣) فعظم عليه ، وأرسل إليه يستعطفه ويسأله العود إلى داره ، فأعاد الجواب : إننى أمرتك بالتأخر لخراب البلاد وهلاك الناس وعدم الأقوات ، ويقول له : إن قصدت العراق فتجن راحلون عنه بالأهل والمال . فاغتاظ السلطان من ذلك ورحل إلى بغداد ، فلما كان عيد النحر (٤) ، أمر المسترشد بالله بأن تنصب السراقات والمنبر ، وأحضّر خواصه وأرباب المناصب وأعيان الدولة ، وصلى هو بالناس يوم العيد (٣٥-أ) وخطبهم ، فبكى الناس لخطبته بكاء عظيما .

ثم إنه أرسل عفيفاً الخادم فى عسكر [إلى] واسط ، وبها عماد الدين زنكى ، [وكان] قد سار من البصرة لحفظها والذب عنها ، فلما وصل عفيف ، أرسل إليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالعود ، فلم يلتفت [إليه] ، وجاء حتى نزل بالجانب الغربى من واسط ، فعبّر إليه الشهيد وقاتله قتالا شديداً ، فانهزم عسكر عفيف ، وقتل منهم جماعة كثيرة وأسر مثلهم ، وتجاوز عن عفيف حتى نجا (٥) ، ولو شاء لأخذه .

ثم إن الخليفة جمع السفن جميعاً إليه ، وسد أبواب دار الخلافة سوى باب النبى (٦) ، وأمر حاجب الباب ، ابن الصاحب ، بالمقام فيه يحفظ الدار ، ولم يبق من حواشى الخليفة بالجانب الشرقى سواه . ووصل السلطان إلى بغداد فى عشرين من ذى الحجة ، ونزل بالشامسية (٧) ، ودخل بعض عسكره إلى بغداد ونزلوا فى دور الناس ، ولم يزل السلطان يرسل الخليفة بالعود ويطلب الصلح (٣٥-ب) وهو يمتنع ، وكان يجرى بين العسكرين مناوشة (٨) ، والعامّة من الجانب الغربى يسبون السلطان أخش سب .

ثم إن جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة فى المحرم سنة عشرين وخمسمائة (٩) ونهبوا

(١) بالأصل : الغلى . (٢) بالأصل : بكاء . (٣) بالأصل : السلطان . (٤) بالأصل : النجره .
(٥) بالأصل : نجى . وفى الكامل (٨/ص/٣٢١) ، أن عماد الدين تجاوز عن عفيف «لمودة كانت بينهما» .
(٦) بالأصل : باب النوبة . والتصحيح من الكامل (٨/ص/٣٢١) . (٧) بالأصل : الشامسيه ،
(والتصحيح من الكامل ، ٨/ص/٣٢٠) . (٨) بالأصل : بين العسكرين منها مناوشة . (٩) فى الكامل
(٨/ص/٣٢١) ، سنة إحدى وعشرين .

التاج وحجر الخليفة ، وضج أهل بغداد . فلما رآهم الخليفة ينهبون داره ، خرج من السراشق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه ، وأمر بضرب الكوسات والبوقات ، ونادى [بأعلى (١)] صوته : يآل هاشم ، وأمر بتقديم السفن [ونصب الجسر (٢)] وعبر العسكر دفعة واحدة . وكان في الدار ألف رجل مختفين في السراذيب فظهروا — وعسكر السلطان قد اشتغلوا بالنهب — فأسروا جماعة من الأمراء . ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الأمراء ، ودار عزيز الدين المستوفى ، ودار حكيم أوحد الزمان الطيب ، وقتل منهم خلق (٣) كثير في الدروب . ثم عبر الخليفة إلى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون ألف مقاتل (٣٦ — أ) من أهل بغداد والسواد ، وحفروا الخنادق (٤) في الليل ، وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ، واشتد الغلاء عند العسكر ، وعظم القتال كل يوم على أبواب البلد وعلى شاطئ دجلة .

وعزم عسكر (٥) الخليفة على تثبيت (٦) عسكر السلطان ، فغدر بهم الأمير أبو الهيثماء الكردي الهذباني صاحب إربل ، وخرج كأنه يريد القتال والتحق هو وعسكره بالسلطان . وكان السلطان قد أرسل إلى عماد الدين زنكي يأمره أن يحضر بنفسه (٧) ومعه المقاتلة في البر والماء ، وأن يكثّر من السفن مهما أمكنه ، فجمع السفن من البصرة وواسط والبطائح ، ولم يترك ما بين بغداد والبصرة سفينة إلا استصحبها وشحنها بالمقاتلة ، وأصعد في البر والسفن سائرة في الماء ، فلما قارب بغداد نشر الأعلام ، وأظهر السلاح ، وأخرج بعض من في السفن إلى البر (٣٦ — ب) فامتلات الأرض والماء رجالا وسلاحاً ، فرأى الناس منظراً عجيباً وعظم ذلك في أعينهم ، وركب السلطان والعساكر فرأوا ماملاً قلوبهم وعيونهم ، وازداد عماد الدين عند السلطان منزلة ، واستدل على كفايته ونهضته وحسن سياسته ، لأن البلاد التي كانت بيده لم يكن عسكرها (٨) يقدر يفارقها ليحفظوها ، فأخرج منها هذا الخلق الكثير ، ولم يتعرض إليها أحد بأذى .

وكان الخليفة — لما هرب الأمير أبو الهيثماء وبلغه مجيء عماد الدين — قد ضعفت نفسه ، وعلم أن عماد الدين يجيء ويقاثلهم في الماء ويمنع الميرة عنهم ، ويقاثلهم السلطان في البر فيعظم عليه الخطب ، فحينئذ راسل السلطان طلباً في الصلح ، وترددت الرسل بينهما فاصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه ، واعتذر السلطان (٩) مما جرى . وكان حليماً يسمع سبه بأذنه ولا يعاقب عليه . وعفا عن (٣٧ — أ) أهل بغداد جميعهم . وكان بعض أصحابه يشيرون عليه أيام الحصار بإحراق بغداد فلم يفعل ، وقال : لا تساوى العراق بعض هذا .

(١) الإضافة من الكامل (ح/٨/ص/٣٢١) . (٢) الإضافة من ، الكامل (ح/٨/ص/٣٢١) . (٣) بالأصل : خلقاً . (٤) بالأصل : الخنادق . (٥) بالأصل : عكر . (٦) بالأصل : تشيت . وقد صحح المحقق اللفظ على ضوء ما جاء في الكامل (ح/٨/ص/٣٢٢) : « وعزم عسكر الخليفة أن يكبسوا عسكر السلطان » . (٧) في الكامل (ح/٨/ص/٣٢٢) أن عماد الدين كان بواسط . (٨) بالأصل : عسكره . (٩) بالأصل : للسلطان . (والتصحيح من الكامل ، ح/٨/ص/٣٢٢) . (١٠) بالأصل : عفي .

ولما تم الصلح ، أقام السلطان ببغداد إلى عاشر (١) ربيع الآخر ، وحل الخليفة [إليه (٢)] كل ما استقرت القاعدة [عليه (٢)] من المال ، والسلاح ، والحيل وغير ذلك .

فلما أراد السلطان الرحيل ، نظر في من يصلح أن يلي شحنة بغداد والعراق ، يأمن معه من الخليفة ويضبط الأمور ، فلم ير في (٣) أمرائه وأصحابه من يصلح لسد هذا الباب العظيم ، ويرقع هذا الخرق ويمنعه عن الاتساع ، وتقوى نفسه على ركوب هذا الخطر ، غير عماد الدين زنكي ، فولاه شحنة العراق (٤) مضافاً إلى ما بيده من الإقطاع ، وسار السلطان عن بغداد وقد اطمأن قلبه من جهة العراق ، حيث أسنده إلى الكافي القيم بأمره .

ذكر قتل البرسقي وشيء من سيرته رحمه الله تعالى

في سنة عشرين وخمسمائة (٥) ، قتل آقسنقر البرسقي بالجامع العتيق (٣٧ — ب) [بمدينة (٦)] الموصل بعد الصلاة يوم الجمعة ، قتله باطنية . وكان رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به ، فقتل بعضها ، ونال منه (٧) الباكون أذى شديداً ، فقص رؤياه على أصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام ، فقال : لا أترك الجمعة لشيء أبداً ، وكان يشهد في الجامع مع العامة ، فحضر الجامع على عادته ، فثار به من الباطنية (٨) ما يزيد على عشرة أنفس ، فقتل بيده منهم ثلاثة ، وقتل رحمه الله .

وكان خيراً عادلاً ، لين الأخلاق ، حسن العشرة مع أصحابه . حكى (٩) لي والدي رحمه الله تعالى ، قال : حكى بعض الغلمان الذين يخدمون البرسقي ، قال : كان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة ، وكان يتوضأ هو بنفسه ولا يستعين بأحد . قال : فرأيت به بعض ليالي الشتاء بالموصل ، وقد قام من فراشه ، وعليه فرجية وبر صغيرة وبيده إبريق نحاس وقد قصد دجلة (٣٨ — أ) ليأخذ ماء يتوضأ به ، فلما رأته قمت إليه لأخذ الإبريق من يده ، فمغنى وقال : يامسكين إرجع إلى مكانك فإنه برد ، فاجتمدت به لأخذ الإبريق من يده فلم يفعل ، ولم يزل حتى ردتني إلى مكاني . ثم توضأ ووقف يصلي (١٠) . وذكر لي من أحواله الحسنة أشياء لم أطول بذكرها .

(١) في ، الكامل (٣٢٢/ص/٨/ح) . رابع شهر ربيع الآخر . (٢) الإضافة من ، الكامل (٣٢٢/ص/٨/ح) . (٣) بالأصل : فلم يراق . (٤) في الكامل (٣٢٣/ص/٨/ح) أن عماد الدين ولي شحنة بغداد في شهر ربيع الآخر سنة ٥٢١ . (٥) في الكامل (٣٢٠/ص/٨/ح) أن البرسقي قتل يوم الجمعة ثامن ذي القعدة من السنة . (٦) الإضافة من الكامل (٣٢٠/ص/٨/ح) . (٧) بالأصل : منها . (٨) والتصحيح من الكامل ، (٣٢٠/ص/٨/ح) . (٩) بالأصل : حكى . (١٠) أسقط « دي سلين » قصة العلام من نسخه . وقد ذكر أنه أسقطها عمداً ، لأنه من غير المعقول حدوثها .

ذكر ولاية ابنه عز الدين مسعود ووفاته

لما قتل البرسقى ، قام بالموصل بعده ابنه عز الدين مسعود (١) ، وأرسل (٢) إلى السلطان يطلب أن يقرر البلاد عليه ، فأجابه إلى ذلك وأقره على ما كان لأبيه من الأعمال ، فضبط البلاد وقام فيها بالمقام المرضى ، وكان شاباً عاقلاً ، فجمع عساكر أبيه وأحسن إليهم ، وكان يدبر الأمور بين يديه الأمير جاولى — وهو مملوك تركى من ممالك أبيه — وكان أيضاً عاقلاً حسن السيرة ، فحرت الأمور على أحسن نظام ، فلم تطل أيامه ، وأدركه فى عنفوان شبابه حمامه (٣٨ - ب) وتوفى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة (٣) . فولى بعده أخوه الأصغر ، وقام بتدبير دولته جاولى أيضاً ، وأرسل إلى السلطان يطلب أن يقرر البلاد عليهم ، وبذل أموالاً كثيرة .

ذكر ولاية المولى الشهيد عماد الدين زنكى الموصل

وسائر بلاد الجزيرة (٤)

نبتدى قبل ذكر مملكة البلاد ، بذكر الحال التى كان عليها المسلمون من الوهن والضعف ، والمشركون من القوة ، فنقول : لما ملك المولى الشهيد البلاد ، كان الفرنج قد اتسعت بلادهم ، وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم ، وزادت صولاتهم ، وتضاعفت سطوتهم ، وعلا شرهم ، واشتد بطشهم ، وامتدت إلى بلاد الإسلام أيديهم ، وضعف أهلها من كف عاداتهم (٥) ، وتناهت غزواتهم ، وساموا المسلمين سوء العذاب ، وركبواهم بالتيار والتباب ، واستطار فى البلاد شر شرهم ، وعم أهلها شديد حيفهم (٦) وعظيم قهرهم ، فنجوم سعد المسلمين منكدره ، وسماء (٣٩ - أ) عزهم منفطرة ، وشمس إقبالهم مكورة ، ورايات المشركين خلال ديار الإسلام منشورة ، وأنصارهم على أهل الإيمان منصورة .

وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين (٧) وشبختان إلى عريش مصر ، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب ، وحمص ، وحماة ، ودمشق ، وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمد (٨) ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد . ومن ديار الجزيرة إلى نصيبين (٩)

(١) فى الكامل (٨/ص/٣٢٠) ، أن مسعوداً كان يحب إيجفطها من الفرنج حين قتل أبوه . فلما بلغه خبر مقتله سار إلى الموصل ودخلها فى أول ذى الحجة سنة ٥٢٠ . (٢) بالأصل : أرسل . (٣) فى الكامل (٨/ص/٣٢٣) أن مسعوداً طمع فى التغلب على بلاد الشام وسار بعساكره يريد دمشق ، فابتدأ بالرحبة وحاصرها ، فمضى أثناء الحصار ، ومات بعد أن تسلم قلعتها بساعة واحدة . (٤) بالأصل : وسائر البلاد جزيرة العرب . (٥) بالأصل : أعادهم . (واللفظ المثبت هنا أصوب من لفظ النص . والعادية : الظلم والشر — مختار الصحاح) . (٦) بالأصل : حيفهم . (٧) ماردين : فى (ياقوت) : قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة ، مشرفة على دنيسر ، ودارا ، ونصيبين وذلك الفضاء الواسع ، وقدامها برض عظيم . (٨) آمد : فى (ياقوت) : هى أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكراً . وهى بلد قديم حصين ركين مبنى بالحجارة السود . وعلى نزه دجلة محطة بأكثره ، مستديرة كلاله ، وفى وسطه عيون ماء وآبار قريبة نحو الدراعين يتناول ماءها باليد ، وفيها بساتين ونهر ، يحيط بها السور . (٩) نصيبين : فى (ياقوت) : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة ، على جادة القوافل من الموصل إلى الشام . بينها وبين سنجار تسعة فراسخ ، وبين الموصل ستة أيام ، وبين دنيسر يومان .

ورأس العين (١) ، فاستأصلوا ما لأهلها من أناث وعين .

وأما (٢) الرقة (٣) وحران (٤) ، فقد كان أهلها (٥) معهم في ذل وصغار ، واستضعاف واقتسار ، كل يوم قد أذاقوهم البوار ، ومنعوهم القرار ، وألصقوا بهم الصغار ، فهم ينادون بالويل والشبور ، ويودون لو أنهم من ساكني القبور .

وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة (٦) والبر ، فكان التجار والمسافرون (٧) يلقون من المخاوف ، وركوب المفازة تعباً ومشقة ونصباً ، ويخاطرون بالقرب (٣٩ - ب) من العرب بأموالهم وأنفسهم .

ثم زاد الأمر ، وعظم الشر ، حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً وإتاوة ، يأخذونها منهم ليكفوا أيديهم عنهم ، ثم لم يقنعوا بذلك ، حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق من أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند أربابهم أو العود إلى أوطانهم ، والرجوع إلى أهلهم وإخوانهم ، فمن اختار المقام تركوه ، ومن آثر العود إلى أهله أخذوه ، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً ، وللكافرين قدرة واقتساراً .

وأما حلب فإنهم أخذوا مناصفة (٨) أعمالها حتى في الرحا التي (٩) على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة نحو عشرين خطوة .

وأما باقي بلاد الشام ، فكان حالها أشد من هذين البلدين .

فلما نظر الله تعالى إلى ملوك البلاد الإسلامية وأمراء (١٠) الملة (١١) الحنيفية ، وما هم فيه من العجز عن نصره الدين ، والوهن في (٤٠ - أ) حماية الموحدين ، ورأى قهر عدوهم لهم وشدة صوله ، وما نصب عليهم من ظل نكاله وويله ، إرتاح (١٢) للإسلام وأهله ، وأنف لهم من إذلال عدوهم لهم وأسرهم وقتله ، فحينئذ أراد أن يسلط على الفرنج من بسوء أفعالها يجازيها ، ويرسل على شياطين الصليبان رجوماً منه تهلكها وتقضيها ، فنظر في جريدة شجعان أوليائه ، وذوى الرأي

(١) رأس العين : في (ياقوت) : رأس عين ، والعاملة تقول : رأس العين . وهي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة ، حران ونصيبين ودينسر . وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخاً ، وقريب من ذلك بينها وبين حران . وهي إلى دنيسر أقرب ، بينها نحو عشرة فراسخ . وفي رأس عين ، عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور . (٢) بالأصل : وأما أهل . (وقد أسقط المحقق اللفظ : أهل ، لعدم ضرورته ، وهو تكرار لما بعده) . (٣) الرقة : في (ياقوت) : بفتح أوله وثانيه وتشديده . مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام . معودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرق . (٤) حران : في (ياقوت) : مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أفراس . وهي قصبة ديار مضر . بينها وبين الرها يوم ، وبين الرقة يومان ، وهي على طريق الموصل والشام والروم . (٥) بالأصل : أهلها . (٦) الرحبة : في (ياقوت) : رحبة مالك بن طوق . بينها وبين دمشق ثمانية أيام ، ومن حلب خمسة أيام ، وإلى بغداد مائة فرسخ ، وإلى الرقة نصف وعشرون فرسخاً . وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات ، أسفل من قرقسيا . (٧) بالأصل : المسافرين . (٨) بالأصل : مباذعة . (٩) بالأصل : الذي . (١٠) بالأصل : وأمر . (١١) بالأصل : ملة . (١٢) هكذا بالأصل .

والنجده والشهامة من أصفياه ، فلم ير (١) فيها أقوى على هذا الأمر من المولى الشهيد عماد الدين زكي ولا أثبت جنانا ، ولا أمضى عزما ، ولا أنفذ سنانا ، فولاه الشغور ، ورعاية الجمهور ، كما يقول [القائل] :

رماها بحرب منه حتى كأنما بدعوة نوح في العصاة رماها
أخى الحرب يصلبها بنفس كأنما تراحم في ضنك الوغى بسواها
كتاب تزهى بالفتوح كأنما تبارى النجوم الطالعات قناها

فغزا الفرنج في عقر ديارهم ، وأخذ للوحدين منهم بثأرهم (٤٠ - ب) فأصبحت أهلة الإسلام مبدرة بعد سرارها ، وشموس الإيمان منيرة بعد ظموس أنوارها ، وماس المسلمون في حلل من النصر فضفاضة ، ووردوا مناهل (٢) من الظفر فياضة ، واستنقذوا من أهل التثليث حصونا ومعاقل ، وجازوهم بما أسلفوا من الدخول والطوايل ، وألقى التوحيد بالديار الجزرية والشامية جرانه ، وبث فيها أنصاره وأعوانه ، وفرح بنصر الله واستبشر ، وقال ، يا أهل الشرك لا عاصم اليوم من أنصاري ولا وزير . فعبس الكفر وبسر ، ثم أدبر خاضعا ولم يستكبر ، فإلها نعمة عمت التوحيد وأهله ، ونقمة مزقت من الشرك شمله ، وسترى (٣) ما أجهلناه مفصلا ، وما اختصرناه مطولا . هذا (٤) سوى مكارم أخلاق إدراع جلبابها ، وحسن سياسة اعتلق بمحكم أسبابها ، يرد ذكرها عند قتله قدس الله روحه ونور ضريحه .

وأما ملكة البلاد ، ففي شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين وخمسمائة . قال : تولى عماد الدين زكي بن آقسنقر (٤١ - أ) الموصل ، وديار الجزيرة ، ونصيبين وما كان بيد البرسقي . وكان سبب ذلك أن عز الدين مسعود [بن البرسقي] لما توفى وقام بالبلاد بعده أخوه ، وتولى أمره جاولي ، أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرر البلاد عليه ، كما ذكرنا . وكان واسطة ذلك القاضي بهاء الدين أبا الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين محمد الياغيساني (٥) ، فحضرا [إلى] بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك ، وكانا (٦) يخافان جاولي ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه ، فاجتمع [صلاح (٧)] الدين ونصير الدين جقر - الذي (٨) كان أعظم أصحاب أتاك زكي منزلة - وكان بين نصير الدين وصلاح الدين مصاهرة ، فذكر له صلاح الدين ما قدم له ، وخوفه نصير الدين (٩) من جاولي وتحكمه على صاحبه ، وقال له : إن رأيت أن تطلب البلاد لعهد الدين فهو الرأي ، لأن السلطان صورة وأنا وأنت معنى ، فأجابته إلى ذلك وأخذه إلى القاضي بهاء الدين

(١) بالأصل : يرى . (٢) بالأصل : مناهيل . (٣) بالأصل : وسرى . (٤) بالأصل : هذاى .
(٥) كان صلاح الدين أمير حاجب البرسقي . (الكمال ، ج ٨ / ص ٣٢٤) .
(٦) بالأصل : أيام . (٧) بياض بالأصل . (والإضافة من الكمال ، ج ٨ / ص ٣٢٤) .
(٨) بالأصل : الدين . (٩) بالأصل : زين الدين . (والتصحيح من النص نفسه) .

ابن الشهرزورى وتحدثا معه ووعدته (٤١ - ب) نصير الدين ومناه، وضمن له عن عماد الدين من الأملاك والإقطاع والوقوف على اختياره ما جاوز أمله، فأجاب بهاء الدين أيضاً، وركب هو وصلاح الدين إلى دار الوزير - وهو حينئذ أنوشروان بن خالد - فقال له: قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج [عليها] وتمكنوا منها وقويت شوكتهم، وقد كان البرسقى يكف بعض عاديته (١)، فذ قتل إزداد طمعهم، وهذا ولده طفل، ولا بد للبلاد من شهيم شجاع يذب عنها ويحمى حوزتها، وقد أنهينا الحال إليك، لئلا (٢) يجرى خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين، فنحصل نحن بالإثم من الله، واللوم من السلطان. فأنهى (٣) الوزير ذلك إلى السلطان، فقال: من تريان يصلح لهذه البلاد، فقد نصحتنا (٤) الله تعالى والمسلمين، فذكر جماعة فيهم عماد الدين زنكى وعظما محله أكثر من غيره (٥)، قال السلطان إلى توليته، لما (٦) علم من شهامته وكفايته وعقله لما تولاه، (٤٢ - أ) وأمره (٧) بالحضور عنده، وفصل الحال في خدمة يحملها، واستقر الحال وولاه (٨) البلاد جميعها (٩)، وكتب منشوره إلى بغداد (١٠).

وسار [زنكى] إلى البوازنج ليملكها ويتقوى بها، ويجعلها ظهره إن [صدته (١١)] جاولى عن البلاد. فلما استولى عليها سار عنها إلى الموصل، فحين أن [اتصل خبر] وصوله بجاولى، خرج إلى لقائه ومعه العسكر جميعه، فلما رأى الشهيد، نزل عن فرسه وقبل الأرض، ثم قبل يده وعاد في خدمته، فأقطعه الشهيد الرحبة وأعمالها وسيره إليها. وأقام هو [بالموصل (١٢)] إلى أن يصلح أمورها ويقرر قواعدها، فولى نصير الدين دزدارية (١٣) قلعة [الموصل (١٤)] وفوض إليه أمر الولاية جميعها، وجعل الدزدارية (١٥) في [قلاع (١٦)] البلاد لنصير الدين [أيضاً]. وجعل صلاح الدين الياغيسيانى أمير حاجب، وجعل بهاء الدين قاضى قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد، ووفى لهم بما وعدهم. وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكثرهم (٤٢ - ب) انبساطاً معه وقرباً منه، ورتب الأمور على أحسن حال وأحكم قاعدة.

- (١) بالأصل: قد علم عاديته (والتصحيح من: السكامل، ح/٨/ص/٣٢٤). (٢) بالأصل: لا (٣) بالأصل: فانها. (٤) بالأصل: نصحتها. (٥) بالأصل: غير. (٦) بالأصل: ولما. (٧) بالأصل: وأمرها. (٨) بالأصل: وولى. (٩) فى ابن واصل (ح/١/ص/٣٣)، أن السلطان محمود أهدى إلى عماد الدين بترية ابنه الملك ألب أرسلان المعروف بالحفاجى، فأخذ عماد الدين معه إلى الموصل. وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك فيما يلى، فى خبر مقتل نصير الدين جقر سنة ٥٣٩. (١٠) فى ابن خلكان (ح/٦/ص/٣٣) ترجمة عماد الدين زنكى - نشر محمد فريد رفاعى. - أنه لما ثوى عز الدين مسعود، عزم السلطان محمود على تسليم الموصل إلى دبى بن صدقة الأسدى صاحب «الحلة»، فأنسك الخليفة المسترشد عليه ذلك، واستدعى رسول الموصل وقرر معهم تولية عماد الدين عليها، وبذل الخليفة للسلطان مائة ألف دينار ترضية له، ومن ثم أصدر السلطان مرسومًا بتولية عماد الدين على الموصل. (١١) الإضافة من السكامل (ح/٨/ص/٣٢٤). (١٢) الإضافة من السكامل (ح/٨/ص/٣٢٤). (١٣) الدزدار: (بضم الدال وسكون الزاى وفتح الدال المهملة وبعد الألف راء). لفظ أعجمى معناه: حافظ القلعة، وهو الوالى. (ابن خلكان، ترجمة صلاح الدين الأيوبي). (١٤) بياض بالأصل. (والإضافة من: السكامل، ح/٨/ص/٣٢٤). (١٥) بالأصل الدزدارية.

ذكر ملكه جزيرة ابن عمر (١)

لما فرغ الشهيد رضى الله عنه من أمر الموصل ، وتقرير قواعد (٢) الجنود وأقطع العساكر ، سار (٣) نحو جزيرة ابن عمر ، فحصرها وبها بعض (٤) [بمالك (٥)] البرسقى ، فامتنع بها ثقة بحصانتها وظناً منه أنها تحمي ، فراسله عماد الدين (٦) وبذل له ورغبة فلم يصنع إلى ذلك ، فحينئذ جد الشهيد في قتالها ، وبينه وبين البلد الدجلة ، فأمر الناس فألقوا أنفسهم في دجلة ، بعضهم سباحة (٧) ، وبعضهم في السفن ، وتكاثروا على أهل الجزيرة ، وكانوا قد خرجوا عن البلد إلى أرض بين البلد وبين دجلة تعرف بالزلاقة ، لينموا من يريد عبور دجلة ، فاقبلواهم والعساكر قد عبروا الماء ، فانهزم عسكر الجزيرة ، وملك عسكر عماد الدين ، فلما رأى من بالبلد ذلك ، أيقنوا أن البلد يؤخذ عنوة إن لم يأمنوه ، فأرسلوا (٨٣ - أ) إلى عماد الدين - وكان قد عبر دجلة أيضاً مع عسكر - وطلبوا منه الأمان وقاعدة تقرر (٨) بينهم ، فأجابهم إلى ذلك ، وتسلم البلد ودخله هو وعسكره ، فاتفق أن دجلة زادت تلك الليلة زيادة عظيمة ، حتى التصق (٩) الماء بسور البلد وصعد (١٠) فيه أكثر من قامة ، وامتلات (١١) الزلاقة بالماء ، فلو تأخر دخول الشهيد إلى البلد يومهم ذلك ، لغرقهم الماء عن آخرهم ولم ينبج منهم أحد . فلما رأى ذلك الناس ، أيقنوا بسعادته ، وعلموا أن أموراً - هذه بدايتها - لعظيمة .

ذكر ملكه البلاد الجزرية بقوة واقتدار (١٢)

قال : فلما فرغ من أمر جزيرة ابن عمر ، سار عنها إلى نصيبين - وكانت لحسام الدين تمر تاش ابن إيلغازى [بن أرتق] صاحب ماردين وغيرها - فلما نازلها الشهيد ، سار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان [بن أرتق] ، صاحب حصن كيفا (١٣) يستنجد به على دفع أتابك (٤٣ - ب) عن نصيبين ، فوعده النجدة وجمع عساكره ، وعاد حسام الدين إلى ماردين ، وسير رقاياً (١٤) على أجنحة الطيور إلى نصيبين ، يعلم من بها من الأجناد أنه وابن عمه ركن الدولة سائران [إليهم (١٥)] في العساكر الكثيرة ، ويأمرهم بحفظ البلد ثلاثة أيام (١٦) ، فبينما أتابك الشهيد في خيمته إذ رأى طائراً قد سقط على خيمة تجاورها ، فأمر بصيده فاصطيد ، فرأى فيه رقعة ففتحها ،

- (١) بالأصل : جزيرة ابن عمر بن الخطاب . (٢) بالأصل : قواعد . (٣) بالأصل : سائر . (٤) بالأصل : بعد . (٥) الإضافة من ، الكامل ، (٨/ص/٣٢٤) . (٦) بالأصل : زين الدين . (٧) بالأصل : بسباحه . (٨) بالأصل : تقرر . (٩) بالأصل : التصقت . (١٠) بالأصل : وصعدت . (١١) بالأصل : واستمرت الزلاقة بالماء . واللفظ : استمرت ، لا معنى له في الجملة ، واللفظ المثبت هنا أقرب الألفاظ للمعنى الذى يعنيه ابن الأثير . (١٢) بالأصل : واقتداراً . (١٣) حصن كيفا : في (ياقوت) : ويقال : حصن كيبا . وهى بلدة وقاعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . (١٤) بالأصل : رقاياً . (١٥) الإضافة من الكامل (٨/ص/٣٢٥) . (١٦) في الكامل (٨/ص/٣٢٥) : خمسة أيام .

ولإذا هي الرقعة المذكورة ، فأمر فكتب غيرها ، يقول فيها : من حسام الدين ، إننى قد قصدت ابن عمى ، وقد وعدنى بالنصرة والمسير فى العساكر ، وما يتأخر وصوله إلينا أكثر من عشرين يوماً ، ويأمرهم بحفظ البلد فى هذه المدة ، وشدها على جناح الطائر وأرسله ، فلما رأى من فيه الرقعة ، خافوا على نفوسهم ، وعلموا أنهم يعجزون عن حفظ البلد هذه المدة ، فأرسلوا إلى الشهيد وصانعه وسلموا إليه القلعة ، فبطل على داود وتمرتاش ما كانا عزمنا عليه . وقد جرى مثلها (٤٤ — أ) للمولى السعيد نور الدين أرسلان شاه على نصيبين أيضاً سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، ونحن نذكرها إن شاء الله تعالى فى موضعها (١) .

قال . فلما تسلم الشهيد نصيبين ، سار عنها إلى سنجار ، فامتعت عليه وقاتله من بها ، ثم إنهم سلبوها إليه واتصلوا بخدمته ، وسير منها الشحن (٢) إلى الحابور (٣) فملكه جميعه . ثم سار إلى حران — وكانت الرها وسروج وغيرها من ديار الجزيرة للفرنج لعنهم الله — وأهل حران معهم فى ضيق عظيم ، لخلو البلاد من حام يذب عنها (٤) أو سلطان يمنعها (٥) ، فلما سمعوا بملك الشهيد البلاد واستيلائه عليها ، وإذعان من بها إليه ، قويت نفوسهم ، وعلموا أنهم قد أتاهم نصر من الله وفتح قريب ، فراسلوه (٦) بالطاعة ، واستحثوه على الوصول إليهم ، فسار نحوهم (٧) مجداً حتى نزل بساحتهم ، فاستبشروا بقدومه ، وخرجوا إلى لقائه ، فوعدهم ومناهم .

(٤٤ — ب) وأرسل إلى جوسلين صاحب الرها وغيرها من البلاد التى بيد الفرنج بالجزيرة وهادنه مدة يسيرة ، يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقى له من البلاد الشامية والجزرية لإصلاح شأنها ، والفراغ من إقطاع بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحتهم وشجاعتهم . وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات وملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية ، فاستقرت قاعدة الصلح بينه وبين جوسلين على ما اختاره .

ذكر ملكه مدينة حلب وحماة

كان الفرنج خذلهم الله تعالى قد استضعفوا بلاد الشام الإسلامية ، فتابعوا الغارات على أهلها وقصدوها محاصرين لها لخلوها من حام ومانع ، وقد قوى طمعهم فى ملك ما بقى فى يد المسلمين

- (١) بالرجوع إلى خبر استيلاء نور الدين أرسلان شاه على نصيبين سنة ٥٩٤ هـ ، فى « النص » و « الكامل » لم نجد فيه ذكر مكيدة من نوع ما صنع عماد الدين أو غيرها من المكائد .
- (٢) الشحن : جماعات من الفرسان . وفى (لسان العرب) : بالبلد شحنة من الخيل ، أى رابطة . (٣) الحابور : فى (ياقوت) : لاسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة . والحابور أيضاً ولاية واسعة وبلدان حجة غلب عليها اسمه فنسبت إليه من بلاد قرقيسيا ، وما كسين ، والمجدل ، وعربان . والحابور ، خابور الحسينية من أعمال الموصل فى شرق دجلة ، وهو نهر من الجبال عليه عمل واسع وقرى فى شمال الموصل فى الجبال ، له نهر عظيم يسمى عمله ، ثم يصب فى دجلة ، ويخرجه من أرض الزوزان . (ولعل ابن الأثير يقصد أن عماد الدين استولى على خابور الحسينية ، وهو الأقرب إلى الواقع) . (٤) بالأصل : عنهما . (٥) بالأصل : يمنعها . (٦) بالأصل : فراسلوا . (٧) بالأصل : نحوهم .

من البلاد ، لا يعلمون ما أعدّه الله سبحانه في سر الغيب ، وما قدره من الإنتقام منهم وإدالة المسلمين عليهم ، ليذهب غيظ (٤٥ — أ) قلوبهم . ويشف صدور قوم مؤمنين .

وكان الفرنج يقاسمون أهل حلب على رحا يباب الجنان ، بينها وبين المدينة أذرع يسيرة . فلما سمع من بها بعماد الدين وقربه منهم ، راسلوه يستغيثون به ويستنصرونه ، وأذعنوا له بالطاعة ، فسار إليهم فلما عبر الفرات ، ملك مدينة منبج ، وحصن بزاعة (١) وسار إلى حلب ، فالتقاه أهلها وأظهروا من الفرح والسرور به ما لا يعلمه [إلا] الله سبحانه وتعالى ، وكان ملكه لها سنة اثنين وعشرين وخمسمائة (٢) . ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية الشهيد ، لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه ، فإنهم كانوا لهم من أتائبك طغديكين شاغل ومانع عن بعض أغراضهم ، وكانوا متي حصروا حلب وغيرها جمع طغديكين عسكره وسار نحوهم فيرحلون ، فقدر الله تعالى أنه توفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة نخلت البلاد بالمرة ، وصح قول النبي صلى الله عليه وسلم : لم تخل البلاد من قائم (٤٥ — ب) لله بنصر دينه ، واطف الله بالمسلمين بعده ، وولى الشهيد قدس الله روحه . ولما ملكها أقام بها ليقرر (٣) قواعدها ، ويصلح أمورها ، ويعمر ما خرب من بلدها بتوالي غارات الفرنج عليها (٤) ففرغ من جميع ما أراده (٥) .

وفي سنة ثلاث وعشرين [وخمسمائة] . سار إلى حماة فملكها (٦) .

ذكر الحرب بين الشهيد أتائبك وبين الملوك الأرتقية (٧)

وملك مدينة سرجة ودارا وما إليهما

في سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، إجتمع ركن الدولة داود بن سقمان صاحب الحصن وغيره (٨) وحسام الدين تمر تاش بن يلغازي — وهو ابن عم داود — وانضم إليهما (٩) صاحب آمد (١٠) وغير من ذكرنا ، وجمعوا من الأمراء من انتهت قدرتهم إلى جمعه ومن (١١) العساكر والتركمان ، وكان داود مطاعا في التركمان ، حتى أن نشأته كانت إذا وصلت حلة منهم ، تبرك بها رجالهم ونساؤهم فاستمدهم واستنجدهم ، فجاءوه على الصعب والذلول ، فاجتمعوا في نحو عشرين ألف مقاتل ،

(١) بزاعة : في (ياقوت) : سمعت من أهل حلب من يقوله بالضم والكسر . ومنهم من يقول : بزاعا ، بالقصر . وهي بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان ، بين منبج وحلب ، وبين كل واحدة منهما مرحلة . وفيها عيون ومياه جارية وأسواق حسنة . (٢) في ، الكامل (٢٢٦ / ص ٨ / ح) أنه ملكها في أول المحرم من السنة . (٣) بالأصل : ليقرر . (٤) بالأصل : عليه . (٥) في ابن واصل (١ / ص ٤٠) أن عماد الدين ، بعد أن استولى على حلب ، سار منها إلى خدمة السلطان محمود في تجهل عظيم ، ثم عاد إلى الموصل ومعه منشوره بالجزيرة والشام وما اتصل بهما ، بعد أن يحمل للسلطان وأصحابه ما يزيد على مائة وعشرين ألف دينار . وفي ابن العديم (٢ / ص ٢٤٣) ، أن عماد الدين سار إلى السلطان بعد استيلائه على حماة ، ثم عاد « بالتواقيع السلطانية بملك الغرب » . (٦) في الكامل (٨ / ص ٣٢٩) تفاصيل استيلاء عماد الدين عليها غدرآ . (٧) بالأصل الأرتقية . (٨) بالأصل : وغيرها . (٩) بالأصل : إليهم . (١٠) هو سعد الدولة أبو منصور ليكلدي بن نغر الدولة إبراهيم . (ابن واصل ، ١ / ص ٥٤) . (١١) بالأصل : من .

(٤٦ — أ) وسار إليهم الشهيد ولقيهم بالقرب من دارا (١) — وهي لهم أيضا — فاقتتلوا قتالا شديدا ، صبر [فيه] عسكر الشهيد — وهم نحو أربعة آلاف فارس — لشجاعتهم ، وصبر عسكر الأرتقية لكثرتهم ، تم انجلت الواقعة عن هزيمة الأرتقية ، فلما انهزموا حصر سرجة (٢) فملكها وانتقل إلى دارا فملكها أيضا . فحكى لى والدى ، قال : لما انهزموا سار ركن الدولة داود من المعركة ومعه من سلم من عسكره ، فقصده بلد جزيرة ابن عمر فتهبه وأخربه ، وبلغ الخبر إلى أتابك فسار نحو الجزيرة ، وأراد أن يتبعه إلى ديار بكر ، فلم يمكنه لضيق المسالك وخشونة الطريق بها ، ومع هذا فجميعها لداود ، يخاف أن يمسك عليه المضايق ويناله أذى . ثم إنه صالح القوم وعاد عنهم .

ذكر فتح حصن الأتارب من الفرنج (٣)

لما فرغ الشهيد قدس الله روحه ، من أمر الملوك الأرتقية وصالحهم وأمن ناحيتهم ، سار إلى الشام ، وقد جمع واحتشد ، وأعد واستعد ، وصمم العزم على الجهاد ، وإجلاء أهل الزيغ والعناد ، وإعلاء كلمة (٤٦ — ب) الله تعالى ، وإدحاض كلمة الشيطان ، وتسليط أهل الحق على عباد الطاغوت وأتباع الصلبان ، وقصد إلى حصن الأتارب (٤) ونازله ، وأنزل بأهله الثريب ، وعم بلادهم بالنهب والإحراق والتخريب . وكان هذا الحصن أضرب شيء على أهل حلب ، وكانوا مع من فيه من الفرنج ما بين حرب وخرب (٥) . وقد اجتمع فيه من فرسان الفرنج وذوى البأس ، كل معروف بشدة المراس ، إذ هو من أخطر ثغورهم ، وهو من المسلمين في نحورهم ، فتابع الشهيد قتالهم ، وأدمن نزالهم ، وصب عليهم العذاب من كل مكان ، ولاذربه من سطوته وبأسه بالجدران (٦) ، وعمهم الرعب فصاروا يحسبون كل صيحة أنى تسلكون ، وسقط في أيديهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ومع هذا فقد حفظوا حصنهم وأحسنوا الذب عنهم وعنه . فلما علم ملك (٧) الفرنج الحال ، جمع الفرسان الفرنجية واستشارهم في الذى يصنعون ، وبأى حيلة فى دفعه عن بلادهم يدافعون (٤٧ — أ) فأما أهل الغرة والجهل فهوونوا حاله ، وبدلوا من أنفسهم قتاله ، ظناً منهم أنه كمن تقدم من الملوك ، لا يستعملون غير الفرار من الزحوف ، والاحتفاء بعريض

(١) دارا : فى (ياقوت) : تقع بين نصيبين وماردين فى لطف جبل . (٢) سرجة : فى (ياقوت) : بفتح أوله وسكون ثانيه وجيم . يشبه أن تكون كلمة فارسية من « سروج » ومعناه « رأس البئر » وهو حصن بين نصيبين ودينسر ودارا ، من بناء الروم القديم ، وهو باق إلى الآن (أى إلى زمن ياقوت) يسكنه الفلاحون ، رأيت . فى طوله ستة أبراج ، وفى عرضه مما يلي الطريق أربعة أبراج . (٣) فى ، الكامل (٨/ص/٣٣١) أن فتح حصن الأتارب ، كان قبل حرب الأرتقية . (٤) حصن الأتارب : فى (ياقوت) : الأتارب ، قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية ، بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ . (٥) بالأصل : بين حرب وحرب . ولعل اللفظ : حرب ، الذى اثبتناه هو الذى أرادته ابن الأثير . (٦) بالأصل : الجدران . (٧) كان ملك الفرنج فى ذلك الوقت ، الملك فولك ، ملك بيت المقدس . (حنبلى : نور الدين والصلبيون ، ص/٢٤) .

الأسوار لا بحداد الأسنة ورقاق السيوف ، فعارضهم بعض من حضر من شياطينهم وذوى (١) الرأى والتجربة من طواغيمهم ، وقال : إني أرى (٢) شرراً سيكون له ضرام ، ودخاناً تحته شواظ ، أليس هذا الغضنفر (٣) الذى أثر فى طبرية بمفرده ما أثر ، فكيف به اليوم وهو فى عدة وعديد ، ومتطوعة وجنود ، فalcوا قناع التوائى ، ولا تسيروا إلى دفعه سير السوانى (٤) ، فلا بد لهذا العارض (٥) أن يملاً بسيله الوادى ، ولهذا النار أن تعم بشرها النادى ، ولهذا الإقدام أن يصل ضرره إلى الحاضر والبادى ، ولئن لم نلقه (٦) بجموع ننتصف منه بها ، ونلحقه بمن تقدمه من مقدمى الجيوش ، لىكون لنا منه يوم عصيب ، وليأخذن المسلمين منا بأوفر نصيب . فحينئذ (٤٧ - ب) إهتموا بجمع الفرسان والأجناد ، وأحضروا من فى أطراف (٧) البلاد ، وجمعوا الدانى والقاصى ، والمطيع والعاصى ، وأقبلوا فى جموعهم المحشورة ، وعساكرهم المجرورة ، وأعلامهم المنشورة ، وصلبانهم وبندودهم ، وملوكهم وفرسانهم وكنودهم (٨) ، وجاءوا إليه وقد غص بهم من الأرض جنوبها ، وامتلاً منهم شمالها وجنوبها ، هذا والرعب قد ألقاه الله فى قلوبهم فهم منه وجلون ، والخوف قد عم رئيسهم ومرءوسهم فهم منه خائفون ، يقدمون فى مسيرهم رجلاً ويؤخرون أخرى ، ويعتقدون أن المقام بهم أولى وأحرى (٩) ، لكن آجالهم تسوقهم إلى مصارعهم (١٠) فهم نحوها يبرزون ، وكأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون .

فلما تدانى الزحفان استشار المولى (١١) الشهيد وزراه وأمرأه ، فأشار أكثرهم بالعود إلى حلب ، ومطاولة الفرنج إلى أن يتفرقوا ، فقال : هذه خطة (٤٨ - أ) خسف تجربتهم علينا ، وتطمعهم فيما لدينا ، لكن الرأى أن نستعين بالله عليهم ونلقاهم ، فإما لنا وإما علينا (١٢) ، وتأهب للقاءهم ، وسار إلى تلقائهم ، فلم يبعد حتى وافاهم ، ولم يغب الحصن عنه حتى أتاها ، ونشبت (١٣) الحرب بين الفريقين ، واشتد الطعن والضرب بين الطائفتين ، وحمل الشهيد للإسلام وانتصر ، ولبس لأعدائه جلد النمر ، وصال عليهم وزأر ، وقال لهم ذوقوا من سقر ، وظل يوسعهم بحملاته حطماً ، ويستأصل أركانهم هدماً ، ويحرض أصحابه ويدمنهم (١٤) ، وبتتابع الحملات عليهم يأمرهم . فحينئذ رأى الفرنج ما قد أحاط بهم من البلاء ، وعلموا أن الهزيمة أصلح لهم من العطب ، وأنى لهم ذلك وقد علققت معالقتها وصر الجندب (١٥) ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، كما فعل بأشياهم من قبل ، وكثر فيهم الأسر والقتل .

- (١) بالأصل : وذووا . (٢) بالأصل : أرا . (٣) بالأصل : الغضنفر .
(٤) السوانى : جمع سانية . والسانية ، الناضجة وهى الناقة التى يستقى عليها . وفى المثل : سير السوانى : سفر لا ينقطع . (مختار الصحاح) . والمراد هنا فى النص ، السير المتحمل . (٥) العارض : السحاب .
(٦) بالأصل : نلقه . (٧) بالأصل : الأطراف . (٨) أنظر الصفحة التالية ، حاشية ٤/ .
(٩) بالأصل : وأجراى . (١٠) بالأصل : مصارعهم . (١١) بالأصل : المولاي .
(١٢) بالأصل : إلينا . (١٣) بالأصل : وبشت . (١٤) يدمنهم : أى يحرضهم على مداومة القتال .
(١٥) الجندب : ضرب من الجراد . (مختار الصحاح) .

فلما تعذرت (١) عليهم الهزيمة ، حووا أنفسهم للثيمة (٢) ، وأمرهم ملوكهم بالصبر والثبات ، والجلاد (٤٨ - ب) عن البنين والبنات ، والآباء والأمهات ، والإخوان والأخوات (٣) ، فحينئذ صدقوا القراع ، وأحسنوا المصاع ، وصال ملوكهم وقامصتهم (٤) ، وفسانهم وداوتهم (٥) ، وقاتلوا قتال من أيس من النجاة بالإنهزام ، فطلبهم (٦) [زنكى] بصدق القتال والإقدام ، ولقيمهم الشهيد لقاء محتسب للأخرة :

فأثبتت (٧) في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أخمصك الحشر (٨)

فقلق هو وأصحابه الهام ، وبروا العظام ، وأجلت الواقعة عن رعوس بلا غلاصم ، وأيد بغير معاصم ، وأخذت سيوف الله من أعناق أعدائه أغماداً ، وأدركت خيله منهم ثاراً وأحسنت جلاداً ، وأمر الشهيد فيهم بالإثخان ، ومنع من الأسر وإعطاء الأمان ، فلأت جثث القتلى تلك الصحراء في الطول والعرض ، وتأول قوله تعالى ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ (٩) وقصد أن يملأ قلوبهم رعباً ، ويذعرهم عن البلاد سرباً سرباً ، فلم ينج من المعركة إلا من اتخذ الليل جملاً (٤٩ - أ) أو ابتغى بالإختفاء بين القتلى موتاً (١٠) ، فلما

(١) بالأصل : تعذر . (٢) بالأصل : الليمة . (٣) بالأصل : الحوات . (٤) القامصة ، جمع قومص . والقومص تعريب حرفي للفظة اللاتينية (Comes) أى الأمير . ومعناها الأصل في اللاتينية « الرفيق » ، لأنه كان في بادى الأمر يرافق الملك في حروبه وتقاتله . وللفظة (Comes) اللاتينية ، هى التى حورت في اللغة الفرنسية إلى Comite . واعتادت المراجع العربية أن تعريبها إلى : « كد » و « كند » و « قند » ، ويجمعونه على كنود . (ابن واصل ، ح ١/ص ٧٣/حاشية ١) . (٥) نسبة إلى الديوية ، وهم قوم من الإفرنج يحبسون أنفسهم لجهاد المسلمين ، ويمنعون أنفسهم عن النسكاج وغيره . ولهم أموال وسلاح ، ولا طاعة عليهم لأحد . (النجوم الزاهرة ، ح ٦/ص ٣٣/حاشية ٣) . وفى (السلوك ، ح ١/ص ٦٨/حاشية ٤) ، أن لاسمهم الإفرنجى Templiers . وأن المسلمين أطلقوا عليهم لاسم « جمعية فرسان المبد » . وقد أسس هذه الجمعية Hugh de payns سنة ١١١٩ م ، لحاية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس ، ثم تحولت إلى هيئة حربية دينية . وكان لرؤسائها وفرسانها شأن كبير في تاريخ الإمارات الإسلامية . ويقول ابن الأثير (الكامل ، ح ٩/ص ٢١٤) ، إن المسلمين كانوا يتفوقون بعبود الديوية وذلك « لأنهم أهل دين يرون الوفاء » .

وهناك جماعة حربية دينية مسيحية أخرى تعرف عند المؤرخين العرب ، بالإستبارية — وسيرد ذكرهم فيما يلى من النص — وعند الغربيين باسم Hospitallers . وهم أيضاً فرسان مثل الديوية . وفى (السلوك ، ح ١/ص ٦٨/حاشية ١) ، أن الإستبارية تأسست سنة ١٠٩٩ م . على يد Blessed Gurrard ، بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . وكان لهم دار بيت المقدس قبل ذلك بزمان طويل ، مأوى للحجاج والمرضى من المسيحيين ، ثم تحولت إلى هيئة حربية دينية . وكان لرؤسائها وفرسانها شأن كبير في تاريخ الإمارات بالشام . وفى (النجوم الزاهرة ، ح ٦/ص ٣٣/حاشية ٢) ، أن الإستبارية طائفة من رجال الدين ، كان مبدأ أمرهم في القرن التاسع الميلادى في إيطاليا ، وتعرف باسم : Notre-Dame de la Scale ، ثم زاد عددهم في الحروب الصليبية لمساعدة الصليبيين من جهة ، والدعاية للفرس الدين من جهة أخرى ، وهم فرق كثيرة مختلفة .

وكان للديوية عدة معاقل وحصون بالشام منها : غزة — وهى معقلهم — وصفد : وبيت الأحزان ، وبيت جبريل (الروضتين ، ح ١/ص ١٩٣ : ح ٢/ص ١١/١٢١) . كذلك كان للإستبارية عدة معاقل وحصون ، منها : حصن الأكراد ، والمرقب . (السلوك ، ح ١/ص ١٦١) (٦) بالأصل : فظليها . (٧) بالأصل : واثبت . (٨) بالأصل : الحشرة . والبيت ورد بالأصل نثراً ، وهو من قصيدة للشاعر أبى تمام ، رثى بها محمد بن حميد الطائي ، (٩) سورة الأنفال : ٦٧ . (١٠) بالأصل : مؤيلا .

استقر له (١) النصر، وآل به إلى الظفر الصبر، رجع إلى الحصن فملكه عنوة وقهرأ، وعم كل من فيه قتلا وسبيا وأسرا. ولقد سمعت من يحكى أن عظام القتلى لم تزل بتلك الأرض مدة طويلة. ولما ملك الحصن آخر به ومحا (٢) أثره، وأزال من تلك الأرض ضرره، كما قال فيه الشاعر (٣) حيث يقول :

ما ربع مية معموراً يطيف به غيلان أبهى ربى من ربعها الحرب (٤)
ولا الحدود وإن أدمين من خجل أشهى إلى ناظر من خدتها الترب

قال : ثم رحل إلى حصن حارم (٥) فحصره، فأنفذ من لم يحضر المعركتين من الفرنج ومن نجا منهما (٦) يسألون الصلح، ويبذلون له المناصفة على ولاية حارم، فأجابهم إلى ذلك، لأن عسكره كان قد كثر فيهم الجراحات والقتل، فأراد أن يستريحوا ويريحوا، فهادنهم وعاد عنهم . وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن وحلول النصر، وسيرت البشائر إلى البلاد، وأعلنت في الحاضر والباد .

(٤٩ - ب) ذكر وفاة السلطان الملك مغنيث الدين

محمود بن محمد بن ملكشاه

في سنة خمس وعشرين وخمسمائة (٧)، توفي السلطان محمود بهمدان، وكان عمره نحو ثمانية وعشرين سنة (٨). وكانت ولايته ما تقارب أربع عشرة سنة (٩). وكان حليماً، كريماً، عادلاً، كثير الإحتمال. ووزر له أبو القاسم الأنساباذى (١٠)، وهو الذى سعى بالعزیز المستوفى (١١) حتى قبض [عليه] وسلم إلى بهروز شحنة العراق فسجنه بتكريت (١٢)، ثم قتل سنة ست وعشرين .

ولما توفي السلطان محمود، طلب السلطان مسعود بن محمد السلطنة، وطلبها [أيضاً] أخوه

(١) بالأصل: استمر . (٢) بالأصل: محى . (٣) الشاعر هو أبو تمام، والبيتان من قصيدة له في وصف عمورية - وكانت للروم - بعد أن أخرجها الخليفة العباسي المعتصم بالله سنة ٢٢٣، بعد حرب طاحنة . (٤) بالأصل: الحرب . (٥) حارم : في (ياقوت) : بكسر الراء . حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية . (٦) بالأصل : منها . (٧) في (الكامل، ج ٨/ص ٣٣٣) أنه توفي في شوال من السنة . (٨) في (الكامل، ج ٨/ص ٣٣٣)، كان عمره سبعة وعشرين سنة . (٩) في (الكامل، ج ٨/ص ٣٣٣)، كانت مدة ولايته اثني عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً . وما هنا أصح، لأنه ولي السلطنة - كما في (الكامل) - في ٢٤ ذى الحجة سنة ٥١١، وتوفي في شوال سنة ٥٢٥ . (١٠) ذكره المهاد الكاتب في « تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٠٨، وما بعدها، » أبو القاسم الدرر بنى أيضاً . وأخباره مفصلة عند العباد . وتوفي أبو القاسم سنة ٥٢٧ . (١١) هو أحمد بن حامد ابن محمد أبو نصر . (الكامل، ج ٨/ص ٢٣٨)، وهو عم العباد الكاتب الأصفهاني صاحب « تاريخ دولة آل سلجوق » وغيره، وقد ذكر المهاد محنة عمه في كتابه المذكور . (١٢) تكريت : في (ياقوت) : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهى إلى بغداد أقرب، وبينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً . ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى، رابكة على دجلة . وهى غربي دجلة .

سلجوق شاه بن محمد ، والملك داود بن السلطان محمود (١) ، وكان بينهم حروب كثيرة ، نذكر منها ما كان للشهيد عماد الدين — قدس الله روحه — فيها أثر وفعل ، وترك الباقي إذ هو خارج عن غرضنا .

ذكر ملك السلطان الملك العادل مسعود

والحروب الحادثة إلى أن ملك

لما مات السلطان محمود ، اتفق الوزير (٥٠ — أ) الأنساباذى (٢) وأتابك سنقر الأحمدي على [تولية] ولده الملك داود بن محمود ، وخطبوا له في جميع بلاد الجبل وآذربيجان ، وساروا إلى زنجان . وكان السلطان مسعود بكنجة — وهي له — فلما بلغه موت أخيه سار إلى تبريز فملكها ، فسار إليه الملك داود فحصره بها ، ثم أفرج عنه حتى خرج منها وقصد (٣) بلاد الأمير قفجاق (٤) ، فاجتمعت العساكر عليه بها سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وسار إلى بغداد وهو في عشرة آلاف فارس ، وسار قراجه الساقى صاحب خوزستان وفارس إلى بغداد ، ومعه الملك سلجوق شاه ابن السلطان محمد ، وقراجه يريد أن يأخذ السلطنة لسلجوق شاه ، وقد اجتمع معه عسكر عظيم ، وأتاه جماعة من الأمراء الكبار ، منهم يوسف جاووش وغيره ، فسبق سلجوق شاه أخاه السلطان مسعوداً إلى بغداد ونزل بدار السلطنة ، وأرسل السلطان مسعود إلى الشهيد عماد الدين — قدس الله روحه — يستميله ويستنجده ، فأجابه إلى ما طلب (٥٠ — ب) منه ، وسار عن الموصل إلى بغداد ، فبلغ تكريت ليجتمع بالسلطان مسعود ، وكان السلطان مسعود قد وصل عباسية الخالص قريب بغداد .

فلما سمع قراجه و سلجوق شاه بوصول الشهيد إلى تكريت ، عبر قراجه إلى الجانب الغربي ، وأسرى إلى تكريت في عسكره جميعه ، ولم يخلف ببغداد مع سلجوق شاه غير عدد يسير ، ولم يزل يسير حتى وصل إلى تكريت في يوم وليلة ، فواقعه (٥) الشهيد فهزمه قراجه وأسر أكثر أصحابه ، وعاد إلى بغداد .

وأما الشهيد ، فإنه عاد من الهزيمة إلى الموصل (٦) ، فجمع العساكر وأنفق الأموال فعادوا كأنهم لم يصابوا .

(١) في ابن واصل (٤٦/١/ص) ، أن عماد الدين أرسل أيضاً إلى الخليفة المسترشد بالله يسومه أن يخطب ببغداد الملك ألب أرسلان بن السلطان محمد الذي يشرف على تربيته . فاعتذر الخليفة بأن ألب أرسلان ما زال صبياً ، وأن السلطان محموداً عهد بالسلطنة لداود ، وأنه — أي الخليفة — منتظر رأى السلطان سنجر لأنه عم القوم .
(٢) بالأصل : الإنشاء بادي (أنظر ما سبق ، ص/٤٢) . (٣) بالأصل : وقصدها . (٤) هو الأمير قفجاق بن أرسلان تاش التركاني ، وكانت له شهرزور وأعمالها . (الكامل ، ٨/١/ص/٣٦٨) .
(٥) بالأصل : فواقع . وفي الكامل (٨/١/ص/٣٣٦) ، أن الموقعة كانت في مكان يقال له « المشوق » .
(٦) ذكر ابن الأثير فيما يلي من النص ، في خبر مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر ، في المرة الأولى ، وكذلك في الكامل —

وأما السلطان مسعود ، فإنه تقدم من العباسية (١) ، وجرى بينه وبين أخيه سلجوق [شاه] مناوشة ، فلما بلغه خبر الهزيمة الكائنة على الشهيد ، فت ذلك في عضده ، وأضعف نفسه فعاد إلى ورائه .

وكان قد وصل الخبر بوصول السلطان سنجر إلى نواحي همذان — وكان قد خرج في عساكر لا تحصى من خراسان ، ومعه (٥١ — أ) الملك طغرل بن السلطان محمد ليزته في السلطنة — فلما اتصل خبر وصوله [ببغداد] ، أرسل الخليفة المسترشد بالله إلى السلطان مسعود يأمره بالتوقف ، ليقرر الصلح بينه وبين أخيه سلجوق شاه ، ليتفقا على قتال عمهما السلطان سنجر ، فأقام . وترددت الرسل ، واستقر الصلح على أن تكون السلطنة لمسعود ويكون سلجوق شاه ولي عهده ، وعاد السلطان مسعود إلى بغداد ونزل بدار السلطنة ، وحضر أخوه سلجوق شاه في خدمته .

وسارا جميعاً إلى قتال عمهما (٢) السلطان سنجر ، وألزما المسترشد بالله بالمسير معهما فامتنع ، فهدده قراجه الساقى ، فخرج مكرها منها وسار بعدهما .

وأرسل السلطان سنجر إلى الشهيد يأمره أن يقصد بغداد هو وديس بن صدقة ملك العرب ، — وكان [ديس] عند الشهيد على ما ذكره إن شاء الله تعالى — ويستوليا عليها ، ويخطبا له ببغداد وبعده للملك طغرل .

(٥١ — ب) ذكر الحرب بين السلطان سنجر والسلطان مسعود

لما سار السلطان مسعود وأخوه سلجوق شاه إبننا محمد إلى حرب عمهما السلطان سنجر ، جعلوا على المقدمة يرتقش بازدار ، ويوسف جاووش ، وحسين أوزبك ، وهم من أكابر الأمراء ، فلقيتهم طلائع السلطان سنجر بدای مراك (٣) ، فرجعوا إلى کرمان شاه ، وكان على مقدمة السلطان سنجر ، الملك طغرل بن محمد ، وخوارزمشاه ، والأمير قماج . ورحل السلطان سنجر من همذان يريد السلطان مسعوداً ، فعاد مسعود عن طريقه ، فتبعه السلطان سنجر ، فالتقيا قرب الدينور ، وكان العسكران كالبحرين كثرة (٤) . وكان على ميمنة السلطان سنجر طغرل وقماج ، وعلى ميسرته

== (ح / ٨ / ص ٣٣٦) مساعدة نجم الدين أيوب — والد صلاح الدين — الذى كان دزدار تکریت ، لعاد الدين بعد هزيمته . وفي الروضتين (ح / ١ / ص ٢١٠ — نقلا عن عماد الكاتب) معلومات أكثر مما فى النص و « الكامل » عن هذه المساعدة . حيث يذكر أن عماد الدين انهزم وبه عدة جراحات ، فلما علم به نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه حملا على قلعة تکریت بالحبال ، وداويا جراحاته ، وخدماء أحسن خدمة وتقربا إليه . فأقام عندهما بتکریت خمسة عشر يوما ، ثم سار إلى الموصل ، وأعوزة الظهر فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظهر ، حتى أنهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ما سلم من أمتعه . فكان عماد الدين يرى لأيوب هذه اليد ، ويعرف له هذه الضيعة ، ويواصله بالهدايا والألطاف مدة مقامه فى تکریت . فلما انفصل أيوب عن تکریت وسار إلى عماد الدين ، تلقاه بالرحب والسعة واحترمه احتراماً عظيماً ، وأقطعه عدة قطائع . (١) بالأصل : العباسية . (والنصحیح من الكامل ، ح / ٨ / ص ٣٣٦) . (٢) بالأصل : عمها . (٣) بالأصل : دامرج . (والنصحیح من ، تاريخ دولة آل سلجوق ص / ١٦٢ . ولم يعرف بها باقوت فى مجمعه) . (٤) بالأصل : كثيرة .

خوارزمشاه . وعلى ميمنة السلطان مسعود ، قراجة الساقى ، والأمير قزل ، [وكان قزل (١)]
قد واطأ خوارزمشاه على الهزيمة بين يديه ، ليقع الوهن فى عسكر السلطان مسعود . فلما التقى
العسكران ، حمل خوارزمشاه على قزل فانهزم ، واختلطت العسكر ، وارتفع العجاج ، وكان يوماً
فامشهوداً ، وحمل قراجة الساقى على القلب — وفيه السلطان سنجر فى عشرين ألف (٢) (٥٢ — أ)
رس ، هم أعيان العسكر وشجعانهم ، وبين يديه الأفيلة — فلما تقدم إلى القلب ، حمل طغرل
وخوارزمشاه فيمن معهما ، فأتوه من وراء ظهره فصار فى الوسط ، فقاتل إلى أن جرح ، وقتل
كثير من أصحابه وأخذ أسيراً ، وانهزم السلطان مسعود ، وقتل يوسف جاووش ، وحسين
أوزبك فى المصاف ، وكان ذلك ثامن رجب .

ونزل السلطان سنجر ، وأرسل بعض خواصه إلى السلطان مسعود ، وقد بلغ خونج ، وأمنه
واستدعاه إليه ، فحضر عنده وعاتبه على إقدامه عليه ، فاعتذر وأنسب ذلك إلى ابتكين الخادم ،
فأمر به فضربت عنقه .

وأمر السلطان بالمسير إلى كنجة . فحكى لى والدى عن جماعة حضروا ذلك المصاف ، قال :
أحضر السلطان سنجر قراجة الساقى وعاتبه على فعله ووجعه ، وقال له : إذا حاربني أولاد أخى
فليس يبعد (٣) أن يطلبوا السلطنة ، وأما أنت ، فما كنت تريد حتى تجمع العساكر وتوكل الناس
على قتالى ، أكان (٤) يصير لك (٥٢ — ب) من الملك أكثر من بلاد فارس وخوزستان . قال :
كنت أرجو أن أظفر بك وأقتلك ويكون أولاد أخيك بحكمى ، أقيم من أريد وأعزل من أريد .
فغضب السلطان سنجر منه وأمر بقتله ، فقتل ، وأمر أن يشق صدره عن فواده فأراى أكبر
منه ، فألقى عليه حجراً كبيراً فلم يبعجه ، فقال : من يكون هذا فواده يحدث نفسه بما قال .

وخطب لطرل ابن أخيه بالسلطنة فى همدان ، وأصفهان ، والرى ، وسائر بلاد الجبل .
وجعل فى وزارته (٥) أبا القاسم الأنساباذى (٦) وزير السلطان محمود .

ذكر وصول الشهيد إلى بغداد وهزيمة

لما سار المسترشد بالله عن بغداد مع السلطان مسعود ، أقام بخانقين ينظر ما يكون من مسعود ،
فلما سمع بهزيمة وقاتل قراجة ، رجع إلى الديسكرة ، فأتاه الخبر بوصول أتابك الشهيد عماد الدين
زنكى وديس بن صدقة إلى بغداد ، فأسرع العود إليها ، وعبر إلى الجانب الغربى فيمن معه من
العساكر ، وكان فيهم (٥٣ — أ) كثرة ، فالتقوا لثلاث بقين من رجب سنة ست وعشرين

(١) الإضافة ، من الكامل (ح/٨/ص/٣٣٧) . (٢) فى الكامل (ح/٨/ص/٣٣٨) : عشرة آلاف .
(٣) بالأصل : بعد . (٤) بالأصل : لكان . (٥) بالأصل : وزارته . (٦) بالأصل :
الاسترابادى . (انظر ، ما سبق ، ص ٤٢) .

وخمسائة . فحكى لى والدى عن جماعة من أصحاب الشهيد من حضر المصاف ، قالوا : إشتد القتال وظهرنا على عسكر الخليفة ، ولم يبق غير أن ينهزموا ، فرأينا خيمة سوداء قد نصبت عند المعركة ، وخرج المسترشد بالله منها راكباً بسواده ويده سيف مسلول ، فكلهم قالوا لما رأيناه : لحقنا دهشة ورعدة حتى كاد السلاح يسقط من أيدينا ، فكانت الهزيمة علينا ، ولم نطق الثبات فانهزمنا ونحن لانهقل . وكان ابتداء الهزيمة من ديبس فإنه انهزم أولاً ، وعاد الشهيد إلى الموصل . وعاد المسترشد بالله إلى بغداد . وأما ديبس فإنه قصد نحو الحلة ، وجمع جمعاً وسار إليها ، وبها جمال الدولة إقبال المسترشدى ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم ديبس أيضاً .

ذكر السبب في مصير ديبس^(١) عند الشهيد

رضى الله عنه

كان ديبس بن صدقة بن منصور بن ديبس بن على بن مزيد (٥٣ - ب) ملك العرب صاحب الحلة ، قد جرى بينه وبين المسترشد بالله نفرة ووحشة غير مرة ، أوجبت شكوى المسترشد بالله منه إلى السلطان محمود والسلطان سنجر ، وجرى له أقاصيص طويلة اقتضت الحال أخيراً^(٢) إبعاده عن العراق .

وكان شريراً خبيث الطوية . وكان من أشد الناس عداوة للشهيد عماد الدين وأكثرهم وقية فيه . فسار عن العراق سنة خمس وعشرين وخمسائة ، عازماً على قصد الشام ، إلى حصن صرخد لملكه . وسبب ذلك أن صرخد كانت بيد أمير اسمه أكن ، فتوفى وخلف زوجة حدثت نفسها أنها تملك الحصن ، فقال لها بعض أصحابها : إن هذا لا يتم لك إلا برجل يتزوجك من الأمراء الأكابر ، وحسن لها الاتصال بديبس ، فأرسلت إليه تدعوه ليتزوجها وتسلم إليه صرخد . فسار إلى الشام فلقبه سوء نيته ، فضل في البر فأسره قوم من بني كلب ، وسلموه إلى تاج الملوك [بورى] ابن طغتكين أتابك ، صاحب (٥٤ - أ) دمشق . فلما حصل عنده ، أرسل إليه الشهيد يطلبه منه وبذل فيه مالا ، فامتنع من تسليمه ، فتهدهه أتابك بقصد بلاده ومحاصرتها ، فسلمه إليه^(٣) . فلما صار عنده ، جازى إساءته بإحسان ، وأنعم عليه وخوله^(٤) ، وأعطاه المال والخيام والسلاح والخيول وكل ما يحتاج إليه الملوك ، وبالنغ في إكرامه إلى غاية لا مزيد عليها .

ولما اتصل خبر مصير ديبس إلى دمشق بالمسترشد بالله ، أرسل إلى تاج الملوك مع سيد الدولة بن الأنبارى صاحب ديوان الإنشاء ببغداد ، يطلب منه أن يسلم ديبساً إليه . فلما وصل

(١) الاسم مكرر بالأصل . (٢) بالأصل : أخيرة . (٣) في ، السكامل (٨/ص/٣٣٣) ، أن عاد الدين عرض على تاج الملوك أن يسلمه ديبساً ، في مقابل إطلاق سراح ابنه سونغ والأمراء الذين قبض عليهم في حماة ، فأجابته إلى ذلك . (٤) في (مختار الصحاح) : خوله الله الشيء : ملكه إياه . وخول الرجل : حشمه .

دمشق وعلم بمصير ديس عند الشهيد ، تسمع وذكره بما يكرهه ، فاتصل ذلك بالشهيد — وكان له في كل بلد من يطالعه بالأخبار — فامتعض لذلك ، وأرسل إلى بزية وحييها بالرجال ، وأمرهم بأخذ ابن الأنباري وحمله ، فلما عاد أخذ بنواحي الرحبة وحمل إلى الشهيد فخبسه بالموصل ، فأرسل الخليفة (٥٤ — ب) المسترشد بالله يشفع فيه ، فأطلقه وأحسن إليه .

وهذه كانت عادة الشهيد في حزمه واحتياطه ، لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير أمره ، وإذا استأذنه رسول في العبور في بلاده ، أرسل إليه من يسيره ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم ، فكان الرسول إليه يدخل بلاده ويخرج منها ، ولم يعلم من أحواله شيئاً ألبتة .

وفي هذه السنة — أعني سنة ست وعشرين وخمسمائة — ملك الشهيد قلعة بهمر د (١) من ديار بكر . فانظر إلى هذه الهمة ، قد كان في هذه السنة من الأمور العظيمة ، واختلاف السلاطين ، وانهما دفعتهما ، ولم يشغله ذلك عن زيادة في ملكه ، بمثل هذا الحصن العسير (٢) .

ذكر حصر المسترشد بالله (٣) أمير المؤمنين الموصل

في ربيع الأول من سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، برز المسترشد بالله من بغداد إلى الرملة ، فنهزها وجمع العساكر . وكان قد قصده (٥٥ — أ) عدة أمراء من العساكر السلطانية للخلف الواقع بينهم ، فقوى بهم المسترشد واستبد بالعراق وجبى الأموال ، وأرسل الإمام أبا الفتوح الإسفرائيني (٤) الواعظ إلى الشهيد ، فاعلظ له في القول ، فأهانته الشهيد غاية الإهانة (٥) وعاد [إلى] المسترشد بالله ، فعند ذلك سار إلى الموصل في ثلاثين ألفاً ، فلما بلغ الخبر إلى الشهيد ، رحل عن الموصل في بعض عسكره ، وترك الباقي بالموصل مع نائبه بها نصير الدين جقر ، ونزل أتابك الشهيد بظاهر سنجار . فحدثني والدي ، قال : نزل المسترشد بالله على الموصل في عسكر عظيم ، وحفظها نصير الدين أحسن حفظ ، وقام فيها المقام المرضي . وكان الشهيد يرسل السرايا يقطع الميرة عن عسكر الخليفة من كل ناحية ، فقلت الميرة ، وعزت الأقوات عنهم وصاروا شبه المحصورين ، فأقام الخليفة محاصراً لها نحو ثلاثة أشهر فلم يظفر منها بشيء ، ولم يظهر له من العسكر (٥٥ — ب) بالبلد ما يدل على وهن وضعف ، فعاد إلى بغداد ولم يبلغ غرضاً . فقيل كان سبب عوده أن السلطان

(١) في ، السكامل (٨/ص/٣٦٧) ، أن عماد الدين استولى عليها سنة ٥٣٥ . وهي لداود بن سقان بن أرتق صاحب حصن كيفا . وقد استولى عليها عماد الدين بعد حرب شديدة بينه وبين صاحبها . (٢) بالأصل : اليسير . وهو تصحيف من الناسخ . وما أثبتته الحق أصح ، إذ أن اليسير في الاستيلاء عليها ، يجعل إشادة ابن الأثير بعماد الدين غير ذات موضوع . (٣) بالأصل : بالله . (٤) بالأصل : الإسفرائيني . (٥) والتصحيح من ، السكامل ، ٨/ص/٣٤٠ . (٥) في السكامل (٨/ص/٣٤٠) ، أن الخليفة «أرسل أبا الفتوح إلى عماد الدين برسالة فيها خشونة زادها أبو الفتوح ، ثقة بقوة الخليفة وتاموس الخلافة ، فقبض عليه عماد الدين وناله بما يكره» ، فسار الخليفة إلى الموصل وحاصرها .

مسعوداً أرسل إليه مع نظر (١) الخادم - أمير الحاج - يشير بالعود ، فعاد ؛ وقيل بلغه عزم السلطان على قصد العراق ، فعاد . وقيل غير ذلك . وبالجملـة فلو رأى أمانة ظفر وفتح لم يرحل . وكان عوده في الشبارة (٢) ، وراسل أتابك الشهيد فصالحه وسير إليه الشهيد الخدم والهدايا .

ذكر ملك الشهيد قلاع [الأكراد] الحميدية (٤)

وفي هذه السنة ، وهي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، إستولى الشهيد رضى الله عنه على سائر قلاع الأكراد الحميدية وولاياتهم ، منها قلعة العقر (٥) وقلعة شوش (٦) ، وغير ذلك . وسبب قصدها ، أنه لما ملك الموصل وأعمالها ، أقر الأمير عيسى الحميدى على ولايته ، ولم يعترضه فى شىء مما بيده ، فلما حصر المسترشد بالله الموصل ، حضر الأمير عيسى عنده فى جنده وجموعه ، وأمده بالآقوات (٥٦ - أ) وغيرها مما يحتاج إليه ، فلما عاد المسترشد بالله عن الموصل ، أمر الشهيد بحصر قلاع الحميدية ، فحوصرت مدة طويلة ، وقوتلت قتالا شديدا إلى أن فتحت فى هذه السنة ، واطمأن أهل سواد الموصل المجاورون لهؤلاء القوم ، فإنهم كانوا معهم فى خطة خسف . وفى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، سار الشهيد إلى مدينة آمد فحصرها وضيق عليها (٧) .

واستوزر ضياء الدين بن الكفر توثى .

ثم رحل عن آمد إلى الشام فحصر مدينة دمشق (٨) .

وفى فيها توفيت والدته الشهيد بالموصل .

فى ذكر قتل أمير المؤمنين الخليفة المسترشد بالله

وخلافة الراشد (٩)

كان السلطان مسعود سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ببغداد ، وقد ضعف أمره وقوى أمر (١٠)

(١) فى ، السكامل (٨/ص/٣٤٠) : نصر . (٢) الشبارة : نوع من السفن . (٣) الإضافة من ،

السكامل (٨/ص/٣٤٣) . (٤) بالأصل : الحمونية . (والنصحيج من النص نفسه ، ومن السكامل ، ٨/ص/

٣٤٣) . (٥) قلعة العقر : فى (ياقوت) : بفتح أوله وسكون ثانيه . قلعة حصينة فى جبال الموصل أهلها

أكراد ، وهى شرقى الموصل ، تعرف بعقر الحميدية . (٦) قلعة شوش : فى (ياقوت) : بتكرار الشين وسكون

الواو . موضع قرب جزيرة ابن عمر من نواحي الجزيرة . والشوش قلعة عظيمة عالية جدا ترب عقر الحميدية من

أعمال الموصل . قيل هى أعلى من العقر وأكبر ، ولكنها فى التدر دونها .

(٧) فى ، السكامل (٨/ص/٣٤٣) أن حصار آمد كان فى جمادى الآخرة من السنة ، ولما عجز عماد الدين عنها

لستولى على قلعة « الصور » . (٨) فى ، السكامل (٨/ص/٣٤٦) ، أن حصار دمشق كان سنة ٥٢٩ .

وفى « المنتظم » (١٠/ص/٤٣) ، أنه لما حاصر عماد الدين دمشق ، بعث أصحابها إلى الخليفة « حملا كثيرا وخطا

بخمسين ألف دينار ، وقالوا : لدفع عنا زنسكى ونحن نحمل هذا فى كل عام . فبعث إليه : تنح عنهم واخطب للصبي (أى

للملك ألب أرسلان الذى يشرف عماد الدين على تربيته) وتعال معه إلى العراق حتى أخطب له وتساعد على مسعود .

فقال : السمع والطاعة ، وخطب للصبي » . (٩) بالأصل : الراشدة . (١٠) بالأصل : أمره .

أخيه الملك طغرل وملك سائر بلاد الجبل . فراسل السلطان مسعود ، المسترشد بالله يستميله ويطلب منه المساعدة على أخيه . طغرل ، فأجيب إلى ذلك ، وأمدّه بالأموال والرجال (٥٦ - ب) فضعفت نفس السلطان مسعود عن المسير ، لأن عمه السلطان سنجر ، كان يقوى أمر الملك طغرل ويشد منه . فلما رأى الخليفة تأخر السلطان مسعود عن المسير ، أرسل إليه يأمره بتعجيل الحركة ودفع أخيه عن البلاد ، فلم يفعل . فأعاد الأمر ثانياً وكرر ذلك ، فلم يتحرك . فأرسل إليه أخيراً جاولى القسيمي ، شحنة بغداد ، مضايقاً له على المسير إلى بلد الجبل وإزاحة أخيه عن البلاد ، وأمره إن رأى من السلطان مدافعة أن يلقي خيمه . فلما علم السلطان حقيقة الأمر ، عظم عليه ونادى في العسكروا ليتجهزوا للرحيل . فبينما هم في التجهيز ليرحلوا ، وإذا قد ورد الخبر بوفاة السلطان طغرل . وكانت (١) وفاته في المحرم سنة تسع وعشرين وخمسمائة . فأسرع السير إلى همدان ، واجتمعت عليه العساكر . واستوزر شرف الدين أنوشروان بن خالد . ثم وقع الخلاف في عسكره واستوحش منه جماعة من الأمراء منهم الأمير قزل آخر ، ويرنقش بازدار ، وسنقر الخمار تكيئي (٥٧ - أ) وإلى همدان ، وعبد الرحمن [بن (٢)] طغايرك وغيرهم ، وانفردوا عنه في عدد كثير وساروا نحو البشير لموافقة كانت بينهم وبين برسق بن برسق صاحب خوزستان ، وأقاموا ينتظرونه وكانوا في سبعة آلاف فارس ، فسار إليهم السلطان مسعود جريدة في ثلاثة آلاف وكبسهم وهزمهم وفرق شملهم ، وولوا مدبرين نحو بغداد ، فوصلها منهم يرنقش بازدار ، وقزل آخر ، وسنقر الخمار تكيئي ، وأخبروا المسترشد بالله عن سوء ضمير السلطان له ، ووعدوه (٣) النصر والمساعدة عن أنفسهم وعن جماعة من أكابر الأمراء ، وحسنوا له قتال السلطان ، فأجابهم إلى ذلك ، وقطع خطبة السلطان ببغداد ، وسار عنها في شعبان من هذه السنة . وأتاه في الطريق برسق بن برسق ، فاجتمعوا في سبعة آلاف فارس ، واستخلف في بغداد جمال الدولة إقبال في ثلاثة آلاف فارس ، وراسل أصحاب الأطراف ، المسترشد بالله يبذلون (٤) له الطاعة ، فريث (٥) في (٥٧ - ب) الطريق ، فاستصلح السلطان مسعود أكثرهم فالوا إليه وساروا نحوه . وكان قبل إصلاحهم في نحو ثلاثة آلاف فارس ، فصار في خمسة عشر ألفاً ، وأرسل إليه أتابك الشهيد نجدة فوصلت بعد المصاف .

وسار الخليفة إلى داي مرك ، فلما علم السلطان وصوله ، استعد لقتاله وسار إليه فعبأ الخليفة عسكره ، وكان في الميمنة يرنقش بازدار (٦) ، وسنقر الخمار تكيئي ، وبرسق ابن برسق والغلمان الدارية . وكان في ميسرته جاولى وغيره . ووقف الخليفة في القلب ، والتقوا عاشر رمضان ، والتحم القتال ، فغدرت ميسرة الخليفة ومالت إلى السلطان ، وأحاطت عساكر السلطان بالخليفة وعساكره ، وكثر القتل والأسر (٧) في عسكر الخليفة ، وأفضى الأمر إلى أن

(١) بالأصل : وكان . (٢) الإضافة من ، الكامل (٣٤٧/ص/٨) . (٣) بالأصل : ووعد .

(٤) بالأصل : يتبدلون . (٥) بالأصل : فرب . (والتصحيح من الكامل ، ٣٤٨/ص/٨) .

(٦) بالأصل : وبازدار . (والتصحيح من ، الكامل ، ٣٤٨/ص/٨) . (٧) بالأصل : والاسر .

أخذ بعنان فرسه وأنزل وقبض عليه ، وقبض أيضاً الوزير شرف الدين الزينبي (١) ، وقاضى القضاة (٢) ، وكال الدين بن طلحة صاحب الخزن ، وابن الأنباري (٣) كاتب الإنشاء ، وخلق كثير ورفعوا (٥٨ — أ) إلى قلعة سرجهان بقرب زنجان ، وغنموا كل ما فى العسكر .

وأنفذ السلطان [بك أبه المحمودى (٤)] شحنة إلى بغداد ، فوصلها سلخ رمضان ومعه عبيد (٥) ، فقبض جميع أملاك الخليفة ، وثارت الفتنة ببغداد ، ووثب العامة على الشيعة ، فقتل الشحنة منهم جماعة ، وجرى يوم العيد فيها فتنة ، وقتل جماعة ونهبت الأموال ، وبقي الخليفة المسترشد بالله فى القبض إلى سادس عشر ذى القعدة ، فاتفق أن رسول السلطان سنجر وصل إلى السلطان مسعود ، فخرج إلى لقائه واشتغل الناس بذلك ، فهجم على الخليفة أربعة (٦) عشر نفرا من الباطنية ، وبقي خارج الخيمة عشرة رجال ، فضربوه بالسكاكين فخرحوه خمسا وعشرين جراحة ، وقطعوا رأسه ، وشقوا جوفه ، وجدعوه ، وأخذوا ثيابه وتركوه عريانا . وكانت خيمته خارج العسكر ، وقتل إمامه ابن سكينه ، وإنسان هاشمى . ووقع الخبر فى العسكر ، فركبوا فى السلاح وقتلوا عشرة من الباطنية وهرب أربعة (٧) عشر (٥٨ — ب) . وبقي المسترشد بالله مطروحا يوما وليلة ، فجاء أهل مراغة فحملوه إلى البلد وكفنوه ودفنوه بمقبرة سنقر الأحمدى .

وكتب السلطان مسعود إلى شحنة بغداد — وهو الأمير بك أبه — ، يأمره بالبيعة للأمرى أبى جعفر المنصور بن المسترشد بالله ، فبايعه يوم الإثنين السادس والعشرين من ذى القعدة . وحضر بيعته (٨) عشرون (٩) رجلا من أولاد الخلفاء : أولاد المقتدى بأمر الله عم والده ، وأولاد المستظهر بالله عمومته ، وأولاد المسترشد بالله إخوته . ثم بايعه الهاشميون ، ثم القضاة ، والعلماء والأمراء وغيرهم . وتلقب الراشد بالله ، واستقرت الخلافة له .

ذكر عمر المسترشد بالله وشيء من سيرته

رحمه الله تعالى

قال . كان مولده فى شعبان سنة ست وثمانين وأربعمائة . وكان عمره ثلاثا (١٠) وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام . وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر . وأمه أم ولد . وكان شهما (٥٩ — أ) شجاعا ، مقداما ، فصيحاً .

- (١) هو شرف الدين على بن طراد الزينبي (الكامل ، ج ٨/ص ٣٤٩) . وترجمته فى (شذرات الذهب ، ج ٤/ص ١١٧ — وفيات سنة ٥٣٨) . (٢) هو ، أبو القاسم على بن الحسين الزينبي (ابن عم الوزير على ابن طراد الزينبي) . (الكامل ، ج ٨/ص ٣٥٥) . وترجمته فى (شذرات الذهب ، ج ٤/ص ١٣٥ — وفيات سنة ٥٤٣) . (٣) هو سيد الدولة محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم الشيبانى . وقد توفى سنة ٥٥٨ . وترجمته فى (شذرات الذهب ، ج ٤/ص ١٨٤) . (٤) الإضافة من الكامل (ج ٨/ص ٣٤٨) . (٥) بالأصل : عميد . (والتصحيح من ، الكامل ، ج ٨/ص ٣٤٨) . (٦) بالأصل : أربع . (٧) بالأصل : أربع . (٨) بالأصل : ببيعته . (٩) بالأصل : عشرين . (١٠) بالأصل : ثلاثة .

ويمكن في خلافة (١) تمسكنا عظيماً ، لم يره أحد ممن تقدم من الخلفاء من عهد المنتصر بالله (٢) إلى خلافته ، إلا أن يكون المعتضد بالله والمكشفي بالله ، لأن المماليك (٣) كانوا قديماً يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم ، ولم يزالوا كذلك إلى ملك الديلم واستيلائهم على العراق . فزالت هيبة الخلافة بالمرّة إلى انقراض دولة (٤) الديلم . فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما (٥) في وزارة نظام الملك ، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها ، إلا أن الحكم والشحن بالعراق كان للسلطان وكذلك العهد (٦) وضمن البلاد . ولم يكن للخلفاء إلا إقطاع يأخذون دخله . وأما المسترشد بالله فإنه استبد (٧) بالعراق بعد السلطان محمود ، ولم يكن للسلطان (٨) معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة . واجتمعت عليه العساكر ، وقاد الجيوش (٥٩ - ب) وبأشر الحروب . وقد أتينا على ذكر ذلك في المستقصى في التاريخ .

ذكر مسير الراشد بالله (٩) أمير المؤمنين

إلى الموصل مع أتابك الشهيد

في سنة ثلاثين وخمسمائة ، سار الراشد بالله إلى الموصل صحبة أتابك عماد الدين زنكي ملتجئاً إليه . وكان سبب ذلك ، أن العساكر السلطانية اختلفت على السلطان مسعود ، وكذلك أصحاب الأطراف ، وتراسلوا في الاجتماع على قتاله وإقامة سلطان يرتضونه ، واستقر بينهم الاجتماع ببغداد . فسار أتابك الشهيد من الموصل إلى بغداد ، وقدمها الملك داود بن السلطان محمود في عسكر أذربيجان ، وورد إليها يرتقش بازدار في عسكر قزوین . وكان مع الملك داود الأمير عنتر بن أبي العسكر الجواني يدبر أمره . فلما اجتمعت العساكر ببغداد حسنوا للراشد الخروج معهم عن بغداد إلى السلطان مسعود ومحاربه ، فأجابهم إلى ذلك . وكان وزيره حينئذ جلال الدين أبا الرضى محمد بن أحمد بن صدقة (٦٠ - أ) الذي صار وزيراً لأتابك الشهيد فيما بعد . واجتمعوا على هذا العزم في صفر سنة ثلاثين وخمسمائة . وظهر من الراشد بالله تنقل في الأحوال ، وتلون في الآراء (١٠) ، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه ، منهم : أستاذ الدار أبو عبد الله الحسين

- (١) بالأصل : خلافة . (٢) بالأصل : المنتصر بالله . (والتصحيح من ، الروضتين ، ١/ص/٣١) .
وقد ولي الخليفة المنتصر بالله الخلافة من سنة ٢٤٧ - ٢٤٨ . أما المنتصر بالله . فهو الخليفة الفاطمي ، الذي ولي الخلافة في مصر ، من سنة ٤٨٧ - ٤٩٥ . (٣) المماليك : يقصد بهم الترك الذين دخلوا في خدمة الدولة العباسية في عهد الخليفة المعتصم بالله الذي ولي الخلافة سنة ٢١٨ . (الكامل ، ٥/ص/٢٣١) واستمروا يستبدون بالحكم حتى سنة ٣٣٤ ، حيث تغلب عليهم بنو بويه الذين يذكركم « النص » بالديلم ، وأستولى معز الدولة البويهى على بغداد في هذه السنة ، في عهد الخليفة المستكفي بالله (الكامل ، ٦/ص/٣١٤) وظلوا يستبدون بالخلافة حتى سنة ٤٤٧ حيث قضى عليهم السلاجقة (الكامل ، ٨/ص/٧١) . (٤) بالأصل : دولته . (٥) بالأصل : الاستمارة . (٦) بالأصل : العمدة . (والتصحيح من ، الروضتين ، ١/ص/٣١) . (٧) بالأصل : اشتد . (والتصحيح من ، الروضتين ، ١/ص/٣١) . (٨) بالأصل : السلطان . (٩) بالأصل : بالله .

(١٠) في المنتظم (١٠/ص/٥٥) ، أن الخليفة كان يضن على عماد الدين بالأموال ، فأثقل عليه عماد الدين حتى تقل له إقطاع الوكلاء ، ثم عاد الخليفة ودفع له ثلاثين ألف دينار ، وسحب منه الإقطاع . ويذكر أيضاً أن العلاقة تحولت

بن جبير ، وجمال الدولة إقبال المسترشدى ، وأراد القبض على وزيره جلال الدين بن صدقة ، ركب في موكبته إلى أتاكبك الشهيد ، فنزل في خيمته ، فأجاره وأمنه ، فركب الشهيد ووقف مقابل لتاج ، وأرسل يشفع في الذين قبض عليهم الراشد شفاعته تحتها إلزام وحكم ، فأطلقوا ، وسلم إقبال المسترشدى إلى الشهيد ، لأنه أظهر من العناية بأمره أكثر من غيره . فلما وصل إلى خيمته كرمه واحترمه وأحسن إليه ، ولم يجازه على ما كان منه قديماً من عداوته . ثم إن قاضى القضاة الزينبي خاف من الخليفة أيضاً ، فالتجأ إلى الشهيد فأمنه وأحسن إليه ، وقرر مع الملك داود (٦٠ - ب) أن يستوزر جلال الدين بن صدقة ، فاستوزره في ربيع الآخر .

ثم ورد الخبر ، أن الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد وصل إلى واسط في جمادى الأولى في عسكر كثير (١) ، فأنحدر أتاكبك الشهيد إليه ليحاربه ، فوقع الخلف بين سلجوق شاه وبين أتاكبكه البقش ، وراسل الشهيد البقش فاستماله وحذره من سلجوق شاه فقال إليه ، وسار هو وجماعة من الأمراء إلى عسكره وفارقوا سلجوق شاه .

وعاد الشهيد إلى بغداد ومعه البقش وجماعة الأمراء ، فازداد أتاكبك الشهيد عظمة وعلو محل وكانوا لا يصدرن إلا عن أمره ورأيه .

ثم عاد الشهيد وأصلح أمر الوزير جلال الدين بن صدقة مع الراشد ، وإعادة إلى وزارته . وكثر الفساد في العراق ، وتطرق المفسدون والعساكر إلى نهبه ، فنهبوا (٢) الحریم الطاهري (٣) ، وشارع دار الرقيق ، وكثيراً من بلد دجيل ، وبعض طريق (٦١ - أ) خراسان ونهبت الأموال أيضاً ببغداد علانية لا مانع لهم من ذلك .

ثم إن السلطان مسعوداً سار نحو العراق ، فبلغ الشامية في عسكر كثير ، فأراد من ببغداد من الملوک والأمراء قتاله ، ثم خافوا لما رأوا ما عندهم من الخلاف وتلون الخليفة الذى معولهم عليه . وتقدم السلطان مسعود إليهم فخصرهم نيفاً وخمسين يوماً ، فتسلل (٤) عسكره وقلوا ، فعاد إلى النهروان عاز ماعلى العود إلى بلد الجبل ، فوصله بالنهر وان طرنطاي (٥) صاحب واسط ، وأخبره بما معه من السفن والمقاتلة في الماء ، فسار السلطان مسعود إليها وعبر فيها تحت بغداد ،

بين عماد الدين والخليفة إلى تخوف ، بحيث وضع الخليفة حرساً تحت قصر التاج لاستشمارا من عماد الدين ، ثم عادت المياه إلى مجاريها بينهما بعد ذلك .

(١) بالأصل : كثيراً . (والتصحیح من السکامل ، ٨/ص/٣٥٢) . (٢) فى ، السکامل (٨/ص/٣٥٤) ، أن عماد الدين هو الذى أرسل من نهب الحریم الطاهري ، فأخذوا منه أموالاً كثيرة ، وذلك لما رأى أن العيارين يهبونه . (٣) بالأصل : الطاهري . والتصحیح من (ياقوت) والحریم الطاهري حتى بأعلى مدينة السلام ببغداد فى الجانب الغربى منها ، منسوب إلى طاهر بن الحسين ، وبه كانت منازلهم ، وكل من لجأ إليه آمن . فذلك سمي الحریم ، وكان أول من جعلها حرماً ، عبد الله بن طاهر بن الحسين . (٤) بالأصل : فتسلل . (٥) بالاصل : الطرمطاي . والتصحیح من السکامل (٨/ص/٣٥٤) .

وعبرت العساكر التي كانت ببغداد إلى الجانب (١) الغربي لمنعه فسبقهم . فلما رأوا ذلك علموا قوته فعاد كل منهم إلى بلده وولايته (٢) .

وخرج الراشد بالله من دار الخلافة ، ونزل على أتابك الشهيد ملتجئاً إليه ، ومعه وزيره (٦١ - ب) ابن صدقة وجماعة من الخدم والأترار وسار معه إلى الموصل . واستقر السلطان مسعود ببغداد في ذي القعدة .

وأقام أتابك الشهيد للخليفة كل ما يريده ، وبالع في ذلك ، وأرسل إليه من الأموال والعروض والآلات ما لا حد عليه . وأقام بالموصل إلى أن سار على ما ذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر خلع الراشد بالله أمير المؤمنين وخلافة المقتفي لأمر الله

أمير المؤمنين رضي الله عنهما أجمعين

لما سار الراشد بالله عن بغداد إلى الموصل صحبة أتابك الشهيد ودخلها السلطان مسعود ، عزم على خلع الراشد والبيعة لغيره بالخلافة ، ووافقته على ذلك الأمراء وأرباب المناصب . فأحضر القضاة والشهود والفقهاء ، وأثبتوا محضراً شهدوا فيه بما أوجب خلعه ، فأقضى الفقهاء أن من هذه صفته لا يصلح للخلافة (٣) . وحكم القاضي ابن الكرخي (٤) قاضي الحريم (٦٢ - أ) بخلعه فخلعوه حينئذ .

وسأل [السلطان مسعود] عمن يصلح للخلافة ، فأشار عليه شرف الدين الزينبي ، بأبي (٥) عبد الله بن المستظهر بالله ، وأشار غيره بالعدول عنه ، وقال : إنه رجل كبير قد جرب الأمور وعرفها ، وإن من الرأي للسلطان أن يبايع قتي صغيراً (٦) ليست له تجربة ولا سن عليه ، ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ (٧) . فوقع الاتفاق على أبي عبد الله (٨) ، فبايعه السلطان والأمراء ، والقضاة ، والفقهاء وسائر الناس ، وبايعه فيهم الشيخ أبو النجيب الفقيه الصوفي ، ووعظه موعظة بليغة . ولقب المقتفي لأمر الله . فلما استقر في الخلافة ، أرسل إليه السلطان مع وزيره

(١) بالأصل : جانب . (٢) بالأصل : وولايته . وفي ، المنتظم (ح/١٠/ص/٥٥) أن سبب لاستحاب عماد الدين من الحرب ، لكشفائه مؤامرة من السلطان مسعود مع بعض قواده (قواد عماد الدين) على قتله .
(٣) يلوح أن هناك سقط في «النص» . ففي السكامل (ح/٨/ص/٣٥٤) ، أن الخليفة الراشد كان قد حاف للسلطان مسعود بخطط يده «لأن متى جندت أو خرجت أولقت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الأمر» فأقضى القضاة والشهود والفقهاء بخروجه عن الخلافة : ثم ذكر ابن الأثير سيلاً آخر لخلعه ، وهو اتهامه بأخذ الأموال ، وأشياء تقدح في الإمامة ، فأفتوا «أن من هذه صفته لا يصلح أن يكون إماماً» . (٤) بالأصل : أن الكرخي . (والنصح من السكامل ، ح/٨/ص/٣٥٤) . (٥) بالأصل : أبي . (٦) بالأصل : زغيراً . (٧) سورة الأنفال : ٣٢ . (٨) في ، السكامل (ح/٨/ص/٣٥٥) أن المبايع كانت في ثامن عشر ذي الحجة سنة ٥٣٠ .

كمال الدين الدركزى (١) ، يسأله ما يحتاج إليه ليقام به ، فقال للوزير : ما أدرى قدر ما يحتاج إليه ، لكن لنا ثمانون بغلا تنقل الماء من دجلة — مع قربها منا — من بكرة إلى آخر النهار للشرب لا يستعمل منه في غيره شيء ، فانظروا حينئذ ما وراء هذا فقوموا (٦٢ - ب) لنا به ، فعاد الوزير وقال للسلطان : قد كان رأى في العدل عن هذا الرجل ، ولكن الأمور مقدره ، وقد رأيت من هذا الرجل ما دل على وفور العقل وحسن التوصل إلى أغراضه وعلى غاية المعرفة ، وذكر قوله . فلم يبق من الحاضرين إلا من استحسّن ذلك .

ولما اتصل خبر بيعته إلى الراشد بالله وأتابك الشهيد ، أرسل رسولين (٢) إلى السلطان ، وأرسل الشهيد رسالة إلى الديوان العزيز (٣) . فأما رسول الراشد فلم تسمع رسالته . وأما رسول (٤) الشهيد فإنه أكرم كثيراً ، وكان الرسول عنه ، كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله ابن القاسم الشهرزورى . فحكى لى والدى عنه أنه قال : لما حضرت الديوان ، قيل لى تباع أمير المؤمنين . قال ، فقلت : أمير المؤمنين عندنا بالموصل ، وقد بايعناه نحن وأتمم والناس قاطبة فى شرق الأرض وغربها ، وقد علمتم ما قيل فى من يباع آخر ، وطال الكلام وعدت إلى [٦٣ - أ] منزلى ، فلما كان الليل ، جاءتنى امرأة عجوز سرا ، وأبلغتنى عن المقتنى لأمر الله رسالة ، مضمونها العتاب على ما كان من الامتناع عن البيعة ، ومعها جملة صالحة من التحف والمال . قال ، فقلت : غداً يظهر أثر خدمتى . فلما كان الغد حضرت ، وقيل لى فى أمر البيعة فقلت : إن الراشد له فى أعناقنا بيعة ، ولا يجوز النكث إلا بما يوجب خلعه ، وأنا فقيه لا يجوز لى فعل ما ينافى الشرع ، فيثبتون ما يوجب خلعه حتى أخلعه ، وأباعد عنى وعن صاحبه ، فلما سمعوا هذا أحضروا المحضر المذكور ، فلما رآه وشهد بر الشهود ، خلع الراشد وباع المقتنى لأمر الله ، وقال : هذا أمير المؤمنين قد صار إليه خلافة الله فى أرضه ، والسلطان فقد استراح من كان يقصده ويجمع عليه الجوع ، ونحن فلا بد لنا من هذه الدعوى (٥) نصيب . فرفع قوله [إلى الخليفة (٦)] فأمر الخليفة أن يجرى فى إقطاع الشهيد من خاصه (٧) (٦٣ - ب) « صريفين » و « درب هارون » ويراد فى ألقابه ، وقال : هذه قاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الأطراف ، أن يكون له فى العراق إقطاع . واستحلف القاضي كمال الدين السلطان للشهيد ، واستنزله عما فى نفسه منه .

وأما الراشد ، فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك الشهيد يأمره بإخراجه عن بلده ، فصار إلى أذربيجان ثم إلى همذان ، واجتمع هو والملك داود ، ومنكبرس صاحب فارس ، وبوزابه (٨) صاحب خوزستان ومعهم عساكر كثيرة ، وسار السلطان إليهم فتصافوا واقتتلوا ، فقتل منكبرس

(١) أنظر ما سبق ، ص ٤٢ / حاشية ١٠ . (٢) بالأصل : رسولان . (٣) فى ، الفخرى (ص ٤٩) ، أن عماد الدين أرسل كمال الدين ليقدر أمر الراشد فى الخلافة ، وأن يجتمع ويبالغ فى تقرير أمره ، ولكن كمال الدين تصرف من تلقاء نفسه فى المبايعة للخليفة المقتنى . (٤) بالأصل : الرسول . (٥) بالأصل : الدعوة . (٦) الإضافة ، من السكامل (ح ٨ / ص ٣٥٥) . (٧) أى من أملاك الخليفة الخاصة . (٨) بالأصل : بوزان . (والتصحيح من ، السكامل ، ح ٨ / ص ٣٦١) .

وانهزم الراشد وقصد أصفهان ، فقتله الباطنية سابع وعشرين (١) رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، ودفن بأصفهان .

ذكر خروج ملك الروم إلى الشام وما فعله الشهيد

في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، خرج ملك الروم (٢) من القسطنطينية ، ومعه خلق عظيم (٦٤ - أ) لا يحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهما من أنواع النصارى ، فقصد الشام ، خوفاً من الناس خوفاً عظيماً . وكان الشهيد مشغولاً بما تقدم ذكره لا يمكنه مفارقة الموصل (٣) ، فقصد ملك الروم مدينة بزاغة وحصرها — وهى على مرحلة من حلب (٤) وفتحها عنوة ، فقتل المقاتلة وسبى الذرية في شعبان .

ثم سار عنها إلى شيزر — وهى حصن منيع على مرحلة من مدينة حماة — فحصرها منتصف شعبان ، ومعه من فى الشام من الفرنج ، وهم الذين أشاروا عليه بقصد شيزر ، وقالوا له : إنها ليست لأتابك فلا يهتم بحفظها والذب (٥) عنها . وكانت حينئذ للأمير أبى العساكر سلطان بن على ابن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى المنقذى ، فقصدها الروم وحصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر (٦) منجنيقاً (٧) ، وأرسل سلطان بن منقذ إلى الشهيد يستنجد به — وكان على [عزم] المسير إلى الشام لما بلغه خبر خروجهم إليه — فجد السير فى عساكره فنزل على حماة ، وكان يركب كل يوم فى (٦٤ - ب) عساكره ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم ، ويرسل السرايا تتخطف من يخرج من عساكرهم للهيرة والنهب ، ثم يعود آخر النهار . وكان الروم والفرنج قد نزلوا على جبل شرقى شيزر ، فأرسل إليهم الشهيد يقول لهم : إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال ، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقى ، فإن ظفرتم أخذتم الشيزر (٨) وغيرها ، وإن ظفرت بكم أرحمت المسلمين

(١) فى ، الكامل (٨/ص ٣٦٢) ، أنه قتل فى الخامس والعشرين من الشهر .

(٢) كان لىمباطور الروم فى ذلك الوقت يوحنا الثانى كالجوهانيز (١١١٨ — ١١٤٣ م = ٥١٢ — ٥٣٨ هـ) . وفى ، الكامل (٨/ص ٣٥٩) أن خروج ملك الروم إلى الشام كان بسبب حصار عماد الدين « يعزى » وذلك لاستجابة لاستجداد إفرنج الشام به . وقد ذكر ابن الأثير ، فى الكامل ، خبر استيلاء عماد الدين على يعزى سنة ٥٣١ هـ ، بينما ذكره ، هنا ، فى النص ، فى سنة ٥٣٤ هـ ، (وما فى الكامل يتفق مع ابن القلائسى ص/٢٥٨) . (٣) هذه العبارة توحي أن هناك أخباراً عن الموصل فى النص الأصيل الذى بخط ابن الأثير ، وساقطة فى نصنا ، مع ملاحظة أنه لا توجد أخبار فى « الكامل » تشير إلى ما كان يشغل عماد الدين بالموصل ، ولما الذى فيه ، أن عماد الدين كان يحاصر حصن حينما وصل ملك الروم إلى الشام . (٨/ص ٣٥٩) . (٤) بالأصل : وهى على حلب مرحلة . (والصحیح من الروضتين ، ١/ص ٣٢) . (٥) بالأصل : والدت . (٦) بالأصل : ثمان عشرة . (٧) المنجنیق : فى (صبح الأعشى ، ٢/ص ١٤٤) أنه « آلة من خشب ، له دفتان قائمتان ، بينهما سهم طويل رأسه تقبل وذنبه خفيف ، تجعل كفة المنجنیق التى يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، فاأصاب شيئاً إلا أهلكه » . (٨) الشيزر وشيزر بمعنى واحد .

وشيزر كما فى (ياقوت) ، قلعة حصينة تشتمل على كورة بالشام ، قرب المعرة (معرة النعمان) بينها وبين حماة يوم ، وفى وسطها نهر الأردن ، عليه قطرة فى وسط المدينة ، أوله من جبل لبنان ، تعد فى كورة حصن .

من شركم — ولم يكن له بهم قوة (١) لكثرتهم ، وإنما كان يفعل هذا ترهيباً (٢) لهم — فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره ، فقال لهم ملك الروم : أتظنون أن معه من العساكر من ترون ، وله البلاد الكثيرة ، وإنما هو يريدكم قلة من معه لتطعموا فيه وتصحروا (٣) له ، فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم .

وكان أتابك مع هذا يرسل إفرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ، ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم (٦٥ - أ) منهم . وكان يرسل ملك الروم يتهده ويوهمه أن الفرنج معه ، فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه ، فرحل ملك الروم عنها في رمضان . وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً (٤) ، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها . فلما سمع الشهيد برحيلهم سار خلفهم ، فظفر بطائفة منهم في ساقة العسكر فغنم منهم وقتل وأسر ، وأخذ جميع ما خلفوه ورفعاه إلى قلعة حلب ، وكفى الله المؤمنين القتال .

وكان المسلمون بالشام قد اشتد خوفهم ، وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر ، لا يبق لمسلم معهم مقام ، لا سيما بمدينة حماة لقربها .

ولما يسر الله تعالى هذا الفتح ، مدح الشعراء الشهيد فأكثروا ، ومن مدحه المسلم بن الخضر ابن قسيم الحموي فقال من قصيدة (٥) أولها :

بعزمك أيها الملك العظيم تذلل لك الصعاب وتستقيم

ويقول فيها (٦) :

(٦٥ - ب) ألم تر أن كلب الروم لما تبين (٧) أنه الملك الرحيم
جاء يطبق الفلوات خيلاً كأن الجحفل الليل البهيم
وقد نزل الزمان على رضاه ودان لخطبه الخطب الجسم
فحين رميته بك في خميس تيقن أن ذلك لا يدوم
وأبصر في المفاضة منك جيشاً فأحزن (٨) لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور توقد وهو شيطان رجيم

(١) بالأصل : بقوة . (٢) بالأصل : ترهيباً . (٣) بالأصل : وتحضروا . (والصحيح من ، الروضتين ، ١/ص/٣٢) . (٤) في ، السكامل (١/ص/٨٠/٣٦٠) : أربعين يوماً . (٥) بالأصل : قصده . (٦) بعدما بالأصل ، اللفظ : شعر . (وقد أسقطه المحقق لأنه زائد) . (٧) في خريدة القصر (١/ص/٤٧١) : تظن ، وهذا اللفظ أنسب من لفظ النسي في أداء المعنى . (٨) بالأصل : وحرب . وفي ، السكامل (١/ص/٨٠/٣٦١) : فأحرب . واللفظ الذي أنبهه المحقق ، من خريدة القصر (١/ص/٤٧١/حاشية/٩١) ، وهو أقرب إلى المعنى المقصود في البيت .

أراد بقاء مهجته فولى وليس سوى الحمام له حميم
وهى طويلة .

ومن عجيب ما يحكى فى هذه الحادثة ، أن الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر ، قال الأمير
مرشد بن على — أخو صاحبها — وهو ينسخ مصحفاً فرفعه بيده ، وقال : اللهم بحق من أنزلته
عليه ، إن قضيت بمجىء الروم فاقبضنى إليك فتوفى بعد أيام ، ونزل الروم بعد وفاته .
ولما عاد الروم إلى بلادهم ، سار أتاك إلى حصن عرقة (١) — وهو من أعمال طرابلس — فحصره
وفتحه (٦٦ — أ) عنوة ونهب ما فيه ، وأسر من به من الفرنج وأخربه وعاد سالماً غانماً .
وفى القاضى بهاء الدين على بن القاسم الشهرزورى ، قاضى الممالك الأتابكية . وكان
أعظم الناس منزلة عنده .

ذكر ملك الشهيد قلعة شهرزور (٢)

[كانت قلعة شهرزور (٣)] وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال فى يد قفجاق (٤) بن أرسلان
تاش التركانى ، وكان مالكا لها ، نافذ الحكم على قاصى التركان ودانهم ، يرون طاعته فرضاً
حتماً ، فتحامى الملوك قصد ولايته ولم يتعرضوا لها لحصانتها ، فعظم شأنه وازداد جمعه ، وقصده
التركان من كل فج عميق .

فلما كان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، أبلغ أتاك الشهيد عنه ما اقتضى أن يقصد بلاده (٥) ،
فخذه أصحابه من ذلك وأشاروا بتركه ، علماً منهم أن الحماة والذابين عن بلاده كثير ، وأنه إن ضيق
عليه سلم الولاية إلى السلطان مسعود ، فيصير مجاوراً للولاية الشهيد فلم يرجع عن عزمه (٦) ، وسير
(٦٦ — ب) إليه عسكرياً ، فجمع قفجاق من التركان من يقدر على حمل السلاح ، فاجتمع عنده
من السكينة (٧) ماسد بهم الفضاء ، وتلقاهم (٨) عسكرياً والشهيد وقاتلهم ، وصبر عسكرياً وتابعوا الحملات

(١) حصن عرقة : فى (ياقوت) : عرقة . بكسر أوله وسكون نانية . بلدة فى شرق طرابلس ، بينهما أربعة
فراسخ ، وهى آخر عمل دمشق . وهى فى سفح جبل ، بينها وبين البحر نحو ميل . وعلى جانبها قلعة لها . وينقل ياقوت
عن أبى بكر الهمداني ، أنها بلد من العواصم ، بين رقتية وطرابلس . (٢) بالأصل : « ذكر ملك الشهيد
قلعة شهرزور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال فى يد قفجاق ... » أى أنه لا يوجد فاصل بين العنوان والموضوع
مما يدل على أن هناك سقط فى النص . (٣) فى الكامل ، (٣٦٧/ص/٨/ح) ، أن استيلاء عماد الدين على شهرزور ،
كان بعد حصاره دمشق ، الذى سيأتى خبره فيما يلى . (٤) فى الكامل (٣٦٨/ص/٨/ح) : قفجاق .
(٥) لم يذكر ابن الأثير فى ، الكامل (٣٦٨/ص/٨/ح) سبباً وضعاً أقصد عماد الدين ، صاحب شهرزور ، وإنما
ذكر أن قفجاق ، « عظم شأنه ، وازداد جمعه ، وأتاه التركان من كل فج عميق » . ولعل عماد الدين خاف من عظم
شأن قفجاق ، وهو مجاور له بالموصل ، فعاذله بالحرب قبل أن يستفعل أمره . (٦) بالأصل : عزيمته .
(٧) بالأصل : السكينة . (٨) بالأصل : تقيهم .

على التركان حتى هزموهم واستباحوا عسكرهم ، ففضوا منهزمين لا يلوى أخ على أخيه ولا والد على ولده ، وسار العسكر عقب الهزيمة ودخلوا بلادهم ، فلكوا شهرزور (١) وغيره من البلاد وأضافوها إلى مملكته ، وأصلح الشهيد أحوال أهلها ، وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركان .

ثم إن الشهيد عزم على المسير إلى الشام ، فإنه كان لا يرى المقام بل لزال طاعنا إما لرد عدو يقصده ، وإما لقصد (٢) بلاد عدو ، وإما لغزو الفرنج وسد الثغور ، فكانت مياثر (٣) السروج أثر عنده من وثير المهادر ، والسهر في حراسة المملكة أحب إليه من عرض الوساد (٤) ، وأصوات السلاح ألد في سمعه من غناء القينات ، ولقاء (٥) القرن أشهى إليه من إضجاع الغانيات ، وفيما (٦) ذكرته وأذكره (٦٧ — أ) دليل على صحة ذلك (٧) .

ذكر حصار دمشق وبعليك

وفي هذه السنة أيضاً ، وهي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، سار الشهيد في جنوده بعد ما ملك شهرزور إلى مدينة دمشق فحصرها ، وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين . وكان محمد محكوماً عليه ، والغالب على أمره معين الدين أنز (٨) مملوك جده طغتكين . وكان أتابك قد أمر كمال الدين أبا الفضل بن الشهرزوري بمسكابة جماعة من مقدمي أحداثها وزناطرتها ، واستمالتهم وإطعامهم في الرغائب والصلوات ، ففعل ذلك ، فأجابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد ، وخرجوا متفرقين إلى كمال الدين وجدد عليهم العهود ، وتواعدوا يوماً يزحف فيه الشهيد إلى البلد ليفتحوا له الباب ويسلموا البلد إليه ، فاعلم كمال الدين ، أتابك بذلك ، فقال : لا أرى هذا رأياً ، فإن البلد ضيق الطرق والشوارع ، ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكنون من القتال فيه لضيقه ، (٦٧ — ب) وربما كثرت المقاتلون لنا والمجاربون ، فنعجز عن مقاومتهم لأنهم يقاتلوننا

(١) شهرزور : في (ياقوت) : بالفتح ثم السكون وراء مفتوحة بعدها زاي وواو سا كنة وراء . كورة واسعة في الجبال ، بين لمربل وهمدان . . وأهل هذه النواحي كلهم أكراد . وينقل ياقوت عن معمر بن المهلهل الأديب ، أن شهرزور ، مدينتان وقرى ، فيها مدينة كبيرة وهي قصبتها في وقتنا هذا يقال لها « نيم أزرأي » ، وأهلها عصاة على السلطان ، قد استظموا الحلاف واستعذبوا العصيان . والمدينة في صحراء ، وأهلها بطش وشدة ، يمتنعون أنفسهم ويحمون حوزتهم . وسلك سور المدينة ثمانية أذرع ، وأكثر أمراءهم منهم . . وهم موالي (الخليفة) عمر بن عبد العزيز . وجرأهم الأكراد بالغلبة على الأمراء ومخالفة الحلفاء ، وذلك أن بلدهم مشقة ستين ألف بيت من أصناف الأكراد الجلالية ، والباسيان ، والحكمية ، والسولية . ولهم به مزارع كثيرة ، ومن صغارهم يكون أكثر أفواتهم . (وقد طول ياقوت في ذكر الأخبار عنها) . (٢) بالأصل : القصد . (٣) مياثر : جمع ميثرة ، وهي « هنة كهينة المرفقة تتخذ للسرج كالاضفة » . والجمع موثر ، ومياثر . (الإيفاض في فقه اللغة ، ص / ٣٤٠) . (٤) بالأسل : الوساد اساد . واللفظ : اساد زائد ، ولذلك أسقطه المحقق . (٥) بالأسل : واللقاء . (٦) بالأسل : فني . (٧) بالأصل : ما ذكرته واذكره صحيح دليل على صحة ذلك . (٨) هو معين الدين أنز بن عبد الله . توفي سنة ٥٤٤ هـ : وترجمته ، في : السكامل (ح / ٩ / ص / ٢٦) : « مرآة الزمان (ح / ٨ / ص / ٢٠٢) : « شذرات الذهب (ح / ٤ / ص / ١٣٨) . وقد ورد في « أنز » في كل من السكامل والشذرات : « أنز » (بالزاي) .

على الأرض والسطوحات ، وإذا دخلنا البلد اضطررنا إلى التفرق لضيق المسالك فيطمع فينا أهله ، وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره . ومن العجب أن محمد بن بوري صاحب دمشق توفي وأتابك يحاصره ، فضبط أنر الأمور وساس البلد ، فلم يتغير بالناس حال ، وأرسل إلى بعلبك وأحضر مجير الدين أبق بن محمد بن بوري ورتبه بالملك مكان أبيه — وكان صغيراً — فشى الحال بتمكن معين الدين أنر وقوته . فلما وصل مجير الدين (١) إلى دمشق ، أقطع بعلبك (٢) لمعين الدين أنر ، فأرسل إليها وتسلمها ، فلما (٣) علم الشهيد ذلك ، سار إلى بعلبك وحصرها عدة شهور فلما عتوة وقهر (٤) ، وترك بها نجم الدين أيوب دزداراً ، وعزم على العود عنها إلى دمشق ، فجاءه رسل صاحبها يبذل الطاعة والخطبة له فأجابه إلى ما بذل ، وعاد عن قصد دمشق (٦٨ — أ) وقد خطب له فيها (٥) وصار أصحابها (٦) في طاعته وحكمه .

ذكر فتح حصن بارين وهزيمة الفرنج

في هذه السنة ، وهي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة (٧) ، سار أتابك الشهيد رضى الله عنه ، إلى بلاد الفرنج وأغار عليها ، واجتمع ملوك الفرنج وقامصتهم وكنودهم وفرسانهم ورجالهم وساروا إليه . فلقبهم بالقرب من حصن بارين (٨) — وهو المسمى حينئذ بعين — وهو للفرنج ، فالتقوا عنده ، فجمع الشهيد عساكره وحثم على الجهاد ، وأشلاهم على الكفرة الأوغاد ، ورتب أطلابه (٩) ، وحرص أصحابه ، وحزب أحزابه ، وناوشهم القتال ، وأعملوا الرماح والنبال ، ولم يزل هذا دأبهم حتى حمى الوطيس ، فحينئذ حملت الفرنج حملة اختلط فيها المرءوس والرئيس ، وارتفع القتام ، واشتد الزام ، وعظم الزحام ، وأدبرت مترعة (١٠) كؤوس الحمام ، وبطل

- (١) بالأصل : مجد الدين . (والتصحيح من النص نفسه) . (٢) بعلبك : في (ياقوت) : بالفتح ثم السكون وفتح اللام والباء الموحدة والكاف مشددة . مدينة قديمة ، فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين من الرخام لا نظير لها في الدنيا . بينها وبين دمشق ثلاثة أيام ، وقيل اثنتا عشر فرسخاً من جهة الساحل . (٣) بالأصل : فلم . (٤) في ، الكامل (٨/ص/٣٦٤) ، أن استيلاء عماد الدين على بعلبك كان في ذى الحجة سنة ٥٣٣ ، وكذلك في ابن القلانسي ، ويظهر أن ابن الأثير — من حيث التاريخ — تبع ابن القلانسي في « الكامل » في السنة التي استولى فيها عماد الدين على بعلبك ، وتبع الفارقي ، في « النص » . فقد أضاف ناشر « ذيل تاريخ دمشق » (ص/٢٧١/حاشية/١ — أخبار سنة ٥٣٤ ، مانصه : قال الفارقي : « إن في هذه السنة ملك أتابك زنكي قلعة بعلبك ونزل على دمشق وحاصرها مدة ، ثم سلموا إليه قلعة بصرى » . وأما حصار دمشق فقد كان في شهر ربيع الأول سنة ٥٣٤ ، وقد سار إليها من بعلبك . (الكامل ، ٨/ص/٣٦٧) . (٥) بالأصل : فيه . (٦) بالأصل : أصحابه . (٧) في ، الكامل (٨/ص/٣٥٧) ، ابن القلانسي (ص/٢٥٩) ، أن استيلاء عماد الدين على « بعين » كان سنة ٥٣١ . أنظر ما سبق ص/٥٥/حاشية/٢) . (٨) بارين : في (ياقوت) : بعين ، بوزن خمسين . « بليد بين حصن والساحل ، هكذا تلتفظ به العامة ، وهو خطأ . ولما هو بارين » . (٩) الأطلاب : جمع طاب ، (بضم فسكون) بمعنى الكتبية في مصطلح ذلك العهد . (الذيل على الروضتين ، ص/١٢٨/حاشية/١) . وفي ، مرآة الزمان (٨/ص/٦٩٥) ، أني الطالب ، فرقة من الفرسان عددها خمسمائة فارس . (١٠) بالأصل : مترعة .

العامل (١) وعمل الحسام ، فن ضربة تقط ، وأخرى تقط ، واثارت عجاجة كانت تحجب الشمس ، وخفت الأصوات فلا تسمع إلا الهمس ، وصبر الفريقان (٦٨ — ب) صبراً لم يسمع بمثله في في سالف الدهور ، إلا ما يحكى عن ليلة الهريز (٢) ، ونصر الله المسلمين نصراً عزيزاً ، وأحلمهم من عارفته محلاً حريزاً ، وأجلت الواقعة عن هزيمة الفرنج ، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل ناحية وهرب ملوكهم وفرسانهم فدخلوا حصن بارين واحتموا به ، لأنه كان من أقرب حصونهم (٣) [إليهم] ، وسلموا عدتهم وعتادهم ، وكراعهم وأزوادهم ، وكثر فيهم القتل فهم بين الجريج بحد الصفاح ، ونصول السهام والرماح ، ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ (٤) ثم سار الشهيد بعد الهزيمة إلى بارين وبه الفرنج ليحصره ، فحين نازله طاف به وقابله ، فرأى حصناً محلقاً في الهواء ، مقارناً هامة الجوزاء ، قد فاق الجبال الراسيات وجازها سمواً ، وقد تشمخ بأنفه عن أن يرام ، ونأى بجانبه عن أن يضام (٥) ، فلا ترمقه الأبصار إلا عادت حسيرة ، ولا تومه الطيور إلا أضحت (٦) أجنحتها مهيضة كسيرة ، ومن به من ملوك الفرنج وفرسانهم ، وكهولهم وشبانهم ، واثقين بحصانته ، معتزين بعلو (٦٩ — أ) مكانه ومكانته ، متيقنين أن الحوادث لا تنالهم وهم به معتصمون ، وأن الأيام لا تنفذ سهامها فيهم وهم به مقيمون ، وقد وعدهم الشيطان النجاة ولات حين مناص ، وحقق عندهم السلامة وحيل بينهم وبين الخلاص ، يعدهم ويمنهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، وأنى يكون ذلك وقد أهدقت بهم الأسد في عرينها ، الذابة عن دين الله تعالى ودينها ، فحين رأى الشهيد هذا الحصن وارتفاعه ، ومن اجتمع به من شجعان الفرنج وفرسانهم ، المحامين عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم وصلبانهم ، علم أنه لا ينال بالتواني ، ولا يبلغ قلته بسير السواني ، فأعد واستعد ، وشر في قتاله عن ساق الجد ، ونازله بعزم أعظم منه ، وقوة لا تعجز عنه ، وحصره وأحاط به كإحاطة الهالة بالقمر ، وبياض (٧) العين بسواد البصر . ورماه بسهام شهامته وضيق على من به الخناق ، وتابع الزحف إليهم ووالى القتال عليهم ، وأكثر من إرسال السهام وحجارة المجانيق (٦٩ — ب) حتى كادت تحجب الهواء (٨) ، وتحول بينهم وبين السماء ، وكانت فوق من به كسحاب لمعان نصولها برقه المتألق ، ووقع الأحجار رعدة المتبعق ، إلا أنه سحاب يطر المنايا ، وينبت الختوف والرزايا ، فحينئذ استخذى الحصن وانخذل ، واستسلم لصولة هذا الهمام البطل ، وألقى إلى الاستسلام بيده ، ولم ينفعه حصانته وكثرة عدده وعدده ، كمال قال فيه بعضهم :

بأدى المعالم أطرقت شرفاته إطراق منجذب القرينة عان

(١) العامل : هو صدر الرمح دون السنان (لسان العرب) . (٢) ليلة الهريز ، هي الليلة الثالثة والأخيرة من موقعة القادسية بين سعد بن أبي وقاص والقائد الفارسي رستم بالعراق سنة ١٦ هـ . (٣) بالأصل : أقرب من حصونهم . (٤) سورة الأحزاب : ٦٣ . (٥) بالأصل : يضام . (٦) بالأصل : اصت . (٧) بالأصل : والبياض . (٨) (٨) بالأصل : الهوى .

أغضى كستمع الهوان تغيت أنصاره وخلا عن الخلان

ولا عار على من أفرسه الغضنفر ، ولا نقيصة على من أذعن (١) لصولة الموت الآخر ، فاكل غانية هند ، ولا كل ذات سوار دعد . ولما عين من به الهلاك راسلوا في طلب الأمان ليسلوا ، وسألوه في حقن دمائمهم ليسلسلوا ، وهو لا يصغى إلى مقاتلهم ، ولا يسمع رسالتهم ، وقد قوى عزمه على أخذه قهراً (٧٠ - أ) ليلك به (٢) سائر بلادهم ، ويرج المسلمون بعد هذه الواقعة من قراهم وجلادهم . فبينما هم كذلك ، بلغه أن من بالساحل من الفرنج الناجين من المعركة ، المسلمين من الهلكة ، قد ساروا إلى بلاد الفرنج والروم في البحر يستجدونهم ويستنصرونهم ، وينهون إليهم ما دهمهم وبلادهم ، وما فيه ملوكهم وقمامتهم من الحصر وأكناهم ، وأن أولئك قد جمعوا وحشدوا ، وإلى المسير نحوه فقصدا ، فحينئذ جد في الحصار وأذكى العيون ، وعمل (٣) [على] التضيق (٤) على من بالقلعة ومنع كل شيء عنهم حتى (٥) الأجناد ، وأقبلت الأمداد من سائر أنواع النصرانية إلى الساحل من كل حذب ينسلون ، وإلى تلبية من به من إخوانهم يهرعون . هذا ومن بالحصن لا يعلمون بشيء من ذلك ، وقد تيقنوا أنهم عن قريب ما بين مأسور وهالك ، فأعادوا مراسلته (٦) في طلب الأمان ، فأجابهم إليه بعد أن علم وصول الأمداد إلى الساحل واجتماعهم على من به من أهله (٧٠ - ب) فلما أجابهم إلى الأمان وتسليم الحصن منهم سلموه وهم لا يصدقون بالنجاة ، وساروا عن الحصن يوماً ، فلقيتهم أمداد النصرانية ، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن ، فلاموهم ووبخوهم وعنفوهم ، وقالوا : عجرتكم عن حفظه يوماً أو يومين . فحلفوا لهم أننا لم نعلم بوصولكم ، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا إلى الآن . فلما عميت الأخبار عناظتنا أنكم قد أهملتم أمرنا ، وقعدتم عن نصرنا فحقنا دماءنا بتسليم الحصن وافندينا به ماوراءه . وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل ، فأزال الله بالشهيد - رضى الله عنه - هذا الضرر العظيم . وفي مدة مقامه على حصار بارين ، سير جنسدا إلى المعرة (٧) وكفر طاب وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها ، وهى بلاد كثيرة وقرايا عظيمة .

(١) بالأصل : أذعر . (٢) بالأصل : بهم . (٣) بالأصل : وعى . (٤) بالأصل :
التضيق . (٥) بالأصل : حى . (٦) بالأصل : لمراسلته .

(٧) المعرة ، هى معرة النعمان . وفى (ياقوت) : هى مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص ، بين حلب وحماة . وفى ، السكامل (ج/٨/ص/٣٥٨) : « ومن أحسن الأعمال ما عمله زنكى مع أهل المعرة ، فإن الفرنج كانوا قد أخذوا أملاكهم ، فلما فتحها زنكى الآن ، حضر من بقى من أهلها ومعهم أعقاب من هلك وطلبوا أملاكهم ، فطلب منهم كتباً ، فقالوا : إن الفرنج أخذوا كل مالنا والكتب التى للأملاك فيها . فقال أطلبوا دفاتر حلب ، وكل من عليه خراج على ملك يسلم إليه . ففعلوا ذلك ؛ وأعاد على الناس أملاكهم . وهذا من أحسن الأفعال وأعدلها . »

(٧١ - أ) ذكر حصار الروم والإفرنج مدينة حلب

لما وصل الروم والفرنج إلى الشام لإزالة الشهيد عن حصار بارين ومن بها من ملوك الفرنج ورأوا الأمر قد فات ، لم يروا أن تخلو (١) سفرتهم من أثر يؤثرونه في حماية دينهم ويرجعوا بخفي حنين ، فاتفقوا على قصد بعض بلاد المسلمين ومحاصرته ، لعلمهم يظفرون بما يذهب عنهم غم مصيبتهم ويجبر كسرهم ، فساروا ونازلوا مدينة حلب وحصروها ، وهم في جمع لم يشاهد الناس مثله كثرة ، وهم مع ذلك موتورون ، فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم ، فانحاز عنهم ونزل قريباً منهم يمنع عنهم الميرة ، ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدو فيها والإغارة عليها . وأرسل (٢) القاضي كمال الدين بن الشهرزوري إلى السلطان مسعود ينهى إليه حال البلاد وكثرة العدو ، ويطلب منه النجدة وإرسال العسكر . فحكى لى والدى عن كمال الدين ، قال : قلت للشهيد (٧١ - ب) لما أرسلنى : أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ، ويجعل السلطان هذا حجة وينفذ العساكر ، فإذا توسطوا البلاد ملكوها . فقال الشهيد : إن هذا العدو قد طمع في البلاد ، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام ، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار . قال : فلما وصلت إلى بغداد وأديت الرسالة ، وعدنى السلطان بإفناذ العساكر ثم أهمل ذلك ولم يتحرك فيه بشيء ، وكتب الشهيد متصلة إلى يحتنى على المبادرة بإفناذ العساكر ، وأنا أخاطب ولا أزد على الوعد ، فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم ، أحضرت فلانا - وهو فقيه وكان ينوب عنه في القضاء ، وكان حاضرا عند حكاية كمال الدين هذا لوالدى - قال : فقلت له : خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم ، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بمجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد ، وإسلاماه ، وادين (٧٢ - أ) محمداه ، ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين ، ثم وضعت إنسانا آخر يفعل (٣) مثل ذلك في جامع السلطان . فلما كانت الجمعة ، وصعد الخطيب المنبر ، قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه وصاح ، وتبعه أولئك النفر بالصياح والبكاء ، فلم يبق بالجامع إلا من قام يبكي ، وبطلت الجمعة . وسار الناس كلهم إلى دار السلطان ، وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم ، واجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر (٤) قاطبة عند دار السلطان ليكون ويصرخون ويستغيثون ، وخرج الأمر عن الضبط ، وخاف السلطان في داره ، وقال : ما الخبر . فقيل [له] : إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة . فقال : أحضروا ابن الشهرزوري . قال : فحضرت

(١) بالأصل : يخلوا . (٢) في الكامل ، (٣٥٩/ص/٨) - حوادث سنة ٥٣٢ هـ ، أن عماد الدين

أرسل القاضي إلى السلطان يطلب النجدة ، حين كان الفرنج على بزاعة .

(٣) بالأصل : فعل . (٤) والتصحيح من الروضتين ، (٣٥/ص/١) ، الكامل (٣٦٠/ص/٨) .

(٤) العسكر : جن في الجانب الشرقي من بغداد ، جعله الخليفة المهدي (١٥٧ - ١٦٩ هـ) معسكراً للجنود فسمى

« عسكر المهدي » ، ثم عمرت بالناس والبنان . (الاصطخرى ، ص/٥٨)

عنده وأنا خائف منه ، إلا أنني قد عزمت على صدقه وقول الحق . فلما دخلت [عليه] ، قال : يا قاضي ما هذه الفتنة ، فقلت : إن الناس قد فعلوا هذا (٧٢ — ب) خوفاً من القتل والشرك ، ولا شك أن السلطان ما يعلم كم بينه وبين العدو ، إنما بينكم نحو أسبوع ، وإن أخذوا حلب إنحدروا إليك في الفرات وفي البر ، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد ، وعظمت الأمر عليه حتى جعلته كأنه ينظر إليهم . فقال : أردد هؤلاء العامة عنا وخذ من العساكر ما شئت وسر بهم والأمداد تلحقك . قال : فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم وعرفتهم الحال ، وأمرتهم بالعود فعادوا وتفرقوا . وانتخبت من عسكره عشرين ألف فارس . وكتبت إلى الشهيد أعرفه الخبر ، وأنه لم يبق غير المسير ، وأجدد إستدثانه في ذلك . فأمر بتسييرهم والحث على ذلك ، فعبرت العساكر إلى الجانب الغربي ، فبينما نحن نتجهز للحركة ، وإذا قد وصل نجاب من الشهيد ، يخبر أن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضاً (١) ، ويأمرني بترك إستصحاب العساكر ومخاطبة السلطان (٧٣ — أ) في إقامتهم . فلما خوطب السلطان في ذلك ، أصر على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها منهم وإزاحتهم عنها . وكان قصده بذلك أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها . قال : فلم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي وسرت (٢) إلى الشهيد . فانظر إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس . رحم الله الشهيد ، فلقد كان ذاهمة عالية ، ورغبة في الرجال ذوى الرأي والعقل ، يرغبهم (٣) ويخطبهم من البلاد ، ويوفر لهم العطاء . حكى لي والدي ، قال : قيل للشهيد ، إن هذا كمال الدين يحصل له كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية (٤) ، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار ، فقال لهم : بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي ، إن كمال الدين يقل له هذا القدر ، وغيره يكثر له خمسمائة دينار ، فإن شغلا (٧٣ — ب) واحداً يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار . وكان كما قال رضى الله عنه .

(١) ذكر ابن الأثير خبر حلب في الكامل (ح/٨/ص/٣٥٩) ، فقال ، أنه عندما حاصر الروم بزاعة كان عماد الدين يحاصر حصن ، فضى جماعة من أعيان حلب إليه فاستفتاوا به واستنصروه ، فسير معهم كثيراً من العساكر فدخلوا إلى حلب ليمتعوها من الروم لأن حصروها . ولما ملك الروم بزاعة ، رحلوا إلى حلب في خيلهم ورجلهم ، فخرج إليهم أحداث حلب فقاتلهم قتالا شديداً ، فقتل من الروم وجرح خلق كثير ، وقتل بطريق جليل القدر عندهم ، وأقاموا عليها ثلاثة أيام فلم يروا فيها طمعاً ، فعادوا عنها خاسرين إلى قلعة الأنارب . (٢) بالأصل : سيرت . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٣٦) . (٣) بالأصل : ويرغبهم . (٤) بالأصل : وأمر به . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٣٦) .

ذكر ملك الشعباني وبناء العمادية ببلد الهكارية

في سنة سبع وثلاثين (١) [وخمسة] سار أتابك الشهيد إلى بلد الهكارية ، وكان بيد الأكراد وقد أكتروا في البلاد الفساد ، إلا أن نصير الدين جقر [نائب السلطان الشهيد بالموصل (٢)] كان قد ملك كثيراً من بلادهم واستولى عليها . فلما بلغها أتابك الشهيد حصر قلعة الشعباني (٣) — وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها — فملكها وأخربها . وأمر ببناء قلعة العمادية (٤) عوضاً عنها . وكانت هذه العمادية حصناً كبيراً عظيماً ، يقل في حصون الجبال ما يقاربه ، فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره . فلما ملك الشهيد البلاد التي لهم ، قال : إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا لا أعجز عنه ، فأمر ببنائه . وكان رحمه الله تعالى ذا عزم ونفاذ أمر ، فبناه وسماه العمادية ، نسبة (٧٤ — أ) إلى لقبه عماد الدين .

وفيه أيضاً خطب لأتابك الشهيد بآمد (٥) ، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والالتئام إلى خدمته والخطبة له ، فإن أجاب وإلا قصدها وحصرها (٦) ، فأجابوه وخطبوا له وصاروا في طاعته . وفيها أيضاً ملك الشهيد مدينة حديثة (٧) وعانة (٨) .

(١) في ، السكامل (٨/ص/٢٤٣) ، أن استيلاء عماد الدين على قلاع الأكراد الهكارية ، ومنها الشعباني ، كان سنة ٥٢٨ . وصرح ابن الأثير ، بأنه يروى هذا الخبر عن بعض العلماء الأكراد ، وأنه لا يعلم بالضبط تاريخ فتح هذه القلاع . (٢) الإضافة من الروضتين (١/ص/٣٦) .

(٣) لم يذكر (ياقوت) هذه القلعة في معجمه . (٤) هناك اختلاف عند ابن الأثير في اسم القلعة التي أقام عماد الدين على أنقاضها قلعة العمادية . فهو هنا يذكر ، أن القلعة هي قلعة الشعباني ، بينما يذكر في السكامل (٨/ص/٣٤٣ — أخبار سنة ٥٣٨) أنها قلعة الجلاب ، وبعد سطور ذكر أنها قلعة آشب ، وذكر ابن الأثير خبر استيلاء عماد الدين عليها وأنه أخربها وأقام على أنقاضها قلعة العمادية ، وعلى هذا الخبر اعتمد (ياقوت) في وصفه لقلعة العمادية ، فقال عنها : أنها قلعة حصينة مكينة عظيمة في شمالي الموصل ومن أعمالها . عمرها عماد الدين زنكي بن آقسنقر سنة ٥٣٧ ، وكان قبلها حصناً للأكراد ، فأكبره خربوه ، فأعاد زنكي وسماه باسمه نسبة إليه . وكان اسم الحصن ، آشب . ويصفها ، البديلي في كتابه « شرفنامه » (١/ص/١٠٢) : « وقلعة العمادية الحالية من الأبنية الجديدة التي بناها في عهد السلاجقة عماد الدين زنكي بن آقسنقر وإلى الموصل وسنجار . وتقع المدينة وقلعتها على صخرة عظيمة مستديرة ، ترتفع بعض الأمكنة منها عن الأرض مائة ذراع ، وبعضها حوالي الخمسين أو الستين ، والبعض الآخر عشرين ذراعاً . وفي القلعة جبان عميقان يمدانها بالماء ، ومنها يأخذ الحمام والمدرسة وسائر الممارات ، ولكن الناس يجلبون مياه الشرب من خارج البلد على ظهور الدواب ... » . (٥) في ، السكامل (٩/ص/٥) ، أن ذلك كان سنة ٥٣٦ . (٦) بالأصل : واحصرها . (٧) حديثة : ذكر (ياقوت) ، موضعين باسم حديثة . أحدهما : « حديثة الموصل » ، وهي بلدة كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى . والآخر : « حديثة الفرات » ، وتعرف بحديثة النورة ، وهي على فراسخ من الأنبار ، وبها قلعة حصينة في وسط الفرات والماء يحيط بها . (٨) ونحن نرجح أن الموضع المقصود هنا ، « حديثة الفرات » ، لمجاورتها لـ « عانة » كما يقيّن من الحاشية التالية . (المحقق) . (٨) عانة : في (ياقوت) : بلد مشهور بين الرقة وهيت (على الفرات) ، يعد في أعمال الجزيرة .

ذكر الوحشة بين السلطان مسعود^(١) وأتابك

الشهيد رضى الله عنهما

قال . كان السلطان مسعود لما أفضت السلطنة إليه ، لا يزال الأمراء والأكابر وأصحاب الأطراف يخرجون عن طاعته ، تارة مجتمعين وتارة متفرقين . وقد تقدم ذكر بعض ذلك . وكان كلما انفتق (٢) عليه فتق نسبه إلى الشهيد ، وظن أنه هو أشار به وسعى فيه ، لعلبه أن جماعة الأمراء يعرفون محل الشهيد من العقل والتدبير والسياسة وكثرة البلاد والأموال والعساكر . (٧٤ - ب) وكان ظن السلطان فيه صادقا ، فإنه كان يفعله لئلا يخلو وجه السلطان من شاغل ليتمكن هو من فتح البلاد والتمكن في الملك . فلما كان هذه السنة - وهي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة - زالت الشواغل عن السلطان وتفرغ باله ، فجمع العساكر فأكثر (٣) ، وأظهر العزم على قصد الموصل وبلاد الشهيد ، فترددت [الرسل (٤)] بينهما حتى استقرت الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها إلى السلطان . وطلب السلطان أن يحضر الشهيد في خدمته ، فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج وتمكن العدو وقربه من البلاد التي بيده ، فعذره السلطان وشرط عليه فتح الرها . وكان [من] أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل ، أنه قيل له إن تلك البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين ، فإنها قد وليها قبله مثل جاولي سقاووا ، ومودود ، (٧٥ - أ) وجيوش بك ، والبرسقي وغيرهم من الأمراء ، وكان السلاطين (٥) يمدونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدر على حفظها ، ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى أن وليها أتابك ، فلم يمهده أحد من السلاطين بفارس واحد ولا بمال ، ومع هذا فقد فتح من [بلاد] العدو عدة حصون وولايات (٦) ، وهزمهم غير مرة واستضعفهم ، وعز الإسلام به . ومن الأسباب المانعة له أيضا ، أن الشهيد رحمه الله ، كان لا يزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خدمة السلطان مسعود بأمر والده ، وكان السلطان يحبه ويقربه ويعتمد عليه ويثق به ، فأرسل إليه الشهيد يأمره بالهرب والمجيء إلى الموصل ، وأرسل إلى نائبه بالموصل - وهو نصير الدين جقر - يأمره بمنعه من دخول الموصل ، ومن المسير إليه أيضا ، فهرب سيف الدين وجاء إلى الموصل ، فلم يمكنه نصير الدين من دخولها ، وأراد المسير إلى والده فمنعه (٧٥ - ب) أيضا ، وقال له : ترسل إلى (٧) والدك تستأذنه في الذي تفعله ، فأرسل إليه ، فأعاد جوابه : إنني لا أريدك مهما السلطان ساخط عليك ، وألزمه بالعود ، وأعادته ومعه رسول إلى السلطان يقول له : إنني بلغني أن ولدي فارق الخدمة بغير إذن فلم أجمع به ورددته إلى بابك . فحل هذا عند السلطان محلا كبيرا

(١) بالأصل : بين السلطان وبين مسعود . (٢) بالأصل : اتفق . (٣) بالأصل : فأكثره .

(٤) الإضافة من ، الروضتين (ج/١/ص/٣٦) . (٥) بالأصل : وكان السلطان السلاطين .

(٦) بالأصل : ولايات . (٧) بالأصل : لى .

أجاب إلى ما أراد الشهيد . ولما استقر المال حمل منه عشرين ألف دينار ، أكثرها جناس عروض . ثم إن الأمور تقلبت وعاد أصحاب الأطراف وخرجوا (١) عليه ، فاضطر إلى مداراة شهيد وأطلق له الباقي استمالة (٢) له واستصلاحاً لقلبه .

ذكر ملكة عدة بلاد وحصون من ديار بكر

في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، سار الشهيد إلى ديار بكر قاصداً فتحها ومحاصراً لها ، ففتح عدة بلاد ، منها : مدينة طنزة (٣) ، وأسعد (٤) ، وملك مدينة المعدن (٥) (٧٦ — أ) الذي عمل منه النحاس من أرمينية (٦) ، ومدينة حيزان (٧) . وملك أيضاً حصن الزوق (٨) ، وحصن طليس (٩) ، وحصن باتاسا (١٠) ، وحصن ذى القرنين .

وأخذ من أعمال الماردين عدة مواضع ، ورتب أمور الجميع ، وترك فيها من يحفظها إذا سار عنها . وقصد مدينة آمد ، ومدينة حاني (١١) فحصرهما . فملك مدينة حاني ، فدوخ البلاد ، وأقام على آمد محاصراً لها ، وقصده إستطلاع حال الرها على ما تذكره إن شاء الله تعالى .

في ذكر فتح الشهيد مدينة الرها

في جمادى الآخر من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فتح الشهيد رضى الله عنه مدينة الرها من فرنج ، وكانت لجوسلين (١٢) عاتيق وشيطانهم ، والمقدم على رجالهم وفرسانهم ، وكلهم قد ذعن له بالنهاية في الشجاعة ، فهم يخضعون له ببذل الطاعة . وكان مدة حصارها ثمانية وعشرين يوماً ، وأعادها إلى حكم الإسلام ، ونفذت فيها أحكام أهل الإيمان ، وهذه الرها هي من أشرف بلدن عند النصارى (٧٦ — ب) وأعظمها محلاً . وهي إحدى السكراسي عندهم ، فأشرفها البيت

- (١) بالأصل : خرجوا . (٢) بالأصل : استماله واستماله واستصلاحاً . (٣) طنزة : في (ياقوت) : بفتح أوله وسكون ثانيه وزاى . بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر . (٤) أسعد : لم يذكرها (ياقوت) ، وفي تاريخ الفارق (ص/٥٩/حاشية/٥ — نقلاً عن تقويم البلدان) : بكسر المعزة والسين وكسر العين وسكون الراء المهملة ثم دال . ويقال لها « سمرت » ، على جبل بالقرب من شط دجلة ، هي عن ميفارقين على مسيره يوم ونصف . (٥) المعدن : في (ياقوت) : بكسر الدال وآخره نون . قرية من رى وزون ، من نواحي نيسابور . وفي السلوك (ج/١/ص/٦٩٠/حاشية/٤) بلدة بأرمينية قرب منبع نهر دجلة ، سميت بهذا الاسم لوجود مناجم المعدن النحاس والحديد بقريةها . (٦) العبارة « الذى يعمل منه النحاس من أرمينية » مضطربة المعنى ، ولعلها كانت بخط ابن الأثير : « وملك مدينة المعدن التى يستخرج منها النحاس ، ويعمل فى أرمينية » . (٧) حيزان : في (ياقوت) : بكسر أوله وسكون ثانيه وزاى وألف وتون . بلد فيه شجر وبساتين كثيرة ومياه غزيرة . وهي قرب أسعد من ديار بكر . (٨ و ٩ و ١٠) : وردت أسماء الحصون فى ، الكامل ، معرفة عما هي عليه هنا فقد وردت : الدوق ، مطليس ، بالنسبة . ولم يستطع المحقق ، تحقيق هذه الأسماء لعدم ورودها فى ياقوت ، كذلك وردت بحرفة فى ابن واصل (ح/١/ص/٩٢) . (١١) حاني : فى (ياقوت) : بالنون ، رزن قاضى وغازى ، اسم مدينة معروفة بديار بكر ، فيها معدن الحديد ومنها يجلب إلى سائر البلاد . (١٢) هو جوسلين الثانى ابن جوسلين الأول .

المقدس، ثم أنطاكية، [ثم رومية (١)] والقسطنطينية، والرها. وكان هذا فتح الفتوح حقاً، وأشبهها بيدر صدقا، من شهبه فقد تمسك من الجهاد بأوثق (٢) سبب، ولو عاصره الطائي (٣) لعلم أنه أولى بقوله، السيف أصدق أنباء من الكتب، لأن ضرر من بهذه المدينة من الفرنج على المسلمين لقربها عظيم، وشرهم إليها جسيم. إذ كانت من الديار الجزرية عينها، ومن البلاد الإسلامية حصنها، وانضاف إليها عدة من البلاد فأتسعت مملكتهم، واشتدت على أهلها وطأتهم فلكوا من نواحي ماردين إلى الفرات — على طريق شبختان — عدة حصون، كسروج، والبيرة (٤)، وجملين، والموزر (٥)، والقرادي (٦)، وسن ابن عطير (٧) وغير ذلك (٨). وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر، وماردين، ونصيبين، ورأس عين، والرقعة. وأما حران فكانت [معهم (٩)] في الخزي، كل يوم قد صبحوها بالغارة (١٠)، فلما رأى (٧٧ - أ) الشهيد الحال هكذا، أنف لدولته أن يترك من بالرها من الكفار يحوسون من مملكة الإسلام خلال الديار، وكان يعلم أنه لا ينال منها غرضاً، ولا يمكنه أن يحيل جوهر الكفار بها عرضاً، ما دام بها جوسلين وفرسانه، وجنوده وأعوانه، وأنه متى قصدها محاصراً لها إجمعت الفرنج لحفظها منه، فعدل إلى أعمال الحيل والخداع، إذ كان أنجع في هذه الحادثة من المصاع (١١)، والرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى. فعدل عن قصدها إلى ما جاورها من ديار بكر التى بيد المسلمين، كحانى، وجبل جور (١٢)، وآمد على ما تقدم ذكره، فكان يقاتل من بها قتالا فيه إبقاء وهو يسر حسوا (١٣) فى ارتغاء (١٤)، فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم، ووكل بها من يخبره بخلو عربنها من آساده، وفراغ حصنها من (١٥) أنصاره وأجناده. فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر، ظن (٧٧ - ب) أنه لا فراغ له إليه، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه، ففارق الرها إلى بلاده الشامية ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله

- (١) الإضافة من، الروضتين (ح/١/ص/٣٦). (٢) بالأصل: أوثق، (٣) بالأصل: الطائى . وهو الشاعر أبو تمام الطائى، الذى مدح الخليفة العباسى المعتصم بالله حين فتح عمورية من الروم سنة ٢٢٣ .
- (٤) البيرة: فى (ياقوت): بالباء والياء. بلد قرب سميساط، بين حلب والنفور الرومية. وهى قلعة حصينة، وهارستاق واسع. وفى، السكامل (ح/٩/ص/١٥٦)، أنها قلعة متينة على الفرات من الجانب الجزرى .
- (٥) الموزر لم ترد فى (ياقوت). وفى ابن واصل، (ح/١/ص/٩٢/حاشية/١٠)، أنها كورة بالجزيرة منها نصيبين الروم. (٦) القرادى: لم يرد لها تعريف فى (ياقوت). ووردت فى ابن واصل (ح/٣/ص/١٤٠)، أنها ضيعة من أعمال شبختان، وفى (س/١٩٥ — نفس المصدر) أنها ضيعة من عمل ماردين.
- (٧) سن ابن عطير: لم يرد لها تعريف فى (ياقوت). وفى، السكامل (ح/٨/ص/٢٨٥) قلعة ابن عطير، وتقع عند الرها. (٨) فى السكامل (ح/٩/ص/٨). أن هذه الحصون وغيرها مما يقع غرب الفرات كانت لجوسلين صاحب الرها. (٩) الإضافة من، الروضتين (ح/١/ص/٢٧). (١٠) بالأصل: بالغارة.
- (١١) بالأصل: المصاع، (١٢) جبل جور: فى (ياقوت): بالجيم المضمومة وسكون الواو وراء. اسم الكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية، وأهلها نصارى أرمين، وفيها قلاع وقري. (١٣) أى على مهل. (١٤) فى غير ضجيج. (١٥) بالأصل: عنى.

فأتت الشهيد عيونه فأخبرته بمسيره مع عساكره وذويه ، وخلو (١) البلد عن حافظه وحاميه ،
فخثذ أمر بالنداء في العسكر بالتجهيز والتشمير ، والجد في المسير ، ويهدد لمن عن صحبته تأخر ،
وأعلمهم أنه لا يقبل عذر من اعتذر ، وأقبل مسرعا كالسهم الصادر عن وتره ، والسيل الصائر
إلى مستقره ، وتبعته العساكر يتلو بعضها بعضا ، عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفرضا ،
وأقبلوا زمرا مجدين كقطع السحاب تحتها الجناث (٢) ، وقد استعانوا على السرعة بركوب
النجائب (٣) . فلما علم من بها من العدو إقباله ، سرى الرعب في أحشائهم ، واختلط الخوف بدمائهم
وسقط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا وقالوا ﴿ لئن لم يرحننا ربنا ويغفر لنا لنكونن من
الخاسرين (٤) ﴾ . فأبى الله إلا أن ينتقم (٧٨ - أ) منهم بسيف الشهيد ، ويجمع في جهنم بين الغائب
منهم والشهيد ، جزاء بغيتهم الشنيع ، وقتلهم الفظيع ، فصبه الله عليهم عذابا ، وساقه إليهم عقابا
فضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضافت عليهم نفوسهم ، ونكست لشدة هيئته رؤوسهم ،
ووافى البلد في حده وحديده ، وعدة وعديده وبمواكبه (٥) المنصورة ، وجوعه المحشورة ، وبنوده
المنشورة ، كما قال فيه [المؤرخ (٦)] :

بجيش جاش بالفرسان حتى	ظننا البر (٧) بجرا من سلاح
وألسنة من العذبات حمر	تخاطبنا بأفواه الرياح
وأرع جيشه ليل بهيم	وغرته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن	قليل الصفح ما بين الصفاح
وكان (٨) ثباته للقلب قلبا	وهيئته جناحا للجناح

وزحف بهم نحو البلد يقدمه ، والشجاعة تقدمه ، فكادت الأرض تزلزل . والنهار بسواد
الليل يسربل (٧٨ - ب) ، وصار الفرنج مع علمهم بأنهم صائرون إلى البوار ، يتهافون إلى القتال
تهافت الفراش في النار ، أخذوا بقول [من] يقول (٩) :

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

فلما رأى الشهيد البلد ، رأى بلدا جمع بين الحصانة والحسن ، فراسل (١٠) أهله يبذل لهم الأمان
والأمن ، ليسلموه سليما من إخراب أسواره (١١) ، وإخلاء دياره ، ضنا منه على مثله أن يصبح

(١) بالأصل : وخو . (٢) الجناث : الریح الجنوبية (مختار الصحاح) . (٣) بالأصل : الجناث .
والجناث جمع نجيب ، وهى الإبل . (٤) سورة الأعراف : ١٤٩ . (٥) بالأصل : وعساكره .
(٦) الإضافة من المحقق ، ونعني به ابن الأثير نفسه . وذلك استنادا على ما جاء في الروضتين (٣٧/ص/١)
ما نصه : « ... فأقبل الشهيد بعساكره إلى الرها ، ثم وصف ابن الأثير الجيش وأنشد » . ثم ذكر أبو شامة نفس
الآيات الخمسة . وعبارة أبو شامة تشير إلى أن الشعر لابن الأثير . أما اللفظ الذى أضفناه ، من المؤكد أنه سقط
سواء من النسخ . (٧) بالأصل : البحر . (٨) بالتصحيح من الروضتين ، ج/١/ص/٣٧) .
(٩) بالأصل : فكان . (١٠) والتصحيح من الروضتين ، ج/١/ص/٣٧ . (١١) بالأصل : بقوله يقول .
وقد أسقط المحقق اللفظ : يقول ، لأنه زائد . (١٠) بالأصل : فراسله . (١١) بالأصل : سواره .

خاويًا على عرشه ، وأن يلتحق سماءه بفرشه ، فأبوا قبول الأمان ، وامتنعوا من الإذعان ، فاستنار الله تعالى في قتاله ، وقدم الشجعان لنزاله ، ونصب المجانيق ، وقدم النقاين ، وألح على من به القتال ، خوفاً أن يجتمع الفرنج فيزحونه عنه ويستنقذونه (١) منه . وبلغ الخبر إلى الفرنج فقاموا وقعدوا ، وأبرقوا وأرعدوا ، وجمعوا فارسهم وراجلهم ، وشابههم وكهلمهم ، وحرصوا على السرعة خوف القوات (٧٩ - أ) وعاد جوسلين عند سماعه الخبر إلى شرق القرات ، لعله يجد فرصة ليدخل إليها ، أو يرسل نجدة يحافظ عليها ، فحبل بينه وبين ذلك ، وأنى يكون ما يريد وخصمه الشهيد أتاك . ولم يزل [الشهيد] يزحف إليها مرة بعد أخرى ، حتى وصل النقاين إلى سورها فنقبوه ، فألقوا النار فيه فأحرقوه ، وملك البلد عنوة وقهرا ، وأوسع كل من فيه نكالا (٢) وشرأ ، فلما ملكها استباحها ، وأذل لقاحها ، ونكس صلبانها ، وأباد قسوسها ورهبانها ، وقتل شجعانها وفرسانها ، فهم معه بين قتيل وأسير ، وجريح وكسير ، وملاً الناس أيديهم من النهب والسبي ، من كل مال نفيس و غلام رائق ، وبكر كالظبي عاتق ، وأمصاهم من النكال ما هو لهم عتيد ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد (٣) ﴾ . ثم إنه دخل البلد فراقه منظره ، وشاقه مخبره ، فأسف لمثله من الخراب ، وأن (٤) يستولى عليه في ملكه البوار والتباب ، ورأى إن أخربه وأخلاه من أهله ، غير (٧٩ - ب) مستحسن من مثله ، فأمر بإعادة ما أخذ منه من أثاث ومال ، وسبى ورجال ، وجوار وأطفال ، فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم إلا الشاذ النادر ، فعاد البلد عامراً بعد أن كان دائراً ، وآهلاً وآمناً بعد أن كان للذئاب والجامع (٥) مسكناً ، ورتب فيه من العساكر من يحفظه ، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من (٦) هذه الناحية من المدن والحصون والقرايا ، كسروج وغيرها ، وأخلى الديار الجزرية من (٧) معرة الفرنج وشرهم ، وأراح أهلها من كيدهم وضرهم ، وأصبح أهلها بعد الخوف آمينين ، وعلى مهاد الأمن وادعين ، وأجفل الكفر وحزبه بين يدي الإيمان وأهله ، وهم على آثارهم يكسعون أديارهم ، ويوحشون منهم ديارهم ، والكفرة يجدون في الهرب ، خوف العطب ، وكلمهم من الرعب لاه ذاهل ، ومنادى التوحيد ينادى : جاء الحق وزهق الباطل . وألقى الإسلام بهذه البلاد جرانه ، وبث فيها (٨٠ - أ) أنصاره وأعوانه ، وصدق وعد الله في قوله ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض (٨) ﴾ . فهي لهم إلى يوم العرض . وكان فتحاً عظيماً لم ينتفع المسلمون بمثله ، وطار في الآفاق ذكره ، وطاب بها نشره ، وسارت به الرفاق ، وامتلاأت به المحافل في الآفاق ، وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء ، واستبشر به الأبرار والأصفياء . حكى لى جماعة أعرف

(١) بالأصل : يستنقذونه . (٢) بالأصل : مكالا . (٣) سورة هود : ١٠٢ . (٤) اللفظ مكرر بالأصل . (٥) بالأصل : الجامع . (والصحيح من «دى ساين» (ص/١٢٣) . والجامع ، الضبع لأنها تجمع إذا مشت . (٦) محيط المحيط . (٧) بالأصل : فن . (٨) سورة النور : ٥٥ .

صلاحهم ، أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي — وكان من العلماء العاملين ، والزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها ، وله الكرامات الظاهرة — ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويته يوم ذلك ، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور ، عنده من الإرتياح مالم يروه أبدا ، فلما قعد معهم قال لهم : حدثني بعض إخواننا ، أن أتاك زنكي فتح مدينة الرها ، وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا ، ثم قال : ما يضرك يا زنكي ما (٨٠—ب) فعلت بعد اليوم ، وبقي يردد هذا القول مرارا ، فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح . ثم إن نفرا من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ ، وقالوا له : منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح ، وهو يشكر حضوره ، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا . وحكى لي أيضا بعض العلماء بالأخبار والأنساب — وهو أعلم من رأيت بها — قال : كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها ، وكان بها بعض العلماء الصالحين من المغاربة من المسلمين ذكر اسمه وأنسيته ، وكان الملك يحضره ويكرمه ، ويرجع إلى قوله ، ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين ، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرها ، قد سير هذا ملك الفرنج جيشا في البحر إلى إفريقية ، فنهبوا وأغاروا وأسروا ، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس ، وعنده هذا العالم المغربي ، وقد نعس وهو شبه النائم ، فأيقظه الملك (٨١—أ) وقال له : يا فقيه ، قد فعل أصحابنا بالمسلمين (١) كيت كيت ، أين كان محمد عن نصرهم . فقال : كان قد حضر فتح الرها . فتصاحك من عنده من الفرنج . فقال لهم الملك : لا تضحكوا ، فوالله ما قال عن غير علم ، واشتد هذا على الملك . فلم يمض غير قليل ، حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين ، فأنساهم شدة هذا الوهن ، رجاء ذلك الخبر ، لعلوا منزلة الرها عند النصرانية . وحكى لي أيضا غير واحد [من (٢)] أثنى [به] : أن رجلا من الصالحين ، قال : رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال ، فقلت له : ما فعل الله بك . فقال : غفر لي . فقلت : بماذا . قال : بفتح الرها .

ذكر محاصرة الشهيد قلعة ألبيرة

لما فرغ الشهيد من أخذ الرها وإصلاح حالها ، والإستيلاء على ما وراءها من البلاد والولايات ، سار إلى قلعة ألبيرة — وهي (٣) حصن حصين مطل على الفرات ، وهو لجوسلين أيضا — (٨١—ب) فحصره وضيق على من به ، وغاداهم القتال وراوحهم ، وقطع عنهم الميرة حتى أشرفوا على تسليمها ، فأتاه خبر قتل نصير الدين جقر نائبه بالموصل والبلاد الشرقية ، فرحل عنها خوفا أن يحدث بعده في البلاد فتق يحتاج (٤) إلى المسير إليها ، فلما رحل عنها ، سير إليها حسام الدين

(١) بالأصل : المسلمين . (٢) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص ٣٧) . (٣) بالأصل : وهو .

(٤) بالأصل : يحتاج . (والتصحیح من ، الروضتين ح/١/ص ٤٠) .

ثم تاش بن إيلغازي صاحب ماردين عسكرياً ، فسلمها الفرنج إليهم (١) ، خوفاً من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها (٢) .

ذكر قتل نصير الدين جقر على يد الملك ألب أرسلان

في ذي القعدة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، قتل نصير الدين جقر (٣) بن يعقوب ، نائب الشهيد بالموصل وسائر البلاد الشرقية . وكان سبب قتله ، أن الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي (٤) ولد السلطان محمود بن محمد كان عند الشهيد وهو أتابكة ومريه ، وكان يظهر للخلفاء وللسلطان مسعود وأصحاب الأطراف (٨٢-أ) أن البلاد التي بيده ، إنما هي للملك ألب أرسلان ، وأنه نائبه فيها ، فكان إذا أرسل رسولا ، أو أجاب (٥) عن رسالة ، فإنما يقول ، قال (٦) الملك كذا وكذا ، وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر بإسمه ويخرج الأموال ويطلب [له] (٧) السلطنة ، فعاجلته المنية قبل ذلك . وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة ، وبها نصير الدين — وهو ينزل إليه كل يوم يخدمه [ويقف (٧)] عنده ساعة ثم يعود — فحسن المفسدون للملك قتله ، وقالوا له : إنك إن قتلت ملك الموصل وغيرها ، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك ، ولا يجتمع معه فارسان عليك . فوقع هذا في نفسه وظنه صحيحاً ، فلما دخل نصير الدين إليه على

(١) في ، الكامل (١٠/ص/١٠) ، أن أهل ألبيرة هم الذين استدعوا حسام الدين ليسلموا إليه البلد خوفاً من أن يعود إليهم عماد الدين . ولعل أهل ألبيرة أرادوا أن يوقعوا بين عماد الدين وحسام الدين ليتخلصوا منهما جميعاً .
(٢) بالأصل : فيأخذهم . (والتصحيح من الروضتين ، ١/ص/٤١) . (٣) بالأصل : جعفر . (والتصحيح من النص نفسه) . ولم يعثر المحقق على ترجمة لنصير الدين ، وإنما يفهم مما جاء في «تاريخ دولة آل سلجوق» أنه كان سمي السيرة ، وأن عماد الدين لم يكن راضياً عنه ، فقد ذكر العماد الكاتب ، أن عماد الدين استنصف أمواله بعد قتله « واستخرج ذخائره ، واستنظف أوله وآخره ، وصادر أهله وأقاربه ، وأهل بنوابة نوابه ، وسلمهم القوة والقوت ونوع عليهم جورهم المقوت » (١٨٧-١٨٨) . (٤) يختلف العماد الكاتب مع ابن الأثير في لقب الملك أرسلان وأنه ليس هو المعروف بالخفاجي ، وإنما المعروف بهذا اللقب ، هو أخوه فرخشاه ، ونس ما ذكره العماد عن قتل نصير الدين والملك الذي قتله (ص/١٨٧) : « كان مع زنكي ملك كان من أولاد السلطان محمود بن محمد ابن ملكشاه ، أحدهما يسمى ألب أرسلان ، وهو في معقل من معقل سنجان ، والآخر يسمى فرخشاه ، ويعرف بالملك الخفاجي ، وهو بالموصل . وكان هذا الملك مسلماً إلى الأمير ديبس بن صدقة ، فانتزعه منه زنكي في حرب ، وأُنزل من أكرامه في منزل رجب . وكانت الخاتون السكمانية زوجة زنكي تربيته وتربيته وتجري به في حلبة تجريبه وتجريبه حتى بلغ وأدرك ، وساكن فطنته تحرك . وفهدته المرأة غير مرة وأنهتته ، وعاهدته على الوفاق وعلى الوفاء عهده . وتأسد الشبل وضاق به عرينه ، وشمخ عرينه . وكان نصير الدين جقر (هكذا بالمرجع) نائب زنكي بالموصل للدماء سفاكاً ، وبالنفوس فتاكاً ، يأخذ البريء بالسقيم ، ويلحق الولود بالعقيم ، ... وأنه لما أحس من الملك نفس الملك ، صار يقبض عنائه ، ويبسط فيه لسانه ، ويقول : لمن عقل ولأعقلته ، ولما نقل طبعه ولا نقلته . فسمع الملك ما راعه ، وأسره في نفسه وما أذاعه . فقدر ودبر ، وفكر ومكر ، وجمع إليه من حوله ، وقال لهم فسكتوا قوله ، وانفقوا على أنه إذا جاء إلى سلام خاتون أو سلامه ، أحيط به من خلفه ومن قدماه ، فإذا أصابوا منه المقتل ، ملكوا الموصل » . ثم ذكر العماد قتله بيد حاشية الملك ، ثم قال ، أنه بعد أن قبضوا على الملك فرخشاه وقضوا عليه ، « عطف زنكي على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجه من معقله ، وعنى بتفاصيل أمره وجملة ، وضرب له نوبية ونوباء ، ورتب له في حاله جلوسه وركوبه رتبا ، وأغرى بتولي أكرامه وتوخييه ، وغرضه خفاء ماجرى من هلاك أخيه » . (٥) بالأصل : وأجاب . (والتصحيح من الروضتين ، ١/ص/٤١) . (٦) بالأصل : فان . (٧) : الإضافة من الروضتين (١/ص/٤٧)

عادته ، وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه (١) ، وألقوا رأسه إلى أصحابه ، ظننا منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرقوا ويملك الملك ألب أرسلان البلاد ، فكان الأمر بخلاف الذي ظنوا . فإن أصحابه (٨٢-ب) وأصحاب [أتابك (٢)] الذين معه ، لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير . وكانت دولة (٣) الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوى الرأى والتجربة . فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء . وكان من جملة من حضر ، القاضى تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى ، فدخل إلى السلطان (٤) وخدعه حتى أصعبه إلى القلعة ، وهو يحسن له الصعود إليها ليمسكها ، وحينئذ يستقر له ملك البلد . فلما صعد إلى القلعة سجنوه بها ، وقتل الغلمان الذين قتلوا نصير الدين ، وأرسلوا إلى أتابك يعرفونه الحال ، فسكن (٥) جاشه واطمأن قلبه ، إلا أنه لم يستقر جنانه حتى أقام بها النواب ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ولاية زين الدين على قلعة الموصل

لما قتل نصير الدين ، أرسل أتابك الشهيد ، شرف الدين ابن أخت نصير الدين إلى الموصل ليتولى ما كان خاله يتولاه (٨٣-أ) ، ولم يعطه علامة التسليم ولا كتب له منشورا ، وقال له : كل من هناك غلمانكم ، وتقدم إليه بما يفعل . فسار حتى وصل إلى الموصل . وكان بقلعة الموصل نقيب اسمه حسن ، فلما قتل نصير الدين ، أغلق باب القلعة وجمع الأجناد عنده في حفظها ، فلما وصل ابن أخت نصير الدين ، أرسل إليه النقيب يقول له : لإرسال إلى منشور المولى أتابك بولاية القلعة ، فإذا رأيت علامته أذنت لك في الدخول ومعك من يخدمك حسب . ثم أرسل أنا إلى أتابك من أثق إليه أستأذنه في تسليم الأمر إليك ، فإذا أذن فعلت ، وإن لم يأذن أخرجتك منها . فترددت الرسل بينهما حتى أذن له في دخول القلعة على القاعدة المذكورة . فبينما هو يريد دخول البلد ، إذ رأوا غيرة مقبلة من طريق الشهيد فأقاموا ينتظرونها ، وإذ قد انكشفت عن زين الدين على [بن بكتكين (٦)] قد جاء مجدا ليكون نائبا في القلعة . وكان سبب ذلك أن الشهيد تغير (٨٣-ب) عزمه عن الأول لأسباب يطول ذكرها ، فأرسل زين الدين — وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه — فوصل الموصل في تلك الحال ، فقال له النقيب حسن مثل قوله لشرف الدين ابن أخت نصير الدين ، فأجاب زين الدين إلى ذلك ، ودخل القلعة في نفر يسير ، وأرسل النقيب إلى الشهيد من يثق إليه يستأذنه ، فأمره بتسليم القلعة إلى زين الدين ففعل . واستقر زين الدين

(١) في ، الكامل (٩/٩/ص) ، أن الذين قتلوا نصير الدين ، هم من كان عند الملك من أجناد عماد الدين ومالكيه . (٢) الإضافة من ، الروضتين (ج/١/ص/٤١) . (٣) بالأصل : دور . (والتصحیح من الروضتين ، ج/١/ص/٤١) . (٤) هذا سهو من ابن الأثير ، لأن ألب أرسلان لم يكن سلطاناً ، وإنما كان مسلماً فقط . (٥) بالأصل : فتسكن . (٦) الإضافة من النص نفسه ، من ترجمته له فيما يلي سنة ٦٣٥ هـ .

ويمكن ، وسلك بالناس غير الطريق التي سلكها نصير الدين وسهل الأمر ، فأطمأن الناس وأمنوا ، وازدادت (١) البلاد معه عمارة .

حصر حصن فنك (٢)

هذا (٣) الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر ، وهو للأكراد البشنوية (٤) إلى زماننا هذا ، وله معهم مدة طويلة ، يقولون نحو ثلاثمائة سنة . وهو من أمنع الحصون ، مطل على دجلة ، وله سرب إلى عين ماء لا يمكن أن يحال بين أهله وبينها (٥) . فلما كان سنة أربعين (٨٤ — أ) وخمسمائة (٦) ، تقدم أتابك إلى زين الدين على بإرسال عسكر إليه يحصره ، فسير خلقاً كثيراً من الفرسان والرجال فحصره ، وأقاموا عليه يحصرونه إلى أن قتل الشهيد ، وضيقوا على أهله ومنعواهم الميرة وهم صابرون . فلما قتل الشهيد زال عنهم الحصر ، وانكشف ما بهم من الضر ، وكان لأصحابه معه عدة حصون أخذها منهم الشهيد ، كالهشيم ، وجديدة نصيين (٧) ، وشاروا ، وغيرها من قلاع الزوزان (٨) .

ذكر حصار قلعة جعبر

قال . كانت هذه قلعة جعبر (٩) ، قد سلمها السلطان ملكشاه إلى الأمير سالم بن مالك العقيلي على ما ذكرنا عند ملك قسيم الدولة مدينة حلب ، فلم تزل بيده ويد أولاده إلى هذه السنة — وهي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة — فسار الشهيد إليها فحصرها ، وكان الباعث على حصرها وحصر فنك ، أن لا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره — وإن قل — للحزم الذي عنده والاحتياط ، (٨٤ — ب) وأقام عليها يحصرها بنفسه . ومن أعجب موافقة الأقوال للأقدار ، ما حكى

(١) بالأصل : وازداد . (٢) فنك : في (ياقوت) : بالفتح أولاً وثانياً وكاف . قلعة حصينة منيعة للأكراد البشنوية ، قرب جزيرة ابن عمر بينهما نحو من ، فرسخين ، ولا يقدر صاحب الجزيرة ولا غيره — مع مخالفتهم للبلاد — عليها وهي بيد هؤلاء الأكراد منذ سنين كثيرة نحو الثلاثمائة سنة . وفيهم مروءة وعصبية ، ويحمون من يلتجئ إليهم ويحسنون إليه . (٣) بالأصل : هذه . (٤) بالأصل : البشنوية . (والنصحيح من الروضتين ، ح/١/ص/٤١) . (٥) بالأصل : بينهما . (٦) في الكامل (ح/٩/ص/١٢) ، أن حصار فنك كان سنة ٥٤١هـ ، أثناء حصار عماد الدين قلعة جعبر . (٧) جديدة نصيين : في (ياقوت) : قلعة في كورة بين النهرين التي بين نصيين والموصل ، وأكثر ما تكون لصاحب الموصل . وأعمالها متصلة بأعمال حصن كيفا ، ولها قرى ومزارع . (٨) الزوزان : في (ياقوت) : زوزان . بفتح أوله وثانيه ثم زاي أخرى وآخره نون . كورة حسنة بين جبال أرمينية وبين أخلاط وأذربيجان وديار بكر والموصل . وأهلها أرمن ، وفيها طوائف من الأكراد . وينقل عن ابن الأثير ، أن الزوزان ، ناحية واسعة شرقي دجلة من جزيرة ابن عمر . وأول حدوده من نحو يومين من الموصل للحدود « خلط » وينتهي حدها إلى أذربيجان إلى أول عمل سلاسل . وفيها قلاع كثيرة حصينة ، وكلها للأكراد البشنوية والبختية . فن قلاع البشنوية : قلعة برقة ، وقلعة بشير . وللبختية قلعة جردقل ، وهي أجل قلعة لهم ، وهي كرسى ملكهم ، وآتيل ، وعلوس . وإبازاء الحراء لأصحاب الموصل : ألتى ، وأروخ ، وباخوخة ، وبرخو ، وكنور ، ونبروه ، وخوشب . (٩) قلعة جعبر : في (ياقوت) : على الفرات بين بالس والبرقة قرب صفين ، وكانت قديماً تسمى دوسر . وكان يملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جعبر بن مالك .

لى والدى قال : أرسل الشهيد ، الأمير حسان المنبى إلى صاحب القلعة لمودة بينهما فى معنى تسليمها (١) إليه ، وقال [له] : تضمن له عنى الإقطاع الوافر والعطاء الكثير ، فإن أجاب إلى التسليم ، وإلا فقل له : والله لأقيم محاصراً لك إلى أن أملكها عنوة ، ثم لا أبقي عليك ، ومن الذى يمنعك منى . فصعد إليه حسان وأخبره برسالة أتابك ، وأشار عليه بالتسليم إليه ، فامتنع . فقال له فهو يقول لك : إن سلمت وإلا فعلت وصنعت ، وما الذى يمنعك منى . فقال : قل له ، يمنعنى منه الذى منعك يا حسان من الأمير بلك . فعاد حسان وأخبر الشهيد بامتناعه وكنم عنه هذا . فلم يمض غير قليل ، حتى قتل الشهيد وفرج الله عن صاحبها . قال . وكانت قصة حسان مع بلك ، أن حسانا (٢) كان صاحب منبج فحصره بلك (٨٥ - أ) - وهو ابن [أخى] إيلغازى بن أرتق - وضيق عليه ، فبينما هو فى بعض الأيام يقاتله ، إذ جاءه سهم لا يعرف من أين جاء ، فقتله وخلص حسان منه (٣) .

ذكر قتل الشهيد زنكى رضى الله عنه

قد ذكرنا حصار قلعة جعبر وملازمة الشهيد قتلها ، فلم يزل كذلك إلى أن مضى من شهر ربيع الآخر خمس ليال ، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة ولم يجهزوا عليه (٤) وهربوا من ليلتهم إلى القلعة [ولم يشعر أصحابه بقتله ، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة (٥)] صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله ، فبادر أصحابه إليه ، فأدركه أوائلهم وبه رمق . حدثنى والدى عن بعض خواصه ، قال : أدركته وهو فى السياق ، فحين رآنى ظن أنى أريد قتله ، فأشار إلى ياصبعه السبابة ، فوفقت من هيئته ، وقلت له : يامولانا من فعل بك هذا حتى أقتله ، فلم يقدر على الكلام . وختم الله بالشهادة أعماله ، وفاضت (٦) منه نفسه (٨٥ - ب) وسكن رسمه ، وأصبح معدوماً كأن لم يكن بالأمس ، وزال عنه الملك ، واستولى عليه الهلك ، ولم يكن عنه أصحابه وعساكره ، ولا حماه أمواله ودساكره ، ولا آخر الأجل مماليكه وأجناده ، ولا زحزح عنه الفناء حصونه وبلاده ، كما [قال] فيه بعض الشعراء ، حيث يقول :

فأعجب لمن قاد الجيوش ونفسه قسمان بين الكر والإقدام
يلقى الكتائب مفرداً بكتائب من نفسه واليوم يكدر (٧) حامى
لا يرعوى عن أن يقارع وحده ألفاً بأبيض صارم صمصام

(١) بالأصل : تسلمها . (٢) بالأصل : حسان (٣) عن مقتل بلك بن بهرام بن أرتق ، أنظر ، الكامل (٨/ص ٣١٥ - سنة ٥١٨) . (٤) فى « تاريخ دولة آل سلجوق » (١٨٩/ص) ، أن سبب قتله ، أنه نام يوماً وهو مخمور ، وكان به من مماليكه يلعبون ويطربون فهددهم ، فقتلوه خوفاً منه . (٥) الإضافة من ، الروضتين (١/ص ٤٢) . (٦) بالأصل : فاطت . (٧) بالأصل : لكدر .

يأتى الفتوح على الفتوح بسيفه وبرأيه وبِعزمه المقدام
حتى إذا الأجل انقضى مستكملاً ماخط في الألواح بالأقلام
لاقى الحمام ولم يكن (١) مستيقنا أن الحمام سيبتلى بحمام

وأضحى (٢) وقد خاناه الأمل ، وأدركه الأجل ، وتخلّى عنه العبيد والخول ، فأى نجم للإسلام
أفل ، وأى ناصر للإيمان رحل ، وأى بحر ندى (٨٦ - أ) نضب ، وأى بدر مكارم غرب ،
وأى أسد افترس ، ولم ينجه قلة حصن ولا صهوة فرس ، فكأن أتعب نفسه لتمهيد الملك وسياسته ،
وكأن أذابها في حفظه وحراسته ، فحين بلغ من ذلك ما أراد ، واستكمل في سعة الملك وشدة الهيبة
وزاد ، وهانت عليه المصاعب ، وزالت المناعب ، واستكانت لصولته القروم ، وخضعت لهيبته
الترك والفرنج والروم ، أتاه مبيد الأمم ومفنيها في الحدث والقدم ، ومهلك العرب والعجم ،
فأخذ من العالم سره وروحه ، وسقاه بكأسه غبوقه وصبوحه (٣) ، وزال عنه سلطانه ، وبعد عنه
حماته وأعوانه ، وفارقه أنصاره وخلاته ، وأخذ من جميع ما يملك وحيداً ، وجعله فريداً ، وأصاره
بعد القهر للخلافتين مقهوراً ، وبعد وثير المضاجع في التراب معفراً مقبوراً ، رهين حدث لا ينفعه إلا
ما قدم ، ولا يقبل (٨٦ - ب) من ساكنه فيه الندم ، وقد طويت صحيفة عمله ، ونشرت
جريدة أجره ، ونسخت آية عمره ، وبليت سورة ذكره ، فلو شوهدت وقعاته لم تذكر وقعة
الهباء (٤) ، ولا سطرت حرب الآلاء ، ولو نظرت فتكاته لأنسيت البراض (٥) والجحاف (٦) ، أو عد
صرعى سيفه لكأثرت (٧) هلكى الجحاف (٨) ، وحين اخترمته المنية ، وخانتة الأمانة ، أضحى
الإسلام لفقد ناصره عبوساً ترحاً ، والكفر لعدم خاذله جذلاً مرحاً ، وما علما أن لهما من الملوك
أبنائه جابراً وكاسراً ، ومؤيداً وقاهراً ، بل من يربو (٩) [فى] نصرة التوحيد عليه ، ويزيد فى
هدم منار الثلاث وتعجل النار (١٠) إليه :

زاد على ما قام آباؤه به وقد شاد الذى أثلوه
أقصر أهل العصر عن شأوه حسرى وطال السكل إذ طاولوه

وسيرد من فتوحهم وجهادهم ما يرقع هذا الخرق ، ويجبر هذا الوهن . ولما قتل دفن بصفين

(١) بالأصل : اكن . (٢) بالأصل : اخفا . (٣) الغبوق : الشرب بالعنى . والصبوح : الشرب
بالغداة . (مختار الصحاح) . (٤) بالأصل : الهباء . ووقعة الهباء من أيام العرب فى الجاهلية بين عبس
وذبيان على ماء يسمى « جفر الهباءة » . وتفاصيلها فى « العقد الفريد » (٥/٥/ص ١٥٦) .
(٥) البراض : هو البراض بن قيس ، أحد فتاك العرب المشهورين ، وقد تسبب فى حرب الفجار بين كنانة وقيس
عيلان فى الجاهلية . وتفاصيل الواقعة فى « العقد الفريد » (٥/٥/ص ٢٥٣) . (٦) بالأصل : الجحاف .
وهو الجحاف بن حكيم السليمى ، وكان بينه وبين الأخطل الشاعر عداوة ، أثار الجحاف بسببها حرباً على بنى تغلب —
قوم الأخطل — فقتل فيهم مقتلة عظيمة . (الكامل ، ٨/٤/ص ٨٠ . سنة ٧٠ هـ) . (٧) بالأصل : لكثره .
(٨) هو سيل وقع بمكة عام ٨٠ هـ ، عرف بسيل الجحاف « لأن ذلك السيل يجف كل شئ مر به » .
(الطبرى ، ٥/٥/ص ١٣٨) (٩) بالأصل : يزيى . (١٠) بالأصل : الشارب .

عند أصحاب أمير المؤمنين علي (٨٧ — أ) عليه السلام . ولقد بلغني أنه اجتاز بها وزار مشاهدنا ثم قال : وددت أني شهدت صفين بعسكري مع أمير المؤمنين علي عليه السلام ، حتى كنت أريه القتال الذي يعجز أصحابه عنه . ولكل إمري مانوى . وأما صورته ، فإن والدى حكى لي ، قال : كان حسن الصورة ، أسمر اللون ، مليح العينين ، قد وخطه الشيب ، طويلا ، وليس الطويل البائن ، قال : وأشبهه من رأيت به ، حفيده (١) السعيد عز الدين أتابك مسعود بن مودود ابن زنكي ، إلا أن الشهيد كان أتم قامة (٢) منه . وخلف من الأولاد : سيف الدين غازيا (٣) — وهو الذي ولي الملك بعده — ونور الدين محمود (٤) ، الملك العادل ، وقطب الدين مودود (٥) [وهو] أبو الملوك الآن بالموصل ، ونصرة الدين أمير أميران . فانقرض عقب (٨٧ — ب) سيف الدين من الذكور والإناث ، وعقب نور الدين من الذكور . ولم يبق الملك إلا في عقب قطب الدين . وخلف الشهيد أيضاً بنتاً . ولقد أنجب رحمه الله ، فإن أولاده الملوك لم يكن مثلهم وسندكر من أخبارهم ما يعلم صحة ما قلناه .

ذكر بعض سيرة الملك الشهيد رضى الله عنه

كانت سيرته من أحسن سير الملوك وأكثرها حزما وضبطا للأمر ، كانت رعيته في أمن شامل لعجز القوى عن التعدي على الضعيف ، ونحن نذكر من سياسته وآرائه وإنصافه وشجاعته وغير ذلك ، ما يعلم به محله من العقل ، وحسن قيامه بأمر الملك واضطلاعه به ، وإن من تقدمه من الملوك لم يصلوا إلى ما أوتيه من ذلك ، وحينئذ نقول : كم ترك الأول للآخر .

فمن ذلك إنصافه بين القوى والضعيف . حدثني والدى رضى الله عنه ، قال : قدم الشهيد — قدس الله روحه — (٨٨ — أ) إلينا بجزيرة ابن عمر بعض السنين — وكان الزمان شتاء — فنزل بالقلعة ونزل العسكر في الخيام ، وكان في جملة أمرائه الأمير عز الدين أبو بكر الديبسي — وهو من أكابر أمرائه ، ومن ذوى الرأى عنده — فدخل الديبسي البلد ونزل بدار إنسان يهودى وأخرجه منها ، واستغاث اليهودى إلى الشهيد وهو راكب ، فسأل عن حاله فأخبر به ، وكان الشهيد واقفاً والديبسي إلى جانبه ليس فوقه أحد ، فلما سمع أتابك الخبر ، نظر إلى الديبسي نظر مغضب ولم يكلمه كلمة واحدة ، فتأخر القهقرى ودخل البلد وأخرج خيامه وأمر بنصبها (٦) [خارج البلد (٧)]

(١) بالأصل : حاقده . (والتصحيح من ، دى سلين ، ص/١٣٥) . (٢) بعده في النص ما أتى ، ثم ضرب عليه الناسخ : وخلف من الأولاد سيف الدين غازى وهو الذي ولي الملك بعده ونور الدين محمد الملك النادل وقطب الدين مودود بن زنكي إلا أن الشهيد كان أتم قامه منه . (٣) بالأصل : غازى . (٤) بالأصل محمود . (٥) بالأصل : مودود . (٦) بالأصل : ينصبها . (٧) : الإضافة من ، الروضتين (١/ص/٤٣) .

ولم تكن (١) الأرض تحتل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين . قال : فلقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته ، فلما رأوا كثرتهم جعلوا على الأرض تبناً ليقيموها (٢) وينصبوا الخيام ، وخرج إليها من ساعته . وناهيك بهذا سياسة وإنصافاً .

قال : وكان ينهى أصحابه عن إقتناء الأملاك (٨٨ — ب) ويقول : مهما البلاد لنا فأى حاجة بكم إلى الأملاك ، فإن الإقطاعات تغنى عنها ، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها ، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلّموا الرعية وتعدّوا عليهم وغصّبوا أملاكهم . رحمه الله ورضى الله عنه ، فلقد كان ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق ، فما أحسن هذا الخلق ، وأحسن هذا النظر للرعايا ، وأكثر هذه الشفقة عليهم والرحمة لهم ، لا خلاف في أن عمارة البلاد من ثمرات العدل وكف الأيدي المتطاولة إلى أهلها .

ومن علم حال هذه البلاد قبل ملكه عرف مقدار ما عمر منها . حكى لى والدى قال : رأيت الموصل التي هي أم البلاد في أول أيام الشهيد وأكثرها خراب ، فكان الخراب من محلة الطبايين إلى القلعة وإلى دور السلطنة ، وكانت العرصة ترى من قريب مسجد التركاني ، وهو قريب من الطبايين ، وكان (٨٩ — أ) الجامع العتيق أيضاً بلا عمارة ألبتة . وكانت (٣) جميع المحال المجاورة للسور من سائر جهاته غير معمورة ، وكان أدنى العمارة من السور ما يكون رمية حجر ، وكان الناس لا يقدرّون على المشي إلى الجامع غير يوم الجمعة لبعده عن العمارة . وأول من بنى بالقرب من دار المملكة الأمير ناصر الدين كورى (٤) بن جكرمش ، فإنه طلب من الشهيد أن يأذن له لبنى داراً قريباً من خدمته ، فأجابه إلى ذلك ، وأمره أن يبني بمكان يكون بينه وبين القلعة مقدار حجر المنجنيق ، فبنى داره الأولى ، وهى اليوم مدرسة وقفها أم الملك الصالح (٥) . ثم بنى بعد ذلك داره الأخرى أقرب إلى دار المملكة . وهذا الذى ذكرناه عن خراب البلد كثير جداً . فلما طالت الأيام الشهيدية ، وحسنى البلاد ومنع المفسدين وكف أيدي الأقوياء ، سارت سيرته في البلاد ، فقصدته الناس واتخذوا بلاده داراً ، فإنه من أكرم إرتهب . فلم تزل العمارة تكثر بالموصل وغيرها ، حتى لقد ذهب كثير من المقابر (٨٩ — ب) وبنيت دوراً . وهو الذى أمر ببناء دور المملكة بالموصل ، ولم يكن بها للسلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان ، فبنى هذه الدور جميعها ، ثم أمر بالزيادة في علو سور الموصل فزيد (٦) فيه ما يقارب

(١) بالأصل : يكن . (٢) بالأصل : ليقها . (والاصحح من ، الروضتين ، ح/١/من/٤٣) .
(٣) بالأصل : وكان . (٤) بالأصل : لورى (وقد سبق ذكره ، ص/١٦) .
(٥) هو الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين بن عماد الدين زنكى . وقد خلف أباه بعد وفاته سنة ٥٦٩ هـ .
(٦) بالأصل : فزيده .

مثله ، وأثره ظاهر إلى يومنا هذا في السور . وأمر أيضاً بتعميق خندقها ، فعمل على ما هو عليه اليوم . وكانت الموصل أولاً بغير سور (١) ، فأول من عمل لها سوراً شرف الدولة مسلم بن قريش ، ولم يعمل له فصيلاً ولا خندقاً ، وكان قليل العلو . فلما ملكها جكر مش بن فصيلها وحفر لها خندقاً وليس بالعميق ، فلما ملكها الشهيد وحصرها المسترشد بالله على ما ذكرناه سنة سبع وعشرين وخمسة ثم عاد عنها ، أتم سورها وخندقها ، ففعل ذلك وتولاه نائبه نصير الدين . فهذا السور وهذا الخندق هما (٢) على الحال التي عملت في الأيام الشهيدة . وهو الذي فتح الباب (٩٠ — أ) العمادى وإليه ينسب .

قال المؤرخ . وكانت الموصل أقل بلاد الله فأكهة ، فكان الذي يبيع الفواكه يكون عنده مقرض يقص به العنب لقلته إذا أراد أن يزنه . فلما عمرت البلاد ، عملت البساتين بظاهرها وفي ولايتها ، فهي اليوم أكثر البلاد فأكهة ، فالرمان يبقى (٣) إلى أن يدرك العتيق والجديد ، وكذلك الكمثرى (٤) ، وقريب منه العنب ، وأما التفاح فيجمع العتيق والجديد .

ومن ذلك حسن رأيه رحمه الله

فمن آرائه الصائبة ، أنه كان شديد العناية بأخبار (٥) الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم ، ولا سيما دركاه (٦) السلاطين . وكان يخسر على ذلك المال الجزيل . وكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم ، وهزل وجد وغير ذلك . فكان يصل إليه في كل يوم من عيونه عدة قاصدين .

قال والدى رحمه الله : وكان مع اشتغاله (٩٠ — ب) بالأمور الكليات من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير . وكان يقول : إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيراً . قال : فمن ذلك ، أنني وصلت إلى عسكره بقلعة جعبر قبل قتله بأيام ، وقصدت خيام جمال الدين الوزير ، فحين وصلت أدخلني إليه ، فبينما أنا عنده ، وهو يسألني عن طريقى ، وإذا قد جاءه مملوك تركى من عند الشهيد وقال له بالعجمية كلاماً لا أعلمه . فقال لى جمال الدين : متى وصلت . فقلت : الساعة . فقال هذا عجب تجيء الساعة ويسمع أتابك بوصولك ، ولا شك قد علم بك قبل وصولك إلى ، وقد أرسل يقول : سله عن فنك وحصارها وأحوال الجند عليها ، وما يصل إليهم من الجامكيات (٧) والسلاح وجميع الأحوال . قال : فحدثته بجملة الحال كأنه يشاهده فمضى وعاد ، وقال : يقول لك ،

(١) بالأصل : صور . (٢) بالأصل : هو . (٣) بالأصل : يبقى .
(٤) بالأصل : الكمثرى . (٥) بالأصل : بإخبار . (٦) دركاه : هى الساحة أمام قصر السلطان ، أو الدهائز ، أو الرواق ، أو المدخل . (ابن واصل ، ح ١/ص ١٠٢/حاشية ١) . وفى (المعجم فى اللغة الفارسية) يرسم اللفظ هكذا : درگاه ، وهو : سراى الملاك . (٧) الجامكيات ، مفردتها ، جامكية ، وهى الراتب عامة . (السلوك ، ح ١/ص ٥٣/حاشية ٢) . وهى هنا رواتب الجند .

إن كنت تعلم أن هناك نقصاً (١) في شيء مما يحتاج إليه المحاصر فعرفنا (٩١ - أ) حتى نزيله ونفعل ما يجب. فقلت: ليس هناك إلا ما يجب المولى وزدته شرحاً، فانظر إلى هذه المهمة، وإلا فأى محل لفنك في سعة مملكته الطويلة العريضة.

قال: وأصغر من هذا أنه بلغه أن جماعة من فلاحى مدينة الموصل رحلوا إلى بلد ماردين، فأرسل إلى حسام الدين (٢) يطلب منه أن يعيدهم، فرد الجواب: إنا نحن نحسن إلى الفلاحين ونخفف عنهم، ونأخذ منهم فى القسمة من الغلال العشر، فلو فعلتم أتم مثل فعلنا لم يفارقوكم. فقال الشهيد لرسوله: قل لصاحبك، إذا أخذت أنت من كل مائة [سهم ٩] سهماً واحداً كان كثيراً لك، لأنك مشغول ببلدتك فى رأس ماردين. وأما أنا فإذا أخذت الثلاثين كان قليلاً، لما أنا بصدد من قصد الأعداء والجهاد، ولولاى لطلال عليك أن تشرب الماء آمناً فى ماردين، ولما كان الفرنج ملكوها، ولئن لم تعد الفلاحين وإلا أخذت كل فلاح فى بلد ماردين إلى بلد الموصل، فأعادهم. فهذا [إهتمام] لا (٣) مزيد عليه (٤) فى معرفة (٩١ - ب) أحوال المملكة.

قال. ومن جملة رأيه الحسن، أنه كان يتعهد أصحابه ويمتحنهم، فلا يرفع أحداً فوق قدره الذى يستحقه ولا يضعه دونه، ويشق إلى أحدهم على قدر ما يعلم منه، فمن ذلك أنه كان له طشت دار (٥) يسمى سباتوه فسلم إليه يوماً خشكناكة (٦) وقال [له]: لحفظ هذه. فبقى نحو ستة لا تفارقه الخشكناكة خوفاً أن يطلبها منه، فلما كان بعد ذلك قال له: أين تلك الخشكناكة. فأخرجها منديل وقدمها بين يديه، فاستحسن ذلك منه، وقال: مثلك ينبغى أن يكون مستحفظ الحصن، وأمر له بدردارية قلعة كواشى، فبقى فيها إلى أن قتل أتابك.

ومن آرائه: أنه كان لا يمكن أحداً خدمه من مفارقة بلاده، وكان يقول: إن البلاد كبستان عليه سياج، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرق الخصوم إليها. فمن (٩٢ - أ) [ذلك أنه (٧)] هرب منه أمير كبير يقال أبو بكر — وكان مقدم البكجية، وهو مقطع نصيبين — فهرب منه إلى حسام الدين تمر تاش بماردين، فأرسل الشهيد يطلبه فلم يسلمه إليه، فنازل ماردين وحصرها، فلما عجز حسام

(٢) هو حسام الدين تمر تاش بن إيلغازى بن أرئق.

(١) بالأصل: نقص.

(٣) بالأصل: لا. (٤) بالأصل: عليهم. (٥) طشت دار: لفظ فارسى مركب من مقطعين،

الأول الطشت (بالسين المهملة، بفتح الطاء ولمسكان السين المهملة فى اللغة العربية) وهو الذى يغسل فيه (والعامية

أبدلوا السين المهملة بشين معجمة)، والآخر «دار» ومعناه ممسك، فيكون المعنى «ممسك الطشت». (الفقشندى، ح/٥/ص/٤٦٩).

(٦) خشكناكة: نوع من الفطير المصنوع من الزبد والسكر والجوز والفسق. (ابن واصل، ح/١/ص/١٠٢/حاشية/٣).

(٧) الإضافة من «دى سلاين» (س/٤٢).

الدين عن منعه سيره إلى دركاه السلطان مسعود ، فلما بلغ الشهيد الخبر أرسل الهدايا للسلطان والوزير فسلم إليه فسيجنه وكان آخر العهد به .

ومن صائب رأيه وجيده (١) ما فعله من نقل طائفة من التركان الإيوانية مع الأمير اليارق إلى الشام وأسكنهم بولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الفرنج ، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكا لهم ، فكانوا يغادون الفرنج بالقتال (٢) ويرأو حوئهم ، وأخذوا كثيراً من السواد ، وسدوا ذلك الثغر العظيم . ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستائة .

ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل ، وبعضها بسنجار ، وبعضها بحلب ، (٩٢ - ب) وقال : إن جرى على بعض هذه الجهات خرق ، أو حيل يبنى وبينه ، أستعين (٣) على سد هذا الخرق بالمال الذي في غيره .

ومن ذلك (٤) شجاعته وهيئته الهیوبة

وأما شجاعته وإقدامه فإنه النهاية [فيهما (٥)] وبه كان يضرب المثل . أما قبل أن يملك فشاهده معروفة مشهورة ، منها حملته على الفرنج بطبرية ووصله إلى بابها ، وقد تقدم ذلك . ومنها أيضاً حملته على أصحاب قلعة عقر الحميدية وصعوده في جبالها إلى سورها ، ومقامه هناك مشهور إلى الآن إلى أشباه كثيرة لهذا . وأما بعد أن ملك ، فمن عرف حاله وإحاطة الأعداء والمنازعين له ببلاده ، وصبره واستيلاءه (٦) مع هذا على بلادهم ، علم محله من الشجاعة والصبر والإقدام . والذي حكى لي والدي من ذلك ، قال : كان الشهيد — قدس الله روحه — قد أهدى الأعداء بولايته والمنازعون له ، فمنهم أمير المؤمنين (٩٣ - أ) المسترشد بالله ، قد كان الحال بينهما ظاهراً ، حتى أن المسترشد بالله سار إلى الموصل وحصرها . ومنهم السلطان مسعود في أعمال الجبال وأذربيجان قد جاور أعمال الشهيد بتلك النواحي ، وهو أقوى الخلق ، وأكثرهم عساکر ، وأشدّهم كراهة للشهيد . ثم إلى جانبه أعمال أرمينية — وهي لبیت سکنان (٧) — ولهم العساكر الكثيرة والبلاد الواسعة ، وهم أعداؤه ، وقد جاورهم في حيزان (٨) ، والمعدن وغيرهما . ثم إلى جانب لبیت سکنان ، ركن الدولة داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وديار بكر ، وابن عمه حسام الدين تمر تاش بن إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين ، وقد جاورا كثيراً من ولايته ، منها :

(١) بالأصل : ومن صائب الرأي الجيده (والتصحیح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص ٤٣) . (٢) بالأصل : للقتال . (٣) بالأصل : أستعين به . (٤) بالأصل : ومن ذلك من شجاعته . (٥) الإضافة من ، الروضتين . (٦) بالأصل : واستيلاء . (٧) هو سکنان القطبی صاحب خلاط ، وقد توفي سنة ٥٨١ هـ . وقد ظهر لبیت سکنان — وهم أنابة أرمينية — في سنة ٤٩٣ ، على يد سکنان (أو سقمان) الأول ، وقضى عليهم الأيوبيون سنة ٦٠٤ (زامباور) . (٨) بالأصل : خيزان .

جزيرة ابن (١) عمر ونصيبين . ومع هذا فأخذ من بلادهما كثيراً ، ثم إلى جانبهما الفرنج من قريب ماردين إلى باب دمشق ، قد جاؤوا بلادهم من رأس عين ، وحران ، وحلب ، وحماة ، وحصص ، وبعليك ، وهم (٩٣ - ب) أشد ما كانوا قوة وأكثر جمعا . ومع هذا فهو يملك بلادهم ويهزمهم مرة بعد أخرى . ثم صاحب دمشق قد جاؤ به ، ومع هذا فهو يأخذ أيضاً من بلادهم ، فكان لا يستقر بل يغزو كلا منهم في عقر داره — ماعدا السلطان مسعود — فإنه كان لا يباشر قصده ، بل كان يضع أصحاب الأطراف على الخروج عليه ، فإذا فعلوا ، عاد السلطان [محتاجاً] (٢) إليه ، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته ، فيصير كالحاكم على الجميع ، وكلهم يداريه ويخضع له ، ويطلب منه أن تستقر القواعد على يده . فانظر إلى هذه الشجاعة وهذا الرأي والتدبير . ولو لم يكن في زمانه غير ركن الدولة داود صاحب الحصن لكفى به ، فإنه كان بعيد الصوت في التركان يجمع منهم كل من حمل السلاح . وكان أيضاً مع هذا شجاعاً مقداماً لا تضره الهزائم شيئاً ، بل يفارق المعركة مهزوماً ثم يعاود الحرب بعد أيام .

(٩٤ - أ) وأما الفرنج ، فقد كانوا لما ملك البلاد قد قهروا المسلمين ، وملكوا بلادهم وأكثروا فيهم القتل ، ولهم فيهم الصوت العظيم والهيبة التي تحملهم على مفارقة بلادهم خوفاً منهم ، فلما ملك البلاد فعل بهم ما ذكرنا بعضه ، ولو لم يكن له فيهم نكاية غير فتح الرها لكان عظيماً . وحكى لي عنه ، أنه لما عزم على المسير إلى الرها حين فتحها ، أحضر طعاماً وقال لأصحابه (٣) : لا يتقدم إلى ، ولا يأكل معي إلا من يحمل غدا معي على الرها ، فلم يتقدم إليه غير رجلين ، أحدهما شاب حسن ، أول ما تكاملت لحيته ، فنبهه أصحابه ، فقال : أتركوه فإنني أتوسم فيه شجاعة ، فكان ذلك الشاب (٤) أول الناس مقدماً (٥) إلى سور الرها .

وأما صدقاته رضى الله عنه

فكان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميري ظاهرة ، ويتصدق في ما عداه من الأيام سرّاً مع من يثق إليه (٦) . حكى لي : أنه ركب يوماً فعثرت به دابته ، فكد يسقط عنها فاستدعى أميراً كان (٩٤ - ب) معه اسمه بليمان ، فقال له كلاماً لم يفهمه بليمان ولم يتجاسر على أن يستفهم منه ، فعاد عنه إلى بيته فودع أهله عازماً على الحرب (٧) . فقالت له زوجته : ما ذنبك ، وما الذي حملك على هذا الحرب . فذكر لها (٨) الحال . فقالت له : إن نصير الدين له بك عناية ، فاذا ذكر له قصتك وافعل ما يأمر بك به ، فقال : أخاف أن يمنعني عن الحرب وأهلك . فلم تزل زوجته

(٢) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/٤٤) .

(٥) بالأصل : مقدماً .

(٤) بالأصل : السباب .

(٨) بالأصل : له

(٧) بالأصل : عازماً على هذا الحرب

(١) بالأصل : بن .

(٣) بالأصل : الاصابه .

(٦) اللفظ مكرر بالأصل .

تراجعه وتقوى عزمه على القول لنصير الدين فرجع إلى قولها ، وقصد نصير الدين وعرفه حاله ، فضحك وقال : خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه فهي التي أراد . فقال بليمان : الله الله في دمي ونفسي . فقال : لا بأس عليك ، فإنه ما أراد غير هذه الصرة ، فحملها إليه فحين رآه قال (١) : أملك شيء . قال نعم ، فأمره أن يتصدق به . فلما فرغ بليمان من الصدقة ، قصد نصير الدين وشكره وقال له : من أين علمت أنه أراد الصرة فقال له : إنه يتصدق هذا اليوم بمثل هذا القدر ، يرسل إلى يأخذه من الليل . (٩٥ - أ) وفي يومنا هذا لم يأخذه ، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض وأرسلك إلى ، فعلت أنه ذكر الصدقة فأرسلتها معك إليه . فانظر إلى هذه السعادة حيث قدر الله تعالى له مثل هذا النائب في شدة ذكائه وفطنته ، وإلى هذه الهيبة الشديدة التي منعت ذلك الأمير عن المراجعة ، وبها امتنع القوى عن الضعيف . وحكى لي والدي من شدة هيئته ما هو أشد من هذا ، قال والدي : خرج يوماً الشهيد من قلعة الجزيرة من باب السر خلوة ، وملاح له نائم ، فأيقظه بعض الجاندارية (٢) وقال له : أقعد ، فحين رأى الشهيد سقط إلى الأرض فحركوه فوجدوه ميتاً .

وأما قوة عزمه ، وقلة (٣) تلونه ، وعلو همته

قال لي والدي رحمه الله : كان الشهيد رضى الله عنه قليل التلون والتنقل (٤) ، بطيء المثل والتغير ، شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه منذ ملك إلى أن قتل ، إلا بذنب يوجب التغير ، والأمراء والمقدمون (٥) الذين كانوا معه أولاً ، هم (٩٥ - ب) الذين بقوا أخيراً من سلم منهم من الموت ، فلهمذا كانوا ينصحونه ويبدلون نفوسهم له . قال والدي : كنت أرى من جمال الدين محمد ابن علي بن أبي منصور الوزير في الأيام (٦) الشهيدة من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها ، والمحافضة فيها ما يدل على تمكنه من الكفاية ، فلما وصل الأمر إلى الملك قطب الدين مودود ابن أتابك الشهيد وجمال الدين وزيره حينئذ ، وقد تمكن زين الدين علي بن بكتكين (٧) في الدولة تمكنا عظيماً ، وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه ، فكان جمال الدين مع تمكنه وعلو محله يهمل بعض الأمور ، قال ، فقلت له يوماً : أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك في الأيام الشهيدة ، ما أرى منها الآن شيئاً . [فقال] لي : الآن ما عندي كفاية . فقلت : ما هذا العمل من ذلك بشيء . فقال : أنت صبي غر ، ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان ، إنما الكفاية أن يسلك الإنسان في كل زمان وما يناسبه ، ذلك الوقت كان لنا صاحب متمكن قوى العزم

(١) بالأصل : فقال . (٢) الجاندارية : فئة من ممالك السلطان أو الأمير . واللفظ مركب من مقطعين فارسيين ، أحدهما : « جان » ومعناه ، سلاح . والآخر « دار » ومعناه « ممسك » ووظيفة جاندار السلطان « أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ، ويدخل أمامهم إلى الديوان . (السلوك ، ح / ١ / ص / ١٣٣ / حاشية / ١) . (٣) بالأصل : وقاته . (٤) بالأصل : والتنقل . (٥) بالأصل : المقدمون . (٦) بالروضتين ح / ١ / ص / ٤٤ . (٧) بالأسل : أياهم . (٧) بالأسل : بليكين .

لا يتجاسر (٩٦ — أ) أحد على الاعتراض عليه ، ولا يتلون بأقوال أصحابه لحفظناه ، وكان ما أفعله كفاية . وأما الآن فلنا سلطان (١) غير متمكن وهو محكوم عليه ، فهذا الذى أفعله هو الكفاية .

قال : وكان له جماعة كثيرة خراسانية [فى] الركاب لهم الجامكيات الوفرة ، وكان فى الديوان [من] يجمعونها من جهاتها ويقسمونها عليهم كل ثلاثة أشهر مرة . ففى بعض السنين تأخرت جامكياتهم تأخرا يسيراً ، فاجتمعوا ووقفوا بحيث يراهم مجتمعين ، فعلم أنهم يشكون شيئاً ، فأرسل إليهم وسألهم عن حالهم فذكروه له . فقال لهم : أشكوتهم إلى الديوان . قالوا : لا . قال : فهل ذكرتم حالكم لصلاح الدين أمير حاجب . قالوا : لا . قال : فلأى شىء أعطى الديوان مائة ألف دينار ، وأعطى الأمير حاجب أكثر من ذلك ، إذا كنت أنا أتولى الأمور صغيرها وكبيرها ، كنتم شكوتهم حالكم إلى الديوان ، فإن أهملوا أمركم كنتم قلتم لصلاح الدين ، فإن أهمل أمركم كنتم شكوتهم الجميع إلى حتى كنت أعاقبهم على إهمالكم ، (٩٦ — ب) وأما الآن فالذنب لكم . ثم أمر بتأديبهم وقطع جامكياتهم حتى شفع فيهم بعض الأمراء ، فعفا عنهم . ثم أحضر الديوان وصلاح الدين وقال لهم : إذا كنتم تهملون أمر جندى الذين تحت ركابى ومن هو ملازمى فى سفرى وإقامتى ، وبهم من الحاجة إلى النفقات فى أسفارهم ما تعلمونه ، فكيف يكون حال من بعد عنى ، وأنكر عليهم ، فخرجوا من عنده وفرقوا فى الأجناد من أموالهم حتى وصلت جامكياتهم ، فأخذوا عوض ما أخرجه . فرحمه الله فلقد كان حسن السياسة والضبط للأمر ، فإنه بهذه الحالة الواحدة أصلح الجند لطاعة الديوان ، وأصلح الديوان للنظر فى مصالح الجند ، وعظم نفسه عن أن يخاطب فى هذا الأمر الحقيق ، وسهل عليه بذل المبلغ الكثير لمن يقوم بأموره .

وكان (٢) ديوانه يقاس بدواوين السلاطين السلجقية لكثرة التجميل ونفاذ الأمر وعظم الحاشية والخرج . قال والدى : كان الإنسان إذا قدم عسكره لم (٣) يكن غريباً ، فإن كان جندياً لشمتم عليه الأجناد وأضافوه ، وقاموا بما يحتاج إليه لكثرة أموالهم . وإن كان القادم صاحب ديوان ، قصد (٩٧ — أ) منزلة الديوان فرأى من توفرهم عليه ، ونظرهم فى مصالحه ما يكون كأنه فى أهله . وإن كان عالماً ، فيقصد خيام القضاة بنى الشهرزورى وجماعتهم والمتعلقين بهم من قضاة البلاد ، فيحسنون إليه ويؤنسونه غربته فيعود أهلاً (٤) . وسبب ذلك جميعه أنه كان يخاطب الرجال ذوى الهمم العلية ، والآراء الصائبة ، والأنفس الآبية (٥) ، ويوسع عليهم فى أرزاقهم فيسهل عليهم فعل الجليل واصطناع المعروف .

(١) بالأصل : السلطان . (٢) بالأصل : كان . (٣) بالأصل : من . (٤) فى الروضتين (١/ص ٤٥) : كأنه أهل . (٥) بالأصل : الآبنة .

وأما غيرته

فكان الشهيد رحمه الله تعالى شديد الغيرة على الحريم ، لا سيما نساء الأجناد ، فإن التعرض إليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها ، وكان يقول : إن جندى لا يفارقونى فى أسفارى ، وما يقيمون عند أهلهم ، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكتن وفسدن . فمن شدة غيرته وتعظيمه لهذا الذنب ، أنه كان قد أقام دزداراً بقلعة الجزيرة اسمه حسن ولقبه ثقة الدين ويعرف بالبربطى ، وكان من خواصه وأقرب الناس إليه ، وكان غير (٩٧ - ب) مرضى السيرة ، فبلغه عنه أنه يتعرض للحرم ، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغيسى أن يسير مجدداً ويدخل الجزيرة بغتة ، فإذا دخلها أخذ البربطى وقطع ذكره وقلع عينيه عقوبة لعظيمة لظنه بهما إلى الحرم ثم يصلبه ، فسار صلاح الدين مجدداً ، فلم يشعر البربطى إلا وقد وصل إلى البلد ، فخرج إلى لقائه ، فأكرمه صلاح الدين ودخل معه البلد ، وقال له : المولى أتابك يسلم عليك ، ويريد أن يعلى قدرك ويرفع منزلتك ، ويسلم إليك قلعة حلب ، ويوليك جميع البلاد الشامية لتكون هناك (١) مثل نصير الدين [جقر] ها هنا ، فتجهز وتحذر مالك فى الماء إلى الموصل وتسير إلى خدمته ، ففرح ذلك المسكين ولم يترك له قليلاً ولا كثيراً إلا نقله إلى السفن ليحدرها (٢) إلى الموصل فى دجلة ، فحين فرغ من جميع ذلك ، أخذه صلاح الدين وأمضى فيه ما أمر به ، وأخذ جميع ما له لم يعد منه الحبة الفرد ، فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شئ من أفعاله . فاعجب من (٩٨ - أ) حزم هذا السلطان واحتياطه حيث أرسل أكبر من فى دولته ، وأخفى أمره خوفاً من جهل ذلك الدزدار أن يحمله على العصيان ، أو على أمر يتعب فى تلافيه . ثم أنظر من صلاح الدين ، كيف خدع ذلك المسكين بإكرامه ووعدته بالأعمال السنية حتى أخرج ذخائره وأمواله ، ولم يبق منها شيئاً . ولو سلك غير هذا لعدم من ماله الكثير .

ذكر ملك سيف الدين غازى بن زنكى (٣)

وما فعله جمال الدين الوزير إلى أن ملك

لما قتل أتابك الشهيد رحمه الله ، هرب جمال الدين واختفى عند أمير يعرف بأمرىك الجاندار خوفاً من صلاح الدين الياغيسى لعداوة كانت بينهما . وفى تلك الليلة ركب الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود — وكان مع الشهيد — واجتمعت العساكر عليه وخدموه ، فأرسل جمال الدين إلى صلاح الدين يقول له : إن المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا ، ونسلك طريقاً يبقى به الملك (٩٨ - ب) فى أولاد صاحبنا ، ونعمر بيته جزاء لإحسانه إلينا ، فإن الملك قد طمع

(١) بالأصل : امثل . (٢) بالأصل : ليحدرها (والتصحيح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ٤٤) .

(٣) بالأصل : ذكر ملك سيف الدين غازى ابن زنكى .

في البلاد واجتمعت عليه العساكر، ولئن لم تتلاف هذا الأمر في أوله، وتنداركة في بدايته ليتسعن (١) الحرق ولا يمكن رقعته، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، وحلف كل واحد منهما لصاحبه، فظهر (٢) حينئذ جمال الدين من الإخفاء، وركب إلى الملك وخدمه وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها ومعه صلاح الدين، وقال له: إن أتاك كان نائباً عنك في البلاد وباسمك كنا نطيعه، فقبل قوطهما وظنه حقاً، وقرهما طمعاً في أن يكونا ناله على تحصيل غرضه، وأرسلا إلى زين الدين الموصل يعرفانه قتل الشهيد، ويأمرانه بالإرسال إلى سيف الدين غازي — وهو ولد زنكي الأكبر — وإحضاره إلى الموصل، وكان شهرزور — وهي إقطاعه من أبيه — ففعل زين الدين ذلك. وكان نور الدين محمود ابن الشهيد قد سار لما قتل والده إلى حلب فملكها (٣). وقال (٩٩ — أ) جمال الدين للملك: إن من الرأي أن يسير صلاح الدين إلى مملوكك محمود بحلب يدبر أمره، فأمره بذلك. وكان هذا أمراً (٤) قد تقدر بين جمال الدين وصلاح الدين، وهو (٥) مسير صلاح الدين إلى الشام، وتقرير أمر نور الدين، وحفظ البلاد هناك لئلا يطمع الفرنج في شيء منها. وكانت مدينة حماة إقطاع صلاح الدين، فرغب في الشام لهذا السبب، ولأنه ظن أن أمر الملك يقوى ويملك البلاد ولا يبقى لأولاد الشهيد شيء شرقي الفرات. وكان أحب الأشياء إلى جمال الدين بعد صلاح الدين أيضاً، لأنه لم يأمن منه (٦). فلما أمر الملك بمسير صلاح الدين إلى الشام سار، وبقي جمال الدين وحده مع الملك، فأخذته وقصد الرقة، فحسن له جمال الدين الإشتغال بشرب الخمر والخلوة بالنساء، وأرسل إليه عدة جوار كن للشهيد، وشيئاً من المال يهبه المغنيات، وهون عليه أمر ملك البلاد، وقوى طمعه فيها حتى ظن أنها في يده (٩٩ — ب) فاشتغل الملك بذلك، وأراد أن يعطى الأمراء، فمنعه خوفاً من أن تميل قلوبهم إليه، وقال: لهم منك الإقطاع الجزيل والنعم الوافرة. وشرع جمال الدين بستميل العسكر ويحلف الأمراء لسيف الدين ابن أتاك الشهيد واحداً بعد واحد، وكل من يخلف يأمره بالمسير إلى الموصل هارباً من الملك. وأقام بالملك في الرقة عدة أيام، ثم سار به إلى ماكسين (٧)، فتركها عدة أيام أيضاً، وقد شغله جمال الدين بلذاته عن طلب الملك، ثم سار به نحو سنجار، وكان سيف الدين غازي قد دخل الموصل فاستقر بها، ففوى حينئذ جنان جمال الدين [ووصل هو والملك إلى سنجار (٨)] وأرسل إلى دزدارها وقال

(١) بالأصل: لا يتسعن. (٢) بالأصل: فظهر. (٣) في، الروضتين (١/ص ٤٧): وذلك بإشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك. (٤) بالأصل: أمر.

(٥) مكان اللفظ « وهو » بالأصل « وهيراه » وهو لفظ غامض لم نستطع بيانه لعدم وروده في المراجع التي تحت أيدينا. ولعل اللفظ الذي أبتناه يؤدي المعنى المقصود في العبارة. (الحقق)

(٦) بالأصل: يأخذ منه، واللفظ هنا غامض المعنى وقد استبدلناه باللفظ « يأمن » لأنه أقرب إلى المعنى. (الحقق)

(٧) ماكسين: في (ياقوت) بكسر القاف. بلد بالخابور قريب من رحبة مالك بن طوق من ديار ربيعة.

(٨) الإضافة من، الروضتين (١/ص ٤٧).

له : لا تسلم البلد ولا تمكن أحداً (١) من دخوله ، ولكن أرسل إلى الملك وقل له : أنا تبع الموصل ، فتي دخلت الموصل سلمت إليك . ففعل الدردار (٢) ، ذلك . فقال جمال الدين [للملك (٣)] : المصلحة إننا نسير إلى الموصل ، فإن مملوكك غازي إذا سمع بقرئنا منه خرج إلى الخدمة ، وحينئذ تقبض عليه وتسلم (٤) البلاد ، فساروا عن سنجان ، وأكثر (٥) رحيل (١٠٠ — أ) العسكر [إلى الموصل (٣)] هارين من الملك فبقي في قلعة من العسكر ، فساروا (٦) إلى مدينة بلد (٧) ، وعبر الملك دجلة من هناك ، فلما عبرها ، سار جمال الدين إلى الموصل فدخلها ، وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الديبسي في عسكر إلى الملك ، وهو في نفر يسير ، فأخذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به . واستقر أمر سيف الدين ، وأقر زين الدين على ما كان عليه (٨) من ولاية الموصل ، وجعل جمال الدين وزيره . وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين خلف ، وأقره على البلاد وأرسل له الخلع . وكان هذا سيف الدين قد لازم [خدمة (٣)] السلطان مسعود أيام [أبيه (٣)] سقراً وحضراً . وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به ويسطه (٩) ، فلما خوطب في الميمن وتقرير البلاد لم يتوقف ، فانظر إلى فعل جمال الدين وحسن عهده ، وكال مروءته ، ورعايته لحقوق مخدمه وإحسانه ، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة ألف فارس ، فلقد قلل من قال : الناس ألف منهم (١٠٠ — ب) كواحد . وهو معذور فإنه لم ير مثل جمال الدين . ولما استقر سيف الدين في الملك أطاعه جميع البلاد ، ما عدا ما كان بديار بكر : كالمعدن ، وحيزان وأسعد وغير ذلك ، فإن المجاورين لها تغلبوا عليها .

ذكر عصيان (١٠) أهل الرها واستيلاء المسلمين عليها ثانياً

لما قتل الشهيد كان جوسلين الفرنجي — الذي كان صاحب الرها في ولايته غربي الفرات في تل باشروما جاورها ، فراسل أهل الرها — وكان عامتهم من الأرمن — وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه ، فأجابوه إلى ذلك ، فسار في عساكره إليها وملكها ، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين ، وقاتلهم وجد في قتالهم ، فبلغ الخبر إلى نور الدين — وهو حينئذ بحلب قد ملكها بعد قتل والده — فسار مجدداً إليها في العسكر الذي عنده ، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الرها إلى بلده ، ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبي أهلها (١٠١ — أ) وفي هذه الدفعة نهب

(١) بالأصل : ولا يمكن أحد . (٢) بالأصل : دردار . (٣) الإضافة من ، الروضتين (١٠ ص / ٤٧) (٤) بالأصل : ويتسلم . (٥) بالأصل : وكثير . (٦) بالأصل : فسار . (٧) بلد : في (ياقوت) : وربما قيل لها « بلط » (بالطاء) وهي مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل ، بينهما سبعة فراسخ . وبينها وبين نصيبين ثلاثة وعشرون فرسخاً . وأسمها بالفارسية : شهر اباد . (٨) بالأصل : لايه . (والتصحيح من ، الروضتين ، ١٠ ص / ٤٧) . (٩) بالأصل : ويسطه . (١٠) في ، ابن الفلاني (ص / ٢٨٨) ، أن عصيان الرها كان في أيام من جادي الأولى سنة ٥٤١ هـ .

وخربت وغلت من أهلها ولم يبق منهم بها إلا القليل . وكان من بالقلعة قد أرسلوا إلى الموصل يعرفون سيف الدين الخبر ، فوصل القاصد إلى ولاية الموصل ، فلقى عز الدين أبا بكر الديبسي وقد سار إلى الجزيرة ليتسلها إقطاعاً ، فسلك طريق البقعاء (١) متصيذاً ، فلقى القاصد فأخبره خبر الرها ، فترك عز الدين قصد الجزيرة وسار نحو الرها ، وأرسل إلى سيف الدين قاصداً مستريحاً ينهى إليه الحال ، ويطلب منه المدد ، فجهزت العساكر من الموصل ، وجد عز الدين في السير ، فوصلها وقد ملكها نور الدين واستقر فيها ، ونهبها وأجلى من كان بها من الفرنج ، وكان هذا فتحاً ثانياً . وبقيت الرها بيد نور الدين لم يعارضه فيها سيف الدين .

نادرة عجبية

لما ملك نور الدين الرها ونهبها المسلمون ، أرسل من غنائمها إلى الأمراء وغيرهم ماجرت به العادة . وكان زين الدين على من جملة من أرسل إليه منها ، وفي جملة ما أرسل [إليه] عدة من الجوارى (١٠١ — ب) فحملن إلى داره ، ودخل لينظر إليهن ، وقال لمن عنده من أصحابه : مكانكم حتى أعود إليكم . فغاب عنهم قليلاً ثم خرج ، وقد اغتسل ، وهو يضحك ، فلما قعد قال : قد جرى لي اليوم أعجوبة ، وهى أننا [لما (٢)] فتحنا الرها مع الشهيد رحمه الله [كان في جملة ماغنمت جارية مالت نفسى إليها ، فعزمت على أن أبنت معها ، فسمعت منادى الشهيد وهو يأمر بإعادة السبي والغنائم (٢)] وكان مهيماً مخوفاً ، فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها ، فلما كان الآن ، أرسل إلى نور الدين سهمى من الغنيمة وفيه تلك الجارية ، فوطئها خوفاً من العود .

ذكر اجتماع سيف الدين ونور الدين ابني (٣) زنكى

لما فرغ سيف الدين من إصلاح [أمر (٤)] السلطان وتحليفه وتقرير أمر البلاد ، عبر إلى الشام لينظر في [تلك (٤)] النواحي ، ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين وهو بحلب ، وقد تأخر من الحضور عند أخيه وخافه (٥) ، فلم يزل يرأسله ويستميله ، وكلما طلب شيئاً أجابه إليه

(١) لم يعرف بها ياقوت في معجمه ، وإنما ذكر بقعاء الموصل ، وذلك عند تعرفه بديار ربيعة ، فقال : إن ديار ربيعة تقع بين الموصل ورأس عين نحو بقعاء الموصل ونصيبين ورأس عين وديسر والخابور جميعه .
(٢) الإضافة من ، الروضتين (١/ص ٤٩) . (٣) بالأصل : ابن . (٤) الإضافة من ، الروضتين (١/ص ٤٧) . (٥) لم يذكر ابن الأثير خبر الاجتماع بين الأخوين في « السكامل » ، كذلك لم يذكر سبب الخلاف بينهما ، لا في « السكامل » ولا في « النس » ونستطيع نحن أن نرجع سبب الخلاف ، إلى أن نور الدين خرق التقاليد القبلية — وانزكيون من القبائل التركية — التى تنص على أن تكون زعامة البيت للأرشد من أبنائه ، فنافس نور الدين أخاه الأكبر في الملك ، فاستولى على حلب والرها ، الأمر الذى أزعج سيف الدين ، فأخذ يعمل على التوفيق بينه وبين أخيه كما هو واضح في النس .

إستالة لقلبه ، فاستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج المعسكر السيفي (١) ، ومع كل واحد منهما خمسمائة (١٠٢ - أ) فارس ، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة (٢) فوارس ، فلم يعرف نور الدين سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه ، فترجل له وقبل الأرض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا (٣) ، وقعد نور الدين وسيف الدين بعد أن اعتنقا وبكيا ، فقال له سيف الدين : لم امتنعت من المجيء إلى ، كنت تخافني على نفسك ، والله لم يخطر ببالى ماتكره ، فلن أريد البلاد مع من أعيش ، ومن اعتضد إذا فعلت سوء مع أخى وأحب الناس إلى فاطمأن نور الدين وسكن روعه ، وعاد إلى حلب فتجهز ، وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره (٤) عنده ، وقال له : لا غرض لى فى مقامك عندى ، وإنما غرضى أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا ، فمن يريد السوء بنا يكف عنه ، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا فيه . وعاد كل واحد منهما إلى بلده .

ذكر نزول الفرنج على دمشق وحصرها وما فعله

سيف الدين حتى رحلوا عنها

(١٠٢ - ب) فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، خرج ملك الألمان (٥) من بلاد الفرنج فى جيوش عظيمة لاتحصى كثرة من الإفرنج إلى بلاد الشام ، واتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج ، واجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها (٦) ولا يشك ملك الألمان أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره . وهذا النوع من الفرنج هم أكثر الفرنج عدداً وأوسعهم بلاداً ، وملكهم أكثرهم عدداً وعدداً ، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلاً ، والسيف أصدق أنباء من الكتب . فلما حصروا دمشق وبها صاحبها مجير الدين أبى بن محمد بن بورى (٧) بن طغتكين ، وليس له من الأمر شيء (٨) وإنما كان الأمر إلى معين الدين [أنر] بن مملوك جده طغتكين ، فهو كان الحاكم والمدير للبلد وللعسكر . وكان عاقلاً خيراً ديناً حسن السيرة ، فجمع العسكر وحفظ البلاد ، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول ، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم عن القرب

(١) فى ، مرآة الزمان (٨/ص/١٩٢) ، أن سيف الدين لما راسل أخاه نور الدين للاجتماع به ، اعتذر نور الدين بالفرنج خوفاً على نفسه منه ، خلف له سيف الدين ، واتفقا على أن يجتمعا بالجزيرة ، وتقابلا ليلاً فى الحابور . (وهذا الاجتماع الالى له معناه ، وذلك لى لا تكون هناك فرصة لأن يقاتل أحدهما الآخر ، وأهل الذى اختار هذا الوقت هو نور الدين ، لأنه هو الذى يخاف من أخيه . (المحقق) (٢) بالأصل : خمس .

(٣) بالأصل : فناد . (٤) بالأصل : ونزل بعسكره . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٤٨) . (٥) هو كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا . وقد اشترك معه فى قيادة هذه الحملة — وهى الحملة الصليبية الثانية — لويس السابع ملك فرنسا . (ابن واصل ، ح/١/ص/١١٢/حاشية/٣) . (٦) بالأصل : ونازلها . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٥٣) . (٧) بالأصل : نورى . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٥٣) . (٨) بالأصل : شينا .

منه ، وكان فيمن خرج معهم ، الفقيه (١٠٣ - أ) حجة الدين يوسف بن ذى ناس (١) الفندلاوى المغربى ، وكان شيخا كبيرا زاهدا عابدا ، خرج راجلا فرآه معين الدين فقصدته وسلم عليه ، وقال له : يا شيخ أنت معذور ونحن نكفيك ، وليس بك قوة على القتال . فقال : قد بعت واشترى ، فلا نقيه ولا نستقيه يعنى قول الله تعالى ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ (٢) الآية . وتقدم وقاتل الإفرنج حتى قتل رضى الله عنه عند الثيرب شهيدا . وقوى أمر الفرنج وتقدموا ، فزولوا بالميدان الأخضر وضعف أهل البلد عن ردهم عنه ، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين يستغيث به ويستنجده ، ويسأله القدوم عليه ، ويعلمه شدة الأمر الذى قد دفعوا إليه ، فجمع سيف الدين عساكره وحشد ، وسار مجدا إلى مدينة حصص ، وأرسل إلى معين الدين يقول له : قد حضرت ومعى كل من يطيق حمل السلاح من بلادى ، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابى وأصحابى وكانت الهزيمة (١٠٣ - ب) علينا ، لا يسلم منا أحد لبعدها بلادنا عنا ، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها ، فإن أردت أن ألقاهم وأقاتلهم ، فسلم البلد إلى من أثق إليه ، وأنا أحلف لك ، إن كانت النصر لنا على الفرنج أنتى لا آخذ دمشق ، ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدو عنها وأعود إلى بلادى . فطالها (٣) معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج .

وأرسل سيف إلى الفرنج الغرباء يتهدهم ، ويعلمهم أنه على قصدهم إن لم يرحلوا ، وأرسل معين الدين إليهم أيضا يقول لهم : قد حضر ملك الشرق ومعهم من العساكر مالا طاقة لكم به ، فإن أتمم رحلتهم عنا وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ لا تطمعون فى السلامة منه . وأرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم ، ويقول لهم : أنتم بين أمرين مذمومين ، إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق (٤) لا يبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد ، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم (١٠٤ - أ) لا تقدر أن على منعه عن البيت المقدس ، وبذلهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلوا ملك الألمان عن دمشق ، فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه ، واجتمعوا بملك الألمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده ، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبق لهم معه مقام بالساحل ، فأجابهم إلى الرحيل عن [دمشق] (٥) وسار عنها . ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين ، وبقى حصن بانياس مع الفرنج حتى فتحه نور الدين محمود ابن زنكى رحمه الله تعالى . ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخ دمشق ، قال : حكى [لى] (٦) بعض الأئمة العلماء ، إنه رأى الفندلاوى فى المنام ، فقال له أين أنت . قال : فى جنات عدن على سرر متقابلين .

(١) فى السكامل (٢٠/ص/٩) : ابن ذى باس . وفى النجوم الزاهرة (٢٨٣/ص/٥) : ابن درناس . وفى شذرات الذهب (١٣٦/ص/٤) : ابن دواس الفندلاوى . وترجمته فى الشذرات (نفس الجزء والصفحة) .
(٢) سورة التوبة : ١١١ . (٣) بالأصل : فما طلمه . (والنصح من الروضتين ، ١/ص/٥٣) .
(٤) بالأصل : بدمشق . (٥) الإضافة من ، الروضتين (١/ص/٥٣) . (٦) الإضافة من ، السكامل (٢١/ص/٩) .

ذكر فتح نور الدين حصن العزيمة^(١)

لما رحل الفرنج عن دمشق ، سار معين الدين أنر إلى بعلبك ، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين ، فسأله أن يحضر عنده فيجتمع به ، فسار إليه واجتمعا (١٠٤ - ب) فوصل إليهما حينئذ كتاب القمص صاحب طرابلس ، يشير عليهما بقصد حصن العزيمة^(٢) وأخذه من فيه من الفرنج . وكان سبب ذلك ، أن ولد الفنش^(٣) صاحب طليطلة^(٤) ، خرج مع ملك الألمان إلى الشام وتغلب على العزيمة وأخذه من القمص ، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضا . وجد هذا الذي ملك العزيمة ، هو الذي غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس [الغرب]^(٥) فلما استولى هذا على العزيمة ، كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده ، فسارا إليه مجديا فصباحا ، وكتبنا إلى سيف الدين [وهو بمحمص^(٦)] يستنجدانه ويطلبان المدد ، فأمدهما بعسكر جرار ، وجعل مقدمه عز الدين أبا بكر الديبسي ، فحصروا الحصن وبه ابن الفنش ، فامتنع به وحماه ، فزحف^(٧) المسلمون إليه ، وتقدم النقباقون الذين مع نور الدين فنقبوا السور ، فلما رأوا الفرنج ذلك ، أذعنوا واستسلموا ، وألقوا ما بأيديهم فملك المسلمون الحصن ، وأخذوا كل من فيه من رجل وصبي وامرأة ، وفيهم ابن الفنش^(٨) ، وأخربوا الحصن (١٠٥ - أ) وعادوا إلى سيف الدين .

ذكر ملك سيف الدين قلعة داراء

قد ذكرنا أن أتابك الشهيد رضى الله عنه ملك داراء^(٩) وبقيت بيده إلى أن قتل . فلما قتل أخذها حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين^(١٠) . فلما كان في سنة أربع وأربعين وخمسة ، سار سيف الدين إليها وحصرها ، وقاتل من بها وضيق عليهم فملك الحصن^(١١) ، واستولى على كثير من بلد ماردين بسببها .

-
- (١) بالأصل : عريفة . (والتصحیح من ، الكامل ، ح / ٩ / ص / ١١) .
 (٢) بالأصل : القمش . (والتصحیح من ، الكامل ، ح / ٩ / ص / ٢١) . والفتش هو النطق العربي لاسم القونمو الأسباني .
 (٣) بالأصل : صاحب جزيرة صقلية . (والتصحیح من ، الكامل ، ح / ٩ / ص / ٢١) . وما في الكامل أصح ، لأن لفرنج الأندلس استولوا على طليطلة سنة ٤٧٨ . (الكامل ، ح / ٨ / ص / ١٣٨) (٥) الإضافة هنا للتمييز بين طرابلس الشام المذكورة قبلها .
 (٦) الإضافة من ، الكامل (ح / ٩ / ص / ٢١) .
 (٧) بالأصل : فرجف .
 (٨) في ابن الفلانسى (ص / ٣٠١) أن نور الدين أخذ معه ابن الفنش وأمه ومن أسرهم إلى حلب .
 (٩) داراء : في (يافوت) : داراء ، وتقع بين نصيبين وماردين في لُحْج جبل . (١٠) بعد مقتل عماد الدين ، طمع الفرنج والأراقة وصاحب دمشق بأملاكه ، فأخذوا يستردون ما استولى عليه من بلادهم . وقد حاول الفرنج استرداد أريحا ، ولكنهم فشلوا كما مر بنا . واسترد حسام الدين تمرتاش ، داراء وغيرها ، واسترد صاحب دمشق بعلبك ، ولم يذكر ابن الأثير خبر بعلبك هنا ، وإنما ذكره في « الكامل » (ح / ٩ / ص / ١٦ ، سنة ٥٤١) . (١١) في ، الكامل (ح / ٩ / ص / ١٨) أن سيف الدين استردها في سنة ٥٤٢ .

ذكر حصار قلعة ماردين الشهباء

ثم إن سيف الدين سار إلى ماردين وحصرها (١) ، عازماً على أن يدخل ديار بكر ويستعيد ما أخذ من البلاد بعد قتل والده الشهيد رضى الله عنه ، فأقام عليها يحاصرها ، وتفرق العسكر في بلدتها ينهبون ويخربون ، فلما نظر حسام الدين صاحبها (٢) إلى ما يفعل العسكر في بلاده ، قال : كنا نشكوا من أتاكك الشهيد وأين أيامه ، فلقد كانت أعيادا ، قد حصرنا غير مرة فلم يتعد هو وعسكره حاصل السلطان ، ولا أخذوا كفا (١٠٥ — ب) من التبن بغير ثمنه .

رب يوم بكيت منه (٣) فلما صرت في غيره بكيت عليه

ثم إنه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد ، وزوجه ابنته الخاتون ، ورحل سيف الدين عن ماردين وعاد إلى الموصل ، وجهازت خاتون وسيرت إليه ، فوصلت إلى الموصل وهو مريض قد أشرف على الموت ، فتوفي ولم يدخل بها . فلما توفي تزوجها أخوه الملك قطب الدين مودود ، فكان أولاده الملوك منها .

ذكر غزو الفرنج ببصرى (٤) وما جرى لهم فيها

في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، سار نور الدين محمود ابن الشهيد رضى الله عنهما (٥) إلى بصرى (٦) ، وقد اجتمع بها الفرنج في قبضهم وقضيضهم (٧) ، وقد عزموا على قصد بلاد الإسلام (٨) . فلما سمع نور الدين خبرهم سار نحوهم ، فالتقوا هنالك واقتتلوا أشد قتال ، ثم أنزل

(١) في ، الكامل (١٨/س/٩) أن سيف الدين سار إلى ماردين في سنة ٥٤٢ ، بعد استيلائه على دارا .
(٢) بالأصل : صاحبها . (٣) بالأصل : فيه . (٤) والتصحيح من ، الروضتين ، ج/١/س/٦٥ .
(٥) بالأصل : بغيري . (٦) والتصحيح من ، الروضتين ، ج/١/س/٥٥ . وأبو شامة يصرح بأنه ينقل الخبر من « الأتابكة » . ونلاحظ أن ابن الأثير ، ذكر في ، الكامل ، ج/٩/س/٢٢ أن نور الدين انتصر بغيري أيضاً . وهذا خطأ من ابن الأثير ، لأن نور الدين أنهزم من الفرنج في معركة بغيري ، وقد حدثت سنة ٥٤٣ ، كما في ابن الفلانسى (س/٣٠٢) . وينقل أبو شامة عن ابن أبي طى ، تقاعس أسد الدين شيركوه فيباعن القتال رغم هزيمة المسلمين . يقول أبو شامة : « وذكر ابن أبي طى أن أسد الدين ، لما كان في نفسه على نور الدين ، من تقديم ابن الداية عليه ، لم ينصح يوماً — وهى وقعة يغرا — (هكذا ، بالألف) . ومن به نور الدين ، فقال له : ما هذا الوقوف والغفلة في هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا . فقال : يا خوند ، إيش نفع نحن ، إنما ينفع مجد الدين أبو بكر ، فهو صاحب الأمر ، فاستدرك نور الدين ذلك ، وطيب قلب أسد الدين بعد ذلك ... » . ويورد أبو شامة أيضاً ، أحيانا من قصيدة لابن منير الشاعر « تقدمت لاعتذارا عما جرى في هذه الغزاة » أول بيت منها :

لم يشنه من ماء يغراء أن فر (م) الأثبات داد عنها انزلاقه

ويورد أيضاً (س/٥٨) بعض أبيات من قصيدة لبعض الحلبيين يمدح بها نور الدين لانتصاره على الفرنج بأنطاكية ، سنة ٥٤٤ ، أى بعد هزيمة بغيري ، أول بيت منها :

إن كان آل فرنج أدركوا فلجاً في يوم يغرا ونالوا منية الظفر

(٥) بالأصل : عنه جا . (٦) بالأصل : بغيري . (٧) بالأصل : وقضيضهم . (٨) في ، الكامل (ج/٩/س/٢٢) ، أن الفرنج تجمعوا ليقتصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها .

الله تعالى نصره على المسلمين ، وانهزم الفرنج وأخذتهم سيوف المسلمين ، فكانوا بين قتل وأسير (١٠٦- أ) وأما السالم منهم من المعركة فقليل ، ولهذا يقول القيسراني (١) في هذه الواقعة من قصيدة [يقول] في أولها (٢) :

يأليت إن الصدد مصدود أولا فليت اليوم مردود
إلى متى يعرض عن مغرم في خده للدمع أخدود
ومنها (٣)

وكيف لا نثنى (٤) على عيشنا الد محمود والسلطان محمود
وصارم الإسلام لا ينثنى إلا وشلو الكفر مقودود
مناقب لم تلك موجودة إلا ونور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها عند ملوك الشرك مشهود
والقوم إما مرهق صرعة أو موثق بالقيد (٥) مشدود

ذكر وفاة سيف الدين غازي بن أتابك عماد الدين زنكي

في أواخر جمادى الآخرة (٦) من سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، توفي سيف الدين غازي بن أتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر . وكان مرضه حمى حادة ، فأرسل إلى بغداد وأحضر أوحده الزمان الطبيب ، ولم يكن في زمانه (٧) أعرف منه بالطب (٨) ، (١٠٦- ب) فلما رأى شدة مرضه علم أن الأغلب عليه العطب ، فأعلم جمال الدين وزين الدين حاله ، وقال لهما : ليس له علاج غير شيء واحد ، وهو خطر فعالجه ، فتوفي . وكان عمره نحو أربعين سنة . وكان من أحسن الناس صورة . ودفن بالمدرسة التي أنشأها بالموصل . وخلف ولدا ذكرا أخذه عمه نور الدين محمود ورباه وأحسن تربيته ، وزوجه بباينة عمه قطب الدين مودود ، فلم تطل أيامه وأدركه أجله في عنفوان شبابه فتوفي . وانقرض عقب سيف الدين رحمه الله تعالى .

في ذكر بعض سيرته وأخلاقه رحمه [الله]

كان رحمه الله تعالى كريماً ، شجاعاً ، عاقلاً ، ذا حزم وعزم ، ولما (٩) توفي والده الشهيد ، استوزر جمال الدين أبا جعفر المقدم ذكره ، وحكمه وأعطاه عشر دخل بلاده ، وأقر زين الدين

(١) هو أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير بن خالد بن التيسراني ، توفي سنة ٤٤٨ هـ . وترجمته في ، شذرات الذهب (ح/٤/ص/١٥٠) . (٢) بالأصل : أولها يقول . (٣) بالأصل : ومنها في ذكره . (وقد حذف المحقق اللفظين : في ذكره ، لأنها لا يدلان على شيء) . (٤) بالأصل : لا نثنى . (٥) بالأصل : يزمانه . (٦) بالأصل : جمدى الآخر . (٧) بالأصل : يزمانه . (٨) بالأصل : بالطلب . (٩) بالأصل : لما .

على ولاية قلعة الموصل ، وكان له إربل ، فزاد إقطاعه وأعلى محله . وأقطع عز الدين أبا بكر الديبسي جزيرة ابن عمر وجميع قلاع الزوزان وغيرها ، وقرر أمر المملكة فلم يتغير شيء بقتل والده .

(١٠٧- أ) حكى لى والدى : إنه كان راتبه كل يوم لسماطه مائة شاة بكرة ، ينزل الجند فى خدمته كل يوم ويأكلون الطعام ، وكان له سماط آخر النهار ، يذبح له كل يوم ثلاثون رأساً من الغنم الجيد ، سوى الخيل والبقر .

وهو أول من حمل (١) على رأسه سنجق (٢) من أصحاب الأطراف ، فإنه لم يكن فيهم من يفعله لأجل السلاطين السلجوقية .

وهو أول من أمر عسكره أن لا يركب أحدهم إلا والسيف فى وسطه والدبوس تحت ركابه سفراً وحضراً ، ولم يكن يفعل قبل ذلك فى سائر البلاد إلا فى السفر ، فلما أمر هو عسكره ، إقتدى به غيره من أصحاب الأطراف .

وبنى بالموصل المدرسة الآتابكية العتيقة ، وهى من أحسن المدارس وأوسعها ، وجعلها وقفاً على الفقهاء الشافعية والحنفية نصفين .

وبنى أيضاً رباطاً للصوفية بالموصل (٣) وهو الرباط المجاور لباب المشرقة ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة .

(١٠٧- ب) قال : وكان جمال الدين ، وزين الدين ، وعز الدين الديبسي ، قد اتفقت كلمتهم فى أيامه ، واضطر إلى مداراتهم ، لأنهم كانوا يخوفونه السلطان ، فلما طال ذلك عليه ، عزم على المسير إلى السلطان مسعود وقال لهم : أنا كنت من أقرب الناس إلى السلطان ، ومنزلتى عنده مشهورة ، ولا بدلى من المسير إليه ، فخافوه إن هو سار إليه ، أن يعود وقد أمن جانبه فلا يبق عليهم ، فكانوا لا يزالوا يمنعونهم عما يريد من ذلك إلى أن أدركه أجله .

وكان كريماً ، قصده شهاب الدين الحيص بيص (٤) وامتدحه بقصيدته المشهورة التى [يقول فى (٥)] أولها : شعر .

إلام يراك المجد فى زى شاعر وقد نخلت شوقاً فروع المنابر

(١) بالأصل : احل (٢) السنجق : لفظ تركى ، معناه : الرمح . والمراد هنا العلم الذى هو الراية ، إلا أنه لما كانت الراية إنما تجعل فى أعلى الرمح ، عبر بالرمح نفسه عنها . والسنجقدار ، هو حامل السنجق . (صبح الأعشى ، ٥/ص ٤٥٨) . (٣) بالأصل : بالموصل أيضاً . (وقد أسقط المحقق اللفظ : أيضاً لتكراره فى الجملة) . (٤) هو شهاب الدين أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن صفي التميمي الشاعر المشهور توفى سنة ٥٧٤ هـ ، وترجمته فى شذرات الذهب (٥/ص ٢٤٧) . (٥) بالأصل : التى أولها يقول شعر . (٦) بالأصل : الاكم (والتصحيح من الروضتين ، ٦/ص ٦٥) .

وهي من جيد شعره ، فأعطاه جائزته ألف دينار أميرى ، سوى الإقامة والتعهد مدة مقامه ، وسوى الخلع والثياب من سائر الأنواع .

فى ذكر ملك أخيه قطب الدين (١٠٨ — أ)

لما توفى سيف الدين غازى ، كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل ، فاتفقت كلمة جمال الدين وزين الدين (١) على تملكه طلباً للسلامة منه ، فإنه كان لين الجانب ، حسن الأخلاق ، كثير الحلم ، كريم الطباع ، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا له ، ونزل بدار المملكة وحلف له الأمراء والأجناد ، واستقر فى الملك ، وأطاعه جميع ما كان لأخيه سيف الدين ، لأن المرجع كان فى جميع المملكة إلى جمال الدين وزين الدين . ولما ملك واستقر فى الملك ، تزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش التى (٢) كان سيف الدين تزوجها ولم يدخل بها ، فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده على ما نذكره . ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد من غير أولادها .

فى ذكر فاطمة ابنة عبد الملك (معرفة حسنة تذكر)

قد ذكر أصحاب التواريخ والمعارف ، أن فاطمة (٣) بنت عبد الملك بن مروان (٤) بن الحكم ، وأمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية (٥) بن أبى سفيان (٦) — جد أمها لأبيها — ، وابنه يزيد — وهو (١٠٨ — ب) — جدها لأمها — ، ومعاوية بن يزيد — وهو خالها — ، ومروان بن الحكم — وهو جدها لأبيها — ، وعبد الملك بن مروان (٧) — وهو أبوها — ، والوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام أولاد عبد الملك — وهم إخوتها — ، وعمر بن عبد العزيز — وهو زوجها — والوليد (٨) بن يزيد بن عبد الملك — وهو ابن أخيها — ، ويزيد وإبراهيم ابنا الوليد بن عبد الملك — وهما ابنا أخيها — أيضاً . ولم يبق من بنى أمية الذين ولوا الأمر ، من كان يحرم عليها أن تضع خمارها عنده ، إلا مروان بن محمد ، المعروف بالخمير لاغير . وهذه الخاتون (٩) كان يحل لها أن تضع خمارها عند خمسة عشر ملكاً ، وهم : نجم الدين إيلغازى بن أرتق — وهو جدها لأبيها — ، وسقمان بن أرتق — وهو عم (١٠) أبيها — ؛ وحسام الدين تمرتاش — وهو أبوها — ، ونجم الدين ألبى — وهو أخوها — ، وقطب الدين إيلغازى بن ألبى — وهو ابن

(١) فى السكامل ، (٩/ص/٢٤) : جمال الدين الوزير وزين الدين على أميرال جيش . (٢) بالأصل : الذى . (٣) بالأصل : فطمه . (٤) بالأصل : مروان . (٥) بالأصل : معويه . (٦) بالأصل : سفيان . (٧) بالأصل : مروان . (٨) بالأصل : واليد . (٩) المقصود بها زوجة قطب الدين مودود . (١٠) بالأصل : وهواعم .

أخيها — ، وحسام الدين ، وناصر الدين — وهما أولاد قطب الدين — ، وسيف الدين غازي ،
الوقطب الدين مودود (١٠٩ — أ) إبن الشهيد زنكي — وهما زوجها — ، وعماد الدين
شهيد — وهو حوها — وولداها سيف الدين غازي (١) ، وعز الدين مسعود (٢) — إبن قطب
الدين مودود — ، ونور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود (٣) — وهو ابن ابنها — ،
وإبنه الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين (٤) [أرسلان شاه] ، ومعر الدين سنجر
شاه بن سيف الدين غازي (٥) — وهو ابن ابنها — ، وإبنه معز الدين محمود (٦) ، وعماد الدين
زنكي بن قطب الدين مودود (٧) — وهو ابن زوجها — ، وولده قطب الدين محمد (٨) .

ذكر ملك نور الدين محمود ابن الشهيد مدينة سنجار

وما كان بينه وبين [أخيه قطب الدين]

لما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي ، كان نور الدين
محمود بحلب — وهو أكبر من قطب الدين — فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم ، وكانهم
حسدوا زين الدين وجمال الدين ، وأرادوا أن يحكم عليهم ابن صاحبهم . وكان فيمن كاتبه ،
المقدم (٩) والشمس الدين ابن المقدم — وهو حينئذ دزدان سنجار — (١٠٩ — ب)
واستدعاه ليسلم إليه سنجار ، فسار نور الدين جريداً في سبعين فارساً في أكابر دولته ، منهم .
أسد الدين شيركوه ، ومجد الدين أبو بكر بن الداية وغيرهما ، فوصل إلى ماكسين في ستة أنفس
في يوم شديد المطر وعليهم اللبابيد ، فلم يعرفهم (١٠) الذين بالباب ، وأرسلوا إلى الشحنة وأخبروه
بوصول نفر من الأجناد وكانهم تركان ، فلم يستقم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين ، فحين رآه
الشحنة قبل يده وخرج عن الدار ، فزله نور الدين حتى لحق به أصحابه ، وسار مجداً إلى سنجار ،
فوصلها وليس معه غير نفر يسير ، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفور صغير (١١) من شدة
تعبه ، وأرسل إلى المقدم بالقلعة يعرفه وصوله . وكان المقدم قد استدعى إلى الموصل ، لأن خبره

-
- (١) هو سيف الدين غازي (الثاني) . وقد ملك الموصل بعد أبيه ، من سنة ٥٦٥ حتى سنة ٥٧٦ .
(٢) ملك عز الدين مسعود الموصل ، من سنة ٥٧٦ حتى سنة ٥٨٩ . (٣) ملك نور الدين أرسلان
شاه الموصل ، من سنة ٥٨٩ حتى سنة ٦٠٧ . (٤) ملك الملك القاهر الموصل ، من سنة ٦٠٧ حتى سنة ٦١٥ ،
والذي ينتهي « تاريخ دولة الأتابكة » بنجر ماسكه لها . (٥) صاحب جزيرة ابن عمر ، ٥٧٦ — ٦٠٥ .
(٦) صاحب جزيرة ابن عمر ، ٦٠٥ — ٦٣٩ . (٧) صاحب سنجار ، ٥٦٦ — ٥٩٤ .
(٨) صاحب سنجار ، ٥٩٤ — ٦١٦ . (٩) في الكامل (ح/٩/ص/٢٤) : « وفيمن كاتبه المقدم
عبد الملك والشمس الدين محمد » . (١٠) بالأصل : تعرفه . (والنصحيج من الروضتين ، ح/١/ص/٦٨) .
(١١) في الروضتين : (ح/١/ص/٦٨) محفورة صغيرة . والأصوب أن يقال : حفر صغير . ففي (لسان العرب) ،
مادة : حفر : الحفر ، بالتحريك ، هو التراب المخرج من الشيء المحفور .

مع نور الدين بلغ من بها ، فأرسلوا إليه وأحضروه (١) ، فتوقف عدة أيام فلم يصل نور الدين ، فصار إلى الموصل وترك ابنه شمس الدين بسنجار ، وقال له (١١٠ - أ) : أنا أتأخر (٢) في الطريق ، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني . فلما فارق سنجان وصل نور الدين . فلما علم شمس الدين بوصوله ، أرسل قاصداً مجدداً إلى أبيه بالخبر ، وأنهى الحال إلى نور الدين فسقط في يده وخاف فوات الأمر . ووصل القاصد الذي سيره ابن المقدم إلى أبيه ، فأدركه بتليغفر (٣) ، فعاد إلى سنجان وسلمها إلى نور الدين ، فكتب [نور الدين] نحر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن يستنجد به ، وبذل له قلعة الهيثم ، فصار إليه بجنده . ولما سمع أتاك قطب الدين الخبر ، جمع عساكره وسار عن الموصل نحو سنجان ومعه جمال الدين وزين الدين ، ونزلوا بتل يغفر ، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذ ما ليس له ، ويهددوه بقصده وإخراجه عن البلاد قهراً إن لم يرجع اختياراً (٤) ، فأعاد الجواب : إني أنا الأكبر ، وإن أحق أن أدير أمر أخى منكم ، وما جئت إلا لما تتابعتم إلى كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولا يتسكما عليهم (١١٠ - ب) - يعني زين الدين وجمال الدين - تخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على إخراج الأمر عن أيدينا . وأما تهديدكم إياي بالحرب والقتال ، فأنا لا أقاتلكم إلا بجندكم - وكان قدهرب إليه جماعة من أجنادهم - تخافوا أن يلقوه لئلا يخامر عليهم باقي العسكر ، ودخل الأمراء في الصلح وأشار به جمال الدين ، وقال : نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين ، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ويهددهم بنا ، فإن كاشفناه وحاربناه ، فإن ظفر بنا (٥) طمع فينا السلطان ، وإن ظفرنا به (٦) طمع فيه الفرنج . ولنا بالشام حصص وقد صار له عندنا سنجان ، فهذه أنفع لنا من تلك ، وتلك أنفع له من هذه ، والرأى أن نسلم (٧) [إليه (٨)] حصص ونأخذ سنجان ، وهو في ثغر بإزاء الفرنج ويتعين مساعدته ، فانفق الجماعة على هذا الرأى . وسار إليه جمال الدين فأكرمه نور الدين وبالغ في تعظيمه (٩) وإكرامه ، وعاتبه جمال الدين وقال : كنت أرسلت إلى في شيء تريده من البلاد حتى كنت أفعل ما تريد (١١١ - أ) ولا تطمع فيك الأعداء وفينا ، وطال الحديث بينهما . وأجاب نور الدين إلى ما طلب منه ، واستقر الصلح على ذلك ، وتسلم نور الدين

(١) هكذا بالأصل . (٢) بالأصل : إذا تأخره . (والتصحيح من الروضتين ، ١/ص/٦٧) .
 (٣) وترسم أيضاً : تل يغفر ، وهو الأكثر استعمالاً . وفي (ياقوت) : تل أغفر ، هكذا تقول عامة الناس .
 وأما خواصهم فيقولون : تل يغفر . وقيل إن أصله : التل الأغفر ، لونه ، فغير بكثرة الاستعمال وطلب الحق . وهو اسم قلعة وريض بين سنجان والموصل في وسط واد فيه نهج رجار . وهي على جبل منفرد حصينة محكمة ، وفيها نخيل يحلب رطبه إلى الموصل . (٤) بالأصل : باختياراً . (والتصحيح من الروضتين ، ١/ص/٦٧) . (٥) بالأصل : ظفرنا به . (والتصحيح من ، الروضتين ، ١/ص/٦٧) . (٦) بالأصل : ظفرنا . (والتصحيح من ، الروضتين ، ١/ص/٦٧) . (٧) بالأصل : يسلم . (٨) الإضافة من الروضتين (٩) بالأصل : تعظيمه .

خصص (١) ، وسلم سنجار إلى أخيه . وعاد نور الدين إلى الشام ، وأخذ ما كان بسنجار من المال ، ولما أراد العود ، قال لجمال الدين : لا بد من أن تكون عندي ، فلي من الحق مثل ما لأخي ، وأنا أحوج إليك منه . فقال له جمال الدين : أنت فيك من الكفاية ما يستغني [به (٢)] عن وزير ومشير (٣) ، وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك ، لأن عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانة ، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم ، وإذا كنت عند أخيك فالنفع عائد إليك ، وأريد من بلادك مثل مالي من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي ، فأجابه إلى ذلك . فقال له جمال الدين : أنت عليك خرج كثير لأجل الكفار ويجب مساعدتك ، وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة ، فأمر له بها . فكان نائب جمال الدين يقيضها (٤) كل سنة ويشتري بها أسرى (٥) (١١١ - ب) من الفرنج ويطلقهم .

ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها زين الدين ، لأن حمص كانت لأخيه وهو مقيم بها . واتفقت كلمتهم ، واتحدت آراؤهم ، فكان كل واحد منهما لا يصدر إلا عن أمر أخيه .

ذكر قضية قلعة سنجار

قال . فلما مات سيف الدين وتولى أخوه (٦) قطب الدين ، أحضر شمس الدين محمد بن المقدم عبد الملك من سنجار — وكان هذا شمس الدين خصيصاً بسيف الدين — . وسبب وصلته به أنه لما قصد [سيف الدين] خدمة السلطان مسعود السلجوقي ، رتب في خدمته عشرة من الجندارية ، وكان عبد الملك واحداً (٧) منهم ، ومعه ولد له ملبح الصورة ، فكلف به وأحبه (٨) واستصحبه معه إلى الموصل . ولما انفرق عبد الملك من الجندارية وتبع سيف الدين إلى الموصل ، استخلف سيف الدين ، عبد الملك في سنجار .

فلما توفي سيف الدين وتملك قطب الدين ، أرسل إلى سنجار واستطلب إليه شمس الدين ابن عبد الملك فاستحضره (٩) ، وحلفه على أنه لا يمكن والده من تسليم (١٠) سنجار إلى غيره ، خلف له (١١٢ - أ) . ثم هرب من عند قطب الدين إلى (١١) سنجار . فعندما استوثق أمر قطب الدين بالموصل واستقرت (١٢) له المملكة ، كتب (١٣) [عبد الملك] لنور الدين أن يسلمها إليه ، ويعلمه أن

(١) في السكائل ، (٢٤ / ص / ٩ / ح) أن نور الدين تسلم حمص والرحبة . (٢) الإضافة من ، الروضتين ، (٦٧ / ص / ١ / ح) . (٣) بالأصل : وشير . (والتصحيح من ، الروضتين ، ٦٧ / ص / ١ / ح) . (٤) بالأصل : بقضها . (٥) بالأصل : ويشتري به ما اشترى . (والتصحيح من ، الروضتين ، ٦٨ / ص / ١ / ح) . (٦) بالأصل : أخاه . (٧) بالأصل : واحد . (٨) بالأصل : ووجه . (٩) بالأصل : فاستخضره . (١٠) بالأصل : تسلم . (١١) بالأصل : لا . (١٢) بالأصل : واستمرت . (١٣) بالأصل : كاتب .

خزائن بيت أتابك جميعها في سنجار . فلما بلغ قطب الدين (١) ذلك ، سير إليهما ولاطفهما ودخل لهما في كل ما اقترحا عليه ، وحلفا له بمحضر من قاضيا (٢) وأعيان شهودها . واقترح الرسول أن يستصحب معه شمس الدين إلى الموصل فأبى عليه ، وادعى الحياء من قطب الدين لكونه خرج هارباً منه ، فاتفق عند (٣) خروج والده عن سنجار مرحلة ، قدمها نور الدين من حلب في مائتي فارس (٤) ، فنفذ شمس الدين إلى والده المقدم (٥) عبد الملك [من] يعرفه بوصوله ، فخرج ولم يقدر الرسول على منعه (٦) .

وكان شمس الدين عند قدوم نور الدين قد فتح الخزائن ، واختار منها من نفائس الجواهر وأخير (٧) الذخائر ما يعز وجوده ، وكتب إلى نور الدين في تسليم البلد إليه ، على أن لا يطالبه بشيء ، مما أخذه ، فأجابه إلى ذلك ، وتسلم البلد يوم الإثنين (١١٢ - ب) عاشر رجب ، وحصل ابن المقدم على ما في يده من الذخائر .

ولما بلغ قطب الدين ما اتفق ، بعث وزيره جمال الدين الأصفهاني ليفرغ (٨) ما كان في الخزائن من الأموال والأقشة والجواهر ، ومعه جريدة تتضمن (٩) ذلك المال [وعند لقائه بنور الدين (١٠)] قال له : هذا مال المسلمين ولا يحل لك إطلاق شيء منه . فقال نور الدين : إن كان أخذ شيئاً من مال المسلمين بالغدر ، ففي عنقه .

ثم إن جمال الدين قرر الصلح بين نور الدين وبين أخيه قطب الدين ، على أن يأخذ نور الدين الخزائن التي في سنجار ، ويأخذ الرقة والرحبة وحمص ، ويعطيه سنجار ، وتبقى الرها في يد نور الدين على ما كانت أولاً .

ثم رحل نور الدين وترك نائبه فيها حتى يتسلم البلاد ، وعاد إلى حلب (١١) ، ومعه خزائن سنجار على ستمائة جمل — ما خلا البغال وما فرقه على أولاد الملوك والأمراء — وستة وتسعين (١٢) بغلاً محملة ذهباً (١٣) .

ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية

في سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، سار نور الدين إلى حصن حارم وهو للفرنج ، فحصره وخرّب (١١٣ - أ) ربهضه ونهب سواده .

-
- (١) بالأصل : لقطب الدين . (٢) بالأصل : قاضيا . (٣) بالأصل : على .
 (٤) في ص/٩٥ ، أنه خرج في سبعين فارساً من أكابر دولته . (٥) بالأصل : مقدم .
 (٦) العبارة « خرج ولم يقدر الرسول على منعه » إذا كان المقصود منها ، أن الرسول لم يستطع إعادة والد شمس الدين إلى سنجار ، فإنه ينقضها ما سبق (ص/٩٦) . (٧) بالأصل : وخاير . (٨) بالأصل : ليفرغه .
 (٩) بالأصل : جريدة ما يتضمن . (١٠) الإضافة من « دي سلين » (ص/١٧٦) .
 (١١) بالأصل : أحطب . (١٢) بالأصل : وتسعون . (١٣) بالأصل : ذهب .

ثم رحل عنه إلى حصن إناب^(١) فحصره ، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن إناب فلم ير حل بل لقيهم ، وتصاف الفريقان^(٢) واقتتلوا وصبروا ، وظهر^(٣) من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه^(٤) ما تعجب الناس منه . فانجلى الحرب عن هزيمة الفرنج وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً . وفيمن قتل ، البرنس صاحب أنطاكية ، وكان عاتياً من عتاه الفرنج وذوى التقدم فيهم والملك^(٥) .

ولما قتل البرنس خلف ابناً صغيراً وهو يميند ، فبقى مع أمه بأنطاكية ، فتزوجت أمه^(٦) بـبرنس آخر ، وأقام معها بأنطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقا تل بهم إلى أن يكبر يميند ابن البرنس المقتول .

ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى^(٧) ، فلقيه فرسان الفرنج وقاتلوه ، فهزمهم وقتل منهم وأسر ، فكان في الأسرى البرنس الثانى زوج أم يميند ، فلما أسره تملك يميند أنطاكية بلد أبيه وتمسك منه ، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة (١١٣ — ب) على ما نذكره إن شاء الله تعالى . فأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح وقتل البرنس ؛ فن قال فيه : القيسرانى الشاعر ، [فى] قصيدته المشهورة التى أولها هذه الآيات^(٨) :

هذى العزائم لا ما تدعى القضب	وذى المكارم لاما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتى متى خطبت ^(٩)	تعثرت خلفها الأشعار والخطب
صاغت يا ابن عماد الدين ذروتها	براحة المساعى دونها تعب
ما زال جدك يبنى كل شاهقة	حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة	قواد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة	أودى بها الصلب وانحطت لها ^(١٠) الصلب
طهرت أرض الأعداى من دمائمهم	طهارة ^(١١) كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قاذحة	فالحرب تضرم والآجال تحتطب
والخيل من تحت قتلاها تقر لها ^(١٢)	قوائم خانن الركض والخبب

(١) حصن إناب : فى (ياقوت) : بكسرتين وتشديد النون والباء الموحدة . حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب .
(٢) بالأصل : الفريقين . (٣) بالأصل : وظهره . (٤) كان نور الدين فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره فقد كان مولده سنة ٥١١ . (٥) فى ابن القلانسى ، (ص/٣٠٥) أن الموقعة كانت فى يوم الأربعاء الحادى والعشرين من صفر من السنة . (٦) هى كونستانس ، وقد تزوجت فى مغامراً لاسمه «رينودى شاتيون» (حبشى : نور الدين والصلبيون ، ص/٨٤) . (٧) لم يحدد ابن الأثير هنا ، ولا فى « الكامل » مكان هذه الغزوة . غير أن ابن القلانسى (ص/٣٠٥) ، يذكر أن نور الدين نزل بعد وقعة « إناب » على أنطاكية ، فقم الصلح بينه وبين صاحبها . (٨) بعد هذا اللفظ ، بالأصل ، لفظ : « يقولها » . وقد حذفه المحقق لأنه زائد .
(٩) بالأصل : خطيت . (١٠) بالأصل : بها . (١١) بالأصل : طهارت . (١٢) بالأصل : بها .

والنقع فوق صقال البيض منعقد
 (١١٤ - أ) والسيف هام على هام بمعركة
 والنبل كالوبل هطالا وليس له
 وللظبا (١) ظفر حلوا مذاقته
 وللأسنة عما في صدورهم
 من كان يغزو بلاد الشرك مكة سبا
 ذو غرة (٢) ماسمت والليل معتكر
 أفعاله كاسمه في كل حادثة
 كما استقل دخان تحته لهب
 لا البيض ذو ذمة فيها ولا اليلب
 سوى القسي وأيد فوقها سحب
 كأنما الضرب فيما (٢) بينها ضرب
 مصادر ألقوب تلك أم قلب
 من الملوك فنور الدين محتسب
 إلا تمزق عن شمس الضحى الحجب
 ووجهه نائب عن وصفه اللقب

وهي طويلة جداً . وما قال فيها بعض الشاميين وأنسيت اسمه : (٤)

أقوى الضلال وأقفر عرصاته
 وانتاش دين محمد محموده
 ردت على الإسلام عصر شبابه
 أرسى قواعده ومد عماده
 وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا
 وعلا الهدى وتبليجت قسماته
 من بعد ما علت دما عبراته
 وثباته من دونه وثباته
 صعدا وشيد سوره سوراته
 إصلاحه وصلاته وصلاته

(١١٤ - ب) وهي أيضا طويلة .

ذكر ملك حصن (٥) أفامية

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة (٦) ، سار نور الدين إلى حصن أفامية ، وهو للفرنج أيضا ، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة . وهو حصن منيع (٧) على تل مرتفع عال ، من أحسن القلاع وأمنعها . وكان من به من الفرنج (٨) يغيرون (٩) على مدينة حماة وشيزر وينهبونها ، وأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار ، فسار نور الدين إليه وحصره وضيق عليه ، ومنع من به القرار ليلا ونهارا ، وتابع عليهم القتال لينعمهم الإستراحة ، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها ، وساروا نحوهم ليزحزحوه عنه (١٠) ، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن ، وملاؤه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال ، وجميع ما يحتاج إليه . فلما

(١) بالأصل : وللظبي . (٢) بالأصل : فيها . (٣) بالأصل : ذو غزمة . (والصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٥٩) . (٤) في ، الروضتين (ح/١/ص/٦٠) ، أنه الشاعر أحمد بن منير الطرابلسي . (٥) بالأصل : حصن . (٦) في ، السكامل (ح/٩/ص/٢٧) ، أن فتح أفامية كان سنة ٥٤٥ . وما هنا يطابق ما في ، ابن القلانسي (ص/٣٠٥) . (٧) بالأصل : منيع . (٨) بالأصل : للفرنج . (٩) بالأصل : يعبرون . (والصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٦٢) . (١٠) بالأصل : عنها .

أسنى الممالك ما أطلت منارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها
أدركت ثأرك في البغاة وكنت يا
عارية الزمن المغير سما لها (٤)
صارت (٥) نجومك فوقها ولربما
أمت مع الشعري العبور وأصبحت
وجعلت مرهقة الشفار دسارها
رهوف تكنف عدله أقطارها
مختار أمة أحمد مختارها
ملك المعير فاسترد معارها
باتت تنافها (٦) النجوم سرارها
شعراء تستقلى (٧) الفحول شوارها (٨)

وهي طويلة .

ذکر الحرب بین نور الدین وجوسلین

وانهزام نور الدين رضى الله عنه

في سنة [ست وأربعين وخمسمائة (٩)] سار (١٠) نور الدين إلى بلاد جوسلين ، وهي القلاع التي شمال حلب ، منها : تل باشر ، وعين تاب (١١) ، وعزاز (١٢) وغيرها من الحصون . فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم ، ولقوا نور الدين ، فكانت بينهم حرب شديدة أجلت عن انضمام المسلمين وظفر الفرنج . وأخذ جوسلين ، سلاح دار (١٣) ، كان لنور الدين أسيرا وأخذ ما معه من السلاح ، فأنفذه (١١٥ - ب) إلى السلطان مسعود بن قليمج أرسلان السلجوقي صاحب قونية (١٤) وأقصر

(١) بالأصل : وجده . (٢) بالأصل : وأمدحه . (٣) بالأصل : ابن الرومي . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٦٢) . (٤) بالأصل : سماكها . (٥) في الروضتين ، ح/١/ص/٦٣) ضاقت . (٦) بالأصل : تناقبتها . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٦٣) . (٧) بالأصل : تستغلي . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٦٣) . (٨) بالأصل : سوارها . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٦٣) . (٩) نياض بالأصل . (والإضافة من ، السكامل ، ح/٩/ص/٢٩) . (١٠) بالأصل : فيها سار . (وقد حذف المحقق ، اللفظ : فيها ، لأنه زائد) . (١١) عين تاب : في (ياقوت) : قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية ، وكانت تعرف بـ « دلوک » ، و « دلوک » رستاقها . (١٢) عزاز : في (ياقوت) : بفتح أوله وتكرار الراء ، وربما قيلت بالألف في أولها . بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب ، بينهما يوم . (١٣) السلاح دار . هو المنوط بعمل سلاح السلطان أو الأمير الذي هو في خدمته . ومن وظائفه أيضاً ، الإشراف على السلاح خاناه وما هو من توابع ذلك . ولفظ السلاح دار ، مركب من كلمتين ، أولاهما عربية ، ومماها آلة القتال ، والثانية فارسية ، ومماها ممسك ، ويكون المعنى ، ممسك السلاح . (السلوك ح/١/ص/٦٥/حاشية ٣) . (١٤) بالأصل : فنية . (والتصحیح من ، السكامل ، ح/٩/ص/٢٩)

وغيرها من تلك الأعمال - وكان نور الدين قد تزوج ابنته - وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد أنفذت لك سلاح صهرك ، وسيأتيك بعد هذا خبره ، فعظمت هذه الحالة على نور الدين ، وأعمل الحيلة على جوسلين حتى أسره على ما نذكره .

في ذكر أسر جوسلين ومملك بلاده

لما بلغ نور الدين ما فعله جوسلين من إرسال سلاحه إلى حميه السلطان مسعود ، قام لذلك وقعد ، وهجر الراحة للأخذ بشأره ، وأزكى (١) العيون على جوسلين ، وأحضر جماعة من التركان وبذل لهم الرغائب من الإقطاع والأموال ، إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلاً أو أسراً ، لأنه علم إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده ، جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع ، فأخذ إلى أعمال الحيلة . فاتفق أن جوسلين خرج متصيداً متنزهاً في نفر يسير ، فظفر به طائفة من التركان [فأخذوه أسيراً (٢)] فصانعهم على مال بذله لهم فرغبوا فيه (١١٦ - أ) وأجابوه إلى ذلك وأخفوا أمره عن نور الدين ، وأرسل جوسلين في إحضار المال ، فأتى بعض التركان إلى نائب نور الدين بحلب (٣) فأعلمه الحال ، فسير معه عسكرياً أخذوا جوسلين من التركان قهراً ، وكان نور الدين حينئذ بمحمص . وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين ، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج ، شديد العداوة للمسلمين ، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم ، لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدة عداوته للملة الإسلامية ، وقسوة قلبه على أهلها ، وأصبحت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت (٤) المصيبة [عليهم (٥)] بفقده ، وخلت بلادهم من حامياها ، وثغورهم من حافظها ، وسهل أمرهم على المسلمين بعده ، وكان كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي بعهده ، طالما صالحه نور الدين وهادنه ، فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر ، فلقبه غدره ومكره ، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله (٦) .

فلما أسر (١١٦ - ب) تيسر ففتح كثير من بلادهم وقلاعهم ففتحها : تل باشر ، وعين تاب ،

(١) بالأصل : واذاكى . (٢) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/٧٢) وقد ذكر أبو شامة ، أن سبب أسره ، أنه « خرج في عسكره وأغار على طائفة من التركان فذهب وسبى ، فاستحسن من السبى امرأة منهم خلا معها تحت شجرة ، فاجله التركان ، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً » . ويذكر أبو شامة أنه نقل خبر أسر جوسلين من ابن الأثير ، ومعنى هذا ، أن ناسخ المخطوط ، تصرف في الخبر . (٣) هو أبو بكر بن الداية . (الكامل ، ح/٩/ص/٢٩) . (٤) بالأصل : وعظمة . (٥) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/٧٢) . (٦) في ابن الوردي (ح/٢/ص/٥١) أن جوسلين بذل لنور الدين أموالاً لا تحصى لإطلاق سراحه ، فاستشار نور الدين أمراءه في ذلك فلم يوافقوا على إطلاقه ، بخلافهم وأطلقه ، فمات قبل أن يخرج من الشام (أى من حلب) وانتفع المسلمون ، وعدد ذلك من كرامات نور الدين .

وإعزاز ، وقورس (١) ، والراوندان (٢) ، وحصن البارة (٣) ، وتل خالد (٤) ، وكفر لانا (٥) ، وكفر سوت (٦) ، وحصن بسرفوت (٧) بجبل بنى عليم ، ودلوك (٨) ، ومرعش (٩) ، ونهر الجوز ، وبرج الرصاص (١٠) . وكان نور الدين ، رحمه الله تعالى ، إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر يكفيه عشر سنين ، خوفاً من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين ، فتكون حصونهم مستعدة غير محتاجة إلى شيء .

وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا ، فمن ذلك قول القيسراني من قصيدة ، أولها هذه الآيات حيث يقول :

دعا ما ادعى (١١) من غره النهى والأمر	فما الملك إلا ما حباك به القهر
ومن ثنت (١٢) الدنيا إليه عنانها	تصرف فيما شاء عن إذنه الدهر
كما أهدت الأقدار للقمص أسره	وأسعد قرن من حواه (١٣) لك الأسر
طغى وبغى عدواً على غلوائه	فأوثقه الكفران ، عدواه (١٤) والكفر
وأمت عزاز كاسمها بك عزة	تشق (١٥) على النسرين لو أنها وكر
(١١٧-أ) فسر واملاً (١٦) الدنيا ضياء وبهجة	فبالألق الداجي إلى ذا السنافر (١٧)
كأنى بهذا العزم لا فل حده	وأقصاه بالأقصى وقد قضى الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهراً	وليس سوى جارى الدماء له طهر

- (١) قورس : بينها وبين حلب يوم (الاصطخرى، ص/٤٩) .
 قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة مشجرة ، من نواحي حلب .
 (٢) الراوندان : في (ياقوت) :
 (٣) بالأصل : حصن البارة . والبارة ، كما في (ياقوت) : بليدة وكورة من نواحي حلب ، وفيها حصن ، وهى ذات بساتين ، ويسمونها زاوية البارة .
 (٤) تل خالد : : في (ياقوت) : قلعة من نواحي حلب .
 (٥) كفر لانا : في (ياقوت) :
 بالناء المثلثة والقصر . بلدة ذات جامع ومنبر ، في سفح جبل عال من نواحي حلب ، بينهما يوم واحد ، وهى ذات بساتين ومياه جارية زهرة طيبة ، وأهلها إسماعيلية .
 (٦) كفر سوت : بالأصل كفر سود (والتصحیح من ، ياقوت) . يضم الدين ثم واو وآخره تاء مثناة ، من أعمال حلب الآن (أى في زمن ياقوت) قرب بهسنا . بلد فيه أسواق حسنة عامرة .
 (٧) حصن بسرفوت : بالأصل : بسرفوت . (والتصحیح من ، ياقوت) ، وهو حصن من أعمال حلب في جبال بنى عليم .
 (٨) دلوك : في (ياقوت) : يضم أوله وآخره كاف . بليدة من نواحي حلب بالعواصم .
 (٩) مرعش : في (ياقوت) : بالفتح ثم السكون والعين مهملة مفتوحة وشين معجمة . مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم ، ولها سوران وخنق ، وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالروانى ، بناه الخليفة مروان بن محمد ، المعروف بمروان الحمار .
 (١٠) برج الرصاص : في (ياقوت) : قلعة ولها رسانيق ، من أعمال حلب قرب أنطاكية .
 (١١) بالأصل : ادعا .
 (١٢) بالأصل : بنت .
 (١٣) بالأصل : جواه .
 (١٤) بالأصل : عدواه .
 (١٥) بالأصل : يشق .
 (١٦) بالأصل : واملأ .
 (١٧) بالأصل : قفر . (والتصحیح من ، الروضتين ، ١/ص/٧٣) .
 (١٨) بالأصل : قفر . (والتصحیح من ، الروضتين ، ١/ص/٧٣) .

وقال بعض الشاميين (١) أيضاً في هذا المعنى ، هذه الآيات :

هيهات يعصم من أردت (٢) حذار	أنى ومن أوهالك الأقسدار
همم تحملك كل يوم رتبة	تسرى (٣) فيصبح دونها الأقرار
ومطامح في العز إذ هي صوبت	فلهن في الفلك الأثير قرار
طلعت عليك بجوسلين ذريعة	لا سجل أنشاها (٤) ولا إمرار
وسعادة ما زلت تمرى (٥) خلفها	فيشف وهو النائق (٦) المدرار
فأرتك ما يحنى الوفى وفاؤه	وأرته كيف يحين (٧) الغدار

وهي طويلة .

ذكر المصاف بين نور الدين والإفرنج بدلوك

لما سار نور الدين إلى قلاع جوسلين ليمتلكها ، ملك بعضاً وبقي بعض (١١٧ — ب) فاجتمعت الفرنج وسارت نحو الباقي لتمنعه (٨) منه ، وظنوا أنه يمتنع باجتماعهم ولا يقدم عليهم في عقر ديارهم ، فلما بلغه خبرهم سار إليهم ، وصمم العزم على لقاءهم ، فالتقوا بدلوك واقتتلوا ، وكان بين الطائفتين حرب يشيب لها الوليد ، ففتح الله المسلمين أكتاف الفرنج ، فهزموهم هزيمة أتت على كثير منهم وسلم الباقيون ، واستولى نور الدين على دلوك وغيرها . وفي ذكرها وذكر غيرها قال بعض الشعراء الشاميين (٩) قصيدة فيها :

أعدت بعصرك هذا الأنيق (١٠)	فتوح النبي وأعصارها
فواطأت يا حبذا (١١) أحديها (١٢)	وأسررت (١٣) من بدر (١٤) أنوارها (١٥)
وكان مهاجرها تابعيك	وأنصار رأيك أنصارها
فجددت إسلام سلبانها (١٦)	وعمر جددك عمارها

(١) هو أحمد بن منير الشاعر . (الروضتين ، ح / ١ / ص ٧٥) . (٢) بالأصل : ارغت . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص ٧٥) . (٣) بالأصل : يسرى . (٤) بالأصل : أنساها . (٥) بالأصل : تمرى ، (والتصحیح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص ٧٥) . (٦) بالأصل : النابق . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص ٧٥) . (٧) بالأصل : يحين . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص ٧٥) . (٨) بالأصل : تمنعه . (٩) هو أحمد بن منير الشاعر . (الروضتين ، ح / ١ / ص ٧٦) . (١٠) بالأصل : الايق . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص ٧٦) . (١١) بالأصل : تاجيد . (١٢) الإشارة هنا إلى غزوة أحد . (١٣) بالأصل : واسرت . (١٤) الإشارة هنا ، إلى غزوة بدر . (١٥) بالأصل : ايدارها . (١٦) الإشارة هنا إلى الصحابي المشهور ، سلمان الفارسي .

وما يوم إنب إلا كتية ك (١) بل طال بالبوع أشبارها
 وأيامك الغر من بعده تعيد إلى الطي أغرارها
 (١١٨ - أ) ويوم على الجون جون السراة عز فسعطها عارها
 صدمت عريمتها صدمة أذابت مع الماء أحجارها
 فصبحت بالخمس أحفاضها ومسيت بالخمس أبكارها
 وفي تل باشر باشرتهم بزحف تسور أسوارها
 وإن دالكتم دلوك فقد شددت فصدقت أخبارها

ذكر وفاة السلطان مسعود بن محمد بن السلطان

ملكشاه السلجوقي بهمدان

في سنة سبع (٢) وأربعين وخمسمائة ، توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمدان . وكان مرضه حى حادة نحو أسبوع ، وعهد إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود وخطب (٣) له ببلاد الجبل .

وكان الغالب على البلاد والعساكر في أيام السلطان مسعود خاصبك (٤) بن بلنكرى ، فقام بأمر ملكشاه ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه ، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن السلطان محمود وهو بخوزستان يستدعيه إليه ليخطب له (١١٨ - ب) بالسلطنة ، وكان غرض خاصبك أن يقبض عليه أيضاً ، ويخلو وجهه من منازع من السلجقية ، وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه . فلما كاتب محمد أجابه إلى الحضور عنده ، وسار إليه وهو بهمدان واجتمع به ، وخدمه خاصبك خدمة عظيمة وحمل إليه التحف الكثيرة ، فلما كان الغد من يوم وصول الملك محمد ، دخل إليه خاصبك فقتله محمد وألقى رأسه إلى أصحابه ففترقوا ، واستقر محمد وثبت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعها ، وكان قتله سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وقتل معه زنكى الجاندار . وبقي خاصبك مطروحاً حتى أكلته الكلاب .

وكان ابتداء حاله ، أنه كان من أولاد بعض التركان ، نخدم السلطان فقال إليه وقدمه حتى

(١) بالأصل : كنتاك . (والتصحيح من ، الروضتين ، ١/ص/٧٦) .

(٢) بالأصل : سنة أربع . (والتصحيح من ، الكامل ، ٩/ص/٣١) . (٣) بالأصل : وخوطب .

(٤) بالأصل : خاصبك . (والتصحيح من ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ١٨٠/ص) . وابن الأثير يرسم الاسم

في الكامل (٩/ص/٣٢) خاص بك .

فاق سائر الأمراء ، فتقدم (١) تقدماً عظيماً ، واستولى على أكثر البلاد . وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود ، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من اتباعه ، لما كان يعاملهم به من الهوان (١١٩ — أ) والتكبر عليهم .

وفيها ، أعنى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وصل إلى الموصل الأمير إياز قفجاق — وهو من أكابر أمراء العجم — شاكياً من شمس الدين إيلدكز ، ومستغيثاً عليه ومستشفعاً إليه ، وإنجاده (٢) بعساكر يفتح بها ما بيده من البلاد ، فجهزت العساكر معه ، وجعل مقدمها الأمير قراجة تجنه ، مقطوع بلد الهكارية ، فوصلوا إلى سلماص وأقاموا معه وأصلحوا حاله معه إيلدكز ، وهو صاحب تلك البلاد جميعها ، وكان هذا قبل أن يستولى على همذان وأصفهان وسائر بلاد الجبل . وفيها توفي حسام الدين تمر تاش صاحب ماردين ، وولى بعده ابنه نجم الدين ألبى .

في ذكر ملك نور الدين دمشق

في سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ملك نور الدين مدينة دمشق وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد بن بوري (٣) بن طغديكين أتابك . وكان الذي حمل نور الدين على الجد في ملكها ، أن الفرنج ملكوا في السنة الحالية مدينة عسقلان (١١٩ — ب) وهي مدينة فلسطين حسناً (٤) وحصانة ، ولما كانوا يحصرونها ، كان نور الدين يتلف [عليها] ولا يقدر على إزاعجهم عنها ، لأن دمشق في طريقه ، وليس له طريق على غيرها لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط ، فقوى الفرنج بها حتى طمعوا في دمشق ، واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارة على أعماله ، وأكثروا القتل بها والنهب والسبي ، وزاد الأمر بالمسلمين بها ، إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة ، فكان رسولهم يحيى إلى دمشق ويحییها من أهل البلد . ثم اشتد (٥) البلاء على أهلها ، حتى أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم ممن أخذ من سائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند (٦) مواليهم أو العودة إلى أوطانهم ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب وطنه سار (٧) إليه ، وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع إنسان منهم يقال له مؤيد [الدين (٨)] ابن الصوفي . فلما كانت (١٢٠ — أ) الأمور بها هكذا ، خاف أهلها وأشفقوا من العدو ، فجأروا (٩) إلى الله تعالى ودعوه في أن يكشف ما بهم من الخوف ، فاستجاب لهم وأذن في خلاصهم

(١) بالأصل : فتقدم . (٢) بالأصل : أو إنجاده . (٣) بالأصل : نوري . (٤) والتصحیح من ، الكامل ، ٤٥/ص ٩٠ . (٥) بالأصل : أشد . (٦) بالأصل : وعند . (٧) بالأصل : صار . (٨) الإضافة من ، ابن الفلانسى (ص ٣٢٩) . (٩) في الروضتين (١/ص ٩٥) فلجأوا .

مما هم فيه على يد أحب عباده إليه ، وأحسنهم طريقة ، وأمثلهم سيرة ، وهو الملك العادل حقاً نور الدين محمود ، فحسن له السعى في ملك البلد وألقاه في روعه . فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعلم أنه إن رام ملكه بالقوة والحصار تعذر عليه ، لأن صاحبه كان متى رأى شيئاً من ذلك ، راسل الفرنج واستألمهم واستعان بهم . وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلمهم وليست له فكيف إذا [أخذهاو (١)] قوى بها . وانضاف إلى ذلك كراهية لسفك دماء المسلمين ، فإن الدم كان عنده عظيماً لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل ، فلما رأى الحال هكذا عدل إلى أعمال الحيلة ، فراسل مجير الدين صاحبها واستألمه ، وواصله بالهدايا وأظهر له المودة (١٢٠ - ب) حتى وثق إليه ، ثم صار يكاتبه في بعض الأوقات ويقول له [إن] فلاناً — ويذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدين — قد كاتبنى في المخامرة عليك فاحذره ، فتارة يأخذ إقطاع أحدهم ، وتارة يقبض عليه . فلما خلت دمشق من الأمراء ، قدم أميراً كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمى الخادم (٢) ، وكان شهماً شجاعاً ، وفوض إليه أمر دولته ، وكان نور الدين لا يتمكن من دمشق معه ، فقبض عليه مجير الدين وقتله ، فقال له عند قتله : إن الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلنى ، واستبقنى فإنه سيظهر لك ما أقول ، فلم يصنع إلى قوله وقتله . فلما قتل [عطاء] قوى طمع نور الدين في البلد ، فراسل أحداث البلد (٣) وزناطرتة (٤) واستألمهم ، فأجابوه إلى تسليم البلد . فسار إليهم وحصرهم عدة (٥) أيام ، فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الأموال وقلعة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه ، وإلى أن جمعوا وجاءوا ، بلغهم أخذ نور الدين البلد فعادوا بخن حنين .

(١٢١ - أ) وأما نور الدين فإنه لما حصر البلد وضيق على من به ، ثار الأحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلخوا إليه البلد من الباب الشرقى ، فدخله بالأمان عاشر صفر . وحصر مجير الدين في القلعة ، وراسله وبذل له الإقطاع الكثير ، من جملته مدينة حمص ، فأجاب إلى تسليم القلعة ، فسلمها إليه وسار إلى حمص .

ولما استقر نور الدين في البلد ، عمل مع أهله مكرمة عظيمة ، وأظهر فيهم عدلاً عاماً سيرد ذكره سنة تسع وستين ، عند [ذكر] سيرة نور الدين رحمه الله تعالى . وألقى الإسلام (٦) بدمشق

(١) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص ٩٥) . (٢) بالأصل : الخادم . (والتصحيح من ، السكامل ، ح/٩/ص ٤٦) . (٣) الأحداث : رجال الشرطة المكلفون بإخاد الفتن والاضطرابات وعقاب مثري الشعب : أو هم رجال الحرس الإقليمى في العصور الوسطى . (الروضتين ح/١/ق/١/ص ٨٥ / حاشية ٤) . نقلاً عن : Dozy, Supp. Dict. Ar : Reinud, J. A. 1848, II, 281 . (٤) بالأصل : وزناطرتيه . (والتصحيح من ، المصدر السابق ، ص ٢٣٩) ، وزناطرتة : طبقة معينة من سكان المدن مولعة بتحريك الفتن والقلاقل . (المصدر السابق ، ص ٨٥ / حاشية ٥) . نقلاً عن : Dozy, Supp. Dict. Ar : (٥) في الروضتين (ح/١/ص ٩٦) : عشرة أيام . (٦) بالأصل : الا الاسلام .

جرانه ، وثبت أوتاده ، وأيقن الكفار بالبوار ، ووهنوا واستكانوا ، فصار جميع ما بالشام من البلاد الإسلامية بيد نور الدين .

وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص ، وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة ، فأنهى الأمر إلى نور الدين ، يخاف أن يحدث ما يشق تلافيه بل ربما تعذر ، لا سيما مع مجاورة الفرنج ، فأخذ حصن من مجير الدين وعوضه عنها مدينة بالس فلم يرضها ، وسار عن (١٢١ - ب) الشام إلى العراق ، فأقام ببغداد وابتنى داراً تجاوز (١) المدرسة النظامية وتوفي بها .

ذكر القبض على سليمان [شاه] وحمله إلى الموصل

في جمادى الأولى من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، قبض زين الدين [على كوجك (٢)] نائب أتابك قطب الدين مودود ، على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد وحمله إلى الموصل فسيجنه بها . وسبب ذلك أن سليمان شاه إستأذن الإمام المقتنى لأمر الله في قصد خدمته . وسأل أن يشرفه (٣) ويخطب له ويمده (٤) بالعساكر ليقصد بلاد الملك محمد ابن أخيه السلطان محمود ، فأجيب إلى ذلك وأذن له ، فسار إلى بغداد فوصل إليها في المحرم سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وأحضر بدار الخلافة ، وجمع النقباء والقضاة والشهود ، وحلف سليمان شاه للخليفة على قواعد استقرت بينهما ، وخطب له ببغداد في المحرم ، ولقبه شاهنشاه المعظم غياث الدنيا والدين ، وخلع عليه الخليفة وعلى الأمير قويدان [وجعل الأمير قويدان ، صاحب الحلة أمير حاجب معه (٥)] وسار نحو [بلاد (٥)] الجبل عازماً على قصد بلاد الملك محمد ، وخرج الخليفة (١٢٢ - أ) إلى حلوان ، وأرسل إلى ملكشاه بن السلطان محمود أخى سليمان شاه واستدعاه ، فحضر ومعه (٦) ألفا فارس فقرر الخليفة القواعد بينه وبين سليمان شاه ، وحلف كل واحد منهما للآخر ، وسيرهما في العساكر وقواهما بالأموال والعدد .

وبلغ الخبر إلى الملك محمد ، فجمع عساكره ولقى سليمان شاه وملكشاه بقرب همدان وتصافوا ، فانهزم سليمان شاه وملكشاه ، وظفر الملك محمد بعسكرهما وما معهما وعادوا منهزمين إلى بغداد .

وأما سليمان شاه فإنه سار على شهرزور قاصداً نحو بغداد ، وكان الملك محمد قد أرسل [إلى] أتابك قطب الدين وزين الدين واستألفهما فأجاباه إلى موافقته ، وسار زين الدين نجدة له في عسكر كثير ، فبلغه خبر الهزيمة وأن سليمان شاه قد سار على شهرزور ، وهى لزين الدين ونائبه بها

(١) بالأصل : محاول . (٢) الإضافة من ، الكامل (٤٨ / ص / ٩ / ح) . (٣) بالأصل : يشرف .

(٤) بالأصل : ويمد . (٥) الإضافة من ، الكامل (٤٩ / ص / ٩ / ح) . (٦) بالأصل :

الأمير بوزان، فوقف زين الدين على طريقه، فلما وصل إليه أخذه وقبض عليه، وحمله إلى الموصل فحبسه بها مكرماً معظماً، وكانت الخطبة له ببغداد.

في ذكر حصر نور (١٢٢ - ب) الدين قلعة حارم

في هذه السنة، سار الملك العادل نور الدين محمود إلى قلعة حارم، وهي للفرنجة ثم لبيمنند صاحب أنطاكية فحصرها — وهذا الحصن غربى حلب بالقرب من أنطاكية — وضيق على أهلها، وهي من أمنع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين، فاجتمعت الفرنجة من قرب منها وبعد، وساروا نحوه لمنعه. وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنجة يعرفون عقله وحسنه، وحسن رأيه، ويرجعون إلى قوله، فأرسل إليهم يعرفهم قوتهم، وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاوله وترك اللقاء. وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه. ففعلوا ما أمرهم به وأشار عليهم، وراسلوا نور الدين في الصلح على أن يعطوه حصنة من أعمال حارم، فأبى أن يجيبهم إلا على مناصفة الولاية، فأجابوه إلى ذلك، فصالحهم وعاد، وفي ذلك يقول بعض الشعراء (١)، من أبيات له يقول فيها (٢): شعر.

(١٢٣ - أ) ألبست دين محمد يا نوره	عزا له فوق السها إسداد
ما زلت تمسكته بمناد القنا (٣)	حتى تثقف عوده المناد
لم يبق مذ أرهقت (٤) عزمك دونه	عدد يراع به ولا استعداد
إن المنابر لو تطيق تكلمها	حمدتك عن خطبائها الأعواد
ولئن حمت منك الأعادى مهلة	فلهم إلى المرعى (٥) الوبي معاد
ملق بأطراف الفرنجة كل كلال (٦)	طرفاه ضرب صادق وجلاد
حاموا فلما عاينوا خوض الردى	حاموا برأش (٧) كيدهم أوكادوا
ورأى البرنس (٨) وقد تبرنس ذلة	حرما بجارم (٩) والمصاد مصاد
عجبا لقوم حاولوك وحاولوا	عودا فواتهم إليه مراد
من (١٠) متكرأن ينسف السيل الربى	وأبوه ذاك العارض المداد

(١) في الروضتين (ح/١/ص/١٠١)، أنه أحمد بن منير الطرابلسي. (٢) بالأصل: فيها يقول. (٣) بالأصل: القنى. (٤) بالأصل: ارهقت. (٥) بالأصل: المراعى. (٦) بالأصل: كل كلال. (٧) بالأصل: خاموا فرايس. (٨) والأصح: من، الروضتين، ح/١/ص/١٠١. (٩) بالأصل: المرعى. (١٠) بالأصل: الرئيس. (١١) والأصح: من، الروضتين، ح/١/ص/١٠١. (١٢) بالأصل: لحارم. (١٣) بالأصل: في.

أو أن يعيد (١) الشمس كاسفة السنة نار لها ذلك الشهاب زناد
لا ينفع الآباء ما سمكوا من الـ علياء حتى ترفع الأولاد
وهي طويلة .

في ذكر الزلزلة التي (٢) جرت في الشام ونواحيها

في سنة اثنين (٣) وخمسين وخمسة ، كان بالشام زلزلة شديدة (١٢٣ — ب) ذات رجفات عظيمة متتابعة ، أخرجت البلاد وأهلكت العباد . وكان أشدها بحماة وحصن شيزر (٤) ، فإنهما خربتا بكرة . وكذلك ماجاورهما حصن (٥) بارين ، والمعرة وغيرها من البلاد والقرايا . وهلك تحت الهدم من الخلق مالا يحصيه إلا الله تعالى ، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع . ولولا أن الله من على المسلمين بنور الدين ، جمع العساكر وحفظ البلاد ، وإلا كان دخلها الفرنج بغير قتال ولا حصار .

ولقد بلغني من كثرة الهلكى ، أن بعض المعلمين بحماة ، ذكر أنه فارق المكتب لمهم عرض له ، فجاءت الزلزلة فأخرجت الدور ، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم . قال المعلم : فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب ، وأشبه هذه الحكاية من الأخبار الدالة على أن كثرة الهلكى كثيرة جداً .

ذكر ملك نور الدين المرحوم حصن شيزر

نبتدىء بذكر حصن شيزر ولمن كان قبل هذا الوقت الذى ملكه نور (١٢٤ — أ) الدين فيه ، فنقول : هذا الحصن قريب من حماة ، بينهما نحو نصف نهار ، وهو من أمنع القلاع وأحصنها ، على حجر عال له طريق منقور في طرف الجبل ، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب ، فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود إليه ، وكان لآل منقذ الكنتانيين (٦) ، يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبي المرفع نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ ابن نصر بن هاشم بعد أبيه أبي الحسن على ، فبقى به مدة طويلة إلى أن مات بشيزر سنة إحدى وتسعين وأربعمائه . وكان شجاعاً كريماً صواماً قواماً ، فلما حضره الموت استخلف أخاه الأمير أبا سلامة مرشد بن علي ، فقال : [والله (٧)] لا وليتها ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها ، وكان عالماً بالقرآن والأدب ، كثير الصلاح ، فولاه أخاه الآخر أبا العساكر (٨) سلطان بن علي ، وكان أصغر منه ، فاصطحبها أجمل صحبة مدة من الزمان ، فأولد أبو سلامة مرشد عدة أولاد ذكور (٩) ، فكبروا

(١) بالأصل : يعيد . (٢) بالأصل : الذى . (٣) بالأصل : اثنين . (٤) بالأصل : وحصن شيزر .
(والتمحيص من ، الروضتين ، ١/ص ١٠٥) . (٥) بالأصل : ل حصن . (٦) بالأصل : الكنتانيين ،
(٧) الإضافة من ، الروضتين (١/ص ١١١) . (٨) بالأصل : بالعسكر . (والتمحيص من ،
الروضتين ، ١/ص ١١٢) . (٩) بالأصل : ذكوره .

وسادوا ، منهم : عز الدولة أبو الحسن (١٢٤ - ب) على ، ومؤيد الدولة أسامة بن مرشد وغيرهما ، ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر ، فجاءه أولاد ، فحسد أخاه على ذلك ، وكان كلما رأى صغرا (١) أولاده وكبرا أولاد أخيه وسيادتهم ، ساءه ذلك وخافهم على أولاده ، وسعى المفسدون بينهما فغبروا كلا منهما على أخيه ، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعرا يعاتبه على أشياء بلغته [عنه فأجابه (٢)] بأبيات جيدة في معناها ، رأيت إثبات بعضها ، وهى هذه الأبيات ، شعر :

ظلم أبت في الظلم إلا تماديا	وفي الصد والهجران إلا تناهيا
شكت هجرنا في ذلك والذنب ذنبها	فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين في وطالما	عصيت عدولا في هواها وواشيا
ومال بها تيه (٣) الجمال إلى القلى	وهيات أن أمسى لها الدهر قاليا (٤)
ولا ناسيا ما أودعت من عهدها	وإن هى أبدت جفوة وتناسيا
ولما أتانى من قريضك جوهر	جمعت المعالى فيه لى والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حيناً لأنه	تولى برغمى حين ولى شبائيا
(١٢٥-أ) وأين من الستين (٥) لفظ مفوف	إذا رمت أدنى القول منه عصانيا
وقلت أخى يرعى بنى وأسرتى	ويحفظ عهدى فيهم وذماميا
ويجزيم (٦) مالم أكلفه فعله	لنفسى فقد أعددت من تراثيا
فمالك لما أن حنى الدهر صعدتى (٧)	وثلم (٨) منى صارما كان ماضيا
تكررت حتى صار برك قسوة	وقربك منهم جفوة وتنائيا (٩)
فأصبحت صفر الكف مارجوته	أرى اليأس قد عنى سبيل (١٠) رجائيا
على أننى ما حلت عما عهدته	ولا غيرت هذى السنون وداديا
فلا غرو عند الحادثات فإننى	أراك يمينى والأنا م (١١) شماليا
تهن بها عذراء لوقرت بها	نجوم سماء (١٢) لم تعد دراريا
تحملت بدر من صفاتك زانها	كما زان منظوم الآتى الغوانيا
وعش بانيا للوجود ما كان واهيا	مشيدا من الإحسان ما كان هاويا

- (١) بالأصل : اصغر . (٢) الإضافة من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢ . (٣) بالأصل : بهايته . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (٤) بالأصل : فاليا . (٥) بالأصل : السين . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (٦) بالأصل : ويجزيم . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (٧) بالأصل : صعدتى . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (٨) بالأصل : تلم . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (٩) بالأصل : وثائيا . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (١٠) بالأصل : سبيل . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (١١) بالأصل : والآيام . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (١٢) بالأصل : السماء .

وكان الأمر فيه في حياة الأمير مرشد بعض السمر ، فلما مات سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخوه لأولاده ظهر المجن (١) ، وبأدهم (٢) بما يسوهم (١٢٥ - ب) ، وتمادت الأيام بينهم إلى أن قوى عليهم فأخرجهم من شيزر . وكان أعظم الأسباب في إخراجهم ، ما حدثت به عن مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ، قال : كنت من الشجاعة والإقدام على ما قد علمه الناس ، فبينما أنا بشيزر ، وإذا قد أتاني إنسان ، فأخبرني أن بدجلة ، بقاربها ، أسداً ضارياً . قال : فركبت فرسي وأخذت سيفي وسرت إليه لأقتله ، ولم أعلم أحداً من الناس لئلا أمتع من ذلك ، فلما قربت من الأسد ، نزلت عن فرسي وربطته ومشيت نحوه ، فلما رأيته قصدي ووثب علي ، فضربته بالسيف على رأسه فانفلق ، ثم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاة فرسي وعدت إلى شيزر ، ودخلت على والدي (٣) وألقيت الرأس بين يديها وحدتها الحال ، فقالت : يا بني تجهز للخروج من شيزر ، فوالله لا يمكنك عمك من المقام ولا أحداً من إخوانك ، وأتم على هذه الأحوال من الإقدام والجرامة . فلما كان الغد وإذا قد أمر عمي بإخراجنا من عنده ، والزمن به إلزاماً لا مهلة [فيه] فتفرقنا (١٢٦ - أ) البلاد ، فقصدوا الملك العادل نور الدين ، وشكوا إليه ما لقوا من عمهم ، فلم يمكنه قصده والأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى وطنهم لاشتغاله بجهاد الكفار ، وخوفه من أن يسلم شيزر إلى الفرنج ، وبق في نفسه منه أثر . وتوفي الأمير سلطان وولي بعده أولاده ، فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج ، فاشتد ما في نفسه وهو ينتظر الفرصة ، فلما خربت القلعة بالزلزلة لم يسلم منها أحد كان في الحصن ، فبادر إليها وملكها وأضافها إلى بلاده ، وعمرها وعمر أسوارها وأعادها كأن لم تحرب . وكذلك أيضاً فعل بمدينة حماة وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ما كانت .

ذكر وفاة عز الدين الديبسي وحصر الجزيرة

في ذي الحجة من سنة اثنين (٤) وخمسين وخمسمائة ، توفي الأمير عز الدين أبو بكر الديبسي صاحب جزيرة ابن عمر ، فسار قطب الدين أتابك مودود ابن (٥) الشهيد إليها ، ظناً منه [أنها] لا تمتنع عليه ، لأنها كانت بيد الديبسي إقطاعاً منه ، فلما وصل إليها رأى [أنه] قد (١٢٦ - ب) تغلب عليها مملوك للديبسي اسمه أغلبك ، وقد أطاعه الجند وامتنعوا بالمدينة ، وكان الديبسي لم يخلف ولداً ، فلماذا تغلب أغلبك بعده . وأقام أتابك قطب الدين محاصراً للمدينة عدة شهور لأنه لم ير أن يضع من قدرها بالإسراع في ملكها ، ثم تسلمها (٦) وترك بيد أغلبك القلاع المختصة

(٣) بالأصل : والدي .

(٢) بالأصل : وبأدهم .

(١) بالأصل : المجن .

(٦) في السكامل

(٥) بالأصل : وابن .

(٤) بالأصل : اثنين .

(١٢/٩/٥٥٣) أنه تسلمها في شهر صفر سنة ٥٥٣ .

بها وهي : كواشي (١) ، والزعفران ، وفرح ، وجميع قلاع الزوزان وغيرها . وعاد أتابك إلى الموصل بعد الإستيلاء على الجزيرة ، وكانا لديسي من أكابر الأمراء ، يأخذ نفسه مأخذ الملوك . حكى لي والدي . إنه لم يضع علامته على إطلاق (٢) مال أبداً قل أم كثر . وكان عاقلاً حازماً ، ذا رأى وكيد ومكر .

ذكر حصار الملك محمد وزين الدين دار السلام بغداد

في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، سار الملك محمد بن السلطان محمود إلى بغداد ليحصرها ، وأرسل إلى أتابك قطب الدين يستمده ، ويطلب منه أن ينجده بإرسال العساكر . فجهز إليه عسكراً كثيفاً ، وجعل مقدمه زين الدين نائبه (١٢٧ - أ) في جميع بلاده وسيرهم إليه . واجتمعوا بالملك محمد بنواحي حربي (٣) ، وساروا في الجانب الغربي إلى بغداد فوصلوها في ذى القعدة . وبلغ الخبر إلى المقتفي لأمر الله ، فأمر بإخرا ب قصر عيسى ، والمربعة ، والقرية ، والمستجدة ، والنجمي ونهب أصحابه ما وجدوا في الدور من الأموال والآثاث وغير ذلك ، وخرب عسكر الملك محمد نهر القلائين ، وألثوثة ، وباب الميدان ، وقطفتا (٤) ، ولم يتعرض أحد للسرخ وباب البصرة ، وخرج أهلها (٥) إلى العسكر فاتجروا وكسبوا معهم الأموال الكثيرة . وجد المقتفي لأمر الله في حفظ بغداد وجمع الغلات ، وقام وزيره عون الدين بن هبيرة في هذا الأمر المقام الذي يعجز عنه غيره .

ولما وصل العسكر إلى بغداد نصبوا جسراً على دجلة ، وعبراً كثر العسكر إلى الجانب الشرقي وأقام زين الدين وعسكر أتابك قطب الدين بالجانب الغربي ، نازلين تحت الصراة ، وكان القتال في المساء على باب البلد ، ولم يقتل بين الفريقين إلا نفر يسير ، وإنما الجراح كان كثيراً . وأمر المقتفي لأمر الله فنودي ببغداد : [كل] من جرح (١٢٧ - ب) فله خمسة (٦) دنانير ، فكان كل من جرح يوصل ذلك إليه . فحضر بعض العامة عند الوزير بجر وحا ، فقال له الوزير : هذا جرح صغير لا تستحق عليه شيئاً . فعاد إلى القتال فضر ب في جوفه فخرجت أمعاؤه ، فعاد إلى الوزير وقال له : يامولانا الوزير : يرضيك هذا . فضحك منه ، وأمر له بصلة وأحضر من عاجله .

(١) كواشي : في (ياقوت) : الكواشي ، بالنجح وشين معجمة . قلعة حصينة في الجبال التي في شرق الموصل ، ليس إليها طريق إلا لرجل واحد . وكانت قديماً تسمى « أردمش » . وكواشي ، لسم لها محدث . (٢) بالأصل : الإطلاق . (٣) لعلها « الحربية » الواردة في الاصطخرى (س/ ٥٨) . وهي إحدى القناعات التي بناها الخليفة المنصور العباسي (١٣٦ - ١٥٨ هـ) حول بغداد ، لحاشيته ومواليه وأتباعه . (٤) بالأصل : وقطيناً . (٥) والتصحيح من ، الكامل ، ح/ ٩/ ص/ ٥١ . (٦) بالأصل : وأهلها . (والتصحيح من ، الكامل ، ح/ ٩/ ص/ ٥١) . (٦) بالأصل : خمس .

ولم يزل الخليفة يرسل زين الدين ويستميله ، إلى أن تغيرت نيته في القتال ، وثبط الملك محمد عنه أيضاً (١) ، وكانت كتب الخليفة ورسله ، صادرة إلى جميع أصحاب الأطراف المجاورين للملك محمد ، يحثهم على قصد بلاده ، وأقطع كل صاحب طرف ما يليه منها ، فتحرك أصحاب الأطراف .

وكان قد طال المقام على بغداد ولم ينل [الملك محمد] منها غرضاً ولا غلا بها سعر ، لأن الوزير كان يعطى الأجناد الغلات عوض الأموال ، فيبيعونها لينفقوا ثمنها ، فكانت (٢) الأسعار لا تزال رخيصة بهذا السبب .

ثم إن الخبر وصل إلى الملك محمد ، بأن أخاه ملكشاه قد قصد همدان ودخلها في عسكر (١٢٨ - أ) كثير ونهبها ، وأخذ نساء الأمراء الذين معه وأولادهم فاختلف العسكر وتفرقوا ، وعاد الملك محمد نحو همدان ، وعسكر الموصل مع زين الدين نحو الموصل ، وعاد كل أمير إلى بلاده على عزم العود إلى بغداد ، وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر والمنقطعين ، وشعثوا دار السلطان .

ذكر وفاة المقتدى لأمر الله وخلافة ابنه المستنجد بالله

[في] ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، توفي أمير المؤمنين المقتدى لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله بعلة التراقي . وكان مولده ثاني عشر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة . وأمه أم ولد تدعى ياغى . وكانت خلافته أربعاً (٣) وعشرين سنة وشهرين (٤) .

ولما توفي جددت البيعة لولده أبي المظفر يوسف ولقب المستنجد بالله ، وكان قد عهد إليه قبل وفاته ، وبإيعه الأمراء ، والقضاة ، والفقهاء ، وأعيان الناس . وكتب إلى الآفاق بأخذ البيعة له فلم يمتنع أحد من ذلك . وأقر عون الدين بن هبيرة على وزارته .

(١٢٨ - ب) في ذكره مسير سليمان شاه إلى همدان

في أوائل سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وردت رسل الأمراء الأكبر من بلاد الجبل إلى أتاكبك قطب الدين ، يطلبون منه إنقاذ الملك سليمان شاه بن محمد إليهم ليولوه السلطنة ، وترددت

(١) في الكامل (٥١/ص/٩) : « وكان زين الدين وعسكر الموصل غير مجدين في القتال لأجل الخليفة والمسلمين ، وقيل لأن نور الدين محمود بن زنكي — وهو أخو قطب الدين صاحب الموصل الأكبر — أرسل إلى زين الدين يلومه على قتال الخليفة فقهر وأقصر » . (٢) بالأصل : فكان .

(٣) بالأصل : أربع . (٤) في الكامل (٦٨/ص/٩) ، وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً والصواب ، شهرين وخمسة عشر يوماً ، لأنه يوبع بالخلافة في ١٨ ذى الحجة سنة ٥٣٠ . (الكمال ، ٨/ص/٣٥٥) .

الرسول في ذلك حتى استقر الأمر بينهم أن يكون سليمان شاه سلطاناً ، وقطب الدين أتابكة والمرجع إليه في جميع مملكته ، وجمال الدين وزيره ، وزين الدين مقدم عسكره . وتحالفوا على هذا وجهاز سليمان شاه ، وحمل إليه أتابك قطب الدين من الأموال والثياب والخيل والآلات ما يصلح للسلطين ، وسار ومعه زين الدين في عسكر الموصل نحو همدان ، فلما قاربوا بلاد الجبل ، أقبلت العساكر إلى خدمة سليمان شاه أرسلالاً (١) ، كل يوم يلتقاء طائفة وأمير ، فاجتمع معه عسكر عظيم ، فخافهم زين الدين على نفسه وعلى الموصل أيضاً ، لأنه رأى من تسلطهم على السلطان واطراحهم للأدب ما أوجب الخوف ، فعاد عنه إلى الموصل . فحين فارقه (١٢٩ - أ) زين الدين لم ينتظم أمره ولم يتم له ما أراد . حكى لي والدي قال : استدعاني جمال الدين الوزير بعد مسير سليمان شاه وقال : قد استقر الأمر كيت وكيت ، فتعود إلى الجزيرة وتقطع علائقك وتقضى أشغالك ، فإنني أريد أن أجعلك نائبي بالعراق . قال : فسرني [ذلك] من وجهه وسأني من آخر ، إلا أنني لم أر من طاعته بدأ . قال : ثم استدعاني بعد ذلك ، وقال لي : عد إلى بلدك ، فإن سليمان شاه لم ينتظم حاله ففارقته (٢) وعدت .

وفيها أعني سنة خمس وخمسين ، حجج (٣) زين الدين نائب قطب الدين ، وحذره أصحابه من الحج لأجل مساعدته (٤) الملك محمد في حصر بغداد ، فلم يلتفت إلى قولهم وسار . فلما وصل بغداد أكرمه [الخليفة] المستنجد [بالله] ، واجتمع به وأمر بالخلع عليه ، فلما لبس الخلعة كانت طويلة — وكان هو قصيراً جداً — فمد يده إلى كمرانه وأخرج ما شد به وسطه وقصر الجبة ، فنظر المستنجد إليه فاستحسن ذلك منه ، وقال لمن عنده : مثل هذا يكون الأمير والجندي لأمثلكم . فلما دخل عليه (١٢٩ - ب) قبل يده ، ثم خرج من عنده بعد أن حادته بالتركية — وكان المستنجد بالله يتكلم بها جيداً — فلما خرج نظر إليه المستنجد من شباك ، [وكان زين الدين] قد أخرج شيئاً من السيف الذي أنعم به عليه من الديوان ، فلم يره جيداً وهو يومئذ برأسه — يعني أنه غير جيد — فأرسل إليه سيفاً آخر ، وقال الرسول : يقول لك أمير المؤمنين ، ذاك السيف يترك ، وهذا يقاتل به أعداء أمير المؤمنين وأعداء المسلمين . فرد وجهه وقبل الأرض وتقلده . وأحسن إلى الناس في الطريق ، وأكثر الصدقات .

(١) بالأصل : دارسالا .

(٢) بالأصل : ففارقته . (٣) بالأصل : حجج . (٤) بالأصل : مساعده .

في حصر نور الدين قلعة حارم

في سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، جمع نور الدين العساكر بحلب ، وسار إلى قلعة حارم وحصرها وجد في قتالها ، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم . فلما علم الفرنج خبرها ، جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد وحشدوا ، وأعدوا واستعدوا ، وساروا نحوه ليرحلوه عنها . فلما قاربوه طلب منهم (١٣٠ - أ) المصاف فلم يجيبوه إلى ذلك ، وراسلوه وتلفظوا الحال معه . فلما رأى أنه لا يمكنه أخذ الحصن ولا يجيبونه إلى المصاف عاد إلى بلاده .

ومن كان معه في هذه الغزوة ، الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ — وكان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها — فلما عاد إلى حلب ، دخل مسجد سيرين (١) — وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحج — فلما دخله الآن ، كتب على حائطه ، يقول ، شعر :

لك الحمد يا مولاي كم لك منة	علي وفضل لا يحيط به (٢) شكرى
نزلت بهذا المسجد العام قافلاً (٣)	من الغزو وفور النصيب (٤) من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي	مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فأديت مفروضي وأسقطت ثقل ما	تحملت من وزر الشبيبة (٥) عن ظهري

في ذكر إتهام نور الدين بحصن الأكراد وما جرى (٦) له

في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، جمع الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد زنكي عساكره جميعها ودخل بلاد الفرنج ، فنزل بالبقعة (١٣٠ - ب) تحت حصن الأكراد (٧) — وهو للفرنج — عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس (٨) ، فبينما الناس في بعض الأيام في خيامهم وسط النهار ، لم يرعهم إلا ظهور صليبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن . وكان سبب ذلك ، أنهم

(١) بالأصل : مرر . (والتصحیح من : الروضتين ، ح / ١ / ص / ١٢٧) .
 (٢) بالأصل : بها . (٣) بالأصل : قافلاً . (٤) بالأصل : النصب . (٥) بالأصل :
 السيئة (والتصحیح من : الروضتين ، ح / ١ / ص / ١٢٧) . (٦) بالأصل : جراً . (٧) حصن الأكراد
 في (ياقوت) : حصن منيع حصين على الجبل الذي يقابل حصن من جهة الغرب ، وهو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان .
 وهو بين بعلبك وحس . وكان بعض أمراء الشام قد بنى في موضعه برجاً وجعل فيه قوماً من الأكراد طليعة بينه وبين
 الفرنج . وأجرى لهم أرزاقاً فتدبروها بأهاليهم ، ثم خافوا على أنفسهم في غارة ، فجعلوا يحصنونه إلى أن صارت قلعة حصينة
 منعت الفرنج عن كثير من غاراتهم فنازلوه ، فباعه الأكراد منهم ورجعوا إلى بلادهم وملكه الفرنج ، وهو في أيديهم
 إلى هذه الغاية (أى إلى زمن ياقوت) . وبينه وبين حصن يوم ، ولا يستطيع صاحبها إتهامه من أيديهم .
 (٨) بالأصل : طرابلس .

اجتمعوا واتفق رأيهم على كبسة المسلمين في النهار لأنهم يكونوا آمنين ، فركبوا نحوهم ، فلم يشعر
بذلك (١) المسلمون إلا وقد قاربوهم ، فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك ، وأرسلوا إلى نور الدين يعلمونه الخبر ،
فرهقهم الفرنج [بالحيلة (٢)] وأخذوهم بين أيديهم ، فوصلوا معاً إلى العسكر النوري ، فلم يتمكن المسلمون من
ركوب الخيل وأخذوا السلاح إلا وقد خالطوهم ، فكان أقصى (٣) رأيهم الإنزاع ، ووضع الإفرنج
فيهم السيف وأكثروا (٤) القتل والأسر ، وكان أشد شيء على المسلمين الدوقس الرومي ، فإنه كان
قد خرج إلى الساحل في جمع كثير من الروم فقاتلوا محتسبين في زعمهم ، فلم يبقوا على أحد ، وقصدوا
خيام الملك العادل (١٣١ - أ) نور الدين فخرج من ظهر خيمته عجلاً بغير قباء (٥) فركب فرساً
هناك للنوبة ، وسرعه ركه وفي رجله شبة (٦) ، فنزل إنسان من الأكراد فقطعها ، فنجى نور الدين
وقتل الكردي ، وكان أكثر القتل في السوقة والغلمان . ولما نجا نور الدين سأل عن مخلفي ذلك
الكردي فأحسن إليهم جزاء لفعله .

وسار نور الدين إلى مدينة حمص وأقام بظاهرها ، وأحضر منها ما فيها من الخيام ونصبها على
بحيرة قدس ، على فرسخ من حمص ، وبينها وبين مكان الواقعة أربع فراسخ ، فكان الناس لا يظنون
أنه يقف دون حلب ، فكان رحمه الله أشجع من ذلك وأقوى عزماً .

ولما نزل على بحيرة قدس ، اجتمع إليه كل من نجا من المعركة ، فقال له بعض أصحابه : ليس من
الرأي أن تقيم ههنا ، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على الحجيء إلينا ونحن على هذه الحال ، فوبخه
وأسكته وقال : إذا كان معي ألف فارس لا أبالي بهم قتلوا أم كثروا (١٣١ - ب) والله
لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري .

ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق ، وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وسائر ما يحتاج
إليه الجند فأكثر ، وفرق ذلك جميعه على من سلم ، وأمان قتل أو أسر فإنه أقر إقطاعه على
أولاده ، فإن لم يكن [له] ولد فعلى بعض أهله ، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد .

وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة ، لأنها أقرب البلاد إليهم ، فلما بلغهم
مقام نور الدين عندها ، قالوا : إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا .

وكان نور الدين قد أكثر الخرج ، إلى أن قسم في يوم واحد مائتي ألف دينار حمر ، سوى غيرها

(١) البرك : لفظ فارسي معناه ، طليعة الجيش (Dozy : Supp Dict Ar) وفي «الحوادث الجامعة» (ص/٢٩/
حاشية/٢) ، أن البرك عند الترك ، كالسرية عند العرب . (٢) الإضافة من ، السكامل (ص/٨٣/٠)
(٣) بالأصل : اقصا . (٤) بالأصل : وأكثر . (٥) القباء ، نوع من الثياب ، مشتق من ذلك
لاجتماع أطرافه . والجمع أقبية . (لسان العرب) . (٦) شبة القوس : سائلة يربط بها قدم الحصان ، وفي أحد
طرفيها عروة تزر في القدم ، وفي الآخر وتد يدين في الأرض . (Dozy : Supp Dict Ar)

من الدواب والحيام والسلاح وغير ذلك . وتقدم إلى ديوانه أن يحضروا الجند ويسألوا (١) كل واحد منهم عن الذى أخذ [منه] ومهما (٢) ذكر شيئاً أعطوه عوضه (٣) ، فحضر بعض الجند وادعى شيئاً كثيراً علم النواب كذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحاله ، فأرسلوا (١٣٢ - أ) إلى نور الدين ينهون إليه القصة ، ويستأذنه فى تحليفه على ما ادعاه ، فأعاد الجواب : لا تكدرُوا عطاءنا بالأذى ، فإنى أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره . وقال له أصحابه : إن لك فى البلاد إدارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل ، فغضب من هذا وقال : والله [إني (٤)] لا أرجو النصر إلا بأولئك ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صلوات قوم يقاتلون عنى وأنا [نائم (٤)] فى فراشى بسهام لا تخطئ ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآنى بسهام قد تخطئ ، وتصيب ، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال أصرفه إليهم ، كيف أعطيه غيرهم ، فسكتوا .

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيئاً بماء فعادا بعد أبو الـ (٥)

هكذا هكذا وإلا فلا لا .

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين فى المهادنة فلم يجبههم إليها ، فتركوا عند الحصن من يحميه ، وعادوا إلى بلادهم وتفرقوا .

فى ذكر القبض على جمال الدين الوزير

ابن على الأصفهاني

(١٣٢ - ب) فى هذه السنة أيضاً ، قبض أتابك قطب الدين على وزيره جمال الدين محمد بن على الأصفهاني . وكان قد خدم الشهيد فولاه نصيدين فظهرت كفايته ، فأضاف إليه الرحبة فأبان عن كفاية وعفة ، وكان من خواصه وأكبر ندمائه ، فجعله مشرف مملكته كلها ، وحكمه تحكيمياً لا مزيد عليه . فحكى لى والدى ، قال : أرسلنى دزدان الجزيرة إلى الوزير ضياء الدين الكفرتوئى — وهو وزير الشهيد والحاكم فى بلاده قبل أن أتصل أنا بخدمة جمال الدين وأنوب عنه — يقول له : قد بلغت أن جمال الدين يقصدنى ويريد أن يعزلى ، وأنا متعلق بك وبنصير الدين ، ومن أصحابك ، فكيف ترى الحال . قال : فلما أبلغت الوزير هذه الرسالة ، قال لى : ما سمعت من جمال الدين شيئاً من هذا عند أتابك ، ومع هذا ، فالرجل يدخل قبلى ويخرج بعدى ، فما أعلم

(١) بالأصل : ويسأله . (٢) بالأصل : مهما . (٣) بالأصل : عوضه .

(٤) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/١٢٨) . (٥) ورد بالأصل ثراً ومحرراً هكذا : هذى المكارم لافتنان من لبن شيئاً بماء فعادا بعد أبو الـ () والتصحيح من البيهقي : الخاسن والمساوى ، ح/١/ص/٧٤) .

ما يكون منه . ولم يزل كذلك (١٣٣ - أ) إلى أن قتل الشهيد ، وكان منه ما قد تقدم ذكره في حفظ الدولة . ووزر لولده سيف الدين ، ثم لقطب الدين . وكان بينه وبين زين الدين عهد ومواثيق على المصافاة والإتفاق . وكان أصحاب زين الدين يكرهونه ويقعون فيه عند زين الدين فنهأهم . وكانت الموصل في أيامه ملجأ لكل ملهوف ، ومأمن لكل خائف ، فسعى به الحساد إلى أتاكك حتى أوغروا صدره عليه ، وقالوا : إنه يأخذ أموالك فيتصرف بها ، فلم يمكنه أن يغير عليه شيئا بسبب اتفاقه مع زين الدين ، فوضع على زين الدين من غيره عن مصافاته ومؤاخاته ، فقبض عليه وحبس بقلعة الموصل ، ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه ، لأن خواص أتابك وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين ، فلما قبض أنبسطوا في الأمر والنهي على خلاف غرض زين الدين ، فكان زين يذم أصحابه على تحسين الموافقة على قبض جمال الدين .

(١٣٣ - ب) ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر

في سنة تسع وخمسين وخمسمائة (١) سار أسد الدين شيركوه بن شاذى - وهو من أكابر الأمراء الذين في خدمة الملك العادل نور الدين محمود - إلى الديار المصرية عازما على ملكها واستضافتها إلى المملكة النورية .

ونحن نبثدى قبل ذكر مسيره وما كان منه ، بذكر حاله وتنقله واتصاله بالخدمة النورية ، فنقول : كان أسد الدين شيركوه [وأخوه (٢)] نجم الدين أيوب - وهو أكبر (٣) أبناء شاذى - من بلد دوين [وهى بلدة من آخر بلاد أذربيجان مما يلي الروم (٢)] وأصلهما من الأكراد الروادية ، وهذا القبيل هو أشرف الأكراد ، فقدموا العراق وخدموا مجاهد الدين بهروز شحنة العراق ، فبرأى من نجم الدين عقلا ورأيا وحسن سيرة ، فجعله دزدار تكريت ، وهى له ، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين ، فلما انهزم أتابك الشهيد رضى الله عنه بالعراق من قراجة الساقى على ما ذكرناه قبل ، وصل إلى تكريت ، فخدمه نجم الدين وأقام له السفن ، فعبر دجلة هناك وتبعه أصحابه ، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم (١٣٤ - أ) ثم إن أسد الدين قتل إنسانا بتكرت لملاحاة جرت بينهما ، فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين فأخرجهما من تكريت ، فقصدا أتابك الشهيد ، فأحسن إليهما وعرف لهما خدمتهما ، وأقطعهما إقطاعا حسنا ، وصارا من جملة جنده . فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دزدارا فيه . فلما قتل الشهيد حصره عسكر دمشق ، فأرسل إلى الملك سيف الدين غازى

(١) فى الكامل (٨٣/ص/٩/٢) أن مسيره كان فى شهر جمادى الأولى من السنة . (٢) الإضافة من ، الروضتين (١٢٩/ص/١/٢) . (٣) بالأصل : الأكبر .

— وقد قام بالملك بعد والده — ينهى الحال إليه ويطلب العسكر (١) ليرحل صاحب دمشق عنه، وكان سيف الدين في ذلك الوقت في بداية ملكه، وهو مشغول بإصلاح السلطان وأصحاب الأطراف الذين يجاورونه، فلم يتفرغ (٢) لبعليك، وضاق الأمر على من بها من الحصر، فلما رأى نجم الدين الحال، وخاف أن تؤخذ قهراً وعنوة ويناله أذى، أرسل في تسليم القلعة وطلب إقطاعاً ذكره فأجيب إلى ذلك، وحلف له صاحب دمشق عليه وتسليم القلعة، وفي (٣) له بما حلف عليه من الإقطاع والتقدم (١٣٤ — ب) وصار عنده من أكابر الأمراء (٤)، واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل الشهيد — وكان يخدمه في أيام والده — فقربه نور الدين وأقطعته، ورأى منه في حروبه ومشاهدته آثاراً (٥) يعجز عنها غيره لشجاعته وجرأته، فزاده إقطاعاً وقرباً، حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما، وجعله مقدم عسكره.

فلما تعلققت المهمة النورية بملك دمشق، أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين أيوب — وهو بها — في ذلك. وطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى ما يراد منه، وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيراً من الإقطاع والأموال ببلد دمشق وغيرها، فبذل لهما ما طلبا (٦) منه، وحلف لهما عليه، ووفي لهما لما ما سألها، وصارا عنده في أعلى المنازل، لاسيما نجم الدين، فإن سائر الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين، إلا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك، إلا (٧) نجم الدين، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك.

فلما كان هذه السنة وعزم نور (١٣٥ — أ) الدين على إرسال العساكر إلى مصر، لم ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع من أسد الدين فسيره. وكان سبب ذلك أن شاور السعدى — وزير العاضد لدين الله العلوى صاحب مصر — عزل من الوزارة (٨)، فسار إلى الملك العادل نور الدين، فوصل إليه وهو بدمشق، والتجأ إليه واستجار به، فأحسن لقاءه وأكرم مثواه، وأنعم عليه إنعاماً غمره به. وكان وصوله سنة ثمان وخمسين وخمسمائة (٩)، وطلب منه إرسال العساكر إلى مصر ليعود إليها ويكون له فيها حصّة ذكرها له، ويتصرف على أمره ونهيه واختياره (١٠)، ونور الدين يقدم في ذلك رجلاً ويؤخر أخرى، تارة تحمله رعاية قصد شاور

(١) بالأصل: للعسكر. (٢) بالأصل: يتفرغوا. (٣) بالأصل: ووفاً.
(٤) في السكامل (١٥/ص/٩/ح) سنة ٥٤١ (أن صاحب دمشق أعطى نجم الدين « إقطاعاً ومالاً وملكه عشر قرى من بلاد دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق فسكنها وأقام بها » . (٥) بالأصل: أناره.
(٦) بالأصل: طلب. (٧) بالأصل: إلى. (٨) في السكامل (٨٤/ص/٩/ح) أن ضرغاماً نازح شاور الوزارة وغلبه عليها، فهرب منه شاور إلى الشام ملتجئاً إلى نور الدين.
(٩) في السكامل (٨٤/ص/٩/ح) أن وصوله كان في ربيع الأول من السنة.
(١٠) في السكامل (٨٤/ص/٩/ح) « ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر ويكون شيركوه مقبلاً بعسكره في مصر ويتصرف هو بأمر نور الدين » .

[بأبه (١)] وطلب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الإفرنج فيه ، إلا أن يوغلوا في البر فيتعرضوا للخطر (٢) آخر مع الخوف من الفرنج أيضا (٣). ثم استخار الله تعالى وأمر أسد الدين بالتجهز للمسير معه (٤) ، وكان هوى أسد الدين في ذلك (١٣٥ - ب) وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالي بمخافة ، فتجهز وسار مع شاور في جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين ، وأمره نور الدين بإعادة شاور إلى منصبه ، والانتقام ممن نازعه في الوزارة ، فساروا جميعا ، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الإسلام مما يلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان ظن نور الدين صحيحا (٥) ، فسار (٦) الفرنج لحفظ بلادهم من نور الدين . ووصل أسد الدين إلى مصر سالما هو ومن معه ، فهرب المنازع لشاور في الوزارة ، وعاد شاور وزيرا وتمسك من منصبه . وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ، وغدربه شاور لما عاد إلى منصبه ، وعاد عن ما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضا ، وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام . فأنف أسد الدين من هذه الحال ، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر ، فلم يجبه شاور إليه . فلما رأى ذلك ، أرسل نوابه فقتلوا مدينة بليس ، وحكم على (١٣٦ - أ) البلاد الشرقية ، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمددهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر . وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين فهم خائفون ، فلما أرسل شاور إليهم يستجدهم ويطلب أن يساعده على إخراج أسد الدين من البلاد ، جاءهم فرج لم يحتسبوه ، وسارعوا إلى تلبية دعوته والمبادرة إلى نصرته ، وطمعوا في ملك ديار مصر ، وكان قد بذل لهم مالا على المسير إليه ، فتجهزوا وساروا . فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير ، سار بعساكره إلى طرف بلاده مما يلي الفرنج ليمتنعوا عن المسير ، فلم يمتنعوا ، لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر ، أشد من الخطر في مسيرهم (٧) ، فتركوا في بلادهم من يحفظها ، وسار ملك القدس في الباقيين (٨) إلى مصر . وكان قد وصل إلى الساحل جميع كثير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس ، فاستعان بهم ملك الفرنج فأعانوه ، وسار بعضهم معه ، وأقام بعض في البلاد لحفظها (٩) ، فلما قارب الفرنج مصر ، فارقها أسد (١٣٦ - ب) الدين وقصد مدينة بليس ، وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهرا له يتحصن به . فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية ، ونازلوا أسد الدين بمدينة بليس

(١) الإضافة من ، الكامل (٨٤/ص/٩) . (٢) بالأصل : بخطر . (٣) في الكامل (٨٤/ص/٩) سبب آخر عن تخوف نور الدين من إرسال أسد الدين إلى مصر ، وهو الخوف من « أن شاور إن استقرت قاعدته ربما لا يفي » . (٤) في الروضتين (١٣٠/ص/١) ، أن نور الدين أرسل أسد الدين إلى مصر « قضاء الحق الوافد المستصرخ ، وجسا للبلاد وتطلعا على أحوالها » . وينقل أبو شامة (١٣٢/ص) عن عماد الكاتب ، أن نور الدين أرسل أسد الدين مع شاور « على قرار عينه ، وأمر بينه ، وبغية يدركها ، وخطة يملكها ، وبحجة واضحة في الملك يملكها » . (٥) بالأصل : صحيح . (٦) بالأصل : فصار . (٧) بالأصل : لمسيرهم . (٨) بالأصل : الباقيين . (٩) بالأصل : يحفظها .

وحصروه بها ثلاثة أشهر ، وقد امتنع بها أسد الدين ، وسورها من طين قصير جدا وليس لها خندق ولا فضيل يحميها ، وهو يغاديرهم القتال ويرأوهم ، فلم يبلغوا منه غرضا ولا نالوا منه شيئا . فبينما هم كذلك ، أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس ، فحينئذ سقط في أيديهم ولات حين مناص ، فأراد الفرنج العود إلى بلادهم ليحفظوها ، ولعلمهم يدركون بانياس قبل أخذها ، فلم يدركوها إلا وقد ملكها على ما نذكره إن شاء الله تعالى ، وراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين ، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل . فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج (١٣٧- أ) من بلبس ، قال : رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم ، ويدهات حديد يحمي ساقهم ، والمسلمون (١) والفرنج ينظرون . قال : فأناه إفرنجي من الفرنج الغرباء ، فقال له : أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء - المسلمون والفرنج - وقد أحاطوا بك [وبأصحابك (٢)] فلا (٣) يبقى لكم معهم بقية . فقال شيركوه : ياليتهم فعلوا حتى كنت ترى (٤) ما لم ترمثه ، كنت والله أضع [فيهم (٢)] السيف ، فلا يقتل منا رجل حتى يقتل [منهم] رجالا ، وحينئذ (٥) يقصدهم الملك العادل نور الدين - وقد ضعفوا وفنى أبطالهم - فيملك بلادهم وينفى (٦) من بقي منهم ، والله لو أطاعني هؤلاء - يعني أصحابه - لخرجت إليكم [من (٧)] أول يوم ، لكنهم امتنعوا . فصلب الفرنجي على وجهه ، وقال : كنا نعجب من فرنج هذه الديار ، ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك ، والآن فقد عذرناهم (٨) . ثم رجع عنه (٩) وسار شيركوه إلى الشام وعاد سالما (١٠) .

في ذكر فتح (١٣٧ - ب) حصن حارم من الإفرنج

في هذه السنة في رمضان ، فتح الملك العادل نور الدين قلعة حارم وملكها من الفرنج . والسبب في هذا الفتح ، أن نور الدين لما عاد منهزما على ما ذكرناه (١١) قبل ، أقبل على الجد والاجتهاد ، والاستعداد للجهاد ، والأخذ بثأره ، وغزو العدو في عقر داره ، وليرفو ذلك الخرق ، ويرتق ذلك الفتق ، ويمحو سمة (١٢) الوهن ، ويعيد رونق الملك ، فراسل أخاه قطب الدين (١٣) بالموصل ،

- (١) أي المصريون . (٢) الإضافة من ، الروضتين (١٣٢/ص/١/ح) . (٣) بالأصل : ولا . (٤) بالأصل : ترا . (٥) بالأصل وحينئذ هم . (٦) بالأصل : وبملك . (والاصح من ، الروضتين ، ١٣٢/ص/١/ح) . (٧) الإضافة من ، الكامل (٨٥/ص/٩/ح) . (٨) بالأصل : غدرنا بهم . (والاصح من ، الروضتين ، ١٣٢/ص/١/ح) . (٩) بالأصل : عنهم . (والاصح من ، الروضتين ، ١٣٢/ص/١/ح) . (١٠) في الكامل (٨٥/ص/٩/ح) أن شيركوه خرج من بلبس في شهر ذي الحجة من السنة . (١١) أي هزيمته عند البقية تحت حصن الأكراد . (١٢) بالأصل : اسمه . (١٣) هو قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي ، صاحب الموصل (٥٤٤ - ٥٦٥) .

ونجر الدين قرا أرسلان (١) بالحصن ، ونجم الدين ألي (٢) بماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف [يستنجدهم (٣)] .

فأما قطب الدين أتابك ، فإنه جمع عساكره وسار مجدا وعلى مقدمة عسكره زين الدين نائبه . وأما نجر الدين قرا أرسلان فبلغني عنه أنه قال له ندمائوه وخواصه : على أى شيء عزمت ، فقال : على القعود ، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك . فسلّمهم وافقه (٤) على ذلك ، فلما كان الغد ، أمر (١٣٨ - أ) بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة . فقال له أولئك : ما عدا مما بدا ، فأرقتك بالأمس على حال نرى (٥) الآن ضدها . فقال : إن (٦) نور الدين قد سلك معي طريقا ، إن لم أنجده ، خرج أهل بلادى عن طاعتى ، وأخرجوا البلاد عن يدي ، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين (٧) عن الدنيا ، يذكر لهم مالتى (٨) المسلمون من الفرنج ، وما نالهم من القتل والأسر والنهب ، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب [منهم (٩)] أن يحثوا المسلمين على الغزاة (١٠) ، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه ، وهم يقرءون كتب نور الدين ويكونون ، ويلعنونى ويدعون (١١) على ، فلا بد من إجابة دعوته . ثم تجهز أيضا وسار إلى نور الدين بنفسه .

وأما نجم الدين فإنه سير عسكرا . فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم ، في كل بطل بسلاحه شاكى ، ولشدة المراس غير شاكى ، [كما] يقول [الشاعر] :

في كل أروع يرتاع المنون له إذا تجرد لانكس (١٢) ولا جهد
(١٣٨ - ب) يكاد حين يلاقى القرن من حنق قبل السنان إلى حوبائه (١٣) يرد

وكانوا حقا جيش الطواويس (١٤) ، وكل منهم في بيض (١٥) الحديد وألوان التشاهير يختال ويمس ، وأشرق عليهم الشمس فرقت لها الأحداق ، وتألأت الآفاق ، ونزل عليها وحصرها ، وأطار إليها من القسى والمجانيق سهامها وحجرها .

(١) هو نجر الدين قرا أرسلان بن داود بن سقان بن أرتق ، صاحب حصن كينا (٤٣٩ - ٥٦٢) .

(٢) هو نجم الدين ألي بن قمر تاش بن إيلغازى بن أرتق ، صاحب ماردين (٥٤٧ - ٥٧٥) .

(٣) : الإضافة من ، السكامل (٨٦/ص/٩) . (٤) بالأصل واقفه . (٥) بالأصل : بدى .

(٦) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) . (٧) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) . (٨) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) . (٩) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) .

(١٠) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) . (١١) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) . (١٢) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) . (١٣) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) .

(١٤) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) . (١٥) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) .

(١٦) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) . (١٧) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) . (١٨) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) .

(١٩) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) . (٢٠) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) . (٢١) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) .

(٢٢) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) . (٢٣) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) . (٢٤) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) .

(٢٥) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) . (٢٦) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) . (٢٧) : الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) .

وبلغ الخبر إلى الفرنج من بقي منهم بالساحل لم يسر (١) إلى مصر ، فجاءوا في حدهم وحديدهم ،
وعدهم وعديدهم ، وقضهم وقضيضهم ، وملوكهم وفرسانهم ، وأساقفتهم ورهبانهم ، قد حشدوا
حتى أرباب الصوامع : ولم يشعروا أنهم رزق الذناب والخوامع ، وأقبلوا (٢) إليه رجالا وعلى كل
ضامر (٣) ، في كل قرن مساور وبطل مهاصر ، قد ألف النزال ، واعتاد اقتناص الأبطال ، فهم
لكثرتهم من كل حذب (٤) ينسلون ، فارتاع لكثرتهم المسلمون . وكان مقدم الفرنج البرنس صاحب
أنطاكية ، والقمص صاحب طرابلس وأعمالها ، وابن جوسلين — وهو من مشاهير (١٣٩ — أ)
الفرنج وأبطالها ، والدوك — وهو رئيس الروم ومقدمها — وجمعوا معهم من الراجل مالا
يقع عليه الإحصاء ، قدماء الأرض وحجبوا بقسطلهم السماء ، فخرض نور الدين أصحابه ،
وأطمع فيهم أحزابه ، وفرق نفائس الأموال ، على شجعان الرجال ، فلما قاربه الفرنج رحل عن
حارم إلى أرتاح (٥) ، وهو إلى لقاءهم قد ارتاح ، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه ، ويتمكن منهم يبعدهم عن
بلادهم إذا لقوه ، فساروا حتى نزلوا على « عم (٦) » ، وهو على الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغم ،
ثم تيقنوا أنهم لا طاقة لهم بقتاله ، ولا قدرة لهم على نزاله ، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير ،
وحلت إليهم كل وهن وضير ، فلما عادوا عن « عم » تبعهم نور الدين في عساكر المسلمين ، وأبطال
الموحدين على تعبئة الحرب ، فلما تقاربوا إصطفوا للقتال ، وتهايا والنزال ، وتدانى الخطى ، وكشف
الغطا ، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين ، فبددوا نظامهم ،
وزلزلوا (١٣٩ — ب) أقدامهم ، وولولهم الأدبار ، وركنوا إلى الفرار [فتبعهم الفرنج (٧)] .
وكانت تلك الفترة من الميمنة عن اتفاق ورأى دبروه ، ومكر بالعدو مكروه ، وهو أن يبعدهم عن
راجلهم ، فيميل عليهم من يبق من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ، ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا
عاد فرسانهم من أثر المنهزمين ، لم يلقوا راجلا يلجأون إليه ، ولا وزراء يعتمدون عليه ، ويعود المنهزمون
في آثارهم ، يكسعون أديبارهم ، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم ، فيعجل لهم بوارهم
وحثفهم . وكان الأمر على مادبر ، والحال على ما قدر ، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين ، عطف زين الدين
في عسكر الموصل على راجلهم فأفناهم قتلا وأسرا ، وعادت (٨) خيالتهم ولم يعمدوا (٩) في الطلب خوفا على
راجلهم من العطب ، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفرين (١٠) ، وبدماهم مضر جين (١١) ، فسقط في (١٢)

(١) بالأصل : يسر . (٢) بالأصل : واقتبلوا . (٣) بالأصل : ضام . (٤) بالأصل : حرب .

(٥) أرتاح : في (ياقوت) : بالفتح ثم السكون وتاء فوقها نقطتان وألف وحاء مهملة . لاسم حصن منيع كان من
العواصم ، من أعمال حلب . (٦) عم : في (ياقوت) : بكسر أوله وتشديد ثانيه . ولا أراها إلا أعممية لأصل
لها في العربية . وهي قرية غناء ذات عيون جارية وأشجار متدانية ، بين حلب وأنطاكية ، وكل من بها اليوم (في زمن
ياقوت) نصارى . (٧) الإضافة من ، الكامل (٨٦/ص/٩) .

(٨) بالأصل : وعاد . (٩) بالأصل : يعمدوا . (١٠) بالأصل : مرفين .

(١١) بالأصل : مصرخين . (١٢) بالأصل : ما في . (وقد أسقط المحقق ، اللفظ : ما ، لأنه زائد) .

أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، وخضعت رقابهم وذلوا ، فلما رجعوا عطف حينئذ المنهزمون أعنتهم ، وعاودوا كرتهم بعد فرتهم ، فبقي العدو (١٤٠ - أ) في الوسط وقد أهدق بهم المسلمون من كل جانب ، وحمل الوطيس ، وبأشر الحرب المرءوش والرئيس ، وقاتل الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة ، وحاربوا حرب من أيس من الحياة ، واشتد الزحام ، وعظم الزمام ، وبطل العامل (١) وعمل الحسام ، وانقضت العساكر الإسلامية عليهم انقضا الصقور على إناث الطيور ، فزقوهم بددا ، وجعلوهم طرائق قددا ، وألقى الفرنج بأيديهم إلى الأسار ، وعجزوا عن الهزيمة والفرار ، فأكثر المسلمون فيهم القتل ، وأوردوهم (٢) مناهل الفناء والهلاك ، فزادت عدة (٣) القتلى على عشرة ألف وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة ، ويكفيك دليلا على كثرتهم ، أن ملوكهم أسروا ، مثل : البرنس يميند صاحب أنطاكية ، والقمص صاحب طرابلس ، والدوك مقدم الروم ، وابن جوسلين ، وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم فلكها في الحادي والعشرين من رمضان .

وأشار أصحابه عليه (٤) بالمسير إلى أنطاكية ليملكها لخلوها (٥) من يحميها ويدفع عنها ، (١٤٠ - ب) فلم يفعل ، وقال : أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار ، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه ، وبجأورة يميند أحب إلى من جوار ملك الروم . وبث (٦) سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا ، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا لاذقية ، وسويدا (٧) وغير ذلك وعاودوا سالمين .

ثم إن نور الدين أطلق يميند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه ، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم .

في ذكر خبر الواقعة (٨) التي (٩) جرت في حرب قلعة حارم (١٠)

قال صاحب التاريخ . وحكى أن السلطان نور الدين الشهيد — رحمه الله — لما كسرت ميسرة عسكره (١١) ، نزل عن فرسه وكشف رأسه وسجد لله عز وجل فسمع يقول : يا إلهي وسيدى ومولاى ،

(١) العامل : عامل الرمح ، ما يل السنان وهو دون النعلب . (٢) بالأصل : وأوردوهم . (٣) بالأصل : فزادة عدده . (٤) بالأصل : إليه . (٥) بالأصل : لخلوها . (٦) بالأصل : ووثب . (٧) لمسل ابن الأثير يقصد « السويداء » وهى حصن وميناء لأنطاكية (السلوك ، ج ١ / ص ٥٦٧ / ١٠ / ١) التي تقع شمال اللاذقية . أما سويدا — أو — السويداء ، اسم لمكانتين ، أحدهما بلدة قرب حران والآخر ، قرية بخوران من نواحي دمشق . وهما كما نرى ، بعيدان عن مكان المعركة (٨) بالأصل : وقعت (٩) بالأصل : الذى . (١٠) بالأصل : قلعة الروم . وهذا هو من ابن الأثير أو خطأ من الناسخ ، ويثبت هذا الوهم أو الخطأ سياق الخبر نفسه . وقلعة الروم (كما في باقوت) تقع غربى الفرات في شماله بين البيرة وسيساط . (١١) يدل هذا الخبر على أن ابن الأثير لم يبطنا تفاصيل حرب حارم كاملة ، لا في نصنا هذا ولا في الكامل ، إذ لم يرد في حرب حارم خبر هزيمة ميسرة جيش نور الدين ، وإنما ورد خبر هزيمة ميمنة الجيش التي كان متفقا عليها ، كما في النص .

من محمود عبدك ابن زنى بن آقسنقر حتى لا تخذله ، إن تنصره تنصر دينك الذى أظهرته (١) لنبيك الذى أرسلته ، استجب دعائى ، وأحسن منقلبى ومثوائى (١٤١ - أ) ولا تشمت [بى] أعدائى ، ولم يزل متضرعا بأكيا (٢) ، ويقلب وجهه على التراب ودموعه تجرى على خديه ، إلى أن بلغه الله مراده من خذلانهم ونصره عليهم .

ومن عجائب (٣) الاتفاق ، ما حكاه كمال الدين بن العديم فى كتاب « أخبار حلب » ، أن الزكى أحمد ابن مسعود الموصلى المقرئ أخبرنى ، قال : كنت ألم بعلم الدين سليمان بن الجندار ، قال : فاتفق أن خرجت معه إلى حرب حارم فى سنة تسع (٤) وخمسين وخمسمائة ، وجلست معه تحت شجرة هناك ، ومجد الدين أبو بكر بن الداية — داية الشهيد رحمه الله — وصلاح الدين يوسف بن أيوب تحت هذه الشجرة نتحدث ، ونور الدين الشهيد يحاصر حارم وهى فى أيدى الفرنج ، فقال مجد الدين : أتمنى أن يفتح نور الدين حارم (٥) ويعطينى إياها نيابة . فقال صلاح الدين يوسف : أتمنى على الله تبارك وتعالى أن يفتح نور الدين الشهيد مصر ويعطينى إياها . ثم قال : تمن أنت أيضا بما تريد ، قلت : يا مولاي ، إذا كنت أنت صاحب مصر ومجد الدين (١٤١ - ب) صاحب حارم ، ما أصنع (٦) بينكما . فقالا : لا بد أن تمنى شيئا ، فقلت : إذا كان ولا بد من ذلك ، فأتمنى « عم » ، [وبينما نحن (٧) فى الكلام — والله تعالى قاض (٨) بما أراد فى حكمه — فقدر الله عز وجل ، أن نور الدين كسر الإفرنج وفتح حارم ، وأعطاهما مجد الدين بن الداية ، وأعطانى قلعة « عم » ، وقدر الله ، أن أرسل نور الدين الشهيد رحمه الله تعالى ، أسدين شيركوه إلى مصر وفتح مصر على يده ، ثم آل الأمر إلى أن ملكها صلاح الدين يوسف بن أيوب ، على ما نذكر إن شاء الله تعالى الرحمن فى وقته ، وتملك مصر ، والشام ، والشرق (٩) والكرك ، واليمن ، وبلاد الشرق وغرض الملوك والسلاطين ، وحاصر القلاع ، وفتح البلاد ، وجند الأجناد ، وهذه الجراكسة التى (١٠) هى اليوم ملوك مصر والشام ومحامى (١١) الحرمين الشريفين ، بمالك نسل وذرية الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل أبى المعالى (١٢) ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر (١٣) بن أيوب ، أبو الملوك الأيوبية .

(١) بالأصل : ظهرته

(٢) بالأصل : بالياً . (٣) بالأصل : العجايب . (٤) بالأصل : سبعة ، وهذا تحريف من الناسخ والنسب يؤكد تصحيحنا . (٥) بالأصل : حارم . (٦) بالأصل : لا أصنع . (٧) بالأصل : ونحنوا . (٨) بالأصل : قاضى . (٩) لعل صيغة المافض : الشوبك . لأن فى النسب أنه ملك « بلاد الشرق » ، أى الجزيرة . (١٠) بالأصل : الذى . (١١) بالأصل : محامين . (١٢) بالأصل : أبو المعالى . (١٣) بالأصل : أبا بكر .

وفاة جمال الدين الوزير (١٤٢ - أ)

في شعبان من سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، توفي الوزير جمال الدين (١) محبوباً . وكان له نحو سنة مريض فمضى لسبيله .

[وكان] عظيم القدر والخطر ، كريم الورد والصدر ، عديم النظير (٢) في سعة نفسه . لم يرو في كتب الأولين ، أن أحداً من الوزراء اتسعت نفسه ومروءته ، كما اتسعت له نفس جمال الدين ، فلقد كان عظيم الفتوة ، كامل المروءة ، وسيرد من أخباره ما تعلم [منها] صحة قولي .

حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم — وهو رجل من الصالحين ، كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه — قال : لم يزل جمال الدين مشغولاً بأمور آخرته مدة حبسه ، وكان يقول : كنت أخشى أن أنقل من الدست (٣) إلى القبر . قال : فلما مرض ، قال لي بعض الأيام : يا أبا القاسم ، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرقي . قال : فقلت في نفسي ، قد اختلط عقله ، فلما كان الغد ، أكثر السؤال عن ذلك الطائر ، وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط . فقلت له : جاء الطائر ، فاستبشر ثم قال : جاء الحق (١٤٢ - ب) وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى ، وتوفي . فلما توفي طار ذلك الطائر ، قال : فعلمت أنه رأى شيئاً في معناه . ودفن بالموصل نحو سنة . وكان قد قال للشيخ أبي القاسم : إن بيني وبين أسد الدين شيركوه عهداً ، من مات منا قبل صاحبه حمله الحى إلى المدينة [النبوية] على ساكنها السلام ، فدفنه بها في التربة التي عملها ، فإذا أنامت فامض إليه وذكره (٤) . فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في المعنى ، فأعطاه مالا صالحاً ليحمله به إلى مكة والمدينة ، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية ، ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل وقدم مدينة تكون في الطريق ، وينادون في البلاد للصلاة عليه ، ففعلوا ذلك . فكان يصلى عليه في كل مدينة خلق كثير . فلما كان « بالحلة » ، اجتمع الناس للصلاة عليه ، وإذا شاب قد ارتفع على موضع عال ، ونادى بأعلى صوته ملعلعاً يقول :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالمنا
سرى جوده فوق الركاب وثالبه (٥)
يمر على الوادى فتثنى رماله
عليه وبالنادى (٦) فتبكي (٧) أرامله

(١٤٣ - أ) فلم ير باكياً أكثر من ذلك اليوم . ثم وصلوا به إلى مكة ، وطاقوا به حول

(١) هو محمد بن علي بن منصور الأصفهاني . (٢) بالأصل : النظر . (٣) الدست : الوزارة .

(٤) بالأصل : واذكره . (٥) عن الروضتين (ح / ١ / ص / ١٣٧) وبالأصل : فضائله .

(٦) بالأصل : وينادى (والتصحيح من : الروضتين ، ح / ١ / ص / ١٣٧) . (٧) عن الروضتين (ح / ١ / ص / ١٣٧)

وبالأصل : فيثني . (وقد فضل المحقق ما في الروضتين ، فقد نقل أبو شامة الخبر والشعر من ابن الأثير .

الكعبة ، وصلوا عليه بالحرم (١) وحملوه إلى المدينة وصلوا عليه أيضاً . ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها ، بينه وبين قبر النبي ، نحو خمسة عشر ذراعاً .

في ذكره شيء من أخباره رحمه الله

كان رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلاً للمال ، رحيماً بالناس متعظفاً عنهم ، عادلاً فيهم . فمن أعماله الحسنة ، أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى ، وغرم عليه أموالاً جزيلة عظيمة وبني الحجر بجانب الكعبة ، ورأيت اسمه عليه ، ثم غير وبني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وزخرف الكعبة بالذهب والنقرة (٢) ، فكل ما فيها من ذلك ، فهو عمله إلى سنة تسع وستمائة . ولما أراد ذلك ، أرسل إلى الإمام المقتنى لأمر الله هدية جليلة حتى أذن له فيه ، وأرسل إلى أمير مكة ، عيسى بن أبي هاشم ، خلعا سنينة وهدية كثيرة حتى مكنته [منه] .

وعمر أيضاً المسجد الذي (١٤٣ — ب) على جبل (٣) عرفات ، وعمل الدرج التي يصعد فيها إليه ، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم .

وعمل بعرفات [أيضاً] مصانع للماء ، وأجرى الماء إليها من نهران (٤) في طرق معمولة تحت الجبل مبنية بالسكس ، فغرم على ذلك مالا كثيراً . وكان يعطى أهل نهران كل سنة مالا [كثيراً (٥)] ليتركوا (٦) الماء يجرى إلى المصانع أيام مقام الحاج بعرفات ، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة .

ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعا ، أنه بنى سوراً على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها كانت بغير سور تنهبها الأعراب ، وكان أهلها في ضنك وضر معهم ، رأيت بالمدينة إنساناً يصلى الجمعة ، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألتناه عن سبب ذلك ، فقال : يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له ، لأننا كنا في ضر وضيق ، ونكد عيش مع العرب ، لا يتركون لأحدنا ما يوارى عورته ، ولا ما يشبع جوعته ، فبنى علينا سوراً إحتمينا به بمن يريدنا بسوء ، فاستغنيا (٧) فكيف لاندعو (٨) له (١٤٤ — أ) وكان الخطيب بالمدينة يقول في خطبته : اللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور ، محمد بن علي بن أبي منصور . فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه نفراً ، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها .

(١) بالأصل : الجرم . (٢) النقرة : الغضة . (المعجم في اللغة الفارسية) . (٣) بالأصل : الجبل . (٤) نهران : في (ياقوت) : بالفتح ثم السكون وآخره نون . واد بين مكة والطائف . (٥) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/١٣٧) . (٦) بالأصل : ليتركوه . (٧) بالأصل : فاستغنيا . (والتصحيح من الروضتين ، ح/١/ص/١٣٧) . (٨) بالأصل : تدعوا .

وسمعت عن متولى ديوان صدقاته التى يخرجها على [باب (١)] داره للفقراء سوى الإدرات والتعهدات ، قال : كان له كل يوم مائة دينار يتصدق بها على باب داره .

ومن أبنيته (٢) العجيبة التى لم ير الناس مثلاً ، الجسر الذى بناه على الدجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والسكس ، إلا أنه لم يفرغ لأنه قبض قبل فراغه . وبني أيضاً جسراً على نهر الأريار عند الجزيرة أيضاً .

وبنى الربط بالموصل ، وسنجار ، ونصيبين ، وغيرها . وقصده الناس من أقطار الأرض ويكفيه أن الذى احتاج إليه [مثل] ابن الخجندى (٣) رئيس أصحاب الشافعى بأصفهان ، وابن الكافى قاضى [قضاة (٤)] همدان وقصده (٥) ، فأخرج عليهما (٦) مالا جزيلاً ، وكذلك غيرهما (٧) من الصدور ، والعلماء ، ومشايخ الصوفية .

وصارت الموصل فى أيامه (١٤٤ - ب) مقصداً وملجأ . وكان أحب الأشياء إليه إخراج المال فى الصدقات ، فكان يضيق على نفسه ويبتة ليتصدق . حكى لى والدى قال : كنت يوماً عنده وقد أحضر بين يديه قنذراً ليعمل على وبر له ليلبس به خمسة دنائير ، فقال : هذا كثير ، اشتروا لى قنذرا بدينارين وتصدقوا بثلاثة دنائير . قال : فراجعناه غير مرة فلم يقبل . وحكى لى من أثق إليه من العدول بالموصل : إن الأقوات تعذرت فى بعض السنين بها وغلت الأسعار ، وكان بالموصل رجل (٨) من الصالحين ، يقال له الشيخ عمر الملاء ، فأحضره جمال الدين وسلم إليه مالا ، وقال له : تخرج هذا المال على مستحقه ، وكلما فرغ أرسل إلى لأنفذ (٩) غيره فلم تمض إلا أيام يسيرة ، حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين ، فأرسل إليه يعرفه بنفاد ذلك المال ، فأنفذ له شيئاً آخر ففنى ، ثم أرسل يطلب ما يخرج به ، فقال جمال الدين للرسول : والله ما عندى شيء ، ولست خذ هذه المحافر [التي فى دارى (١٠)] وتصدقوا بثمانها [إلى أن يأتينى شيء آخر فإرسله إلى الشيخ عمر ، فبيعت وتصدقوا بثمانها (١١)] وعرفوه ذلك ، فلم يكن (١٤٥ - أ) عنده ما يرسله ، فأعطاه ثيابه التى كان يلبسها مع العمامة التى على رأسه وأرسل الجميع ، وقال للرسول : قل للشيخ ، لا يمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة ، فلما وصات الثياب إلى الشيخ عمر ، بكى وباعها وتصدق بثمانها . وحكى لى بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائى شيخ الشيوخ بالموصل ، قال : أحضرنى الشيخ وقال لى : إنطلق إلى مسجد الوزير (١٢) - وهو بظاهر

(١) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص ١٣٨) . (٢) بالأصل : ابنه .

(٣) هو صدر الدين أبو بكر بن عبد اللطيف الخجندى توفى سنة ٥٥٢ هـ (شذرات الذهب ، ح/٥/ص ١٦٣) .

(٤) الإضافة من الروضتين (ح/١/ص ١٣٨) . (٥) بالأصل : قصده . (٦) بالأصل : عليهم ،

(٧) بالأصل : غيره . (٨) بالأصل : رجلى . (٩) بالأصل : لا ينفذ . (١٠) الإضافة من ،

الروضتين (ح/١/ص ١٣٨) . (١١) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص ١٣٨) .

(١٢) بالأصل : وزير (والتصحيح من الروضتين ، ح/١/ص ١٣٨) .

الموصل — واقعد هناك ، وإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك ، ففعلت ، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالاً من النصاب والخناب ، وإذا قد جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ، ومعها قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدد كثير (١) من الجبال ، فقال لى : تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة ، فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان ، فإذا أحضر لك فلانا العربى توصل [إليه] هذه الرزمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه ، فإذا أوصلك إلى فلان العربى توصل إليه هذه الرزمة وهذا (١٤٥ — ب) الكتاب (٢) ، وهكذا إلى المدينة على ساكنها السلام ، توصل إلى وكيل فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذى (٣) عليها اسم المدينة ليخرجها بمقتضى ما فى هذه الجريدة ، ثم تأخذ الباقي الذى عليه اسم مكة وتسير إليها فيتصدق به وكيل بها على ما فى هذه الجريدة الأخرى .

قال : فسرنا كذلك إلى وادى القرى ، فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق ، فلما رأونا ساروا معنا إليها ، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصرى — والصاع خمسة عشر رطلاً بالبغدادى — فلما رأوا الطعام والمال ، اشتروا كل سبعة أصوع بدينار ، فضج أهل المدينة بالدعاء له . ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا (١٤٦ — أ) وحكى لى والذى ، قال : رأيت جمال الدين بالركة ، وقد حضر عنده رجل فقيه قبل أن يصير وزيراً وطلب شيئاً ، وتردد إليه عدة أيام ثم انقطع ، فسأل عنه ، فقيل إنه سافر ، فشق ذلك عليه ، ثم قال : هكذا تتصرف الأحرار عن أبواب السكاب ، وكرر ذلك غير مرة ، ثم سأل عنه فقيل : إنه سار نحو ماردين ، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين ، ولورمت شرح مفردات أعماله لأطلت وأضجرت وهى ظاهرة لا تحتاج إلى بيان ، فلهذا تركنا أكثرها .

ذكر فتح قلعة بانياس (٤)

فى سنة ستين وخمسة (٥) فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج ، وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم ، فأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد طبرية ، فجعل من بقى من الفرنج همهم حفظها وتقويتها ، فسار نور الدين مجداً إلى بانياس لعلهم بقلعة من فيها من الحماة الممانعين (٦) عنها ، ونازلها وضيق عليها وقتلها . وكان فى جملة عسكره أخوه نصر الدين أمير أميران (١٤٦ — ب) فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه . فلما رآه نور الدين قال له : لو

(١) بالأصل : كثيرة .

(٢) وردت بعض المراحل من « الرحبة » إلى « المدينة » مكررة بالأصل ، وقد اعتمد المحقق فى ضبطها على أبى شامة (الروضتين ، ح/١/ص/١٣٨) ، حيث نقل الخبر من « النص » . (٣) بالأصل : التى .

(٤) بالأصل : بانياس . (٥) فى ، السكامل (ح/٩/ص/٨٧) أن فتح بانياس كان فى ذى الحجة سنة ٥٥٩ .

(٦) بالأصل : للمانيين .

كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى ، وجد في حصارها ، وسمع الفرنج بذلك فجمعوا ، فلم تكامل عدتهم حتى فتحها ، على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسره ، فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا .

وعاد نور الدين إلى دمشق ، وفي يده خاتم بقص ياقوت من أحسن الجواهر ، فسقط من يده في شعراء (١) بانياس - وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان - فلما أبعد من المكان الذي ضاع فيه الفص علم به ، فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلهم على مكانه ، وقال : أظن أنه هناك ضاع ، فعادوا إليه فوجدوه ، فقال بعض الشعراء الشاميين ، أظنه ابن منير من أبيات يمدحه ويهنته بهذه (٢) الغزاة وعود الجبل الياقوت . شعر (٣) :

إن تـمـتـر الشكاك فيك بأذك المد	يهدى مطفي جمرة الدجال
فلعودة الجبل الذي أضللته	بالأمس بين غياطل وجبال
(١٤٧- أ) مسترجعا لك بالسعادة آية (٤)	ردت مطال الفال غير مطال
لم يعطها إلا سليمان وقد	نلت الرباء بموشك الاعجال
زجر جرى لسرير ملكك إنه	كسريه عن كل حسد عال
فلو البحار السبعة استهوينه	وأمرتهن قذفنه في الحال

ولما فتح الحصن ، كان ولد معين الدين أنز - الذي سلم بانياس إلى الفرنج - قائما على رأسه ، فالتفت إليه وقال له : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان . فقال : كيف ذلك . قال : لأن اليوم برد الله جلدة والدك من نار جهنم .

ذكر فتح المنيطرة على يد الشهيد رحمه الله

في سنة إحدى وستين وخمسائة ، سار نور الدين إلى حصن المنيطرة (٥) - وهو أيضاً للفرنج - ولم يحشد له ولا جمع عساكره ، إنما سار [إليه] على غرة (٦) من الفرنج ، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا ، فاتهز الفرصة وسار إلى المنيطرة (١٤٧ - ب) وحصرها ، وجد في قتالها وأخذها عنوة وقهرا ، وقتل من بها وسبي وغنم غنيمة كثيرة لأمن من بها (٧) فأخذتهم خيل الله بغته وهم لا يشعرون . ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلا وقد ملكه . ولو علموا أنه جريدة (٨) لأسرعوا إليه ، إنما لم يظنوا إلا أنه في جمع كثير . فلما ملكه تفرقوا وأيسوا منه .

(١) بالأصل : شعره . (والتصحیح من : الكامل ٣ / ٩ / ٨٧) .
 (٢) بالأصل : يقول شعر (وقد اسقط الحق ، اللفظ : يقول ، لأنه زائد) .
 (٣) المنيطرة : في (ياقوت) : حصن بالشام قريب من طرابلس .
 (٤) بالأصل : أنه .
 (٥) بالأصل : غيره .
 (٦) بالأصل : غيره .
 (٧) بالأصل : به .
 (٨) الجريدة : الفرقة من العسكر الحياطة لا رجالة فيها (محيط المحيط) .

ذكره عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر مرة أخرى

في ربيع الآخر من سنة اثنتين وستين وخمسة ، عاد أسد الدين وسار (١) إلى مصر . وكان بعد عوده من مصر ، لا يزال يحدث نفسه بقصدها ومعاودتها ، حرصا على الدخول إليها ، يتحدث به مع كل من يثق (٢) إليه . وكان مما يهيج على العود ، زيادة حقه على شاور وما عمل معه . فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها ، وسير معه الملك العادل نور الدين محمود جماعة من الأمراء ، فجد في السير على البر ، وترك بلاد الفرنج عن يمينه ، فوصل إلى الديار المصرية ، فقصده [إطفيح] (١٤٨ — أ) وعبر النيل (٣) عندها إلى الجانب الغربي ، ونزل بالجيزة مقابل مصر ، وتصرف في البلاد الغربية (٤) ، وأقام بها نيفا وخمسين يوما .

وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين ، قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم ، فأتوه على الصعب والذلول ، فثارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجد والتشمير ، وتارة يحدوهم خوفهم أن يملكها العسكر النورى ، فجدوا على الإسراع في المسير ، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم ، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي ، وكان أسد الدين والعسكر النورى قد ساروا (٥) إلى الصعيد ، فبلغوا (٦) مكانا يعرف بالباين ، وسارت العساكر المصرية والفرنجة وراءه ، فأدركوه به في الخامس والعشرين من جمادى الأولى (٧) ، وكان قد أرسل إليهم جواسيس ، فعادوا وأخبروه بكثرة (٨) عددهم وعددهم وجددهم في طلبه ، فغزم على لقاءهم وقتالهم وأن تحكم السيوف بينه وبينهم ، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في (١٤٨ — ب) في هذا المقام الخطر ، الذي عطبهم فيه أقرب من السلامة ، لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم ، فاستشارهم ، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقى والعود إلى الشام ، وقالوا له : إن نحن انهمرنا — وهو الذى لاشك فيه — في أي نلتجىء وبمن نختصم (٩) ، وكل من في هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدو لنا ، ويودون لو شربوا دماءنا ، ويحق لعسكر عدتهم ألفا فارس — قد بعدت ديارهم ونأى ناصرهم — أن ترتاع من [لقاء (١٠)] عشرات ألوف ، مع أن كل أهل البلاد

- (١) بالأصل : سار . وقد اختلف المؤرخون في اليوم الذى سار فيه أسد الدين من دمشق إلى مصر . ففي الروضتين (١/ص/١٤٢) أن مسيره كان في ناسع ربيع الأول ، وفي مرآة الزمان (٨/ص/٢٦٨) في منتصف ربيع الأول ، وفي ابن شداد (٣٠/ص) في ١٢ ربيع الأول . أما في السكامل (٩/ص/٩٥) في شهر ربيع الآخر ، دون تحديد اليوم . (٢) بالأصل : يثق . (٣) بالأصل : يبق . (٤) بالأصل : يبق . (٥) بالأصل : يبق . (٦) بالأصل : يبق . (٧) في السكامل (٩/ص/٩٧) جمادى الآخرة . (٨) بالأصل : بكث . (٩) بالأصل : بختمى . (١٠) الإضافة من ، الروضتين (١/ص/١٤٣) .

عدو لهم . فلما قالوا ذلك ، قام إنسان من المهاليك النورية يقال له شرف الدين برغش — وكان من الشجاعة بالمكان المشهور — وقال : من يخاف القتل والجراح فلا يخدم المملوك ، بل يكون فلاحاً أو في بيته مع النساء ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلا عذر فمذرون فيه ليأخذن إقطاعكم ، وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه منه منذ خدمتموه إلى يومنا هذا ، ويقولن لكم : أنأخذون (١٤٩ — أ) أموال المسلمين وتفرون (١) عن عدوهم ، وتسلمون مثل الديار المصرية تنصرف فيها الكفار . فقال أسد الدين : هذا رأي وبه أعمل ، ووافقهما صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، ثم كثر الموافقون لهم على القتال . فاجتمعت الكلمة على اللقاء ، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبته ، وقد جعل الأثقال في القلب يتكثربها ، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فتنهبها أهل البلاد . ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب ، وقال له ولمن معه : إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب ، فهم يجعلون جمرتهم بإزائه وحملتهم عليه ، فإذا حملوا عليكم ، فلا تصدقوهم القتال ولا تهاكوا نفوسكم ، واندفعوا بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم . واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم ، ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقابل الطائفتان ، فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه ، فقاتلهم من به قتالاً يسيراً (١٤٩ — ب) وانهزموا بين أيديهم فتبعوهم ، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين (٢) حملوا [على القلب (٣)] — من المسلمين والفرنج — فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن فيهم الجراح ، وأكثر القتل والأسر وانهزم الباقون . فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب ، رأوا مكان المعركة من أصحابهم بقلعاً ليس بها منهم ديار ، فانهزموا أيضاً . وكان هذا من أعجب ما يورخ ، أن ألقى (٤) فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل .

ذكره ملك أسد الدين ثغر الإسكندرية (٥)

لما انهزم المصريون والفرنج من أسد الدين بالبايين سار إلى ثغر الإسكندرية ، وجي (٦) مافى طريقه من (٧) القرايا والسواد من الأموال ، ووصل إلى الإسكندرية فتسلمها بغير قتال ، سلمها أهلها إليه . فاستتاب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد ، فملكه وجي أمواله ، وأقام به حتى صار شهر رمضان .

(١) بالأصل : وتفرون . (والتصحیح من الروضتين ، ح / ١ / ص / ١٤٣) (٢) بالأصل : عن الفرنج الذين ... (وقد أسقط المحقق لفظ : الفرنج ، لأنه زائد) . (٣) الإضافة ، من الروضتين (ح / ١ / ص / ١٤٣) . (٤) بالأصل : ألف . (والتصحیح من النص نفسه ص / ١٣٢) . (٥) بالأصل : ذكره ملك الشهيد رحمه الله ذكره ملكه ثغره الاسكندرية . (والتصحیح والترتيب من الكامل ح / ٩ / ص / ٩٥) . (٦) بالأصل : وجي . (٧) بالأصل : في .

وأما المصريون والفرنجة فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم ، وأقاموا عوض من قتل منهم ، واستكثروا وحشدوا وساروا إلى (١٥٠ — أ) الإسكندرية — وبها صلاح الدين — في عسكر يمنعونها منهم ، فقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج . فاشتد الحصار ، وقل الطعام بالبلد ، فصر أهلها على ذلك .

ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم (١) — وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان — ووصلته رسل المصريين والفرنجة يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد ، فأجابهم إلى (٢) ذلك . وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر ولا يتسلمون منها قرية واحدة ، وأن الإسكندرية تعاد إلى المصريين ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام ، فوصل دمشق ثامن عشر ذى القعدة (٣) ، وتسلم المصريون الإسكندرية في النصف من شوال .

وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين ، أن يكون لهم بالقاهرة شحنة ، وتسكون أبوابها بيد فرسانهم ، ليمتنع الملك العادل نور الدين من إنفاذ (٤) عسكر إليهم ، ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار . هذا جميعه يجرى بين الفرنج وشاور . وأما العاضد صاحب مصر (١٥٠ — ب) فليس له من الأمر شيء ، ولا يعلم بشيء من ذلك ، قد حكم شاور عليه وحجبه . وعاد الفرنج إلى بلادهم ، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة .

ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل الملك العادل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي — وهو من أكابر أمرائه ، وخال صلاح الدين يوسف — ينهى محبته وولائه ، ويسأله أن يأمره بإصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته وجميع كلمة الإسلام ، وبذل مالا يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك ، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلا ، فبقى الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما تذكره إن شاء الله تعالى .

عصيان غازي

في هذه السنة عصى الأمير غازي بن حسان المنبجى [صاحب منبج] بها على نور الدين — وكان هو أقطعها إياها — فأرسل إليه نور الدين عسكرا حصروه بها وأخذها منه ، وأقطعها أخاه

(٢) بالأصل : على .

(٣) بالأصل : ذى الحجة القعدة . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١٤٣) .

(٤) بالأصل : انقاد .

قطب الدين ينال بن حسان ، وكان عاقلا خيرا حسن السيرة ، فبقى بها إلى أن أخذها صلاح الدين (١٥١ — أ) منه سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ذكر مفارقة زين الدين الموصل ووفاته وولاية

نحر الدين عبد المسيح قلعة الموصل

في سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، سار زين الدين على بن بكتكين ، نائب أتابك قطب الدين عن الموصل ، إلى إربل ، وسلم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع إلى أتابك قطب الدين ، فمن ذلك سنجان ، وحران ، وقلعة عقر الحميدية ، وقلاع الهكارية جميعها . وكان نائبه بتكريت الأمير تبر ، فأرسل إليه ليسلمها ، فقال : إن المولى أتابك لا يقيم بتكريت ، ولا بد له من نائب فيها ، وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلي ، فما أمكن محاققته لأجل مجاورة بغداد . وأما شهرزور فكان بها الأمير بوزان ، فقال مثله أيضا ، فأقرت بيده ، وكان في طاعة أتابك قطب الدين .

وسبب فراق زين الدين ، أنه أصابه عمى وصمم ، وأقام بإربل إلى أن توفي بها من سنته وكان قد استولى عليه الهرم ، وضعفت قوته . وكان خيرا عادلا ، حسن السيرة ، جوادا (١٥١ — ب) محافظا على حسن العهد وأداء الأمانة ، قليل الغدر بل عديمه . وكان إذا وعد بشيء لا بد له من أن يفعل وإن كان فعله خطيرا ، وكان حاله من أعجب الأحوال ، بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته ، حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة الدهاء . بلغني أنه أتاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر أنه نفق له ، فأمر له بفرس ، فأخذ ذلك الذنب أيضا غيره من الأجناد وأحضره وذكر أنه نفق له دابة ، فأمر له بفرس ، فتداول ذلك الذنب اثنا عشر رجلا كلهم يأخذ فرسا ، فلما أحضره آخرهم ، قال له : أما تستحيون مني كما أستحي منكم ، قد أحضر هذا الذنب عندي اثنا عشر رجلا وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم ، أتظنون أنني لا أعرفه ، بلى والله ، إنما أردت أن يصلحكم عطائي بغير من ولا تكدير ، فلم تتركوني ، وأمر له بفرس آخر ، كما قال بعضهم في شأنه :

ليس الغني بسيد (١) في قومه لكن سيد قومه المتغابي

(١٥٢ — أ) وكان يعطى كثيرا ويخلع عظميا ، وكان له البلاد الكثيرة فلم يخلف شيئا ، بل أنفذه (٢) جميعه في العطاء والإنعام على الناس ، فكان يلبس الغليظ ، ويشد على وسطه كل ما يحتاج الجندى إليه من سكين ، ودرفش (٣) ، ومطرقة ، ومسلّة ، وخيوط ، ودسترك (٤)

(١) بالأصل : سيد . (٢) بالأصل : انفذ . (والتصحيح من ، الروضتين - ١/ص/١٥٢) .

(٣) درفش : لفظ فارسي له أكثر من معنى ، منها : مخراز ، وهو المعنى المقصود هنا . (المعجم في اللغة الفارسية) .

(٤) دسترك : لفظ فارسي ، معناه ، منشار صغير . (المعجم في اللغة الفارسية) .

وغير ذلك . وكان من أشجع الناس ، ميمون (١) النقيبة (٢) لم تهزم له راية . وكان يقوم المقام الخطر فيسلم منه بحسن نيته . وكان تركيا أسمر اللون ، خفيف العارضين ، قصيرا جدا . وبني مدارس وربط بالموصل وغيرها . بلغني أنه مدحه الخيص بيص (٣) ، فلما أراد الإنشاد قال له : أنا لا أدري ما تقول ، لكنني أعلم أنك تريد شيئا ، وأمر له بخمسمائة دينار [وأعطاه] (٤) فرسا وخلعا وثيابا ، يكون مجموع ذلك نحو ألف دينار . ومنكاره كثيرة تقتصر على بعضها .

ولما توفي كان الحاكم ياربلى خادمه مجاهد الدين قايماز والمتولى لأمرها . وولى بعد زين الدين ولده الملك المعظم مظفر الدين كوكبوري مدة ، ثم فارقه لخلف كان بينه (١٥٢ - ب) وبين مجاهد الدين ، وجرت أمور يطول ذكرها .

ولما فارق زين الدين الموصل ، إستتاب أتابك قطب الدين بالقلعة بعده مملوكه نخر الدين عبد المسيح ، فسلك غير طريق زين الدين ، فكرهه الناس وذموه ، فلم تطل أيامه . وسيجي ذكر عزله سنة ست وستين وخمسمائة إن شاء الله تعالى .

ملك نور الدين

قلعة جعبر من صاحبها وكيف [ملكها]

في أول سنة أربع وستين وخمسمائة ، ملك نور الدين قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك (٥) العقيلي ، فكانت بيده ويد آباءه [من] قبله من أيام السلطان ملكشاه ، وقد تقدم ذكر ذلك . وهى من أمتع الحصون وأحسنها ، مطلة على الفرات ، لا يطمع فيها بحصار .

وأما سبب ملكها ، فإن صاحبها نزل منها يتصيد ، فأخذه بنو (٦) كلب أسيرا وحملوه إلى نور الدين في رجب سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، فاعتقله بحباب وأحسن إليه ، ورغبه في الإقطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل ، فعدل إلى الشدة والعنف وتهده فلم يفعل (١٥٣ - أ) أيضاً ، فسير إليها نور الدين عسكريا مقدمه الأمير نخر الدين مسعود بن أبي علي بن الزعفراني فحصرها مدة فلم يظفروا منها بشيء ، فأمدهم بعسكر (٧) جرار ، وجعل على الجميع الأمير

(١) بالأصل مقيمون . (٢) بالنقل : النقيبة . (٣) بالأصل : الخيص بيص . وهو الشاعر أبو الفوارس سعد بن محمد بن صفي ، توفي سنة ٥٧٤ هـ ، ترجمته في (شذرات الذهب / ٤/ص/ ٢٤٧) ، ابن خلكان . (٤) الإضافة من الروضتين (١/ص/ ١٥٢) (٥) بالأصل : ملك . (٦) بالأصل : بنو . (٧) بالأصل : بعسكرا .

مجد الدين أبابكر المعروف بابن الداية - وهو رضيع نور الدين ، وهو واحد أمرائه - فحصرها أيضاً فلم ير (١) له فيها مطمعا ، فسلك مع صاحبها طريق اللين ، وأشار عليه أن يأخذ (٢) العوض من نور الدين مدينة سروج وأعمالها والملاحة التي بين حلب وباب بزاعة وعشرين ألف دينار معجلة ، وهذا إقطاع عظيم جداً لكنه لا حصن فيه . وتسلم نور الدين القلعة في أول هذه السنة ، ولما أخذها نور الدين سلمها إلى مجد الدين بن الداية . وكان هذا آخر ملك بنى مالك (٣) ولكل أمر أمد ، ولكل ولاية نهاية ، يوتى الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . (١٥٣ - ب) بلغنى أنه قيل لشهاب الدين : أيما أحب إليك وأحسن مقاما ، سروج والشام [أم] القلعة . فقال : هذه أكثر مالا ، والعز بالقلعة فارقتاه .

ذكر مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر الثالثة وملكها

وقتل شاور وتملك أسد الدين سلطنة مصر

في ربيع الأول من سنة أربع وستين أيضاً ، سار أسد الدين شيركوه في العساكر النورية إلى ديار مصر وملكها واستولى عليها . وسبب ذلك ما ذكرناه من استيلاء الفرنج على البلاد بمصر ، وأنهم جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة ، وأبواب البلدين قد سكنها فرسانهم والمفاتيح معهم ، وتحكموا تحكما كشيئا ، وحكموا على المسلمين حكما جائرا (٤) ، فنال المسلمين منهم أذى شديد ، وجور عظيم ، وقهر زائد ، وطمعوا فيهم وأرسلوا حينئذ إلى ملكهم ، وهو « مرسي » ، ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا إلى الشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء يستدعونه ليملك البلاد ، وأعلموه خلوها من ممانع عنها ، وسهلوا أمرها عليه فلم يجبههم إلى المسير ، واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدم (١٥٤ - أ) وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها ، فقال لهم : الرأي عندى أننا لا نقصدها فإنها طعمة لنا ، وأمواها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها لنملكها ، فإن صاحبها وعساكره وعامة [أهل (٥)] بلاده وفلاحها (٦) لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم (٧) الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين ، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم (٨) من أرض الشام فلم يصغوا إلى قوله ، وقالوا : إن مصر لا مانع لها ولا حافظ ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم

(١) بالأصل : فلم يرى .

(٢) بالأصل : ياخذنا .

(٣) بالأصل : ملك .

(٤) بالإضافة من ، الروضتين (١٥٤ / ص ١٠٤) .

(٥) بالأصل : فاحلواهم .

(٦) بالأصل : ويحملونها .

(٧) بالأصل : وفلاحوها .

(٨) بالأصل : فاحلواهم .

إليها ، نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها ، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها . وكانوا قد عرفوا البلاد ، وانكشف لهم أمرها ، فأجابهم إلى ذلك على كره شديد ، وتجهزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام وخاصة (١) مدينة حمص ، فلما سمع نور الدين [بذلك] كاتب عساكره وأجناده وأمرهم بالقدوم عليه .

وجد الفرنج (١٥٤ — ب) في السير إلى مصر فقدموها ، ونازلوا مدينة بلبليس وحصروها ، فملكوها قهرا ونهبوها وسبوا أهلها مستهل صفر . وكان جماعة من أعيان المصريين منهم ابن الخياط وابن قرجلة قد كاتبوا الفرنج .

وساروا من بلبليس إلى مصر ، فنزلوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر ، يخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبليس ، فحملهم الخوف منهم على الامتناع ، فحفظوا البلد وقتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه ، فلو أن الفرنج أحسنوا السيرة في بلبليس لملكوا مصر والقاهرة ، لكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقتضى أمرا كان مفعولا . وكان شاور [قد] أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفا عليها من الفرنج ، فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً ، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب ديار مصر إلى الملك العادل نور الدين يستغيث به ، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، وأرسل في الكتب شعور النساء ، وقال : هذه شعور نسائي (١٥٥ — أ) من قصرى يستغيث بك لتتقذهن من الفرنج ، فقام نور الدين لذلك وقعد ، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر .

وأما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على من فيها ، وشاور هو متولى أمر البلد والعساكر والقتال ، فضايق به الأمر وضعف عن ردهم ، فأخذ إلى إعمال الخيلة ، فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبة القديمة ، وأن هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد ، وإلما المسلمون (٢) لا يوافقونه على التسليم إليه ، ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين ، فأجابته إلى الصالح على أخذ ألف ألف دينار مصرية ، يعجل البعض ويؤخر البعض ، واستقرت القاعدة على ذلك . ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت عليهم ، وربما سلمت إلى نور الدين فأجابوا كارهين ، وقالوا : نأخذ المال نتقوى به ، ونستكثر من (٣) الرجال ونهود إلى البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين ولا غيره ، ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ (٤) فعجل (١٥٥ — ب) لهم شاور مائة ألف دينار وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال ، فرحلوا قريبا . وعاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه مالتى المسلمون من الفرنج ، ويبذل له ثلث بلاد

(٣) بالأصل : ومن .

(٢) بالأصل : المسلمين .

(١) بالأصل : وخلاصة

(٤) سورة آل عمران : ٥٤ .

مصر ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقبلاً عنده في عسكر ، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثالث الذى لنور الدين .

وكان نور الدين لما أتاه الرسل أولاً من العاضد ، قد أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص — وهى إقطاعه — فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها . وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضاً وصلته في المعنى ، فسار إلى نور الدين وهو بحلب واجتمع به ساعة وصوله ، فعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسرد ، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك ، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة وغير ذلك ، وحكمه في العسكر والخزائن ، فاختر من العسكر ألفي فارس ، وأخذ المال ، وجمع من التركان ستة ألف فارس وسار (١٥٦ — أ) هو ونور الدين إلى دمشق ، فوصلها (١) سلخ صفر ، ورحل في جميع العساكر إلى رأس الماء ، وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة له على طريقه ، غير محسوبة من القرار الذى له ، وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء والمماليك ، منهم مملوكه عز الدين جرديك (٢) وعز الدين قليج ، وشرف الدين برغش (٣) ، وعين الدولة الباروقى ، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى ، وصالح الدين يوسف ابن أيوب على كره منه ، ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾ (٤) ، أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته ومملكته . وسيرد ذكر ذلك إن شاء الله تعالى عند موت شيركوه .

ثم إن أسد الدين شيركوه سار مجدداً من رأس الماء منتصف ربيع الأول ، فلما قارب مصر رحل الفرنج عنها عائدين إلى بلادهم بخفي حنين خائبين بما أملوا ، وسب ملكهم كل من أشار عليه بقصد مصر ، وبلغ خبر عودهم (١٥٦ — ب) نور الدين فسر ذلك وأظهر الاستبشار ، وأمر بضرب البشائر في سائر بلاده ، وبث رسله إلى الآفاق مبشراً به ، والحق بيده ، فإنه كان فتياً جديداً لمصر وحفظاً لسائر بلاد الشام وغيرها .

وأما أسد الدين فإنه وصل إلى القاهرة سابع ربيع الآخر ودخلها ، واجتمع بالعاضد لدين الله ، فخلع (٥) عليه وعاد إلى خيامه ، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع عن ذلك ، لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد ، ورأى هوى العاضد معهم من داخله ، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه فسكرته ، وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل

(١) بالأصل : فوصلها .

(٢) بالأصل : جوردك . (والتصحیح من ، السكامل ح/٩/ص/١٠٠) .

(٣) بالأصل : برعس . (٤) سورة البقرة : ٢١٦ . (٥) بالأصل : وخام .

له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهويركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويبعده ويمنيه، ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ (١) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم، فنهاه إبنه السكامل، وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن (١٥٧ — أ) أسد الدين. فقال [له] أبوه: والله لئن لم أفعل هذا لنقتلن جميعاً. فقال: صدقت، ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين، خير من أن نقتل وقدم ملكها الفرنج، وليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وخينذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ولا يكون البلاد ويظهرون الفساد، فترك ما كان عزم عليه. فلما رأى العسكر [النوري (٢)] المطل من شاور، إتفق صلاح الدين بن أيوب وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم، فقالوا: إننا ليس لنا في البلاد شيء مهمما هذا على حاله، فأنكر ذلك، فاتفق أن بعض الأيام سار أسد الدين إلى زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، وقصد شاور عسكره على عادته للإجتماع به، فلقبه صلاح الدين يوسف، وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العساكر، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه، فسار وهما معه قليلا، ثم ساوروه (٣) وألقوه عن فرسه فهرب أصحابه فأخذ أسيراً، ولم يمكنهم (١٥٧ — ب) قتله بغير أمر أسد الدين فسيجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه، فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعاً ولم يمكنه إلا إتمام (٤) ما عملوه، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين، يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله وتابع الرسل بذلك، فقتل شاور في يومه وهو السابع عشر من ربيع الآخر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين إلى القاهرة، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه (٥) على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فقصدها الناس ينهبونها فتفرقوا عنه، وقصد (٦) أسد الدين قصر العاضد، فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة — وهي التي كان فيها شاور — فلم ير فيها ما يتقعد عليه، واستقر في الأمر وغلب عليه، ولم يبق (٧) له منازع ولا مناوى، وولى الأعمال من يثق إليه واستبد (٨) بالولاية، وأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه إليها.

- | | |
|----------------------|--------------------------------------|
| (١) سورة النساء: ١١٩ | (٢) الإضافة من، الروضتين (ح/١/ص/١٥٧) |
| (٣) بالأصل: شاوروه. | (٤) بالأصل: تمام. |
| (٥) بالتصحيح من، | (٥) بالأصل: خاف. |
| (٦) بالأصل: وقصدوا. | (٧) بالأصل: يثق. |
| (٨) بالأصل: استبد. | |

ذكر وفاة أسد الدين شيركوه وملك صلاح الدين

يوسف بن أيوب (١٥٨ - أ)

﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ﴾ (١) لما ثبت قدم أسد الدين شيركوه ، وخلا وجهه من يخافه ، وصفت له دنياه ، وارتفع شأنه ، وخافه القاصي والداني لاسيما الفرنج ، أنه أمر الله الذي لا يحيد عنه ولا مفر منه ولا يحمى عليه ، ملك بكثرة رجال ولا يمنع عنه المعامل والمال ، فمرض وتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام .

ولما توفي كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه نجم الدين أيوب بن شاذي ، قد سار معه على كره منه . حكى لي عنه أنه قال : لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضى الله عنه مستصرخين ومستنجدين ، أحضرني وأعلنى الحال ، وقال : تمضى إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولى إليه ، يأمره بالحضور وتحته أنت على الإسراع فيما يحتمل الأمر التأخير . قال : ففعلت ، فلما فارقتا حلب على ميل منها لقيناه قادما فى هذا المعنى ، فقال له نور الدين : تجهز (٢) للسير ، فامتنع خوفا من غدرهم أولا (١٥٨ - ب) وعدم ما ينفقه فى العساكر ثانيا ، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال ، وقال له : إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر ، فالمصلحة تقتضى أن أسير أنا بنفسى إليها ، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ولا يبق [لنا] (٣) معهم مقام بالشام [وغيره] (٤) قال : فالتفت إلى عمى أسد الدين ، وقال : تجهز يا يوسف . [قال (٣)] : فكأنما ضرب قلبى بسكين ، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقله قاسيت بالإسكندرية من المشاق ما لا أنساها أبدا ، فقال [عمى (٣)] لنور الدين : لا بد من مسيره معى فترسم له ، فأمرنى نور الدين وأنا أستقبله ، فانقضى المجلس . ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير ، فقال (٤) لى نور الدين : لا بد من مسيرك مع عمك ، فشكوت إليه الضائقة وقلة الدواب وما أحتاج إليه ، فأعطانى ما تجهزت به فكأنما أساق إلى الموت ، وكان نور الدين مهيبا مخوفا مع لينه ورحمته ، فسرت معه ، فلما استقر أمره وتوفى ، أعطانى الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه . هكذا (٥) حكى لي عنه .

وأما كيفية ولايته ، فإن (١٥٩ - أ) جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر ، طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة ، منهم : الأمير عيسى الدولة الياوروقى ، وقطب الدين خسرو بن تليل -

(١) سورة الأنعام : ٤٤ .

(٢) بالأصل : ليتجهز . (والاصح من ، الروضتين (١/ص/١٥٥) .

(٣) الإضافات من ، الروضتين (١/ص/١٥٥) . (٤) بالأصل : وقال .

(٥) بالأصل : هذا .

وهو ابن أخى أبى الهيجاء الهذبانى الذى كان صاحب إربل - ومنهم: سيف الدين على بن أحمد الهكارى - وجده كان صاحب قلاع الهكارية - ، ومنهم : شهاب الدين محمود الحارمى - وهو خال صلاح الدين - ، وكل من هؤلاء يخطبها وقد جمع ليغالب عليها ، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب مصر إلى صلاح الدين وأمره بالحضور فى قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الأمر بعد عمه ، وكان الذى حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين ، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين - وليس له عسكر ولا رجال - كان فى ولايته مستضعفا يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر الشامى من يستميلهم إليه ، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين (١) وتعود البلاد إليه وعندده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين (٢) (١٥٩ - ب) «أردت عمرا وأراد الله خارجه» فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزمه به وأخذ كارها ، «إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل» (٣) ، فلما حضر فى القصر خلع عليه خلعة الوزارة، الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب الملك الناصر ، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها ، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه . وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى معه ، فسعى مع سيف الدين على بن أحمد حتى أماله إليه ، وقال له : إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمى وابن تليل ، فمال إلى صلاح الدين . ثم قصد شهاب الدين الحارمى ، وقال له : إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك ومليك لك ، وقد استقام الأمر له ، فلا تكن أول من يسعى فى إخراجهم عنه ولا يصل إليك ، ولم يزل به حتى أحضره أيضا عنده وحلفه له . ثم عدل إلى قطب الدين (٤) ، وقال له : إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ، ولم يبق غيرك وغير الياروقى (١٦٠ - أ) وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد ، فلا تخرج الأمر عنه إلى الأتراك ، ووعدته وزاد فى إقطاعه فأطاع صلاح الدين أيضا. وعدل إلى عين الدولة الياروقى - وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا (٥) - فلم تنفعه رقاؤه ولا نفذ (٦) فيه سحره ، وقال : أنا لا أخدم يوسف أبدا ، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره فأنكر عليهم فراقه ، وقد فأت الأمر ليقضى الله أمرا كان مفعولا. وثبت قدم صلاح الدين ، ورسخ ملكه ، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين ، والخطبة لنور الدين فى البلاد كلها ، ولا يتصرفون إلا عن أمره . وكان نور الدين يكتب صلاح الدين بالأمير الأسفيسلار (٧) ، ويكتب

(١) بالأصل : الباقين .

(٢) يختلف ابن أبى طى مع ابن الأثير فى سبب تولية الخليفة العاضد ، صلاح الدين بعد وفاة عمه . حيث يقول ابن أبى طى : « وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع ، وأعجبه عقله وسداد رأيه ، وشجاعته وإقدامه على شاور فى موكله ، وأنه قتله حين جاءه أمره ولم يتمرس ولا توقف ، فسارع إلى تقليده الوزارة » . (الروضتين ح/١/ص/١٧٣) (٣) بالأصل : بالسلاسل . (والتصحيح من الروضتين ح/١/ص/١٦١) . (٤) لفظ : الدين ، من اسم قطب الدين ، ساقط بالأصل .

(٥) بالأصل : جميعا . (٦) بالأصل : فقد . (٧) الأسفيسلار : لفظ مركب من مقطعين ، أسفه ، وهو فارسى ومعناه « المتقدم » ، سلار ، وهو تركى ، ومعناه « المسكر » ، ومعنى اللفظ ، مقدم المسكر . (القلقشندى ، ح/٦/ص/٨٠) .

علامته في الكتب تعظما أن يكتب اسمه ، وكان لا يفرد في كتاب ، بل يكتب الأمير الأسفهلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا . واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل [لهم] الأموال بما كان أسد الدين قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئاً يخرج به (١٦٠ - ب) فلم يمكنه منعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد ، فكان كالباحث عن حشفه بظلمه . وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يسير إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك ، وقال : أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد . ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر ، فسير نور الدين العساكر وفيهم إخوة صلاح الدين ، منهم شمس الدولة توران شاه بن أيوب — وهو أكبر من صلاح الدين — فلما أراد أن يسير ، قال له : إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد وأحضر ك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم [فيها] مقامى ، وتخدمه بنفسك كما تخدمنى ، فسر إليه وأشدد أزره وساعده على ما هو بضده . فقال : أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يتصل بك [خبره] إن شاء الله تعالى . فكان معه كما قال .

(١٦١ - أ) ذكر حصر الإفرنج مدينة دمياط

في سنة خمس وستين

في سنة خمس وستين وخمسمائة ، في أوائل صفر ، نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية ، فكان إفرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك فبكتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية وغيرهما يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر ، وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة ، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح ، واتعدوا للنزول على دمياط ظناً منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديار مصر ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ﴾ (١) . فلما نازلوها حصروها وضيقوا على من بها ، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل (٢) ، وحشروها كل من عنده وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر ، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلف عن (١٦١ - ب) دمياط ملكها الإفرنج ، وإن سار إليها ، خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته ، وصاروا (٣) من خلفه والفرنج من أمامه ، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسلها ، كما تجهزت طائفة سيرها ، فسارت إليه العساكر يتلو بعضها بعضاً .

(٢) بالأصل : الليل . (والتصحیح مرز ، الروضتين ح / ١ / ص ١٨٠)

(١) سورة الأحزاب : ٢٥ .

(٣) بالأصل : وساروا .

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر، فدخل بلاد الفرنج فنهبا وأغار عليها [واستباحها] ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد من مانع، فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وإخراؤها، رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء، وهذا موضع المثل: ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين. فوصلوا إلى بلادهم فأوها خاوية على عروشها. وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما، أخرج فيها صلاح الدين أموالا لا تحصى، حكى لي عنه أنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصري، سوى الثياب وغيرها.

(١٦٢ - أ) ذكر حصر نور الدين رحمه الله الكرك

وفي هذه السنة سار نور الدين إلى بلاد الفرنج فحصر حصن الكرك (١) في رجب. وكان سبب حصره، أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سار عن دمشق إلى مصر، وسير معه نور الدين عسكرياً، واجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة مالا يعد، فخاف نور الدين عليهم، فسار إلى الكرك ونزل عليه وحصره، وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين، ونصب نور الدين على الكرك المجانيق، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا إليه، وأن ابن الهنفرى، وفيليب بن الرقيق (٢) - وهما فارسا الفرنج في وقتها - في المقدمة إليه، فرحل نور الدين نحوهما ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلحق (٣) بهما باقي الفرنج، فكانا في مائتي فارس وألف تركب (٤) ومعهم من الراجل عالم كثير، فلما قاربهما رجعا القهقري إلى من وراءهم من الفرنج، وقصد نور الدين الشام في وسط بلادهم، ونهب ما كان على طريقه إلى أن وصل الشام، فنزل بعشرا (٥) (١٦٢ - ب) وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم، فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه. وأقام هو حتى أتاه خبر الزلزلة الحادثة بحلب وأعمالها وسائر بلاد الشام فرحل.

(١) حصن الكرك: في (ياقوت). كرك. بفتح أوله وثانيه وكاف أخرى. كلمة عجمية. اسم قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها، بين أيلة وبحر القزم والبيت المقدس. وهي على سن جبل عال، تحيط بها أودية إلا من جهة الرض.

(٢) بالأصل: قريب بن الدقيق (والتصحیح من، الرضتين، ح/١/ص/١٨٣). (٣) بالأصل: يلتحق.

(٤) تركبى: تعريب Turcopole جند في خدمة الفرنج، آباؤهم أتراك (أو عرب) وأمهاتهم يونان. (الاعتبار

تحقيق فيليب حتى، ص/٥١/حاشية/٦٥). (٥) عشرا: في (ياقوت) بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح

الثاء المثناة من فوق. موضع بحوران من أعمال دمشق.

ذكر الزلزلة التي جرت بالشام

وما فعله نور الدين

وفي هذه السنة أيضاً في ثاني عشر شوال ، كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلاً عمت أكثر البلاد من الشام ، ومصر ، وديار الجزيرة ، والموصل ، والعراق وغيرها . إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام ، فخربت بعلبك ، وحص ، وحماة ، وشيزر ، وبعرين (١) ، وحلب وغيرها من البلاد ، وتهدمت أسوارها وقلاعها ، وسقطت الدور على أهلها ، وهلك منهم ما يخرج عن الحد والإحصاء ، فلما أتاه هذا الخبر ، سار إلى بعلبك ليعمر ما تهدم من أسوارها وقلعتها ، وكان لم يبلغه خبر غيرها . فلما وصل أتاه خبر باقى البلاد بخراب أسوارها وخلوها من أهلها ، فرتب بعلبك من يحميها ويعمرها ، وسار إلى حص ففعل مثل ذلك ، ثم إلى حماة (١٦٣ - أ) ثم إلى بارين . وكان شديد الخذر على سائر البلاد من الفرنج لا سيما قلعة بارين ، فإنها مع قربها منهم (٢) لم يبق من سورها شيء ألبته ، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير ، ووكّل بالعمارة من يحث عليها ليلاً ونهاراً . ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد ، فإنها كانت قد أتت عليها ، وبلغ الرعب بمن (٢) نجا كل مبلغ ، وكانوا لا يقدرّون على أن يأتوا إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفاً من الزلزلة ، فإنها عاودتهم غير مرة . وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج . فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها ، أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه ، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين (٤) ، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد وجوامعها ، فأخرج من المال ما لا يقدر قدره .

وأما بلاد الفرنج فإنها أيضاً فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا ، وهم أيضاً يخافون نور الدين على (١٦٣ - ب) بلادهم ، فاشتغل كل منهما بعمارة بلاده [من قصد الآخر (٥)] .

ذكره غزوة لسرية نورية (٦)

كان شهاب الدين محمود بن إلياس بن إلبغازى بن أرتقى صاحب قلعة البيرة ، قد سار في عسكره — وهم مائتا فارس — إلى الخدمة النورية وهو بعشتر ، فلما وصل إلى [قرية] اللبوة — وهى من أعمال بعلبك — ركب متصيّداً ، فصادف ثلاثمائة فارس للفرنج قد ساروا للإغارة

(١) بالأصل : معرين .

(٢) بالأصل : بمن .

(٣) بالأصل : منه .

(٤) بالأصل : والبنائين . (٥) الإضافة من ، الروضتين (١/٢٨٦) . (٦) بالأصل : كبرى

النورية . (والتصحيح من ، الكامل ، ١٠٦/٩) .

على بلاد (١) الإسلام ، وذلك سابع عشر شوال من هذه السنة ، فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا ، واشتد (٢) القتال ، وصبر الفريقان لا سيما المسلمون ، فإن ألف فارس منهم لا تصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج ، وكثر القتلى بين الطائفتين ، فانهزم الفرنج وعهمم القتل والأسر ، فلم يفلت منهم إلا من لا يعتد به . قال (٣) تعالى : ﴿ ولو تواعدتم لا خلتكم في الميعاد ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً (٤) ﴾ . ثم إن شهاب الدين سار بالأسرى ورءوس القتلى إلى نور الدين ، فركب هو والعساكر إلى لقائه ، واستعرض الأسرى ورءوس القتلى ، فرأى فيها رأس (١٦٤ — أ) مقدم الاسبتار صاحب حصن الأكراد ، وكانت الإفرنج تعظمه لشجاعته ودينه ، ولأنه شجاعاً (٥) في حلق المسلمين ، وكذلك رأى رأس غيره من مشهورى الفرنج فازداد سروره ، ﴿ وكمن فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين (٦) ﴾ .

في ذكر وفاة أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد زنكى

ابن آقسنقر رضى الله عنه وملك ابنه سيف الدين

في شوال من سنة خمس وستين وخمسمائة ، توفي أتابك قطب الدين مودود ابن أتابك الشهيد زنكى بن آق سنقر رضى الله عنه بالموصل . وكان مرضه حمى حادة . ولما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكى — وهو أكبر أولاده [وأعزهم عليه وأحبهم إليه (٧)] — ، وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح ، وكان يكره عماد الدين لأنه كان قد أكثر المقام عن عمه الملك العادل نور الدين وخدمه وتزوج ابنته [وكان عزيزه وحبيبه (٧)] ، وكان نور الدين يبغض فخر الدين لظلم كان فيه ويذمه ، ويلوم أخاه قطب الدين على توليته الأمور ، فخاف فخر الدين أن (١٦٤ — ب) يتصرف عماد الدين في أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده ، فاتفق هو والختاتون ابنة حسام الدين تمر تاش — زوجة قطب الدين — [فردوه (٧)] عن هذا رأى . فلما كان الغد أحضر الأمراء واستحلفهم لولده سيف الدين غازى وتوفي [قطب الدين] وقد جاوز عمره أربعين سنة . وكان تام القامة ، كبير الوجه ، أسمر اللون ، واسع الجبهة ، جهورى الصوت ، وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة (٨) أشهر ونصفاً (٩) . ولما توفي استقر سيف الدين في الملك ، ورحل عماد الدين إلى عمه نور الدين شاكياً ومستنصراً (١٠) وكان فخر الدين هو الذى يدبر أمور سيف الدين ويحكم في مملكته ، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه ، فإنه كان في عنقوان شبابه وغرة حدائنه .

(١) بالأصل : البلاد . (٢) بالأصل : أشد . (٣) بالأصل : قوله . (٤) سورة : الأنفال : ٤٢ . (٥) بالأصل : شجى . (٦) سورة البقرة : ٢٤٩ . (٧) الإضافات من الروضتين (ح/١/ص/١٨٦) . (٨) بالأصل : وخس . (٩) بالأصل : ونصف . (١٠) بالأصل : مستنصراً . (والتصحیح من الروضتين ح/١/ص/١٨٦) .

حادثة تحت على العدل

من جملة أعمال جزيرة ابن عمر ، قرية تسمى العقيمة تقابل الجزيرة ، يفصل بينهما دجلة ، ولها بساتين كثيرة ، وبعضها تمسح أرضه ويؤخذ على كل جريب (١) من الأرض التي قد زرعت شيء معلوم ، وبعضها عليه خراج ولا مساحة عليه ، وبعضها (٢) (١٦٥ - أ) مطلق منهما ، فالممسوح منها لا يحصل لأصحابه إلا القدر القريب ، وكان لنا بها عدة بساتين . فحكى لي والذي قال : جاءنا كتاب نحر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة - وأنا أتولى حينئذ ديوانها والحكم إلى فيه على ما شوهد - يأمر بأن يجعل بساتين العقيمة كلها ممسوحة . قال : فشق ذلك على لأجل أصحابها ، ففيها ناس صالحون ولي بهم أنس ، وهم فقراء . قال : فراجعته ، وقلت له : لا تظن أنني أقول هذا لأجل ملكي ، لا والله ، إنما أريد أن يدوم الناس على الدعاء للمولى قطب الدين وأنا أتمسح ملكي جميعه . قال : فأعاد الجواب يأمر بالمساحة ، ويقول : تمسح أولاً ملكك ليقتردى بك غيرك ، ونحن نطلق لك ما يكون عليه . قال : فإظهرنا الأمر ، وشرع النواب يمسحون . وكان بالعقيمة رجلان صالحان وبني وبينهما مودة ، إسم أحدهما يوسف والآخر عبادة ، قال : فحضرا عندي وتضررا من هذه الحال ، وسألاني المسكاتبة في المعنى ، فأظهرت لهما كتاب نحر الدين جواباً عن كتابي ، فشكراني (١٦٥ - ب) ثم قال : وأيضاً تعود تراجعته . فعاودت القول ، فأصر على المساحة فعرفتها الحال . قال : فلما مضى عدة أيام (٣) ، عدت يوماً إلى داري راكباً ، وإذا هما قد صادفاني على الباب ، فقلت في نفسي : عجباً لهذين الشيخين ، قد رأيا مراجعتي وهما يطلبان مني ما لا أقدر عليه . قال : فسلمت عليهما وسلمنا على ، وقلت لهما : والله إنني أستحي منكما كلما جئتما في هذا الأمر ، وقد رأيتما الحال كيف هو . فقالا : صدقت ، ولم نحضر إلا لنعرفك أن حاجتنا قضيت . قال : فظننت أنهما قد أرسلنا إلى الموصل إلى من يشفع لهما ، فدخلت داري وأدخلتهما معي ، وسألتهما عن الحال كيف هو ومن الذي سعى لهما ، فقالا : إن رجلاً من الصالحين الأبدال شكونا إليه حالنا فقال : قد قضيت (٤) حاجة أهل العقيمة جميعهم . قال : فوقع عندي من هذا فكر ، تارة أصدقهما لما أعلم من صلاحهما ، وتارة أعجب من سلامة صدريهما ،

(١) الجريب هنا مقياس الأرض ، ومقداره عشر قصبات في عشر قصبات ، على أنه قد يختلف باختلاف المكان والزمان . والجريب في الأصل ، مكبال ، وسعته ما يكفي من الحب لبذر مساحة معينة . ومن هنا سميت تلك المساحة باسم الجريب . (ابن واصل ج ١/ ص ١٨٩ / حاشية ٢) . وفي كتاب « مفاتيح العلوم » للخوارزمي ، أن الجريب أشل في أشل (الأشل ستون ذراعاً) ومعناه ستون ذراعاً طولاً في مثلاً عرضاً ، فيكون تسكبرها ثلاثة آلاف وستمائة ذراع مكسرة . (نقلا عن المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السابع ، سنة ١٩٥٨ ، ص ٢٣٧) .

(٢) بالأصل : وبعضهما .

(٣) تكرار بالأصل ، هكذا : عدت أيام .

(٤) بالأصل : قضت .

كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانه واقعاً لا شك فيه . قال : فلما كان بعد أيام (١٦٦ — أ) وإذا قد وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمر فيه بإطلاق مساحة العقيمة ، وإطلاق كل مسجون ، وبالصدقة . فسألنا القاصد عن السبب ، فقال : إن أتابك شديد المرض . قال : فأفكرت في قولهما وتعجبت منه ، ثم توفي بعد يومين من هذا . ورأيت والدى إذا رأى أحد الرجلين يبالغ في إكرامه ويحترمه ويقضى أشغاله ، واتخذهما أصدقاء .

فصل في ذكر بعض سيرة أتابك قطب الدين

رضى الله عنه

كان رحمه الله ورضى عنه من أحسن الملوك سيرة ، وأعفهم عن أموال رعيته ، محسناً إليهم كثير الإنعام عليهم ، محبوباً إلى صغيرهم وكبيرهم ، عطوفاً على مأمورهم وأميرهم ، حليماً عن المذنبين منهم ، قليل المؤاخذة لهم على زللهم ، كريم الأخلاق حسن الصحبة لهم ، فكان القائل أرادته بقوله (١) :

خلق كماء المزن طيب مذاقه	والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم واسع	عمن جنى والسيف غير حليم
(١٦٦ — ب) كالغيث إلا أن وابل جوده	أبدأ وجود الغيث غير مقيم
كالدهر إلا أنه ذو رحمة	والدهر قاسى القلب غير رحيم

وكان رضى الله عنه سريع الانفعال للخير ، بطيئاً عن الشر . حدثني والدى قال : إستدعاني يوماً وهو بالجزيرة وكنت أتولى أعمالها له ، فلما حضرت عنده قال لى : بلغنى أنك تهمل هذه الجنايات (٢) ولا تحفظها ، فقلت له : إني أعجز عن حفظها لأننى أكون فى بيتى والدردار يفعل فى القلعة ما يريد ، ثم التفاوت ليس بعظيم وأخاف من الاستقصاء فيها ، لو دعى على بعض هؤلاء الملوك — وأومات إلى أولاده — لكانت شعرة منه تساوى الدنيا وما فيها ، ولنا مواضع تحتمل العبارة [لو عمرت (٣)] يتحصل منها أضعاف هذا (٤) . فقال لى : جزاك الله خيراً ، فلقد نصحت وأديت الأمانة ، وأشرع فى عمارة هذه الأماكن التى تحتمل العبارة . قال : ففعلت وكبرت منزلتى عنده ، ولم يزل يثنى على (٥) .

(١) بالأصل : بقوله يقول . (وقد أسقط المحقق اللفظ : يقول ، لأنه زائد) . (٢) الجنايات : جمع جناية ، ومعناها فى الإصطلاح التاريخى ما يفرضه السلطان من الضرائب والغرامات التأديبية على رعيته . (الديوك ، ح/١/ص/٤٨٨/حاشية ١) . (٣) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/١٧٨) (٤) لم يستطع المحقق فهم هذا الخبر بمخذاً منه . والمفهوم يحمل من الخبر أنه يتعلق بأولاد قطب الدين . وقد ورد فى الروضتين (ح/١/ص/١٨٧) بنفس القموض الموجود هنا فى النص . (٥) بالأصل : عليه . (والنصح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١٨٧) .

قال : وكان (١) السلطان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه ، لقد صبر من نوابه زين الدين وجمال الدين (١٦٧ - أ) وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه .

وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين ، كثير المساعدة له والإنجاد بنفسه وعسكره وأمواله ، حضر معه المصاف بحارم وفتحها ، وفتح بانياس ، وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف .

وكان إحسانه إلى أصحابه متتابعاً من غير طلب منهم ولا تعريض . حكى لي والدي قال : دخلت إليه مرة ، فسألني عن ما أتولاه من الأعمال وأحوال الرعية فيها وأنا أخبره . ثم سألتني (٢) عن القرايا التي خاصه ومن يتولى قسمتها واستخلاص أموالها ، فقلت له : أنا أفعل ذلك بنفسى ، فقال : وما الذى قرر لك عليها فى مقابل تعبك . فقلت : لى من إنعام مولانا مالا حاجة لى إلى تقرير شىء آخر ، ثم المقرر لى من الجامكية والرسوم إنما هو على أعمال من جملتها هذه القرايا . فقال : لا يجوز تتعب بدون فائدة . ثم أمر لى بعمالة الخاص جميعها فى بلد الجزيرة ، فدعوت له . ولما خرجت رأيته كثيرة يحصل منها ما يزيد على سبعمائة دينار (١٦٧ - ب) أميرى ، وليس لى بها من العمل كثير أمر . فقلت فى نفسى : ربما لا يعلم مقدارها ، فإذا علمه يظن أننى اغتنتم غرته ، فأرسلت إليه مع حاجبه أقول له : إن هذه العمالة يتحصل منها فى هذا الرخص كذا وكذا دينار ، وأنا أقنع ببعض ذلك . قال : فلما سمع قولى ضحك ، وقال : هذا كلام رجل عاقل والجميع له . قال : وكان يدخل إلى الخزانة بعض الأوقات ونحن فيها — إذ كنت أتولاهما — فلا يخرج منها منها إلا وقد وهب كلا من الحاضرين منها شيئاً صالحاً ، وربما أرسل إلى من غاب ، سهمه .

قال : وكان يبغض الظلم وأهله ، ويعاقب من يفعله من أصحابه ، فمن ذلك أن نائبين كانا له بالجزيرة اختصما وترافعا إليه ، فذكر أحدهما عن الآخر أنه قد كان خان السلطان فى ماله ، وأخذ من أموال الرعية أيضاً رشاً (٣) على مالا يجوز له فعله . قال : فأحضرهما بالموصل وأرسل إليه (٤) وهما فى ديوانه يقول : قد قلت عن فلان كذا وكذا ، فإن صح عليه أنه أخذ من أموال ريعتى ديناراً واحداً صلبته ، فإننى قد وسعت عليه وكثرت إقطاعه (١٦٨ - أ) لئلا يمد عينه إليهم ، وإن لم يصح عليه شىء عاقبتك على كذبك . فلم يصح عليه قول شىء فأعادته إلى شغله ، وقال للآخر : لولا أن لك على حق خدمة لمكنت عاقبتك على كذبك ، فغزله .

وكان رضى الله عنه واسع الكرم ، كثير البذل للمال ، يكثّر تعهد أصحابه ونوابه (٥) بالصلات السنية والعطايا الجزيلة (٦) ، ففرق أموالاً لا تحصى ولا تحد ، فمنها : ما كان جمع فى الأيام الشهيديّة

(١) بالأصل : فكان . (٢) بالأصل : سألنى .

(٣) بالأصل : رشى . (٤) بالأصل : إليهما .

(٥) بالأصل : ونوابه . (٦) بالأصل : والجزيرة .

والأيام السيفية (١) ، وما كان قد ادخره نصير الدين جقر ، وما تحصل له هومن البلاد في أيامه .

أعطى فأكثر واستقل هباته فاستجيت الأنواء وهى هوامل
فاسم (٢) الغمام لديه وهو كنهور (٣) آل وأسماء البحار جداول
لم تحلل أرض من نداه (٤) ولا خلا من شكر ما يولى لسان قايـل

وكان رضى الله عنه يقول لمن ينهاه عن كثرة الإنفاق (٥) وإخراج الأموال : متى سمعتم أن ملكا حبسه القاضي ، وإذا لم يظهر إحسانى على من يخدمنى فمن الذى يحسن إليهم ، وبالله أقسم إذا فكرت فى (١٦٨ - ب) الملوك أولاد الشهيد عماد الدين زنكى : سيف الدين ، ونور الدين ، وقطب الدين ، وما جمع الله سبحانه فيهم من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأفعال ، وحسن السيرة ، وعمارة البلاد ، والرفق بالرعية إلى غير ذلك من الأسباب التى يحتاج الملك إليها ، أظن أن القائل أرادهم بقوله : شعر

هينون لينون أيسار بنويسر سواس مكرمة أبناء أيسار
لا ينطقون على العوراء إن نطقوا ولا يمارون إن ماروا يا كبار
من يلق منهم يقل (٦) لا قيت سيدهم مثل النجوم التى يسرى بها السار

واذكر قول بعضهم - وقد سئل عن أولاد المهلب بن أبى صفرة (٧) - أيهم أفضل ، فقال : هم كالحلقة المفرغة . وقول فاطمة ابنة الحريث - وقد سئلت عن أولادها السكاملة أيهم خير - فقالت : فلان ، بل فلان ، بل فلان ، ثم قالت : ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم (٨) خير . وهكذا كانوا رضى الله عنهم .

ذكر وفاة المستنجد بالله أمير المؤمنين (١٦٩ - أ) وخلافة

ولده المستضى بأمر الله . رضى الله عنهم

توفى الإمام المستنجد بالله أمير المؤمنين فى التاسع شهر ربيع الآخر من سنة ست وستين وخمسة مائة . واسمه يوسف بن المقتضى لأمر الله . وتما نسيبه عند وفاة المستظهر بالله رضى الله عنه .

(١) المقصود بالأيام الشهيديّة ، أيام عماد الدين زنكى . وأما الأيام السيفية ، فهى أيام سيف الدين غازى ابن عماد الدين زنكى . (٢) بالأصل : فاسم .

(٣) الكنهور من السحاب ، المتراكم النخين ، وهو أيضا قطع من السحاب أمثال الجبال . (لسان العرب) . (٤) بالأصل : نداه .

(٥) بالاصل : الاتفاق . (٦) بالأصل : يقول . (٧) ولى المهلب بن أبى صفرة على

خراسان سنة ٧٨ . وتوفى سنة ٨٢ ، وقد اشتهر أبناؤه فى حياته وبعد مماته ، وأخبارهم فى « السكامل » موزعة على السنين . (٨) بالأصل : أنهم .

وأمه أم ولد اسمها طاووس رومية . ومولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسة . وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وستة أيام . وكان أسمرًا ، تام القامة ، طويل اللحية .

وكان سبب موته أنه مرض واشتد مرضه ، وكان قد خافه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايمارز — وهو من ممالك المقتنى لأمر الله — وهو حينئذ أكبر أمير ببغداد ، وله من الاتباع مثل علاء الدين تنامش (١) ويزدن (٢) وغيرهما ، وكان محسنًا إلى الأجناد . فلما اشتد مرض المستنجد بالله اتفقا ووضعوا الطيب (٣) على أن يصف له ما يؤذيه ، فوصف له دخول الحمام ، فامتنع المستنجد بالله لضعفه ، ثم إنه أدخله (٤) وأغلق عليه الباب إلى أن مات . هكذا سمعته من غير واحد ممن يعلم (١٦٩ — ب) الحال .

وكان وزيره حينئذ شرف الدين أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدى — وهو الحاكم فى الدولة — وبينه وبين أستاذ الدار عضد الدين وقطب الدين عداوة مستحكمة ، لأن المستنجد بالله كان يأمره فيما يتعلق بهما بأشياء فيفعلها ، فكانا يظنان أنه هو الذى يسعى بهما ، فلما مرض المستنجد بالله وأرجف بموته ، ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهم بالعسدة الكاملة فلم يتحقق عنده خبر موته ، وأرسل إليه أستاذ الدار يقول : إن أمير المؤمنين قد خف ما به من المرض وأقبلت [عليه] العافية . تخاف الوزير أن يدخل إلى دار الخلافة بالجنود فربما جرى عليه عتب وإنكار ، فعاد إلى داره وتفرق الناس عنه . وكان أستاذ الدار وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير [خوفًا منه (٥)] إن دخل الدار [أن يأخذهما (٥)] ، فلما عاد أغلق أستاذ الدار أبوابها وأظهر وفاة المستنجد ، وأحضر هو وقطب الدين ابنه ، أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة ولقباه (٦) المستضى بأمر الله ، وشرطا عليه (١٧٠ — أ) شروطًا ، منها : أن يجعل عضد الدين وزيرًا وابن كمال الدين أستاذ الدار (٧) ، ويجعل قطب الدين أمير العسكر ، فأجابهم إلى ذلك . وعلم شرف الدين بن البلدى الحال ، فصفق يدًا (٨) على يد ، وقرع سنه ندمًا على ما فرط فى عوده إلى داره ، حيث لا ينفعه الندم ، وأتاه من يستدعيه للجلوس (٩) للعزاء والبيعة للمستضى ، فضى إلى دار الخلافة ومعه زعيم الدين بن جعفر ، وهو صاحب الخزن ، فلما دخلها صرف إلى موضع من الدار وقتل وقطع قطعاً وألقى فى دجلة ، رحمه الله تعالى . وأرسل عضد الدين وقطب الدين إلى داره فحمل جميع ما له فيها من مال وغيره ، فرأيا فى ذلك خطوط المستنجد بالله إليه يأمره

(١) بالأصل : شامش ، (والتصحيح من : السكامل ، ح/٩/ص/١٠٨) (٢) بالأصل : يزدان ، (والتصحيح من : السكامل ، ح/٩/ص/١٠٨) . (٣) بالأصل : الطيب . (٤) بالأصل : أدخلها . (٥) الإضافة من : السكامل (ح/٩/ص/١٠٩) . (٦) بالأصل : ولقب . (والتصحيح من : السكامل ، ح/٩/ص/١٠٩) . (٧) بالأصل : أستاذ دار . (والتصحيح من : السكامل ، ح/٩/ص/١٠٩) . (٨) بالأصل : فسفق يد . (٩) بالأصل : للجلوس .

فيها (١) بالقبض عليهما ، وخط الوزير قد راجعه في ذلك وصرفه عنه ، فلما وقفا عليه ، علما برأته مما كانا يظنان فيه ، فندما حيث لم ينفعهما (٢) ندمهما (٣) . وأما زعيم الدين جعفر ، فإن عماد الدين بن الوزير عضد الدين شفع فيه ، وهذا عماد الدين كان قد تصوف وترك الأعمال (١٧٠ - ب) .

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية ، عادلا فيهم ، كثير الرفق بهم ، وأطلق من المكوش كثيرا ولم يترك بالعراق مكسأ . وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس . بلغني أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس ويكتب فيهم السعيات فأطال حبسه ، فحضر بعض أصحابه وشفع فيه ، وبذل عنه عشرة آلاف دينار ، فقال : أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً آخر مثله أحبسه لأكف شره عن الناس ولم يطلقه .

فصل في ذكر ملك نور الدين الموصل

وغيرها من البلاد الجزرية

وتقرير الموصل على سيف الدين غازي

لما بلغ نور الدين وفاه أخيه قطب الدين رضى الله عنهما ، وملك ولده سيف الدين بعده . واستيلاء (٤) نحر الدين عبد المسيح واستبداده (٥) بالأول ، وروحه على سيف الدين غازي ، أنف لذلك وكبر لديه وشق عليه . وكان يبغض نحر الدين لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبالغة في إقامة السياسة (٦) ، وكان رحمه (١٧١ - أ) الله لنا رفيقاً عادلاً ، فقال : أنا أولى بتدبير بني أخي وملكهم ، ثم سار من وقته فعبر الفرات عند قلعة جعبر (٧) مستهمل محرم سنة ست وستين وقصد الرقة ، فامتنع النائب بها شيئاً من الامتناع ، ثم سلمها على شيء لإقترحه (٨) ، فاستولى نور الدين عليها وقرر أمورها . وسار إلى الخابور فملكه جميعه .

ثم ملك نصيبين وأقام بها يجمع العسكر ، فإنه كان قد سار جريدة ، فأتاه بها نور الدين محمد ابن قرا أرسلان صاحب الحصن وديار بكر ، واجتمعت عليه العساكر فكان قد ترك أكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم (٩) .

(١) بالأصل : فيهما . (٢) بالأصل : ينفعه . (٣) بالأصل : ندمها .
(٤) بالأصل : واستلاء . (٥) بالأصل : واستبداده . (٦) أى الدقة في تنفيذ القانون .
(٧) بالأصل : جبر . (والتصحيح من الروضتين ح/١/ص/١٨٧) . (٨) بالأصل : أقرحه .
(٩) بالأصل : وغيرها .

فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق، وكان بها عسكر كثير من الموصل، فعاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه وأشاروا بترك سنجار فلم يقبل منهم، وأقام حتى ملك سنجار وسلمها إلى عماد الدين زنكي ابن أخيه قطب الدين (١). ثم سار إلى الموصل فأتى مدينة (٢) بلد، وعبر دجلة في مخاضة (١٧١ - ب) عندها (٣) إلى الجانب الشرقى، وسار فنزل شرقى الموصل على حصن نينوى، ودجلة بينه وبين الموصل. ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة. وكان نحر الدين قد سير المولى عز الدين مسعود بن أتابك قطب الدين رضى الله عنهما إلى أتابك شمس الدين إيلدكز صاحب بلاد الجبل، وأذربيجان، وأران (٤) وغيرها يستنجد به، فأرسل إيلدكز رسولا إلى نور الدين ينهيه عن قصد الموصل، ويقول [له]: إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته -- وكان بسنجار -- فسار إلى الموصل، وقال للرسول: قل لصاحبك، أنا أرفق ببنى أخى منك فلم تدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ (٥) من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همدان، فإنك قد ملكك نصف بلاد الإسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا وحدى بأشجع الناس، الفرنج، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم، فلا يجوز لى أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام (١٧٢ - أ) بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام وإزالة الظلم عن المسلمين، فعاد الرسول بهذا الجواب.

وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال، وكان هوى كل من بالموصل من جندى وعامى معه لحسن سيرته وعدله، وكاتبه الأمراء يعلبونه أنهم [عزموا] على الوثوب بفخر الدين وتسليم البلد إليه، فلما علم نحر الدين ذلك، راسله فى الصلح والدخول فى طاعته، وإبقاء الموصل على سيف الدين، ويطلب لنفسه الأمان وإقطاعا يكون له، فأجابه إلى ذلك، وقال: لا سبيل إلى مقامك (٦) فى الموصل بل تكون عندى بالشام، فإنى لم آت لأخذ البلاد من أولادى، إنما جئت لأخلص الناس منك، وأتولى أئامرية أولادى، فاستقرت القاعدة على ذلك، وسلمت الموصل إليه، فدخلها ثالث عشر جمادى الأولى من سنة ست وستين وخمسة، وسكن القلعة. وأقر سيف الدين غازى

(١) فى الكامل (١١٠/ص ٩) أن كمال الدين الشيرازى، علق على إبقاء نور الدين، سيف الدين بالموصل وإقطاعه سنجار لعماد الدين بقوله: «هذا طريق لى أذى يحصل بيت أتابك، لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة سيف الدين وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين، فيحصل الخلف ويطمع الأعداء». يقول ابن الأثير: «فمكن ذلك كذلك على ما تذكره سنة سبعين وخمسة» وقد ذكر ابن الأثير -- فى الكامل، فى أخبار سنة ٥٧٠ -- إضمار عماد الدين إلى جانب صلاح الدين ضد أخيه سيف الدين.

(٢) بلد: فى الإصطخرى (٥٢-٥٣). مدينة صغيرة على غربى دجلة، وليس بهاماء جار سوتة دجلة، وبها شجر وزروع ومباحس كثيرة. وبينها وبين الموصل مرحلة.

(٤) بالأصل: أرانية (التصحيح من: الروضتين، ١٨٨/ص ١).

(٥) بالأصل: الإغراق. (٦) بالأصل: مقامه.

على الموصل ، وولى بقلعتها خادماً له يقال له سعد الدين كشتكين وجعله دزداراً فيها ، وقسم جميع ما خلفه أخوه أتابك قطب الدين بين أولاده بمقتضى (١٧٢ — ب) الفريضة .

ولما كان يحاصر الموصل جاءت خلعة الإمام المستضى بأمر الله فلبسها (١) ، فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين .

وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد (٢) ، وأمر ببناء الجامع النورى فبنى ، وأقيمت الصلاة فيه سنة ثمان وستين وخمسة .

وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً وسار إلى الشام ، فقبل له : إنك تحب الموصل والمقام (٣) بها ووزاك أسرعت العود . فقال : قد تغير قلبى فيها ، فإن لم أفارقها ظلمت ، ويمنعنى أيضاً أننى [ههنا (٤)] لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد .

ثم أقطع نصيبين والخابور للعساكر ، وأقطع جزيرة ابن عمر لسيف الدين غازى ابن أخيه مع الموصل ، وعاد إلى الشام ومعه نحر الدين عبد المسيح ، فغير اسمه وسماه عبد الله ، وأقطعه إقطاعاً كثيراً .

ذكر غزوة [نور الدين] إلى بلد أنطاكية وطرابلس الشام

فى سنة سبع وستين وخمسة ، خرجت مراكب من مصر إلى الشام ، فأخذ الفرنج الذين فى لاذقية مركبين منها مملوعين (٥) (١٧٣ — أ) من الأمتعة والتجار وغدروا بالمسلمين ، وكان نور الدين قد هادئهم فنسكثوا ، فلما سمع نور الدين الخبر إستعظمه ، وراسل الفرنج فى إعادة ما أخذوه فغالبوه ، واحتجوا بأمر منها : أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما ، وكانت العادة بينهم أخذ [كل] مركب يدخله الماء ، وكانوا كاذبين ، فلم يقبل مغالطتهم . وكان رضى الله عنه لا يهمل أمراً من أمور رعيته فلم يردوا شيئاً ، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث السرايا فى بلادهم ، بعضهم نحو أنطاكية وبعضهم نحو طرابلس (٦) ، وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه ، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصنى صافيتا وعريمة فأخذهما عنوة

(١) فى ، ابن القرات (ح/٧/ص ٥٨) ، أنه لما حاصر نور الدين الموصل ، عزم الخليفة المستضى بالله على نصره سيف الدين غازى . فلما علم نور الدين بذلك ، أرسل إليه الهادى الكاتب برسالة يذكر فيها أنه كبير البيت ووارثه ، وأنه لا يفتى إلا مصلحة أبناء أخيه ، ويستأذنه فى دخول الموصل ، عندئذ أذن له الخليفة بدخولها وأرسل له الخلع .

(٢) أنظر منشور نور الدين باطلاق المكوس فى ، الروستين (ح/١/ص ١٦) .

(٣) بالأصل : القيام . (والتصحیح ، من الروستين ، ح/١/ص ١٨٨)

(٤) الإضائة من ، الروستين (ح/١/ص ١٨٨) .

(٥) بالأصل : مملين . (٦) بالأصل : طرابلس .

وكذلك غيرهما، ونهب وخرب، وغنم المسلمون الكثير وعادوا إليه وهو بعرة، فسار في العساكر جميعها إلى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب.

وأما الذين ساروا إلى أنطاكية، فإنهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل [نور الدين] من النهب والتخريب بولاية طرابلس، فراسله الفرنج وبذلوا إعادة ما أخذوه (١٧٣ - ب) من المركبين، ويجدد (١) معهم الهدنة فأجابهم إلى ذلك. فكانوا في ذلك كما يقال، اليهودى لا يعطى الجزية حتى يلطم، وكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتى هى أحسن، فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها.

نادرة غريبة في زماننا هذا (٢)

قد علم الناس قلة الأمانة في هذه الأعصار بل عدمها، فلما أخذ الفرنج هذين المركبين، كان لوالدى فيهما تجارة مع شخصين، فلما أعادوا إلى الناس أموالهم لم يصل إلى كل إنسان إلا اليسير، وكان يحمل المتاع إلى نور الدين ويحضر التجار، فكل من إسمه على ثوب أخذه. وكان في الناس من يأخذ مالميس له، فكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة — وكان نصرانياً — فلم يأخذ إلا ما عليه إسمه وعلامته، فذهب من ماله ومالنا [شئ (٣)] كثير بهذا السبب، وكان الذى حصل له من مالنا أكثر من الذى له، فلما عاد إلينا سلم الذى لنا (٤) إلى والدى، فامتنع من أخذه وقال [له]: خذ أنت الجميع فإنك أحوج إليه، وأنا فى غنى عنه، فلم يفعل، فقال: خذ (١٧٤ - أ) أنت النصف وأنا النصف، واجتهد به والدى فلم يفعل. فلما كان بعض الأيام، وإذا قد جاء ذلك الغلام ومعه عدة من الأثواب السوسى وغيرها، وقال: هذا من قاشنا قد حضر اليوم. وسبب حضوره أن إنساناً فقاعياً (٥) من أهل تبريز كان معنا فى المركب، وقد أعادوا عليه ماله، فرأى هذه الأثواب وإسمى عليها، فلم يسهل عليه [أن] يردّها، وسأل عنى وقصدنى وهى معه، وحضر عندى الساعة وسلمها إلى، وقال: قد تركت طريق تبرأ ذمتى، وأخذنا نحن ما عليه إسمنا بعد الجهد. وطلب والدى الرجل، وسأله أن يقيم عندنا ليسلم إليه مالا يتجر فيه فلم يفعل، وعاد إلى بلده. وهذان الرجلان نادران فى هذا الزمان.

(٣) الإضافة من، الروضتين

(٢) بالأصل: هذه.

(١) بالأصل: وتجدد.

(٤) بالأصل: له. (والنصحيج من، الروضتين، ح/١/ص/٢٠٣).

(ح/١/ص/٢٠٣).

(٥) لعله نسبة إلى صانع الفقاع، والفقاع شراب يتخذ من الشعير.

ذكر انقراض الدولة العلوية بمصر

وإقامة الخطبة العباسية بها

في المحرم من سنة سبع وستين وخمسمائة ، قطعت خطبة العاضد لدين الله العلوى صاحب مصر ، وخطب فيها للإمام المستضى بأمر الله أمير المؤمنين .

وكان السبب في ذلك أن صلاح (١٧٤ — ب) الدين يوسف بن أيوب ، لما ثبت قدمه في مصر ، وزال المخالفون له ، وضعف أمر الخليفة بها ، العاضد ، ولم يبق من العساكر المصرية أحد ، كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود ، يأمره بقطع الخطبة العاضدية ، وإقامة الخطبة العباسية ، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر ، وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلويين ، فلم يصغ نور الدين إلى قوله ، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة له فيه ، واتفق أن العاضد مرض — وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له — فاستشار أمراءه كيف [يكون (١)] الإبتداء بالخطبة العباسية ، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من خاف ذلك ، إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين . وكان قد دخل إلى مصر إنسان عجمي يعرف بالأمر العالم — وقد رأيناه بالموصل كثيراً — فلما رأى ما هم فيه من الإحجام ، قال : أنا أبتدىء بها ، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد (١٧٥ — أ) المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضى بأمر الله ، فلم ينكر أحد (٢) [ذلك (٣)] . فلما كان الجمعة الثانية ، أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضى بأمر الله ، ففعلوا ذلك ، ولم ينتطح فيها عنزان . وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية .

وكان العاضد قد اشتد مرضه ، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا : إن سلم فهو يعلم ، وإن توفي فلا ينبغي أن نتغص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله ، فتوفي يوم عاشوراء ، ولم يعلم [بقطع الخطبة (٤)] .

ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على قصره وعلى جميع ما فيه . وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد ، بهاء الدين قراقوش — وهو خصي — لحفظه (٥) وجعله كأستاذ دار للعاضد ، لحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ، ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد ووكّل بحفظهم ، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في إيوان في القصر وجعل عندهم من يحفظهم ، وأخرج من كان بالقصر (١٧٥ — ب) من العبيد والإماء ، فأعق البعض ووهب البعض وباع البعض ، وأخلى القصر من أهله وسكانه . فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره ممر الأيام وتعاقب الدهور .

(١) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/١٩٤) . (٢) بالأصل : أحدا . (٣) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/١٩٤) . (٤) الإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/١١١) . (٥) بالأصل : بحفظه .

ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعى صلاح الدين ، فظن أن ذلك خديعة فلم يمش إليه ، فلما توفي علم صدقه ، فندم (١) على تخلفه عنه .

وكان ابتداء الدولة العلوية بإفريقية والمغرب في ذى الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين . وأول من ظهر منهم ، المهدي أبو محمد عبيد الله (٢) وهو [الذي] بنى المهديّة وملك إفريقية جميعها ، وقام بالأمر بها بعده ، ابنه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد ، ثم ابنه المنصور بالله أبو الطاهر إسماعيل ابن محمد ، ثم ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد — وهو الذي سير العساكر إلى مصر مع مولاه جوهر ، ففتحها وملكها في شعبان من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وبني القاهرة — وخرج المعز من إفريقية ، فأقام بمصر وأولاده بعده إلى أن انقرضت دولتهم الآن ، فكانت مدة دولتهم مائتي سنة وستا وستين سنة ، وكان مقامهم بمصر مائتي سنة (١٧٦ - أ) وثمان سنين ، وملك منهم أربعة عشر خليفة ، وهم : المهدي ، والقائم بأمر الله ، والمنصور بالله ، والمعز لدين الله ، ثم ابنه العزيز بالله (٣) ، ثم الحاكم بأمر الله ، ثم الظاهر لإعزاز دين الله ، ثم المستنصر بالله [ثم المستعلي بالله ، ثم الأمر بأحكام الله (٤)] ثم الخافض لدين الله ، ثم الظافر بالله ، ثم الفائز بنصر الله ، ثم العاضد لدين الله وهو آخرهم . ولقد أتينا على ذكر ما أجمعناه في المستقصى في التاريخ ، وإنما نذكر ههنا ما تدعو الحاجة إليه .

ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره ، إختار منه ما أراد ووهب أهله وأمرائه (٥) ، وباع منه [شيئاً] كثيرآ . وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك ، قد جمع على طول السنين وعمر الدهور ، فمنه : القضيبي الزمرد طوله نحو قبضة ونصف ، والجليل الياقوت وغيرهما ، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد .

ولما خطب للمستضيء بأمر الله بمصر ، أرسل نور الدين (١٧٦ - ب) إليه يعرفه ذلك ، فحل عنده أعظم محل ، وسير إليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صندل المقتفوي إكراماً له ، لأن عماد الدين كان كبير المحل في الدولة العباسية ثبتها الله تعالى ، وكذلك أيضاً سير خلعاً لصلاح الدين ، إلا أنها أقل من خلع نور الدين ، وسيرت الأعلام السود لتنصب على المنابر ، وكانت هذه أول أهبة عباسية دخلت مصر بعد استيلاء العلويين عليها .

(١) بالأصل : فندم . (٢) بالأصل : عبيد الله . (٣) بالأصل : بالله العزيز .

(٤) ما بين الحاصرتين ، سقط بالأصل . (٥) بالأصل : وأمرآيه .

ذكر الوحشة بين نور الدين

وصلاح الدين باطنا

وفي سنة سبع وستين أيضاً، جرى ما أوجب نفرة نور الدين من (١) صلاح الدين . وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنج ، والنزول على الكرك ومحاصرتة ، ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه ، ويحتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم ، وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر^(٢) ، وكان (١٧٧ - أ) نور الدين قد جمع عساكره وتجهز ، وأقام ينتظرو ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو ، فلما أتاه الخبر بذلك ، رحل عن دمشق عازماً على قصد الكرك فوصل إليه ، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول إليه باختلال البلاد ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها ، فلم يقبل نور الدين عذره .

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين ، فحيث لم يمثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده ، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها ، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين ، فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم ما بلغه (٢) من عزم نور الدين [على] قصده وأخذ مصر منه ، فاستشارهم فلم يجبه (٣) أحد منهم بشيء ، فقام تلقى الدين عمر — ابن أخى صلاح الدين — وقال : إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد ، ووافقته غيره من (١٧٧ - ب) أهله . فشتتهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه — وكان ذا رأى ومكر وعقل — وقال لتلقى الدين : أقعد ، وسبه ، وقال لصلاح الدين : أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين خالك ، أظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا ، فقال : لا . فقال : والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا ، كيف يكون غيرنا ، فكل من تراه من الأمراء والعساكر ، لو رأى نور الدين وحده ، لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النزول وتقبيل (٤) الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له وقد أقامك فيها ، وإن أراد عزلك فأى حاجة به إلى المجيء ، يأمر بك كتاب مع

(١) بالأصل : عن .

(٢) بالأصل : بلغه . (والنصحیح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ٢٠٤) .

(٣) بالأصل : يجبه .

(٤) بالأصل : يقبل . (والنصحیح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ٢٠٤) .

نجاب حتى تقصد خدمته ويولى بلاده من يريد . وقال للجماعة كلهم : قوموا عنا ، فنحن بمالك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد ، فتفرقوا على هذا ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر . ولما خلا (١) أيوب (١٧٨ - أ) بابنه صلاح الدين ، قال له : أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك ، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد ، جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد ، ولو قصدك لم تر معك أحدا من هذا العسكر ، وكانوا أسلموك إليه ، وأما الآن بعد هذا المجلس ، فسيكتبون (٢) إليه ويعرفونه قولى ، وتكتب أنت إليه وترسل فى [هذا (٣)] المعنى وتقول : أى حاجة إلى قصدى ، يحىء نجاب يأخذنى بحبل يضعه فى عنقى ، فهو إذا سمع (٤) هذا عدل عن قصدك ، واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج والله كل وقت فى شأن . ففعل صلاح الدين ما أشار به والده ، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا ، عدل عن قصده ، وكان الأمر كما قال نجم الدين ، توفى نور الدين ولم يقصده ولا أزاله ، وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها .

فى ذكر اتخاذ نور الدين حمام الهوادى

وفى سنة سبع وستين ، أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادى .، وهى المناسيب التى تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها ، واتخذت (١٧٨ - ب) فى سائر بلاده .

وكان سبب ذلك أنه اتسعت بلاده وطالت مملكته ، فكانت من حد النوبة إلى باب همدان ، لا يتخللها سوى بلاد الفرنج . وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور ، فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم [يكنونوا (٥)] قد بلغوا بعض الغرض ، فحينئذ أمر بذلك ، وكتب به إلى سائر البلاد وأجرى الجرايات [لها (٥)] ولربها (٦) ، فوجد بها راحة كثيرة [فقد] كانت الأخبار تأتیه لوقتها ، فإنه كان له فى كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التى تجاورهم ، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً ، كتبوه لوقتہ وعلقوه على الطائر وسرحوه ، فيصل إلى المدينة التى هو منها فى ساعته ، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذى يجاورهم فى الجهة التى فيها نور الدين ، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه ، فأنحفظت (٧) الثغور بذلك . حتى أن طائفة من الإفرنج نازلوا ثغراً له ، فأثناء الخبر ليومه ، فكتب (٨) إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو ، ففعلوا ذلك ، فظفروا والفرنج آمنون (١٧٩ - أ) لبعد نور الدين عنهم ، فرحمه الله ورضى عنه ، ما كان أحسن نظره للرعايا والبلاد .

(١) بالأصل : خلى . (٢) بالأصل : فسيكتبون . (٣) الإضافة من ، الروضتين (٤) بالأصل : ذا اسمع . (٥) الإضافة من ، الروضتين (٦) بالأصل : لربها . (٧) بالأصل : فأنحفظت . (٨) بالأصل : وكتب .

ذكر قصد نور الدين الشهيد بلاد قلعج أرسلان

في سنة ثمان وستين وخمسمائة ، سار نور الدين نحو ولاية الملك عز الدين قلعج أرسلان بن مسعود بن قلعج أرسلان بن سليمان السلجوقي ، وهي ملطية (١) ، وسيواس (٢) ، وقونية ، وأقصر ، عازما على حربه وأخذ بلاده منه .

وكان سبب ذلك ، أن ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرهما من البلاد ، قصده قلعج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريدا فريدا ، فسار إلى نور الدين مستجيرا به وملتجئا إلى ظله ، فأكرم نزله وأحسن إليه ، وحمل له ما يليق أن يحمل إلى الملوك ، ووعد النصر والسعي في رد ملكه إليه . وكانت عادة نور الدين أنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة ، إما ليستعين بها على قتال الفرنج ، أو للخوف عليها منهم ، كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما . فلما قصده ذو النون ، راسل قلعج أرسلان وشفع إليه في إعادة ما غلب عليه من بلاده فلم (١٧٩ - ب) يجبه إلى ذلك ، فسار نور الدين نحوه (٣) ، فابتدأ بحصن بهسنا (٤) ومرعش فملكهما (٥) وما بينهما من الحصون ، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها . وكان قلعج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده ، قد سار من أطرافها التي تلي الشام إلى وسطها ، خوفا وفرقا ، وراسل (٦) نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه ، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب ، فأتاه عن الإفرنج ما أزعجه (٧) فأجابه إلى الصلح . وكان في جملة رسالة نور الدين إليه : إني أريد منك أمورا وقواعد ، ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء : أحدها أنك تجدد إسلامك على يدرسولي حتى يحل لي إقرارك على بلاد الإسلام ، فإني لا أعتقدك مؤمنا — وكان قلعج أرسلان يهتم باعتقاد مذهب الفلاسفة — والثاني ، إذا طلبت عسكرك (٨) إلى الغزاة تسيره ، فإنك قد ملكت طرفا كبيرا (٩) من بلاد الإسلام وتركت الروم وجهادهم وهادتهم ،

-
- (١) ملطية : نهر من نهر الجزيرة ممالي الروم . وهي مدينة كبيرة من أكبر الثغور التي دون جبل اللكام ، وتحف بها جبال كثيرة الجوز ، وسائر الثمار مباح لا مال له . وبين ملطية ومنبج أربعة أيام . وتبدأ بلاد الشام — من حيث المسافة الطولية — بملطية ، وتنتهي برفح . (الاصطخري ، ص ٤٣/٤٦/٤٧/٤٨) .
- (٢) سيواس : بلد بآسيا الصغرى ، يمر بواديها نهر قرل إرمك . وهي واقعة على مسافة ستين ميلا من قيسارية ، وعلى مسيرة يومين من توقات . (٣) بالأصل : نحواد . (٤) بالأصل : بهسنى . (والتصحیح من ، ياقوت) وبهسنا : بفتحين وسكون السين ونون وألف . قلعة حصينة عجيبة بقرب مرعش وسميساط ، ورستاقها هو رستاق كيسوم ، وهو على سن جبل عال . وهي اليوم (في زمن ياقوت) من أعمال حلب .
- (٥) بالأصل : فملكها . (٦) بالأصل : وأرسل . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح ١/س/٢١٤) .
- (٧) في مرآة الزمان (ح ٨/س/٢٩٤) أن نور الدين علم أن الفرنج قد نزلوا على حمص .
- (٨) بالأصل : عسكرا . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح ١/س/٢١٤) . (٩) بالأصل : كثيرا (والتصحیح من ، الروضتين ، ح ١/س/٢١٤) .

فإما أن تنجذني بعسكرك^(١) لاقاتل بهم الإفرنج (١٨٠ — أ) وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم . والثالث أن تزوج ابنتك بسيف الدين غازي ولد أخى ، وذكر أموراً غيرها . فلما سمع قليج أرسلان الرسالة ، قال : ما قصد نور الدين إلا الشناعة على بالزندقة^(٢) وقد أجبته^(٣) إلى ما طلب ، أنا أجدد إسلامي على يد رسوله . واستقر الصلح ، وعاد نور الدين وترك عسكره في سيواس مع غفر الدين عبدالمسيح في خدمة ذى النون ، فبقى العسكر بها إلى أن مات نور الدين ، فرحل العسكر عنها وعاد قليج أرسلان وملسكها .

ذكر وفاة السلطان الملك العادل نور الدين

ابن عماد الدين زنكي

توفي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آقستقر بدمشق ، يوم الأربعاء حادى عشر شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة ، بعلّة الخوانيق ، ودفن بقلعة دمشق ، ثم نقل عنها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين .

وكان قد شرع بتجهيز المسير^(٤) إلى مصر لأخذها من صلاح الدين ، فإنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج (١٨٠ — ب) من ناحيته ، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها [مع ابن أخيه سيف الدين^(٥)] في الشام لمنعه^(٦) من الفرنج ، ليسير هو بعساكره إلى مصر . وكان المانع لصلاح الدين من الغزو خوف نور الدين ، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال الفرنج من طريقه أخذ البلاد منه ، فكان يحتّمى بهم عليه ولا يؤثر استئصالهم ، وكان نور الدين لا يرى إلا الجد في غزوهم بجهد وطاقته ، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه ، تجهز^(٧) للمسير إليه ، فأتاه أمر الله الذي لا يرد .

حكى لى طبيب دمشق يعرف بالرجي — وهو من حذاق الأطباء — ، قال : استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيرى من الأطباء ، فدخلنا عليه^(٨) — وهو في بيت صغير بقلعة دمشق — وقد تمسكت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته . فكان يخلو فيه للتعبّد في أكثر أوقاته ، فابتدأ^(٩) به المرض فيه فلم ينتقل عنه ، فلما دخلنا إليه ورأينا ما به ، قلت له :

-
- (١) بالأصل : بعسكر . (والنصحيج من ، الروضتين ، ح/١/ص/٢١٤) .
 (٢) بالأصل : الزندقة . (٣) بالأصل : اجته .
 (٤) بالأصل : للمسير . (٥) الإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/١٢٤) .
 (٦) بالأصل : تمنعه . (٧) بالأصل : فتجهز . (٨) بالأصل : فإليه .
 (٩) بالأصل : فاشدا (والنصحيج من ، الروضتين ، ح/١/ص/٢٢٨) .

[كان ينبغي أن لا تؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض إلى هذا الحد (١)] فالآن (٢) ينبغي أن تنتقل عن هذا (١٨١ - أ) الموضوع إلى مكان فسيح فله أثر في هذا المرض ، وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ، ومات عن قريب رضى الله عنه .

وكان أسمر ، طويل القامة ، ليس له لحية إلا في حنكه ، وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة ، حلو العينين .

ولما توفي كان قد اتسع ملكه جدا ، فملك الموصل ، وديار الجزيرة ، وأطاعه أصحاب ديار بكر ، وملك الشام ، والديار المصرية . وأمر بمسير جند من مصر إلى اليمن فساروا - ومقدمهم شمس الدولة بن أيوب أخو صلاح الدين - فملكها ، وخطب له بالحرمين مكة والمدينة . وكان مولده تسع عشر شوال من سنة إحدى عشرة وخمسمائة . وطبق ذكره الأرض لحسن سيرته وعمله . وأنا أذكر من حاله ما تعلم [به] أن الله تعالى كمله ، وأنه لم يكن مثله إلا الشاذ النادر .

في ذكر ولاية ابنه الصالح إسماعيل

رضى الله عنه

لما توفي نور الدين ، جلس ابنه الملك الصالح إسماعيل في الملك ولم يبلغ الحلم (٣) ، وحلف له الأمراء والمقدمون (٤) بدمشق وأقام بها ، وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام (١٨١ - ب) وصلاح الدين بمصر ، وخطب له بها ، وضرب السكة باسمه فيها . وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد ابن المقدم . وحكى لى البقرة قتيلغ البكالى ، قال : لما توفي نور الدين قال صاحبى كمال الدين [محمد الشهرزورى] للأمراء ، ومنهم شمس الدين بن المقدم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحى وغيرهما من أكابر الأمراء : قد علمتم أن صلاح الدين من ممالك نور الدين ونوابه ، والمصلحة [أن] نشاوره فيما نفعله ، ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر ، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة (٥) الملك الصالح ، فلم يوافق أغراضهم هذا القول ، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجهم (٦) . قال : فلم يضر غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يهنئه بالملك ويعزبه بأبيه ، وأرسل دنانير مصرية

(١) الإضافة من ، الروضتين ، (٢٢٨ / ص / ١ / ح) .

(٢) بالأصل : كان . (والتصحیح من ، الروضتين ، (٢٢٨ / ص / ١ / ح) .

(٣) كان عمر الصالح إسماعيل ، إحدى عشرة سنة . (السكامل ، (١٢٦ / ص / ٩ / ح) .

(٤) بالأصل : المتقدمون . (٥) بالأصل : بخدمة . (٦) بالأصل : ويخرجون . (والتصحیح من

السكامل ، (١٢٦ / ص / ٩ / ح) .

عليها اسمه ، ويعرفه أن الخطبة له والطاعة كما كانت لو والده . فلما سار سيف الدين غازي ابن عمه قطب الدين وملك الديار الجزرية ، ولم يرسل من مع الملك الصالح من الأمراء إلى صلاح الدين (١٨٢- أ) ولا أعلموه الحال ، كتب إلى الملك الصالح يعقبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده [وأخذها (١)] ليحضر في خدمته ويكفه . وكتب إلى كمال الدين وإلى الأمراء يقول : إن الملك العادل ، لو علم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته بى ، لسلم إليه مصر التى هى أعظم السكة ولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت ، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواى ، وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاي دونى ، وسوف أصل إلى خدمته ، وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه وإهمال أمر الملك الصالح ومصلحه حتى أخذت بلاده . فقال لهم كمال الدين : هذا الذى كنت حذرتكم [منه] فأقام الملك الصالح بدمشق ومعه جماعة من الأمراء ولم يمكنوه من المسير إلى حلب لثلاث غلبهم عليه شمس الدين على بن الداية ، فإنه كان أكبر الأمراء النورية ، وإنما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه ، وكان هو وإخوته بحلب ، وأمرها (١٨٢- ب) إليهم ، وعساكرها معهم فى حياة نور الدين وبعده ، ولما عجز عن الحركة ، أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ليمتع البلاد من سيف الدين ابن عمه ، وأرسل إلى كمال الدين والأمراء يقول لهم : إن سيف الدين قد ملك إلى الفرات ، ولئن لم ترسلوا الملك الصالح إلى حلب ، حتى يجمع (٢) العساكر ويسترد ما أخذه منه ، وإلا عبر سيف الدين إلى حلب ، ولا نقوى على منعه ، فلم يرسلوه ولا يمكنوه من قصد حلب ، فكان من سيف الدين فى ملك البلاد الجزرية ما نذكره إن شاء الله تعالى .

فى ذكره بعض سيرة الملك العادل نور الدين محمود

رضى الله عنه

قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ، ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، وإحسان (١٨٣- أ) يوليه ، وإنعام يسديه . وقد تقدم من أحواله فى ملكته ما يستدل به على ما ذكرنا . ونحن نذكر (٣) ههنا ما تعلم به محله فى أمر دنياه وأخراه ، فلو كان فى أسة لافتخرت به ، فكيف فى بيت واحد .

(٢) بالأصل : يستجمع .

(١) الإضافة من ، السكامل (٢/٩/ص/١٢٦) .

(٣) بالأصل : فذكره .

فأما زهده وعبادته وعلمه ، فإنه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه ، إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين . أحضر الفقهاء واستفتاهم (١) في أخذ ما يحل له من ذلك ، فأخذ ما أفتوه (٢) بحله ولم يتعده إلى غيره ألبته . ولم يلبس قط ما حرمة الشرع من حرير أو ذهب أو فضة . ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ، ومن إدخالها إلى بلد ما ، وكان يحد شاربها الحد الشرعي ، وكل الناس عنده فيه سواء .

حدثني صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين أنر ، زوجة نور الدين ووزيرها ، قال : كان نور الدين (١٨٣ - ب) إذا جاء إليها يجلس في المكان المختص به ، وتقوم في خدمته لا تتقدم إليه إلا أن يأذن لها في أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها ، وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال ، أو مطالعة كتاب أتاه ويحجب عنه (٣) . وكان يصلي فيطيل الصلاة ، وله أوراد في النهار ، فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام ، ثم يستيقظ نصف الليل ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء إلى بكرة ، ثم يظهر للركوب ويشغل بمهام الدولة . قال : وإنها قلت عليها النفقة ، ولم يكفها ما كان قد قرره لها ، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها (٤) فلما قلت له [ذلك] تشكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ، أما يكفها مالها والله لا أخوض نار جهنم في هواها ، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس (٥) الظن ، إنما هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتح إن كان من عدو الإسلام ، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها (٦) . ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين (١٨٤ -) ملكا (٧) قد وهبتها إياها فلأأخذها . قال : وكان يحصل منها قدر قليل .

وكان رحمه الله لا يفعل فعلا إلا بنية حسنة . كان رجل بالجزيرة من الصالحين كثير العبادة والورع ، شديد الإنقطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله ويعتقد فيه [اعتقادا] حسنا ، فبلغه أن نور الدين يدمع (٨) اللعب بالكرة ، فكتب إليه يقول له : ما كنت أظن أنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية . فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول له : والله ما حملني على اللعب بالكرة ، اللهو والبطر ، إنما نحن في ثغور العدو قريب منا ، وبيننا نحن جلوس إذ يقع الصوت فنركب في الطلب ، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلا

(١) بالأصل : واستفتاهم . (٢) بالأصل : أفتوه . (٣) بالأصل : ويجب عنها .
(٤) الوظيفة : أى المبلغ المخصص لنفقتها ، كما يفهم من السياق . وفى (لسان العرب) : الوظيفة من كل شيء ، ما يقدر له فى كل يوم من رزق أو طعام أو علف أو شراب . وجعلها الوظائف ، والوظف . (٥) بالأصل : فيبئس .
(٦) بالأصل : فيها . (٧) بالأصل : ملكا . (٨) بالأصل : يدمع .

ونهارا ، شتاء وصيفا ، إذ لا بد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جهاما (١) لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب ، ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الإنعطاف في السكر والفر في المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب جهامها وتتعود سرعة الإنعطاف (١٨٤ — ب) والطاعة لراكبها في الحرب ، فهذا والله هو الذي يبعثني على اللعب بالكرة . فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير ، الذي يقل (٢) في أصحاب الروايا المنقطعين إلى العبادة مثله ، فإن من يجيء إلى اللعب ويفعله بنية صالحة ، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر القربات ، يقل في العالم مثله ، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة ، وهي أفعال العلماء الصالحين العاملين .

وحكى لي عنه ، إنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرقيق مذهبة فلم يحضرها عنده ، فوصفت له فلم يلتفت [إليها] ، وبينما هم معه في حديثها ، وإذا قد جاءه رجل صوفي فأمر بها له ، فقبل [له] : إنها لا تصلح لهذا الرجل ، ولو أعطى غيرها لكان أنفع له . فقال : أعطوها له ، فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة ، فسلمت إليه ، فسار بها إلى بغداد فباعها بستائة دينار أميري أو سبعمائة دينار ، أنا أشك [أنها] كانت تساوي (٣) أكثر .

وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن الشكري (١٨٥ — أ) رحمه الله تعالى — وكان خصيصاً لخدمته قد صحبه من الصبا وأنس به وله معه إنسياط — قال : كنت معه يوماً في الميدان بالرها نسير والشمس في ظهورنا ، فكلما سرنا تقدمنا ظلنا ، فلما عدنا صار ظلمنا وراء ظهورنا ، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه ، فقال لي : أتدرى لأي شيء أجرى فرسي وألتفت ورأى ، قلت : لا . قال : قد شبت ما نحن فيه بالدنيا ، تهرب من طلبها وتطلب من هرب منها . وكان رحمه الله يصلي كثيراً من الليل ، ويدعو ويستغفر ويقرأ ، ولا يزال كذلك إلى أن يركب .

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب في المحراب

وكان عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة ، ليس عنده [فيه] تعصب بل الإنصاف سمجته في كل شيء . وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر . وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك إتباع سنة العدل والإنصاف ، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك ، فإنهم كانوا قبله (١٨٥ — ب) كالجاهلية ، همه أحدهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروف ولا ينكر منكراً ، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه ، وألزم بذلك أتباعه وذويه ، فاقضى به غيره منهم ، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه . « ومن سن سنة حسنة كان له أجرها

(١) الجمام (بالفتح) الراحة . وجم الفرس ، ترك فلم يركب ؟ فعلمنا من تعبه وذهب لعيأوه . (لسان العرب) .

(٢) بالأصل : تسوى .

(٣) بالأصل : لعل .

وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة^(١)، فإن قال قائل : كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجي إليه الأموال الكثيرة ، فليذكر نبي الله سليمان بن داود عليه السلام مع [اتساع] ملكه ، وهو سيد الزاهدين في زمانه ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت ، واليمن ، والحجاز ، وجزيرة العرب جميعها من حدود الشام إلى العراق ، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين . وإنما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد^(٢) عنها .

وأما عدله

فإنه كان من أحسن الملوك سيرة ، وأعدلهم حكماً . فمن عدله أنه لم يترك (١٨٦ — أ) في بلد من بلاده ضريبة لا مكسا ولا عشرا ، بل أطلقها جميعها في بلاد الشام ، والجزيرة جميعا ، والموصل وأعمالها ، وديار مصر وغيرها بما حكم عليه . وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينارا ، فأطلقها ، وهذا لم يتسع له نفس غيره . وكان يتحرى^(٣) العدل ، وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان ، القوي والضعيف عنده في الحق سواء ، فكان يسمع شكوى المظلوم ، ويتولى كشف حاله بنفسه ، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير ، فلا جرم [أن] سار ذكره في شرق الأرض وغربها .

ومن عدله

أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ، ويقول : نحن شئنا لها نمضى أوامرنا . فمن أتباعه أحكامها ، أنه كان يوما يلعب بالكرة^(٤) بدمشق ، فرأى إنسانا [من أتباعه]^(٥) يحدث آخرو يومئذ بيده إليه ، فأرسل إليه يسأله عن حاله ، فقال : لى مع الملك العادل حكومة^(٦) ، وهذا غلام القاضى ليحضره [معى]^(٧) إلى مجلس الحكم يحاكمنى على الملك الفلانى ، فعاد إليه ولم (١٨٦ — ب) يتجاسر [أن] يعرفه ما قال ذلك الرجل وغالطه ، فلم يقبل منه غير الحق ، تذكر له قوله ، فألقى الجوكان من يده ، وخرج من الميدان وسار إلى القاضى^(٨) يقول [له] : إني قد جمعت محاكما ، فاسلك معى ما تسلكه مع غيرى ، فلما حضر ساوى [بينه وبين] خصمه وحاكمه ، فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين ، فقال نور الدين حينئذ للقاضى ولما حضر : هل ثبت له عندى حق ،

(١) حديث شريف . (٢) بالأصل : لا إليه عنها . (والتصحیح من الروضتين ، ح / ١ / ص / ٧) .

(٣) بالأصل : يتجرى . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ٧) . (٤) بالأصل : الكورة .

(٥) الإضافة من ، السكواك الدرية (مخطوط ، ورقة ٤ و) . (٦) أى خصومة .

(٧) الإضافة من . السكواك الدرية (مصور ، لوحة / ١٠) . (٨) في الروضتين (ح / ١ / ص / ٧) ،

أنه كال الدين بن الشهرزورى .

فقالوا : لا . فقال : إشهدوا أنني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه ، وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي ، وإنما حضرت معه لئلا يظن أنني ظلمته ، فحيث ظهر أن الحق لي وهبته [له] ، وهذا غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان وهي درجة وراء العدل ، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق ، الواقعة معه .

قال صاحب التاريخ . ومن عدله قدس الله روحه ونور ضريحه من نور فسيحه ، أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي جرت بها عادة الملوك في هذه الأعصار على الظنة والتهمة ، بل يطلب الشهود على المتهم ، فإن قامت عليه البينة الشرعية ، عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة . وأمنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر .

وحكى لي من أثق به ، إنه دخل يوما إلى خزانة المال ، فرأى فيها مالا أنكره ، فسأل (١) عنه فقيل : إن القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا ، فقال : إن [هذا] المال ليس لنا ولا لبنت المال في هذه الجهة شيء ، وأمر بإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه ، فأرسله متولى الخزانة إلى كمال الدين فردّه إلى الخزانة مرة [أخرى] وقال : إذا سأل الملك العادل عنه ، فقولوا له عني ، إنه له ، فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى فرآه ، فأنكر على النواب ، وقال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه ، فذكروا له قول كمال الدين فردّه إليه ، وقال للرسول : قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا [المال] وأما أنا فريقي دقيقة (١٨٧ — ب) لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى ، يعاد قولا واحدا فأعاده .

ومن عدله أيضا بعد موته — وهو [من] أعجب ما يحكى عنه — ، أن إنسانا كان بدمشق غريبا قد استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين ، فلما توفي وملكها (٢) صلاح الدين ، كان أجناده وأمرأؤه يفعلون ما يريدون ولا يمنعهم ، فتعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه ، فلم ينصفه صلاح الدين ، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه ، وهو يقول : يا نور الدين ، لورأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا ، أين عدلك عنا ، وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى ، وكلهم يبكي ويصيح ، فوصل الخبر إلى صلاح الدين ، وقيل له : لحفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك ، فأرسل إلى ذلك الرجل — وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه — فطيب قلبه ، ووهبه [شيئا] وأنصفه ، فبكى أشد من الأول ، فقال له صلاح الدين : لم تبكي ، فقال : أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته ، فقال صلاح الدين (١٨٨ — أ) : وهذا هو الحق ، وكل ما يرى فينا من عدل فمنه تعلمناه .

فصل في ذكر بناءه دار العدل

رحمه الله وأسكنه فسيح جناته

كان الملك العادل نور الدين رضى الله عنه ، أول من بنى داراً لكشف المظالم وسماها دار العدل . وكان سبب بنائها ، أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراًؤه وفيهم أسد الدين شيركوه — وهو أكبر أمير معه ، وقد عظم شأنه وعلا مكانه حتى صار كأنه شريك في الملك — واقتنوا الأملاك فأكثروا ، وتعدى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها ، فكثرت الشكوى إلى كمال الدين ، فأَنصف بعضهم من بعض ، ولم يقدم على الإنصاف من أسد الدين شيركوه ، فأَنهى الحال إلى نور الدين ، فأمر حينئذ ببناء دار العدل ، فلما سمع أسد الدين ذلك ، أحضر نوابه جميعهم ، وقال لهم : إعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي ، وإلا فن هو الذي يتمتع على كمال الدين ، والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبته (١٨٨ — ب) فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة [في ملك (١)] فافصلوا الحال معه ، وأرضوه بأى شيء أمكن ، ولو أتى ذلك على جميع ما يبدى ، فقالوا له : إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب . فقال : خروج أملاكى عن يدي أسهل عندي من أن يرانى نور الدين بعين أنى ظالم ، أو يساوى بيني وبين آحاد (٢) العامة في الحكومة (٣) . فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم ، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم ، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات . وكان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضى والفقهاء ، فبقى كذلك مدة ، فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين ، فقال لكمال الدين : ما أرى أحداً يشكو من شيركوه . فعرفه الحال ، فسجد فشكر الله تعالى وقال : الحمد لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا . فانظر إلى هذه المعدلة ما أحسنها ، وإلى هذه الهيبة ما أعظمها ، وإلى هذه السياسة ما أشدها . هذا مع أنه كان لا يريق دماً ، ولا يبالغ في عقوبة ، وإنما كان يفعل (١٨٩ — أ) هذا صدقة في عدله وحسن نيته .

وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما ، فإنه كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأياً ، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم ، وبه كان يضرب المثل في ذلك . سمعت جمعا كثيراً من الناس لا أحصيهم [يقولون] إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه ، كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل .

وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها ، لم ير جوكانه (٤) يعلو على رأسه ، وكان

(١) الإضافة من الروضتين (١ / ص ٨) (٢) بالأصل : أجساد . (والتصحیح من الروضتين ، ١ / ص ٨) . (٣) الحكومة هنا ، بمعنى القضاء . (٤) بالأصل : جواكانه .

ربما ضرب الكرة فتعلو ، فيجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان ، وكانت يده لا ترى والجو كان فيها ، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب .

وكان إذا حضر الحرب ، أخذ قوسين وتركشين (١) وبأشر القتال بنفسه ، وكان يقول : طالما تعرضت للشهادة (٢) فلم أرزقها . سمعه يوماً الإمام قطب الدين النيسابوري — الفقيه الشافعي — وهو يقول ذلك ، فقال له : بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين (١٨٩ — ب) فإنك عمادهم ، وإن أصبت والعياذ بالله في معركة ، لا يبقى من المسلمين أحد إلا وأخذه السيف ، وأخذت البلاد . فقال له : يا قطب الدين ، ومن محمود حتى يقال له هذا ، قبل من حفظ البلاد والإسلام ، ذلك الله الذي لا إله إلا هو .

وكان رحمه الله يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج خذلهم الله تعالى ، وأكثر ما ملسكه من بلادهم به . ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب ، فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً (٣) . وكان يقاتل به الفرنج . وكان يقول : إنما حملني على استمالته ، أن بلاده حصينة وعرة المسلك ، وقلاع منيعة ، وليس لنا إليها طريق ، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام ، فإذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه ، فلما رأيت الحال هكذا ، بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا ، وساعدنا على الفرنج . وحين (٤) توفي نور الدين (١٩٠ — أ) وسلك من بعده غير هذا الطريق ، ملك المتولى للأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد المسلمين وحصونهم ، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقهه .

ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده ، فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولداً ، أقر إقطاعه (٥) عليه ، فإن كان الولد كبيراً ، استبد بنفسه ، وإن [كان] صغيراً رتب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر ، فكان الأجناد يقولون ، هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عنها . وكان ذلك سبباً عظيماً (٦) من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب . وكان أيضاً يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه ، وسلاحهم ودوابهم ، خوفاً من أن حرص بعض الأمراء وشحه يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد ، ويقول : نحن كل وقت بصدد النفير ، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد ، دخل الوهن على الإسلام . ولقد صدق رضى الله عنه فيما قال ، وأصاب فيما فعل ، فلقد رأينا ما خافه عياناً .

(١) تركش : كلمة فارسية ، معناها : جعبة ، كنانة (المعجم في اللغة الفارسية) وهي التي توضع فيها النبال .

(٢) بالأصل : الشهادة .

(٣) بالأصل : وحدوا .

(٤) بالأصل : وحيث .

(٥) بالأصل : الإقطاع .

(٦) بالأصل : سبب عظيم .

(١٩٠ - ب) وأما ما فعله من المصالح

الذى فعله من المصالح في بلاد الإسلام مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم ، ونحن نذكر طرفاً منه . فمن ذلك أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها ، فمنها : حاب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق ، وبارين ، وشيزر ، ومنبج وغيرها من القلاع والحصون وحصنها ، وأحكم بناءها ، وأخرج عليها من الأموال ما لا تسمح به النفوس .

وبنى أيضاً المدارس بحلب ، وحماة ، ودمشق ، وغيرها للشافعية والحنفية .

وبنى الجوامع في جميع البلاد ، فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان . ومن أحسن ما عمل فيه ، أنه فوض أمر عمارته والخروج عليه إلى الشيخ عمر الملا رحمه الله - وهو رجل من الصالحين - ، فقيل له : إن هذا [الرجل] لا يصلح لمثل هذا العمل . فقال : إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتاب أعلم أنه يظلم في بعض الأوقات ، ولا يفي الجامع بظلم رجل مسلم ، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني (١٩١ - أ) أنه لا يظلم ، فإذا ظلم كان الإثم عليه لا علي . وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم . وبني أيضاً بمدينة حماة جامعاً على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأزهرها . وجدد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم ، إما برزلة أو بغيرها .

وبنى البيمارستانات في البلاد ، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق ، فإنه عظيم كثير الخرج . بلغني أنه لم يجعله رقفاً على الفقراء حسب ، بل على كافة المسلمين من غنى وفقير . ولقد جرى لي مع طبيبه ما أذكره ، وذلك أنني قدمت من زيارة بيت المقدس - بعد أن فتحه المسلمون - مريضاً ، فسألت عن طبيب فدلوني على مغربي فأتيته ووصفت له مرضي ، فوصف لي وصفة لم يرضني قوله ، فعادته القول فتركتني ومضى ، فأنتفت نفسي وضائق الدنيا في عيني ، وعزمت على أن لا أعالج نفسي إلا بما تنتهي إليه معرفتي ، واشتد مرضي لما نالني من الغيظ ، فلما كان الغد ، قوى عزمي على قصد (١٩١ - ب) طبيب يعالجني ، فركبت ودخلت البلد وسألت عن طبيب ، فدالت على طبيب هذا البيمارستان ، فأتيته فيه وهو يكتب نسخاً للمرضى الذين به ، فلما رأيته قد قاربته ، أقبل على بوجه منبسط وسألني (١) عن حالتي فوصفتها (٢) له ، فمكتب لي نسخة ، وقال لي : يحمل غلامك ما في هذه النسخة . فقلت : لا حاجة بي إلى ذلك ، فقد أغنانني الله عن مزاحمة الفقراء . فقال : يامولاي ، لا أشك أنك في غنى عن هذا ، ولكن لا يأنف أحد من صدقة نور الدين وإنعامه ، والله إن أولاد السلطان صلاح الدين وأهله ليأخذون من الأدوية

(٢) بالأصل : فوصفته .

(١) بالأصل : وسألني .

من هذا اليمارستان . فقلت : أنا لا أرى ذلك . فقال : إنه وقف على كافة المسلمين غنيهم وفقيرهم (١) ، فوجدت في نفسي بكلامه إنبساط . فحكيت له حكاية ذلك الطبيب ، فقال : يا مولاي ، مغربي وقد أقام بالشام لا يكون إلا هكذا ، وأما أنا فما تراه في من أدب الناس فمن عندكم وبلادكم ، فإني سافرت إلى الموصل والعراق . فشكرته وعدت عنه ، رضى الله عنه .

(١٩٢ — أ) وبني أيضا الخانات في الطرق ، فأمن الناس وحفظت أموالهم ، وباتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر .

وبني أيضا الأبراج على الطرق ، وبين بلاد المسلمين والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي ، فإذا رأوا من العدو أحداً أرسلوا الطيور ، فأخذ (٢) الناس حذرهم واحتاطوا لأنفسهم ، فلا (٣) يبلغ العدو منهم غرضاً . وكان [هذا] من ألطف الفكر وأكثرها نفعاً ، رحمه الله تعالى .

وبني أيضا الربط والخانات في جميع البلاد للصوفية ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ، وأدر عليهم الإدارات الصالحة ، وكان يحضر عنده مشايخهم ويقربهم ويدنيهم ويبسطهم ويتواضع لهم ، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه ، ويعتقه ويجلسه معه على سجاده ويقبل عليه بحديثه . وكذا أيضاً كان يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والإحترام ، ويجمعهم عنده للبحث والنظر ، فقصده من البلاد الشاسعة ، من خراسان وغيرها . وبالجمله فكان أهل الدين (١٩٢ — ب) عنده في أعلى المنازل وأعظمها ، فكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك ، وكانوا يقعون فيهم عنده فينهاهم ، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يقول : ومن المعصوم ، وإنما الكامل من (٤) تعد ذنوبه . بلغني أن بعض الأكابر من الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي — وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه والإحسان إليه — فحسده ذلك الأمير فثأل منه يوماً عند نور الدين ، فقال له : يا هذا ، إن صح ما تقول فله حسنة تغفر (٥) كل زلة تذكرها ، وهي العلم والدين ، وأما أنت وأصحابك ، فقيمكم أضعاف ما ذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحتمل سيئة هذا —

(١) يذكر أبو عامر أنه وقف على كتاب وقف اليمارستان فلم يره مشيراً بذلك ، ولأنما هذا كلام شاع على ألسنة العامة لنفع ما قدره الله تعالى من مزاية الأغنياء للفقراء فيه . ولأنما صرح بأن ما يرين وجوده من الأدوية السكار وغيرها لا يمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء نفس ذلك بذلك « (الروضتين ، ج ١ / ص ٩) .
(٢) بالأصل : فأخذوا . (٣) بالأصل : فلم . (٤) بالأصل : ممن . (٥) بالأصل : ينفو . (والتصحیح من : الروضتين ، ج ١ / ص ٩) .

إن صحت — مع وجود حسنة (١) ، على أننى والله لا أصدقك فيما تقول ، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤذنبك ، فكف عنه . هذا والله هو الإحسان والفعل الذى [ينبغى أن (٢)] يكتب على العيون بماء الذهب .

(١٩٣ — أ) وبني بدمشق أيضا داراً للحديث ، ووقف [عليها (٣)] وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفا كثيرة ، وهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمناه .

وبنى أيضا فى كثير من بلاده مكاتب للآيتام ، وأجرى عليهم وعلى معلمهم الجرايات الوافرة . وبنى أيضا مساجد كثيرة ، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن ، ووقف على الآيتام الذين يقرءون بها القرآن . وهذا فعل لم يسبق إليه . بلغنى من عارف بأعمال الشام ، أن ووقف نور الدين فى وقتنا هذا — وهو سنة ثمان وستائة (٤) — كل شهر تسعة ألف دينار صورية (٥) ، ليس فيها ملك غير صريح شرعى ظاهرا وباطنا ، فإنه وقف ما انتقل إليه ووزن (٦) ثمنه أو (٧) ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه .

فصل فى ذكر وقاره وهيبته

قدس [الله] روحه ونور ضريحه

فإليه النهاية فهما ، فلقد كان كما قيل : شديد فى غير عنف رقيق فى غير ضعف ، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره ، فإنه ضبط ناموس الملك حتى مع أجناسه وأصحابه (١٩٣ — ب) إلى غاية لا مزيد عليها . [وكان] يلزمهم بوظائف الخدمة ، الصغير منهم والكبير . ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس ، إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف ، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه ، ومجد الدين بن الداية وغيرهما ، فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياما إلى أن يأمرهم بالعود . وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم ، إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفى أو الفقير يقوم له ويمشى بين يديه (٨) ، ويجلسه إلى جانبه ، ويقبل عليه بحديثه كأنه

(١) بالأصل : حسنة . (٢) الإضافة من : الروضتين ، (ح/١/ص/١٠) .
(٣) الإضافة من : الروضتين ، (ح/١/ص/١٠) . (٤) حدد ابن الأثير بذكره هذا التاريخ ، السنة التى ألفت فيها كتابه هذا . (٥) بالأصل : صورته (والتصحيح من : الروضتين ، (ح/١/ص/١٠) .
(٦) هكذا أيضا فى الروضتين ، (ح/١/ص/١٠) ولعل المراد : وورث عنه .
(٧) بالأصل : من ، (والتصحيح من : الروضتين ، (ح/١/ص/١٠) .
(٨) بالأصل : ويمشى إلى بين يديه . (وقد أسقط ، المحقق اللفظ : لئلا يلائم زائد) .

أقرب الناس إليه . وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً ، يقول : إن هؤلاء لهم في بيت المال حق ، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة (١) علينا .

وكان مجلسه كما روى في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مجلس حلم وحياء لا تؤبن فيه الحرم ، وهكذا كان مجلسه ، لا يذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحوال الصالحين ، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو ، ولا يتعدى هذا . (١٩٤ — أ) بلغني أن الحافظ أبا القاسم ابن عساكر الدمشقي رضي الله عنه (٢) ، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق فرأى فيه من اللغط ، وسوء أدب الجلوس فيه ما لا أحد عليه ، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين ، فلم يتمكن من القول لكثرة اختلاف المتحدثين (٣) وقلة استماعهم ، فقام وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحي ، وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر ، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه . فقال : نزهت نفسي عن مجلسك ، فإنني رأيتك كبعض مجالس السوق ، لا يستمع [فيه] إلى قائل ولا يرد جواب متكلم ، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل : كأنا [على] رهوسنا الطير ، تعلونا الهيبة (٤) والوقار ، وإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا استمع لنا ، فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه ، أنه (٥) لا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ فكذا كانت أحواله جميعها — رحمه الله تعالى — مضبوطة محفوظة .

وأما حفظه أصول الديانات

(١٩٤ — ب) فإنه رحمه الله تعالى كان مراعيها ، لا يهملها ولا يمكن أحداً من الناس من إظهار ما يخالف الحق . ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته . وكان يبالغ في ذلك ، ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه ، وهو الأصل . حكى لي أن إنساناً كان بدمشق يعرف بيوسف بن آدم ، كان يظهر الزهد والنسك — وقد كثر أتباعه — أظهر شيئاً من التشبيه (٦) ، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حماراً وأمر بصفعه وطيف به في البلد جميعه ، ونودي عليه : هذا جزاء من أظهر في

(١) الأصل : المنة . (٢) هو أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي ، صاحب « تاريخ دمشق » توفي سنة ٥٧١ هـ . (ترجمته في شذرات الذهب ، ج ٤ / ص ٢٣٩) . (٣) بالأصل : المتحدثين . (والصحيح من : الروضتين ، ج ١ / ص ١٠) . (٤) بالأصل : للهيبه . (٥) بالأصل : أنهم . (٦) أي أنه من المشبهة . وهي فرقة إسلامية ، تشبه الله بالخلقوات . (انظر : الملل والنحل للشهرستاني) .

الدين البدع . ثم نفاه من دمشق فسار عنها وقصد حران ، وأقام بها إلى أن مات . ويسوق الله
القصار الأعمار إلى البلاد الوخمة .

فصل من كلام عماد الدين الكاتب فيه

رحمه الله تعالى

قال العماد محمد بن حامد الكاتب - وقد ذكر نور الدين في بعض (١٩٥ - أ) مصنفاته (١) -
فقال : كان ملك بلاد الشام ومالكها ، والذي بيده ممالكها ، الملك العادل نور الدين أعف
الملوك وأتقاهم ، وأتقاهم (٢) رأيا وأتقاهم ، وأعد لهم وأعبد لهم ، وأزهدهم وأجهدهم ، وأظهرهم
وأظهرهم ، وأقراهم وأقدرهم ، وأصلحهم عملا ، وأنجحهم أملا ، وأرجحهم رأيا ، وأوضحهم آيا ،
وأصدقهم قولا ، وأقصد لهم طولا ، وكان عصره فاضلا ، ونصره واصلا ، وحكمه عادلا ، وفضله
شاملا ، وزمانه طيبا ، وإحسانه صيبا ، والقلوب بمهابته ومحبة متملية ، والنفوس بعاطفته وعارفته
متملية ، وأموره مقبلة ، وأوامره متمثلة ، وجده منزّه عن الهزل ، ونوابه في أمن من العزل ،
ودولته مأمولة مأمونة ، وروضته مصوبة مصونة ، والرياسة كاملة ، والسياسة شاملة ، والزيادة
زائدة ، والسعادة مساعدة ، والعيشة ناضرة ، والشيعه ناصرة ، والإنصاف صاف ، والإسعاف عاف ،
وأزر الدين قوى ، وظمأ الإسلام روى ، وزند النجس وورى ، والشرع متبوع ، والحكم (١٩٥ - ب)
مسموع ، والعدل مولى والظلم معزول ، والتوحيد منصور والشرك مخذول ، وللتقى شروق ،
وما للفسوق سوق ، وهو الذى أعاد رونق الإسلام إلى بلاد الشام ، وقد غلب الكفر ، وبلغ
الضر ، فاستفتح معاقليها ، واستخلص عقايلها ، وأشاع بها شعار للشرع في جميع الحل والعقد ،
والإبرام والنقض ، والبسط والقبض ، والوضع والرفع ، وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد
الشام قطائع فقطعها ، وعفى رسومها ومنعها ، ونصره الله عليهم مرارا حتى أسر ملوكهم ، وبدد
ساووكهم ، وصان الثغور منهم ، وحماها عنهم ، وأحيا (٣) معالم العلوم الدوارس ، وبنى لللائمة
المدارس ، وأنشأ الخانقاهات للصوفية وكثرتها (٤) في كل بلد وكثر وقوفها ، وقرر (٥) معروفيها ،
وأدنى للوافدين من جنان جنبه قطوفها ، وأجد الأسوار والخنادق ، وأنى المرافق ، وحسى
الحقائق ، وأمر في الطرقات ببناء [الربط] والخانات ، فضافت (٦) ضيوف الفضائل ، وفاضت

(١) في ، الروضتين (ح / ١ / ص ١٠) أنه كتاب « البرق الشامى » . وقد أورد أبو شامة في كتابه ، نس مائته
ابن الأنبر هنا ، من عماد الكاتب . (٢) بالأصل : وأتقاهم (والتصحيح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص ١٠)
(٣) بالأصل : واهى . (٤) بالأصل : وكبرها . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص ١٠) .
(٥) بالأصل : وفر . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص ١١) . (٦) بالأصل : وضافت .
(والتصحيح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص ١١) .

فيوض (١٩٦ - أ) الفواضل ، وهو الذي فتح مصر وأعمالها ، وأنشأ (١) دولته ورجالها . ولو ذكرت ما قال العلماء فيه لكان مجلدات ، ولكن الاختصار أليق بما نحن فيه والسلام .

في ذكر استيلاء أتابك سيف الدين غازي على البلاد (٢)

الجزرية بعد وفاة نور الدين

كان نور الدين قبل أن يمرض ، قد أرسل إلى البلاد الشرقية الموصل وغيرها يستدعي العساكر منها ، فسار سيف الدين غازي بن أتابك قطب الدين صاحب الموصل في عساكره ، فلما كان ببعض الطريق ، أتاه الخبر بموت عمه الملك العادل نور الدين ، فعاد إلى نصيبين فملكها ، وأرسل الشجن إلى بلد الحابور فاستولوا عليه ، وسار هو إلى حران فحصرها عدة أيام ، وكان بها مملوك نور الدين في قلعتها اسمه قايمز الحرائي ، فامتنع فيها ثم أطاع على أن تكون حران له ، ونزل إلى خدمة سيف الدين فقبض عليه وأخذ حران منه ، وسار إلى الرها فحصرها وملكها ، وأرسل إلى مدينة (١٩٦ - ب) الرقة فملكها ، وكذلك سروج ، واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعه جعبر .

وكان بمدينة حلب وقلعتها الأمير شمس الدين علي بن الداية — وهو من أكبر الأمراء النورية — وهو مريض فلم يمكنه منع سيف الدين عن البلاد الجزرية ، فأرسل إلى دمشق يطلب أن يرسل إليه الملك الصالح في العساكر التي معه بها ، لينزع سيف الدين عن البلاد ، فلم يفعل شمس الدين ابن المقدم — وكان هو المرئي للملك الصالح والقائم بأمره — وخاف أن يرسله فيأخذه أولاد الداية ويسيروا معه إلى دمشق ويزيلوا ابن المقدم عما يتولاه ، فيتمكن (٣) حينئذ سيف الدين من ملكها ، فلما استقام له ملك البلاد الجزرية ، قال له نخر الدين عبد المسيح — وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين ، وقصد سيف الدين ظنا منه أن سيف الدين يرعى له خدمته ، وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين على ما ذكرناه أولا ، فلم يجن ثمرة ما غرس ، وكان عنده كبعض (١٩٧ - أ) الأمراء — فقال له : ليس بالشام من يمنعك ، فاعبر الفرات واملك البلاد . فأشار أمير آخر معه — وهو أكبر أمرائه — يقال له عز الدين محمود المعروف بزلف دار : قد ملكت أكثر من والدك ، والمصاحبة أن تعود . فرجع إلى قوله وعاد إلى الموصل ﴿ ليقضى الله أمرا كان مفعولا (٤) ﴾ ، ﴿ وكان ذلك في الكتاب مسطورا (٥) ﴾ .

وأما أحوال من بالشام . فإن نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكها دزدارا لها وهو

(١) بالأصل : بإنشاء .

(٢) بالأصل : بإنشاء .

(٣) سورة الإسراء : ٥٨ .

(٤) سورة الأنفال : ٤٢ .

(٥) بالأصل : فمكن .

سعد الدين كمشتكين — بعض خدمه الخصيان — فلما سار سيف الدين إلى الشام كان في مقدمته على مرحلة ، فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب ، وأرسل سيف الدين في أثره فلم يدرك ، فذهب بركة ودوابه وسار إلى حلب ، فتمسك [سعد الدين] بخدمة شمس الدين بن الداية وإخوته ، واستقر بينهم وبينه أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك (١) الصالح ، فسار إليها ، فأخرج إليه ابن المقدم عسكرياً فنهوه ، فعاد منهزماً إلى حلب ، فأخلف عليه شمس الدين بن الداية ما أخذ [منه] وجهزه وسيره (١٩٧-ب) إلى دمشق [مرة أخرى] — وعلى نفسها تجنى براقش — فلما وصلها سعد الدين دخلها ، واجتمع بالملك الصالح والأمراء وأعلمهم ما في مسير الملك الصالح إلى حلب من المصالح ، فأجابوا إلى تسييره فسار إليها (٢) ، فلما فوصلها وصعد إلى قلعتها ، قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية وإخوته ، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب والذي يتبعه من أحداثا ، ولولا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ، ولا جرى من ذلك الخلف والوهن شيء. « وكان أمر الله قدرا مقدورا (٣) » ، واستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح ، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وكاتبوا سيف الدين ليسلوا إليه دمشق فلم يفعل ، وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ، ويقصده ابن عمه من وراء ظهره ولا يمكنه الثبات [فيها] (٤) ، فراسل الملك الصالح وصالحه على إقرار ما أخذه بيده ، وبقي الملك الصالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبر أمره ، وتمكن منه تمكنا عظيماً يكاد يقارب الحجر عليه .

(١٩٨-أ) في ذكر وصول صلاح الدين يوسف بن أيوب

إلى دمشق دار العشق وتملكها من يد ابن (٥) مولاه

لما خاف من بدمشق من الأمراء أن يقصدهم سعد الدين والملك الصالح فيعاملهم بما عامل به بنى الداية ، راسلوا سيف الدين ليسلواها إليه فلم يجهم ، فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر ، وكان كبيرهم (٦) في ذلك شمس الدين محمد بن المقدم — ومن أشبه أباه فيما ظلم (٧) — فلما أتته الرسل بذلك لم يتوقف ، وبادر إلى الإجابة وسار إلى الشام ،

(١) بالأصل : للملك . (٢) في السكامل (١٣٠/ص/٩/ح) « ثم إن الأمراء الذين بدمشق نظروا في المصلحة فعملوا أن يسيره (أي مسير الصالح إسماعيل) إلى حلب أصاح للدولة من مقامه بدمشق ، فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون سعد الدين ليأخذ الملك الصالح ، فجهزه وسيره » . (٣) سورة الأحزاب : ٢٨ . (٤) الإضافة من ، السكامل (١٣١/ص/٩/ح) .

(٥) بالأصل : من يد أولاد مولاه ، وهذا وهم من ابن الأثير أو تصحيف من الناسخ لأن نور الدين لم يكن له غير ولد واحد وهو الصالح إسماعيل .

(٦) بالأصل : كمرهم . (وال تصحيح من ، الروضتين ، ١/ص/٢٣٦) . (٧) يشير ابن الأثير إلى أن والد شمس الدين هو الذي سلم سنجار لنور الدين سنة ٥٤٤ هـ ، فإن بذلك سيده صاحب الموصل . وقد اعتبر ابن الأثير ، شمس الدين خائناً لأنه سلم دمشق لصلاح الدين ، فإن بذلك الصالح إسماعيل ابن سيده نور الدين .

فلما وصل دمشق ، سلمها إليه من بها من الأمراء ودخلها واستقر بها ، ولم يقطع خطبة الملك الصالح وإنما أظهر : أني إنما جئت لأخدم مولاي وابن مولاي ، واسترد له بلاده التي أخذها ابن عمه . وجرت أمور قد شوهدت فلا حاجة إلى ذكرها ، كما قال بعضهم :

فكان ما كان ، ما قد سمعت به فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وفي آخر الأمر اصطلاح هو وسيف الدين والملك الصالح كل منهم على ما بيده (١٩٨ - ب) بعد حروب ومخامرات ، قد أتينا على ذكر ذلك في المستقصى في التاريخ .

ذكره ولاية مجاهد الدين^(١) قلعة الموصل ووزارة

جلال الدين أبي الحسن^(٢) على

في ربيع الآخر من سنة إحدى وسبعين وخمسة ، إستوزر أتابك سيف الدين ، جلال الدين أبا الحسن على بن جمال الدين رحمهما الله تعالى ، ومكنه في ولايته ، وفوض إليه أمور دولته ، فظهرت منه كفاية لم يظنها الناس ، وبدأ منه معرفة بقواعد الدول ، وأوضاع الدواوين ، وتقرير الأمور ، وإطلاع على دقائق الحسابات ، وعلم بصناعة الكتابة الحسائية حيرت العقول . ووضع للناس في كتابة الإنشاء وضعاً لم يعرفوه . وشرع لهم منها شرعاً استحسنوه ، وبذل بذلاً استعظموه . وكان عمره حين ولى الوزارة خمساً وعشرين سنة ، ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين وخمسة ، وشفع فيه كمال الدين بن نيسان وزير صاحب آمد — وكان قد زوجه ابنته — فاطمى من الحبس وسار إليه ، فبقى بآمد يسيراً مريضاً ، ثم فارقه وتوفى بدنيسر (١٩٩ - أ) سنة أربع وسبعين وخمسة . وحمل إلى الموصل ودفن بها ، ثم حمل منها في موسم الحج إلى المدينة فدفن عند والده . وكان أحسن الناس صورة ومعنى ، رضى الله عنه .

ثم إن سيف الدين استناب دزداراً بقلعة الموصل ، الأمير مجاهد الدين قايماز في ذى الحجة سنة إحدى وسبعين وخمسة ، ورد إليه أزمة الأمور في الحل والعقد ، والرفع والخفض . وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إربل وأعمالها ، ومعه فيها ولد صغير لزين الدين على ولقبه أيضاً زين الدين ، وكان البلد لولد زين الدين إسماعيلاً لا معنى تحتها ، وللمجاهد الدين صورة ومعنى .

وفي سنة اثنتين وسبعين ، شرع مجاهد الدين في عمارة جامعته بظاهر الموصل بباب الجسر ، وهو من أحسن الجوامع . ثم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارستان وكلها متجاورة .

(٢) بالأصل : أبا الحسن .

(١) بالأصل : مجاهد بن .

ذكر عصيان [ابن] بوزان وعوده إلى الطاعة

ثم إن الأمير شهاب الدين محمد بن بوزان (١٩٩ - ب) صاحب شهرزور — وهو في طاعة سيف الدين — أظهر التجنى على سيف الدين سنة اثنتين وسبعين وخمسة ، وجعل عذره في ترك الحضور في الخدمة بنفسه ، الخوف من مجاهد الدين لعداوة بينهما بحكمة القواعد ، وقال : إن مجاهد الدين هو الآن مدبر الدولة (١) والحاكم فيها ، ولا آمنه على نفسه . فأرسل إليه جلال الدين الوزير رسولاً عن نفسه ، وكتب إليه كتاباً ليس مثله في معناه . فلما وصل الرسول والكتاب إلى شهاب الدين بادر إلى الحضور في الخدمة السيفية .

ذكر القبض على سعد الدين كمشتكين النورى

قد ذكرنا حال سعد الدين كمشتكين وأنه استولى على دولة الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين ، وحكم عليها . فلما كان سنة ثلاث وسبعين ، قبض عليه الملك الصالح ، وطلب منه أن يسلم إليه قلعة حارم — وكانت إقطاعه — فلم يفعل ، فأرسل الملك الصالح إلى مستحفظها يأمره بتسليمها (٢٠٠ - أ) إلى نائبه فلم يسلمها ، فسار الملك الصالح إليها من حلب ومعه سعد الدين فحصر القلعة ، وعاقب سعد الدين ليأمر من بها بالتسليم فلم يجب إلى ما طلب منه ، فعلق منكوساً ودخن تحت أنفه فمات ، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها ، ثم إنه أخذها بعد ذلك .

ذكر الغلاء والوباء

في سنة أربع وسبعين وخمسة ، اشتد الغلاء وعم أكثر البلاد : العراق ، الموصل ، وديار الجزيرة ، وديار بكر ، والشام وغير ذلك من البلاد ، ودام إلى أن انقضى أكثر سنة خمس وسبعين وخرج الناس في سائر البلاد يستسقون فلم يسقوا ، ثم إن الله تعالى رحم عباده ولطف بهم وأنزل عليهم الغيث ، وأرخص الأسعار . ومن أعجب (٢) ما رأيت تلك السنة (٣) ، أنني كنت في الجزيرة ، وقد قصدت مدرسة بها أسمع على مدرستها شيئاً من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فبينما أنا جالس عند فقيه في بيته أنتظر مدرستها ، وإذا قد أقبل إنسان تركاني قد أثر عليه (٢٠٠ - ب) الجوع وكأنه قد أخرج من قبر ، فبكي وشكى الجوع ، فأرسلت من اشترى له خبزاً فتأخر إحضاره لعدمه ، وهو يبكي ويتمرغ على الأرض ، فتغييمت السماء وجاءت نقط (٤) المطر متفرقة ، وضح

(١) بالأصل : للدولة . (٢) بالأصل : عجب . (٣) يقول ابن الأثير في (الكامل ، ٩/ص ١٤٥) أنه كان في الجزيرة في شهر رمضان سنة ٥٧٥ هـ « والناس في أشد ما كانوا غلاء وقنوطاً من الأقطار » . (٤) بالأصل : تنقط .

الناس . ثم جاء الخبز فأكل ذلك التركاني وأخذ الباقي معه ومشى . واشتد المطر ، ودام من تلك الساعة ، فرخصت الأسعار ، ووجدت الأقوات بعد أن كانت معدومة . ثم عقب (١) الغلاء وباء شديد كثير . وكان مرض الناس شديداً واحداً ، وهو سرسام ، فأت فيه من كل بلد أمم لا يحصون كثرة ، ولقى الناس منه ما أعجزهم حمله ، ثم إن الله تعالى رفعه عنهم في سنة ست وسبعين وخمسمائة وقد ضعضع العالم .

فصل في ذكر وفاة أمير (٢) المؤمنين

المستضىء بأمر الله الخليفة العباسي

في سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، توفي الإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن ابن المستنجد بالله بن المقتدي لأمر الله بن المستظهر بالله ، وقد تقدم باقي نسبه . وأمه أم ولد [أرمنية تدعى غضة (٣)] وكانت خلافته [نحو تسع سنين وسبعة أشهر (٤)] .

ذكر شيء من سيرته قدس الله روحه

(٢٠١ — أ) وكان عادلاً حسن السيرة ، كثير البذل للمال ، غير مستقص (٥) في أخذ ما جرت العادة بأخذه . وكان الناس معه في أمن وسكون لم يروا مثله . وكان رحمة الله عليه كريم الأخلاق ، كثير العفو لا يرى المعاقبة بل يعفو ويصفح . وزر له عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء (٦) إلى أن قتل أوائل ذي القعدة من سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وكان قد سار [إلى] الحج — وكنت حينئذ ببغداد عازماً على الحج — فعبّر عضد الدين دجلة في شبرة ، فلما ركب دابته والناس معه ما بين راكب وراجل ، فتقدم إليه بعض العامة ليدعوه ، فتنعه أصحابه فزجرهم وأمرهم أن لا يمتنعوا عنه أحد ، فتقدم إليه [بعض] الباطنية فقتلوه بالجانب الغربي ، وقتل الباطنية وأحرقوا ، وحمل من موضعه إلى دار له بقطفتا بالجانب الغربي ، فتوفي بها رحمه الله تعالى . وتولى الأمور بعده ظهير الدين بن العطار وحكم في الدولة حكماً نافذاً .

(١) بالأصل : تمقب . (٢) بالأصل : الأمير . (٣) الإضافة من ، الكامل ، (٤) سقط بالأصل . والإضافة من ، الكامل (٥/٩/ص ١٤٨) . (٥) بالأصل : مستقص . واللفظ المثبت هنا يقابل ، اللفظ : مبالغ ، الوارد في ، الكامل (٩/٩/ص ١٢٨) . (٦) هو عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن مسلمة . (الكامل ، ٩/٩/ص ١٤٣)

ذكر وفاة الملك سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود (٢٠١-ب)

ابن عماد الدين زنكي بن آقسنقر

في صفر من سنة ست وسبعين وخمسمائة ، توفي الملك سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد زنكي رضي الله عنهم . وكان مرضه السل فطال به . ومن العجائب أن الناس لما خرجوا يستسقون بالموصل سنة خمس وسبعين وخمسمائة للغلاء الحادث في البلاد وخرج سيف الدين في موكبه ، فثار الناس وقصدوه مستغيثين به ، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر فأجابهم إلى ذلك ، فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين ، وخرّبوا أبوابها ودخلوها ونهبوها ، وأراقوا الخمر ، وكسروا الأواني وعملوا ما لا يحل ، فاستغاث أصحاب الدور إلى نواب السلطان ، وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق ، ولم يكن له في الذي فعله الناس من النهب فعل ، إنما هو أراق الخمر ، ولما رأى فعل العامة نهاهم عنه فلم يسمعوا منه ، فلما شكى [الخمارون (١)] منه ، أحضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته ، فلما أطلق (٢٠٢ - أ) لينزل من القلعة ، نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل ، وقال : والله لا غطيته حتى ينتقم الله لي من ظلمي ، فلم يمض غير قليل حتى توفي الدردار المباشر لأذاه له ، ثم بعقبه مرض سيف الدين ودام مرضه إلى أن توفي . وكان عمره نحو ثلاثين سنة . وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً .

ذكر صفة سيف الدين وذكر شيء من سيرته

كان رحمه الله من أحسن الناس صورة ، تام القامة ، مليح الشمايل ، أبيض اللون ، مستدير اللحية ، متوسط البدن بين السمين والدقيق . وكان عاقلاً ، وقوراً ، قليل الالتفات إذا ركب وإذا جلس . عفيفاً ، لم يذكر عنه شيء من الأسباب التي تنافي العفة . وكان غيوراً شديد الغيرة ، لم يترك أحداً من الخدام يدخل دور نسائه إذا كبر ، إنما يدخل عليهن الخدم الصغار . وكان لا يحب سفك الدماء ، ولا أخذ الأموال مع شح فيه .

في ذكر مملكة المولى السعيد (٢٠٢-ب)

عز الدين بن قطب الدين مودود

لما اشتد المرض بسيف الدين ، أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجر شاه [وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة (١)] تخاف [على الدولة (١)] من ذلك ، لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقويت شوكته . وامتنع أخوه المولى السعيد عز الدين [مسعود (١)] من الإذعان والإجابة إلى ذلك ، فأشار الأمراء الأكابر ومجاهد الدين قايماز ، بأن يجعل الملك بعده في أخيه ، لما هو عليه من كبر السن أولا والشجاعة والعقل وقوة النفس وحسن سياسة الملك ، وأن يعطى ابنه بعض البلاد ، ويكون مرجعهما إلى المولى عز الدين ليبقى لهما [ذلك (٢)] ففعل ذلك ، وحلف الناس لأخيه . فلما توفي سيف الدين ، كان مجاهد الدين هو المدير للدولة والنائب فيها ، والمرجع إلى قوله ورأيه ، فركب إلى الخدمة العزية وعزاه ، وركبه إلى دار المملكة ومشى في ركابه راجلا ، فدخلها وجلس للعزاء . وكانت الرعية تخافه قبل أن يملك لإقدامه وجرأته وحدة كانت فيه . وكان لا يلتفت إلى أخيه (٢٠٣ - أ) سيف الدين إذا أراد أمرا ، فلما ولي تغيرت أخلاقه ، فصار رفيقا بالرعية ، محسنا إليهم ، قريبا منهم . فكان في ذلك كما روى ، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما عهد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالخلافة ، خافه الناس لما عرفوا من شدته وفظاظته ، فقال بعض الصحابة لأبي بكر : ما تقول لربك إذا قدمت عليه وقد استخلفت علينا عمر ، فقال : أقول له استخلفت عليهم خيرهم ، فلما توفي أبو بكر وولى عمر ، رأى الناس من رقبته عليهم ، ورفقه بهم ، وشفقته عليهم ما هو مشهور مدون في الكتب .

ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل بن العادل نور الدين

الشهيد بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر الملك شاهی (٣)

في [رجب (٤)] من سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، توفي الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد عماد الدين زنكي رضي الله عنهم بمدينة حلب ، ولم يبلغ عشرين سنة .

(١) الإضافات من ، الكامل (٩/ص/١٥٠) . (٢) مكان هذا اللفظ ، بالأصل : مجاهد . (والتصحيح من ، الروضتين ، ٢/ص/١٨) وفي الكامل (٩/ص/١٥٠) : « ويكون مرجعهما إلى عز الدين عمهما ، والمتولى لأمرهما مجاهد الدين قايماز ، ففعل ذلك » . وأن سيف الدين أعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه ، وقلعة عقر الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك . (٣) نسبة إلى علاقة قسيم الدولة آقسنقر بالسلطان ملكشاه السجوقي . (أنظر ماسبق ، ص/٤) (٤) يباض بالأصل ، والإضافة من ، الكامل (٩/ص/١٥٣) .

ولما اشتد مرضه (٢٠٣ - ب) وصف له الأطباء شرب الخمر تدوايها بها ، فقال : لا أفعل حتى أستفتي الفقهاء . وكان عنده علاء الدين الكاشاني الفقيه الحنفي بمنزلة كبيرة ، [وكان] يعتقد فيه اعتقاداً حسناً ويكرمه ، فاستفتاه ، فأفتاه بجواز شربها . فقال له : يا علاء الدين ، إن كان الله سبحانه قد قرب أجلى أيؤخره شرب الخمر ، قال : لا . قال : والله لا لقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرمه على . فلما أيس من نفسه ، أحضر الأمراء كلهم وسائر الأجناد واستحلفهم لابن عمه أتابك عز الدين رضى الله عنه ، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه . فقال بعضهم : إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من همدان إلى الفرات ، فلو أوصيت بحلب لعهد الدين ابن عمك لكان أحسن ، ثم هو تربية أهلك وزوج أختك [وهو أيضاً عديم المثل في الشجاعة والعقل والتدبير وشرف الأعراف وطهارة الأخلاق والخلال التي تفرد بها (١)] فقال : إن هذا لم يغب عني ، ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما يبدى ، ومتى سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها من صلاح الدين [فإن ملكها صلاح الدين (٢)] فلا (٢٠٤ - أ) يبقى لأهلنا معه مقام ، وإذا سلمتها إلى عز الدين ، أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله . فاستحسن الحاضرون قوله وعلموا (٣) صحته (٤) ، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه ، ومن أشبه أباه فما ظلم . فلما توفي ، أرسل دزدار حلب — وهو شاذ بخت — وسائر الأمراء إلى أتابك عز الدين يدعونه إلى حلب ليسلموها إليه ، فورد الخبر ومجاهد الدين قايماز قد سار إلى ماردين لمهم عرض ، فلقى القاصدين عندها فأخبروه الخبر ، فسار إلى الفرات وأرسل إلى أتابك [عز الدين] يعرفه الحال ، ويشير بتعجيل الحركة ، وأقام على الفرات ينتظره . فسار أتابك مجداً ، فلما وصل المنزلة التي بها مجاهد الدين أقام معه ، وأرسل إلى حلب يستحضر الأمراء فحضروا كلهم عنده وجددوا اليمين له فسار حينئذ إلى حلب ودخلها (٥) ، وكان يوماً مشهوداً .

ولما عبر الفرات ، كان تقي الدين عمر — ابن أخى صلاح الدين — بمدينة منبج ، فسار عنها هارباً إلى مدينة حماة ، وثار أهل حماة ونادوا بشعار (٢٠٤ - ب) أتابك ، وكان صلاح الدين بمصر ، فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق ، وأطعموه فيها وفي غيرها من البلاد الشامية ، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتابكي ، فلم يفعل ، وقال : بيننا يمين فلا نغدر به (٦) ، وأقام بحلب عدة شهور ، ثم سار منها إلى الرقة فأقام بها .

(١) الإضافة من ، الروضتين (ح/٢/ص ٢١) . (٢) الإضافة من ، الروضتين (ح/٢/ص ٢٢) .

(٣) بالأصل : وعلموه . (٤) بالأصل : صحيته .

(٥) في ، الكامل (ح/٩/ص ١٥٤) أنه دخلها في العشرين من شعبان من السنة . (٦) أنظر ، الكامل

(ح/٩/ص ١٣٧ حوادث سنة ٥٧١) تحت عنوان : « ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصالح عليها » .

وجاءته رسل أخيه عماد الدين يطلب أن يسلم إليه حلب ويأخذ عوضاً عنها مدينة سنجار ، فلم يجبه إلى ذلك ، ولج عماد الدين ، وقال : إن سلمتم إلى حلب ، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين ، فأشار حينئذ الجماعة (١) بتسليمها إليه ، وكان أكثرهم في ذلك مجاهد الدين قايماز فإنه لج في تسليمها إلى عماد الدين ، فلم يمكن أتابك عز الدين مخالفته لتمسكه من الدولة وكثره عساكره وبلاده ، فوافقوه وهو كاره ، وسلم حلب إلى أخيه وتسلم سنجار وعاد إلى الموصل .

وكان صلاح الدين بمصر وقد أيس من العود إلى الشام ، فلما بلغه أخذ عماد الدين حلب ، برز في يومه (٢٠٥ — أ) عن القاهرة إلى الشام ، فلما سمع أتابك بوصوله إلى الشام ، جمع عساكره وسار عن الموصل خوفاً على حلب من صلاح الدين ، فاتفق أن بعض الأمراء الأكابر مال إلى صلاح الدين وعبر الفرات إليه ، فلما رأى أتابك ذلك ، لم يثق بعده إلى أحد من أمرائه ، إذ كان ذلك الأمير أو ثقتهم (٢) في نفسه ، فعاد إلى الموصل .

وعبر صلاح الدين الفرات وملك البلاد الجزرية ، ونازل الموصل فلم يتمكن من النزول عليها ، فعاد إلى حلب وحصرها ، فسلمها إليه عماد الدين وأخذ سنجار والخابور ونصيبين عوضاً عنها . وكان سبب هذا جميعه تسليم حلب إلى عماد الدين ، فإنه كان مضرة محضة .

فصل في سبب قضية القبض على مجاهد الدين قايماز

وما تبعه من الوهن (٣)

في جمادى الأولى من سنة تسع وسبعين وخمسائة ، قبض المولى المرحوم أتابك عز الدين رضى الله عنه على مجاهد الدين قايماز رحمه الله تعالى ، وهو (٢٠٥ — ب) حينئذ نائبه في بلاده ، واتباع في ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر في مضرة (٤) صاحبه . وكان الذى أشار به عز الدين محمود زلف دار وشرف الدين أحمد بن أبى الخير — الذى كان أبوه صاحب بلد الغراف — وهما من أكابر الأمراء — فلما قبضه كان بيده إربل ، وشهرزور ، ودقوقة (٥) ، وجزيرة ابن عمر وكان بها معز الدين [سنجر شاه] بن سيف الدين [غازى بن مودود] صغيراً ، والحكم فيها إلى مجاهد الدين ، وله أيضاً قلعة العقر ، فحين قبض امتنع زين الدين يوسف بن زين الدين على إربل ، وكان فيها لاحكم له مع مجاهد الدين ، وامتنع معز الدين بالجزيرة ، وأرسل الخليفة الناصر لدين الله

(١) الجماعة ، هم أمراء عز الدين مسعود .
(٢) بالأصل : انقهم .
(٣) جاء العنوان في «النس» مضطرباً ، هكذا : فصل في سبب قضية الذى جرت في ذكر القبض على مجاهدين قايماز وما تبعه من الوهن .
(٤) بالأصل : نصرة . (والتصحیح من ، الروضتين ٢/ص ٥٤) .
(٥) دقوقة : في (ياقوت) : مدينة بين إربل وبغداد .

عسكرا حصر دقوقا فلكوها ، ولم يحصل للمولى عز الدين من جميع ما كان بيد مجاهد الدين إلا شهر زور ، وصارت هذه البلاد التي كانت بيده أضر شيء على الموصل . وبقى مجاهد الدين مقبوضا نحو عشرة أشهر ، وندم أتابك على قبضه فأخرجه ، وخلع عليه وأعادته إلى ولاية قلعة الموصل ، إلا أن الذي (٢٠٦ — أ) أخذ من البلاد لم يعد إلى طاعته . وقبض أتابك على عز الدين زلف دار وعلى شرف الدين أحمد ابن صاحب الغراف ، عقوبة لهما على ما أشارا به من قبض مجاهد الدين . وعلى الحقيقة فليس على الدول شيء أضر من إزالة بيشكار (١) مدبرها وإقامة غيره ، فإن الأول يكون كالطبيب الحاذق العارف بمزاج الإنسان ومرضه وعلاجه وما يوافقه ويؤذيه ، ويكون الثاني — وإن كان كافيا — بمنزلة الطبيب الذي لا يعرف مزاج الإنسان ولا ما يوافقه ويؤذيه ، فإلى أن يعرف حاله ينفسد أكثر مما ينصلح . قال .

في ذكر حصر الجزيرة

في شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، سار المولى السعيد عز الدين — قدس الله روحه — إلى جزيرة ابن عمر ، فحصرها وبها معز الدين سنجر شاه ابن أخيه سيف الدين غازي وهو صاحبها . وكان سبب ذلك أن معز الدين كان سيئ السيرة مع المرحوم عز الدين ، خارجا عن طاعته (٢٠٦ — ب) ، مساعدا للأعداء عليه ، وينقل (٢) عنه إلى الملوك المجاورين لبلاده ما يوحشهم منه ، إلى غير ذلك من الأسباب التي بعضها يخرج الوالد عن محبة ولده ، ولم يزل المرحوم يرفق به ويستميله وينعم عليه ، وهو لا يزداد إلا سوء معاملة وأدب ، فبقى كذلك من أوائل سنة تسع وسبعين إلى الآن ، فلما طال الأمر عليه وأيس من إصلاحه ، سار إليه فحصره بها وضيق عليه ، وعزم على أخذها منه فلما نازله أدركته رقعة الوالد فلم يقاتله ، بل نزل عليه من غير قتال إلا شيئا لا يبالي به المحاصر ، فبقى كذلك إلى رجب ، فلما رأى معز الدين ضعف حاله ونفاد أمواله وتغير رجاله ، خضع وطلب العفو والصفح ، فأجابه إلى ذلك وصالحه على قاعدة استقرت بينهما ، وخرج معز الدين إلى خدمته ، فأحسن إليه وأنعم عليه وأمنه ، وعاتبه على ما كان يبدو منه . فاعتذر بأعذار علم المرحوم أنه غير صادق فيها ، إلا أنه تغمذ إساءته بعفوه ، وزلته بصفحه عنها (٢٠٧ — أ) ، وأقره على بلده وعاد عنه إلى الموصل ، فماد معز الدين إلى حالته الأولى فتجاوز عنه واطرحه ، وقال : ما يمنعني عن أخذ بلده والحجر عليه ، إلا الخوف من ظن الملوك أنني فعلت هذا شرها على ما بيده ، وإلا كنت فعلت معه ما يستحقه (٣) .

(١) البيشكار : كلمة فارسية لها أكثر من معنى ، مثل : معاون ، ناظر ، طالب ، عاقل ، وزير . والمعنى الأخير ، هو المقصود في « النص » . (المعجم في اللغة الفارسية) .
(٢) بالأصل : ينتقل .
(٣) ذكر ابن الأثير في ، الكامل ، سببا آخر لحصار عز الدين مسعود جزيرة ابن عمر ، يختلف عما هو وارد هنا .
(أنظر ص/٩/٢١١)

ذكر وفاة المولى السعيد المرحوم عز الدين [مسعود]

رضى الله عنه

توفي صلاح الدين يوسف بن أيوب في السابع والعشرين من صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة بدمشق ، فلما وصل خبر وفاته إلى الموصل ، إلى المولى المرحوم عز الدين رضى الله عنه ، جمع من يرجع إلى رأيه واستشارهم في الذى يفعله ، فأشار عليه أخى مجد الدين أبو السعادات (١) رحمة الله عليه ، بالإسراع فى الحركة وقصد البلاد الجزرية فإنها لا مانع لها منه ، فقال مجاهد الدين قايماز: ليس هذا برأى أننا نترك وراءنا مثل عماد الدين صاحب سنجار ، ومعز الدين صاحب الجزيرة ، والملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل ونسیر ، إنما الرأى أننا نراسلهم ونستميلهم (٢٠٧-ب) ونأخذ رأيهم وننظر ما يقولون . فقال أخى : إن كنتم تفعلون ما يشيرون به عليكم ويروونه فاقعدوا ، فإنهم لا يرون إلا هذا (٢) ، لأنهم لا يؤثرون حركتكم ولا قوتكم ، إنما الرأى أن يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم ويستميلهم ، ويبذل لهم البين على ما بأيديهم ويعلمهم أنه على الحركة ، فليس فيهم من يمكنه يخالف خوفاً أن يقصد ولايته ، لا سيما إذا رأوا جده وخلو البلاد الجزرية من مانع وحام ، فهم لا يشكون أنه يملكها سريعا ، فيحملهم ذلك على موافقته ، ومتى أراد الإنسان [أن] يفعل فعلا لا تتطرق إليه الاحتمالات بطلت أفعاله ، إنما إذا كانت المصلحة أكثر من المضرة أقدم ، وإن كان العكس أحجم ، فظهرت أمارات الغيظ (٣) على مجاهد الدين ، فسكت أخى لأنه كان هو المخدم للجميع على الحقيقة والحاكم فيهم . واتبع المرحوم عز الدين - قدس الله روحه - قول مجاهد الدين ، وأقام بالموصل عدة شهور يرأس المذكورين ، فلم (٢٠٨ - أ) ينظم بينه وبين أحد منهم حال غير أخيه عماد الدين صاحب سنجار ، فإنهما انفقا على قواعد استقرت بينهما ، فإلى أن انفصل الحال ، وصل الملك العادل أبى بكر بن أيوب من الشام إلى حران وأقام هناك ، وجاءته العساكر من دمشق وحلب وحصن وحماة ، وامتعت البلاد به .

وسار المرحوم عز الدين عن الموصل إلى نصيبين ، وقد ابتدأ به إسهال بنزيف (٤) ، فوصل إلى نصيبين واجتمع بها هو وعماد الدين ، وسارا في عساكرهما إلى تل موزن (٥) من شبختان

(١) هو مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الثيباني . توفي سنة ٦٠٦ . (ترجمته في : شذرات الذهب ، ج ٥ / ص ٢٢) وترجم ابن الأثير لأخيه ترجمة مختصرة ، في « الكامل » (ج ٩ / ص ٣٠٢) .
(٢) بالأصل : هكذا . (والنصح من : الروضتين ، ج ٢ / ص ٢٢٧) . (٣) بالأصل : الغليظ .
(٤) بالأصل : قريب . (والنصح من : الروضتين ، ج ٢ / ص ٢٢٧) . (٥) تل موزن : في (ياقوت) : يفتح الميم وسكون الواو وفتح الزاي وآخره نون . بلد قديم بين رأس عين وسروج ، وبينه وبين رأس عين نحو عشرة أميال .

يقصدون الرها ، فأرسل الملك العادل حينئذ يطلب الصلح ، وأن تكون البلاد الجزيرية : الرها ، وحران ، والركة وما معها بيده على سبيل الإقطاع من المرحوم عز الدين فلم يجبه إلى ذلك ، وقوى المرض به بتل موزن واشتد إلى أن عجز عن الحركة ، فعاد إلى الموصل في طائفة يسيرة من العسكر ومعه مجاهد الدين وأخى مجد الدين ، وترك سائر العساكر مع أخيه عماد الدين ليفصل الحال (٢٠٨ - ب) ويقرر الصلح مع الملك العادل ، فلما وصل دينسر رأى ضعفاً شديداً ، فأحضر أخى وكتب وصيته ، ثم سار إلى الموصل فوصلها مريضاً بالإسهال ، وبقي كذلك إلى أن توفي سابع وعشرين شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة . ولم أسمع عن أحد من الناس بمثل حاله في مرضه ، فإنه كان لا يزال ذا كراً الله تعالى ، حتى أنه كان إذا تحدث مع إنسان يقطع حديثه مراراً (١) ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيء مقدير ، وأشهد [أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله (٢)] وأشهد أن الموت حق [وعذاب القبر حق ، وسؤال منكر ونكير حق ، والصراط حق ، والميزان حق (٣)] وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور . ويقول لمن [عنده (٤)] يخاطبه : إشهد لي بهذا عند الله تعالى ، ثم يعود إلى حديثه . وأحضر عنده من يقرأ (٢٠٩ - أ) القرآن ، فلم يزل كذلك إلى أن توفي رضى الله عنه . وأصاب الناس من رعاياه كلهم بموته فجبهة لم يصبرهم مثلاً ، وأظهروا من الغم والحزن ما لا كان يظنه أحد . ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل مقابل دار المملكة . وكان عمره (٥) . وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة أشهر . وكان أسمر ، مليح الوجه ، حسن اللحية ، خفيف العارضين . وحكى لي والدى ، قال : هو أشبه الناس بجده الشهيد قدس الله روحه . وكان ربعة إذا مشى ، فإذا ركب لم يعله (٦) أحد .

ذكر شيء من سيرته رحمه الله تعالى

كان رضى الله عنه لين الجانب ، كريم الأخلاق ، كثير الإحسان إلى الناس ، يتعهدهم (٧) بالنفقات والسؤال عن أحوالهم ، لاسيما من يعلم أن له خدمة متقدمة في دولتهم ، فإنه كان يعظمه ويحترمه ويعلى محله ، فمن ذلك أنه كان في دولته الأمير بهاء الدين على بن الشكرى - وكان رجلاً (٢٠٩ - ب) كبيراً له خدمة سالفة - ، فكان يبالغ في احترامه إلى حد أنه كان إذا لعب معه بالكرة ، يعطيه من دوابه الخاص ما يركبه ويلعب عليه . ومن ذلك أيضاً ، أنه لما عاد من حصار الجزيرة العمريّة سنة سبع وثمانين ، فلما وصل إلى الموصل أمر أن لا يدخل أحد إلى البلد ، ونزل

(١) : بالأصل : مرا . (٢) : بياض بالأصل . والإضافة من الروضتين (ح/٢/ص/٢٢٧) .
(٣) : بياض بالأصل . والإضافة من الروضتين (ح/٢/ص/٢٢٧) . (٤) : الإضافة من الروضتين (ح/٢/ص/٢٢٧) .
(٥) : بياض بالأصل . (٦) : بالأصل : يمليه . (٧) : يتعهدهم .

هو في المغرقة (١) في الكشك الذي بالميدان ، ونزل الناس متفرقين . وكان في جملة الواصلين معه ، أخى مجد الدين رحمه الله تعالى ، وكان ينزل بالقرب منه ، فنصبت خيمة (٢) أخى بزواية الميدان من داخله ولم يدخل الموصل ، فخرجت أنا إليه أبصره ، فركب المرحوم عز الدين رضى الله عنه فرأى الخيمة ، فاستدعى أخى وقال له : أرى خيمتك ههنا . قال : لأنك رسمت أن لا يدخل أحد . قال : إلا أنت ، فإن والدك أثير الدين له مدة ما رآك ، ولا شك أنه قد اشتاقك ، فتدخل إليه وتسلم عليه وتسأله الدعاء ، ولا تجيء إلينا إلى ثلاثة أيام ، فامتنع من ذلك ، وقال : أنا أبصره وأعود إلى الخدمة ، فلم يرخص (٢١٠ — أ) له في ذلك ، وألزمه بقصد والده والإقامة عنده . فانظر إلى هذا الرفق واللطف الذى لا يفعله الإنسان إلا مع أهله لا سيما الملوك .

وكان رحمه الله تعالى حبيبا كثير الحياء ، كما قيل ، أشد حياء من العذراء في خدرها ، لم يحدث أحدا قط إلا وهو مطرق . فمن حياته (٣) أنه أمر طائفة من عسكره بالتجهز للغزاة ، وكان فيهم مملوك لم يكن له محل ، إنما هو بمفرده ، فحضر في خدمته ، وقال : لى مهم أريد [أن] أقوله ، فأذن له في القول ، فقال : بلغنى إتنى في جملة العسكر المسير إلى الغزاة ، وعجبت من مولانا كيف يسمح بمثل ويرسلنى ويبعدنى عن خدمته ، ولا شك أن المولى لا يعرف محلى ، وإلا فما كان أمر بذلك . فقال له : صدقت ، مثلك لا ينبغي أن يفارقنا مع علو محللك وارتفاع قدرك . فلما خرج من عنده أظهر الإنكار ، وقال : قد صار مثل هذا المدبر المنحوس يقول لى هذا القول ، ومن هو وما محله وقد سيرنا في هذه الغزاة (٢١٠ — ب) جماعة من أكابر الأمراء ، أليس له بهم أسوة . فقال له بعض الحاضرين : لم لا أمر المولى بتأديبه وإقامته من خدمته ، وكيف استمع حديثه . فقال : إستجيت منه ، فقالوا : أفلا تؤدبه (٤) وتعرفه ذنبه . فقال : قد أحسن الظن بنفسه فلا نعاقبه عليه .

وكان رحمه الله رفيقاً رقيق القلب ، كثير الرحمة لرعيته . حكى عنه أخى مجد الدين رحمه الله تعالى ، أنه ركب يوماً فقال له ولمن معه : إتنى هذه الليلة ما نمت إلى سحر . فقالوا له : وما سبب ذلك ، قال : كنت سمعت أن ابن فلان مريض — وذكر إنساناً بائعاً (٥) بالموصل — فلما كان الليلة سمعت صوت مأتى ، فظننت أنه توفى فضايق صدرى — وكان بلغنى أنه ليس لأبويه غيره — فشقق ذلك على ، وقت من الفراش إلى أطراف السطح ، لعلى أعلم من هو الميت ، فطال الأمر إلى ثلث الليل الأخير ، فقلت : لم أعذب نفسى ، فأرسلت خادماً وفتح أبواب الدار وأرسل من الأجناد من يستعلم لنا من الميت ، فعاد وذكر أنه شخص لم أعرفه ، حينئذ (٢١١ — أ) نمت . فاعجب لهذه الشفقة والرفقة على رجل من الرعية ليست له صحة ولا خدمة .

(١) هكذا بالأصل : ولعلها : الغرفة . (٢) بالأصل : خيمته . (٣) بالأصل : حياؤه . (٤) بالأصل : فلا تؤدونه . (٥) بالأصل : بيما .

قال . وكان رحمة الله عليه ديناً خيراً ، قد ابتنى في داره مسجداً فيخرج إليه في الليل ويصلي فيه أوراداً كانت له ، ولبس فرجية كان قد أخذها من الشيخ عمر النسائي الصوفي ويصلي بها ، وكان قد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقه التصوف من الشيخ عمر النسائي المذكور ، وكان من الصالحين .

وكان رضى الله عنه يقوى يد من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . كان بالموصل رجل من الفقهاء الأخيار من باجباري (١) اسمه حرب ، فكان كثيراً ما (٢) يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فاجتاز يوماً على الجسر فلقي دواباً تحمل الخمر لإنسان هو أقرب الناس إلى المرحوم عز الدين وأخصهم به ، فألقاه الفقير عن الدواب وأرافه بعد أن ضرب ، فبلغ الخبر إليه ، فأحضر الفقير وأمره بإزالة جميع ما يراه من المنكرات وأطلق يده ، وأنكر على ذلك الأمير وأمره (٢١١-ب) بإحضار غلمانة الذين ضربوا الفقير ، فبعد الجهد أن تركهم .

وكان رحمه الله تعالى يأمر بالإنصاف (٣) من أقرب الناس إليه وأعظمهم منزلة عنده ، ويقوى يد صاحب الحق . فمن ذلك أنه كان بالموصل إنسان من أعيان الدولة ، وهو مع ذلك يتولى أمر الخاتون والدة المرحوم رضى الله عنه ، وله بها أعظم جاه وأعلى منزلة ، ولها به أتم عناية وأكثر حماية لتقديم خدمته ، وكان له قرية تجاور قرية لإنسان عجمي مقيم بالموصل ، فأخذ شيئاً من أرض قرية العجمي وطال النزاع بينهما ، ففي بعض السنين جاء إلى الموصل واعظ ، فأحضره المرحوم عز الدين بداره ليعظ عنده ، وأمر أن لا يحجب أحد ، فاجتمع عالم كثير ، فتكلم ذلك الواعظ ، فقام ذلك العجمي وصاح واستغاث وببده رقعة يشكو بها حاله ، فأمره السعيد عز الدين بالجلوس إلى أن يفرغ المجلس ، فلما فرغ جلس ، وأحضر القاضي وأمره بالحكم بمقتضى الشريعة (٢١٢-أ) المطهرة فحكم بينهما ، فظهر الحق للعجمي ، فأمر [عز الدين] الحاكم بالإسجال له والإثبات لحقه والإشهاد عليه به ، وأرسل معه أوصل حقه [إليه] وأخطط والدته في اتباع الحق .

وكان رضى الله عنه حليماً ، فمن حليته ، أن إنساناً فقيراً من أهل الموصل من أصحاب الزوايا بظاهر البلد ، لما وصل صلاح الدين يوسف ابن أيوب الموصل [محاصراً لها (٤)] اجتمع به وأكثر التردد إليه وأخذ صلته ، وقال : ما تحتل الملوكة بغضة إلى أحد . فلما عاد صلاح الدين ، أحضر المرحوم عز الدين هذا الفقير وأنكر عليه ، وأمر بتخريب زاويته ، ثم أحضره بعد أيام واعتذر إليه واستحله ، وأعطاه مائة دينار وأمره بتجديد زاويته ، وقال : إن أردت شيئاً (٥) آخر أنفذه (٦)

(١) نسبة إلى قرية «باجبار» . وفي (ياقوت) : هي قرية في شرق مدينة الموصل على نحو ميل . وهي كبيرة عامرة فيها سوق . (٢) بالأصل : مما . (٣) بالأصل : بالانصاف . (٤) حاصر صلاح الدين الموصل ثلاث مرات . الأولى في سنة ٥٧٨ هـ ، والثانية والثالثة في سنة ٥٨١ هـ . (٥) بالأصل : شيء . (٦) بالأصل : أنفذه .

لك ، فعمر غير زاويته وأكبر منها وأحسن ، وغرم عليها جملة وافرة ، وكلما فرغ بالنفقة أنفذ له شيئاً آخر إلى أن فرغت ، وكان بعد ذلك يتردد إليه ويزوره ويواصله بالعطاء ، وكان يتردد (٢١٢ - ب) إلى الصالحين ويزورهم ويصلهم .

قال . وهو الذي ابنتى المدرسة الغربية بباب دار المملكة ، وهي مدرسة حسنة ، جعلها للفرقيين الحنفية والشافعية ، وقرر للفقهاء ما ليس بمدرسة أخرى من الفواكه والحلواء ، والدعوات في المواسم والأعياد ، والشيرج للوقود والفحم وغير ذلك ، وقرر في وقفها من الصدقات كل أسبوع وفي الأيام الشريفة والليالي المباركة شيئاً كثيراً .

وهو الذي فتح الباب الغربي في الموصل — وهو بين باب كندة وباب العراق — ولم يكن هناك باب فجاء حسناً ، وانتفع به أهل ذلك الصقع .

في ذكر ملك ولده السعيد نور الدين بن عز الدين

ابن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي

قد ذكرنا عود المرحوم — قدس الله روحه — من تل موزن مريضاً وأنه كتب وصيته بدنيسر . وكان في جملة الوصية أنه أوصى بالملك لولده المولى نور الدين أرسلان شاه ، قدس الله روحه ، وأوصى بغير ذلك . وكان الوصى فيهاد مجاهد (٢١٣ - أ) الدين قايمآز ، رحمه الله تعالى . فلما وصل إلى الموصل وهو مريض ، أرسل إليه أخوه شرف الدين بن قطب الدين مودود يطلب أن يجعل الملك له ، وأرسلت أيضاً والدته الخاتون في المعنى وبالغت ، لأن شرف الدين أيضاً ولدها ، وجعما لهما جمعاً وجنداً ، وأظهر شرف الدين أن أحداً لا يقدر يملك الموصل معه ، وحدث نفسه بشيء ظنه حقاً ﴿ يريدون ليظفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (١) ﴾ وقال شرف الدين : إن ملكني أخى بعده ، وإلا أثرت فتنة في البلد وأخذته قهراً ، فإن عجزت سرت إلى الملك العادل بن أيوب . وأرعد وأبرق . وكان عمر المولى المرحوم نور الدين — قدس الله روحه — حينئذ نحو عشرين سنة ، وهو ينظر إلى عمه ويظنه يفعل ما يريد . وكان الملك العادل سيف الدين بن أيوب حينئذ قد نزل نصيبين ، فلمذا قوى جنان شرف الدين ظناً منه أن أخاه يملكه إذ هو كبير [البيت (٢)] ليقوم برد العادل عن نصيبين ، فخاب ظنه (٢١٣ - ب) فقال عز الدين لمجاهد الدين ليحلف الناس لولده نور الدين ، وقال : أخاف أن

(١) سورة الصف : ٨

(٢) الإضافة من ابن واصل (ح/١/ص/٢٣) .

أموت وليس لكم ملكٌ مستقل بالملك والعاقل في البلاد ، فيحدث ضرر لا يمكنكم تلافيه ، فلم يقدم مجاهد الدين على ذلك خوف الفتنة ، وكان يحب السلامة ، فأرسل إلى شرف الدين بأمره ويشير عليه بأن يحلف لولد^(١) أخيه ووعدته الزيادة [في الإقطاع] فلم يجب إلى ذلك وتهدد وقال . فتوقف مجاهد الدين في تحليف الناس . ثم إن المرحوم نور الدين ، رضى الله عنه ، أرسل إلى أخى مجد الدين - رحمه الله - مع خادم لوالده ، وهو أمين الدين يمن ، يطلب منه أن يشير على مجاهد الدين بتحليف الناس له وترك التواني فيه ، ووعدته الزيادة والإقطاع وتمليك القرابا ، وأرسل إليه معه خاتماً ، فرد الخاتم ، وقال : خاتم المولى إنما يعطى على بلاد ، وأما هذا الأمر اليسير فهو أحقر من أن يؤخذ عليه خاتمه — وكان أخى هو الذى يصدر عن رأيه على ما شاهده الناس — وأما ما رسمت به فأنا مشدود الوسط فيه (٢١٤ - أ) ، ولا يشكرنى المولى على هذا ، فإننى أفعله خدمة لوالدك الذى أنا فى خدمته إذ هو هكذا يريد ، ولو أراد غيره لاتبعته ولم يبد منى إلا ما يوافق غرضه والمصلحة له ولدولته ، وأنا أشكر الله تعالى حيث إرادة والدك موافقة لإرادتك ، فانا^(٢) خدمت خدمة وافقت الغرضين ، وأما ما وعدت به من إنعام وزيادة مرسوم ، فليست لى رغبة فى شيء من هذا ، فلى من نعمتكم ما يفضل عنى . ثم ركب من وقته واجتمع بمجاهد الدين بالقلعة فرآه مفكراً ، فشكى إليه مجاهد الدين وقال : هذا شرف الدين يريد الفتنة ، والمولى عز الدين يريد ولده ، والعاقل بنصيبين ، والفتنة قد رفعت رأسها . فبينهما فى الحديث ، وإذا قد جاء قاصد من المرحوم عز الدين يقول لمجاهد الدين : قد ضجرت مما أقول لك لتحلف الناس لولدى وأنت^(٣) تهمل الأمور العدو بالقرب منكم واتم بغير سلطان ، وأنا فما أظن أننى أعيش يوماً آخر فما تنتظر . فتضجر مجاهد (٢١٤ - ب) الدين ، وأعاد ما كان يقوله لأخى من الشكوى . فقال له أخى : أنت تفعل هذا جميعه بنفسك والدولة^(٤) معك ولو شئت لم يكن منه شيء ، والرأى أن تأمر بإحضار الأمراء ، وأرباب المناصب ، والمقدمين ، وأعيان البلد وتحلفهم لولده كما يريد ، فإذا فعلت هذا ، حينئذ يندم شرف الدين وما عسى أن يفعل ، وإن بدا منه ما يخالف هذا ، أخذناه قهراً وولكلنا به ، ومهما الأمر على هذه الحال بغير يمن لنور الدين ، ولا يركب ليراه الناس ، ويعلموا أن لهم سلطاناً ، لا نزال مع شرف الدين مصدعين . فأمر مجاهد الدين باستدعاء الجماعة الذين ذكرهم أخى فحضروا ، وحلفوا بالنسخ التى كتبها أخى - رحمه الله - لهم ، وحلف مشايخ الحال وعرفاء^(٥) الأسواق ، فسمع من جمعهم شرف الدين نفاقوا وتفرقوا عنه ، فأرسل إلى مجاهد الدين يعاتبه^(٦) حيث حلف الناس قبله ، وقال : أردت أن أخدم المولى نور الدين وأتولى

(٣) بالأصل : وان .

(٢) بالأصل : فاذا .

(١) بالأصل : لولده .

(٥) بالأصل : عرف .

(٤) بالأصل : وبالدولة .

(٦) بالأصل : يعاتب .

القيام بأمره (٢١٥ — أ) ثم إن مجاهد الدين ركّب السعيد نور الدين من الغد في موكب والده ، وحمل السنجق على رأسه ، ومشى بمجاهد الدين في ركابه راجلا قد حمل الغاشية ، فلم يلبث المرحوم عز الدين بعده غير يومين حتى توفي رضى الله عنه وأرضاه . واستقر السعيد نور الدين — قدس الله روحه — ولم يتغير بالناس حال ، ورعى هذه الخدمة لأخى رحمه الله تعالى فكان عنده واحد دولته ، والمرجع إلى قوله ورأيه ، ولم يزل كذلك إلى أن فرق الموت بينهما رضى الله عنهما .

ذكره وفاة عماد الدين زنكى بن قطب الدين مودود

في [المحرم (١)] من سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، توفي الملك العادل عماد الدين زنكى ابن السعيد أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد عماد الدين زنكى بن آقسنقر رضى الله عنهم ، صاحب سنجار ونصيبين والخابور وقد تقدم كيف ملكها ، وكان عمره (٢) . وولى بعده ابنه (٢١٥ — ب) قطب الدين محمد ، وتولى تدبير (٣) دولته مملوك والده ، مجاهد الدين يرنقش ، وكان ديناً خيراً ، إلا أنه كان شديد التعصب (٤) على مذهب الشافعى رضى الله عنه ، يكثرذم الفقهاء الشافعية ويقع فيهم . فمن تعصبه أنه بنى مدرسة للحنفية (٥) بسنجار ، وشرط أن يكون النظر في وقوفها إلى الحنفيين (٦) من أولاده دون الشافعيين ، وهذا غاية التعصب .

ذكر ملك السعيد نور الدين مدينة نصيبين

في [جماد الأولى (٧)] من سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، سار المولى السعيد نور الدين أرسلان شاه إلى مدينة نصيبين — وهى لقطب الدين [محمد (٨)] ابن عمه عماد الدين — فملكها . وسبب ذلك أن عمه عماد الدين زنكى ، رحمه الله ، كان له نصيبين ، فتطاول نوابه بها ، واستولوا على عدة قرايا من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل ، وهى تجاور (٩) ولاية نصيبين .

فبلغ الخبر إلى مجاهد الدين قايماز ، فلم يعلم مخدومة نور الدين الخبر ، لما يعلم من علو همته (٢١٦ — أ) وإبائه ، تخاف أنه ربما حمله الغيظ على أن يبدو منه ما يوجب اختلافاً بينه وبين عمه ، فأرسل من عنده رسولا إلى عماد الدين فى المعنى وقبح هذا العمل ، وقال: لا شك أن النواب قد

(١) بياض بالأصل . والإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/٢٣٩) . (٢) بياض بالأصل .

(٣) بالأصل : بتدبير . (٤) بالأصل : الغضب . (والتصحیح من ، الكامل ، ح/٩/ص/٢٣٩) .

(٥) بالأصل : للحنفية . (٦) بالأصل : الحنفين . (٧) بياض بالأصل ، والإضافة من ،

الكامل (ح/٩/ص/٢٤٠) . (٨) الإضافة من الكامل (ح/٩/ص/٢٤٠) .

(٩) بالأصل : وهو مجاور . (والتصحیح من ، الكامل (ح/٩/ص/٢٤٠) .

فعلوا هذا بغير أمره . فأعاد الجواب : [إنهم لم يفعلوا] [إلا] ما أمرتهم به ، وهذه القرايا هي من أعمال نصيبين ، ولم يُعدها . فرد مجاهد الدين برسالة (١) ثانية يقول له : ما تساوى (٢) هذه وأضعافها أن تخرج ولذلك نور الدين عن يدك ، فإنه إلى الآن ما خالفك في شيء ، وما أعلمته بهذه الحال لعلني أنه لا يصبر عليها ، وليس هو مثل والده [وأخاف (٣)] [إن علم] [أن] [يخرج الأمر عن يدي ولا أقدر أمنعه] . فلم يلتفت عماد الدين [إليه] فحينئذ أنهى مجاهد الدين الحال إلى السعيد نور الدين ، فغضب لذلك وأنكر [عليه] حيث لم يعلمه أولا وقال : وهذا هو الذي أطمعته ، ثم أحضر أميرا من مشايخ دولتهم ، يقال له بهاء الدين علي بن الشكري [وهو] من خدم الشهيد رضى الله عنه ، وأرسله إلى عماد الدين يقول : قد بلغت كذا وكذا ، وأن (٢١٦ — ب) مجاهد الدين راسلك مرتين ولم ترد ملكنا إلينا ، فلو أنك أرسلت تطلب جميع الولايات وغيرها لكان أحب الأشياء إليّ ، وأما أن (٢) تأخذ منى قرية واحدة مراغمة لي واطراحا لجاني فلا أصبر على هذا ، فتأمر بإعادتها قولا واحداً .

فرضى الرسول فأدى الرسالة وعماد الدين قد مرض ، فاغتاز من ذلك وأمتنع من الإجابة . فقال الرسول من عنده نصحاله ، وأشار عليه بالمصالحة ، لأنه كان عند جميع البيت الشريف الأتابكي مقبولا ، فلم يصغ إلى قوله ، وقال ما جرت العادة أن تقوله المرضى . فعاد الرسول إلى الموصل وأخبر مجاهد الدين جلية الحال ، فأمره أن يكتم ما يغيظ نور الدين ، فلم يفعل وحكى للمرحوم نور الدين جلية الحال ، فغضب وعزم على المسير إلى نصيبين وملكها ، ومجاهد الدين يمنعه . فتوفي عماد الدين والحال على ذلك فجلس للعزاء .

ثم أرسل إلى قطب الدين محمد بن عماد الدين في المعنى ، فلزم ما كان والده عليه ، فسار حينئذ نور الدين عن الموصل (٢١٧ — أ) إلى نصيبين ، فلما سمع قطب الدين [بذلك] سار عن سنجار في عساكره فسبقه إليها ونزل بظاهرها ، وعزم على منعه من النزول عليها ومن محاصرتها ، فلما وصل نور الدين ، لم يعبأ بقطب الدين وتقدم إلى البلد ، وكان بينه وبين قطب الدين نهر ، فلما قرب نور الدين [من] [النهر] ، عبر الأمير نحر الدين عبد الله بن عيسى المهراني النهر (٥) — وهو من أكبر الأمراء النورية — وقاتل من يازائه ، فلم يثبتوا له ، وعبر العسكر النوري وقد تمت الهزيمة على قطب الدين ولم يقاومه غير نحر الدين عبد الله ، واحتفى هو ونائبه مجاهد الدين يرتقش وغيرهما بقلعة نصيبين ، وأدركهم الليل فخرجوا منها هاربين إلى ديار بكر ، ثم منها إلى حران ،

(١) بالأصل : رسالة . (٢) بالأصل : تساوى . (٣) الإضافة من ، السكامل (ح/٩/ص/٢٤٠) .
(٤) بالأصل : بان . (٥) بالأصل : بالنهر .

وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب صاحب حران وغيرها (١) — وكان بدمشق — وبذلوا له الأموال الكثيرة لينجدهم ويعيد إليهم نصيبين . وأقام أتابك نور الدين بمدينة نصيبين ، فمضى كافة أمرائه وأكثر عساكره فعادوا إلى الموصل وتوفي أكثرهم ، وأقام هو بنصيبين (٢١٧ — ب) وقد تضعض العسكر بعود الأمراء وكثره الأمراض . ووصل الملك العادل إلى الديار الجزرية ، فحينئذ فارق السعيد نور الدين نصيبين وعاد إلى الموصل [في رمضان (٢)] لاستيلاء المرض على كافة العسكر وعودهم ، فلما فارقها تسلمها قطب الدين بن عماد الدين .

وتوفي جماعة من الأمراء المواصل ، منهم عز الدين جورديك ، ونور الدين عبد الله بن عيسى ، وشمس الدين عبد الله بن إبراهيم المهرانيان وظهير الدين (يولي (٣)) بن بلنكري الديكري ، ومجاهد الدين قايماز ، وجمال الدين محاسن وغير من ذكرنا . وأما من هو أقل من هذه الطبقة فلا نطول الكتاب بذكرهم فهم كثير .

ولما عاد المرحوم نور الدين إلى الموصل ، قصد الملك العادل بن أيوب قلعة ماردين فحصرها واستولى على ربضها ، وحصر القلعة وضيق على من بها ولم يبق غير ملكها ، فأخذها الله تعالى على يد نور الدين على ما ذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة مجاهد الدين (٤) قايماز

رحمه الله تعالى (٢١٨ — أ)

في [ربيع الأول (٥)] من سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، توفي مجاهد الدين قايماز رحمه الله تعالى بقلعة الموصل ، وهو متوليها والحاكم في الدولة الأتابكية النورية . وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحجة من سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، فأعيد إلى ولايتها بعد الإفراج عنه على ما ذكرناه ، وبقي إلى الآن . وكان أصله من القرادى من أعمال شبختان وأخذ هو منها طفلاً . وكان عاقلاً ، ديناً ، خيراً ، فاضلاً ، يعلم الفقه على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه . ويحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئاً كثيراً ، إلى غير ذلك من المعارف الحسنة . وكان يكثر الصوم ، وكان يصوم رجب وشعبان ورمضان ، وشيئاً من شوال ، وعشر ذي الحجة ، وعشر المحرم ، وكل اثنين وخميس ، والأيام البيض من كل شهر إلى غير ذلك . وكان له ورديصليه كل ليلة ويكثر الصدقة .

(١) بالأصل : وغيره . (٢) الإضافة من ، السكامل (٢٤٠ / ص / ٩ / ح) . (٣) الإضافة من ، السكامل (٢٤٠ / ص / ٩ / ح) . (٤) بالأصل : مجاهد بن . (٥) بياض بالأصل . والإضافة من ، السكامل (٢٤٨ / ص / ٩ / ح) .

(٢١٨ — ب) وبني عدة جوامع منها الذي بظاهر الموصل ، وبني عدة خانقاهات ، منها التي بالموصل ، ومدارس ، وقناطر على الأنهار إلى غير ذلك من المصالح . ومناقبه كثيرة فلا نطول بذكرها لئلا نخرج عن مقصدنا من الاختصار .

ذكر ما فعله المرحوم نور الدين عفي الله عنه [بماردين]

في سنة خمس وتسعين وخمسمائة في رمضان ، سار الملك السعيد نور الدين — قدس الله روحه — إلى ماردين لإزاحة العسكر العادلي عنها وإبقائها على صاحبها حسام الدين [يولاق أرسلان ابن إيلغازي بن أرتق (١)] ، وكان سبب ذلك أن الملك العادل حصرها في العام الماضي على ما ذكرناه ، فبقي محاصراً لها أحد عشر شهراً ، فعدمت الأقوات وغيرها بها ، وأصاب أجنادها مرض عم أكثرهم ، فكان أحدهم لا يطيق القيام ، ولم يبق غير الاستيلاء عليها . فبينما الملك العادل يحاصرها ، إذ توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الديار المصرية ، وكان عسكره مع عمه الملك (٢١٩ — أ) العادل على ماردين . فلما توفي ، ملك بعده أخوه الملك الأفضل على بن صلاح الدين ، وكان بينه وبين عمه نفرة قد ذكرناها في المستقصى .

فلما ملك مصر أرسل إلى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمفارقتهم والعود إلى مصر فعادوا ، فقلل جمعه وعسكره . إلا أن أهل ماردين قد ضعف من بها واستكانوا ، ولم ينفعهم قلة العسكر عليهم ، لأن الراجل كان كثيراً ويكفي في حصرهم .

ثم إن الملك الأفضل أرسل إلى السعيد نور الدين يطلب منه الموافقة على الملك العادل فأجاب إلى ذلك ، وخرج الأفضل من مصر عازماً على حصر دمشق واستعادتها من عمه ، لأنه كان أخذها منه ، فلما سمع الملك العادل الخبر ، سار عن ماردين جريدة في نفر يسير إلى دمشق ليحفظها من الأفضل ، وترك ابنه الكامل محمد مع العسكر على ماردين يحاصرونها .

وبرز المرحوم نور الدين عن الموصل وسار إلى ماردين أواخر شعبان (٢١٩ — ب) ، ووافقه قطب الدين ابن عمه عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين ، ووافقه أيضاً معز الدين ابن عمه سيف الدين — وهو صاحب جزيرة ابن عمر — فساروا ، فلما وصلوا إلى ماردين نزلوا أسفل جبلها ، وشرع نور الدين بجمع الرجال ليزحف إلى ربض ماردين ويقاوم العسكر العادلي (٢) من تحت ويقاومهم أهل ماردين من فوق ، لعلمهم بظفرون بهم ويزيلونهم قهراً ومكابرة ، مع تعذر الصعود في الجبل إلى الربض ، إنما همته كانت عظيمة لا يعتقد أنه يعجزه شيء . فاتفق أن العسكر

العادلى نزل عن الربض إلى قتال العسكر (١) النورى ، ونزل (٢) الرجالة فى الربض ليمنعوا أهل القلعة من النزول ، فجاء أمر لم يكن فى الحساب ، فالتقوا واقتتلوا .

وكان قطب الدين صاحب سنجار قد واطأ العسكر العادلى على أن ينهزم بين أيديهم ولم يعلم بذلك أحداً ، فقدر الله تعالى ، أنه لما نزل العسكر العادلى واصطفى العساكر ، أُلجأت (٢٢٠ — أ) قطب الدين الضرورة والزحمة إلى أن وقف فى شعب بجبل ماردین ، ليس إليه طريق للعسكر العادلى ، ولا يرى الحرب بينهم وبين العسكر النورى لينهزم ، وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له ، والتقى العسكران واقتتلوا واشتد القتال ، وكان السعيد نور الدين فى القلب وإلى جانبه (٣) أخى مجد الدين على بغلة ، فقال له : فى مثل هذا اليوم تتركب بغلة . فقال : الساعة نأخذهم برقابهم إن شاء الله تعالى ، فحمل العسكر العادلى على القلب النورى فترحزوا عن موقفهم قليلا ، فقال أخى للسعيد نور الدين : تقدم قليلا ليراك الناس فيتقدموا وتشدد أنفسهم ، فأخذ الرمح وحمل إلى المعركة ولم يشعر أخى به إلا وقد حمل ، قال أخى : ولقد ندمت حيث قلت له ليتقدم حيث لم ينفعنى الندم ، فحين رآه الناس قد حمل ألحقوا نفوسهم على [العساكر] العادلية فأخذوهم باليد ، وانهزم الباقون مصعدين (٢٢٠ — ب) فى الجبل إلى الربض ، وحمل الأسرى إلى بين يدي نور الدين ، فرأى فيهم أميراً (٤) من أعيان العسكر وهو مكشوف الرأس ، فقام إليه واعتنقه ، وأخذ شيئاً (٥) كان على رأسه فألبسه إياه بيده وأقعده إلى جانبه ، وأحسن إلى المأسورين جميعهم ووعدهم بالإطلاق إذا فرغوا من أمر ماردین .

وأما الملك الكامل والعسكر الذين معه ، فإنهم لما جنهم الليل رحلوا عن ماردین ، فتقطعوا فى ذلك الجبل وساروا نحو (٦) ميافارقين ، وأصبحت الأرض منهم بلقعاً لأنيس بها ، وأتى الخبر إلى السعيد نور الدين رضى الله عنه ، فقال له بعض أصحابه : إصعد إلى الربض فليس دون ملك القلعة مانع لضعف من بها فتملكها صفواً عفواً ، ويكون هذا الموضع المثل : رب ساع لقاعد . فقال : حاشا لله أن يتحدث الناس عنى أن ناساً اعتضدوا بى واستنصرونى فأغدر بهم . ثم قال لأخى مجد الدين وهو عنده : ماتقول . فقال : الغادرون كثير (٢٢١ — أ) وقد أودعت الكتب غدراتهم ففى باقية إلى يوم القيامة : وإنما لم يؤرخ عن أحد من الناس أنه قدر على مثل ماردین وتركها وفاء وإنعاماً وإحساناً . قال ، فقال لى : أرسل إلى صاحب ماردین ليرسل نوابه إلى ولايته وقراباه — وكان قد أقطعها للعساكر التى معه وأمر بكف أيديهم عنها وتسليمها إلى صاحبها — قال : فقلت له : إن أصحابنا لم يأخذوا درهما واحداً لتأخر إدراك الغلات ، فلو بقى الإقطاع بأيديهم

(٣) بالأصل : الجانية .

(٢) بالأصل : وترك .

(١) بالأصل : عسكر .

(٦) بالأصل : نحو .

(٥) بالأصل : شىء .

(٤) بالأصل : أمير .

إلى أن يأخذوا منها (١) ما ينفقون (٢) منه (٣) على بيكارهم (٤) لكان مصلحة . فقال: لانكدر إنعامنا وإحساننا إليهم ، ونحن نكفي أصحابنا . قال : فأرسلت إلى صاحب ماردين ليتسلم بلاده فتسلمها وأرسل إليها النواب . وهذه سيرة لم يؤرخ عن أحد من الناس مثلها .

وكان في عزمه المسير إلى حران وما والاها من البلاد الجزرية للاستيلاء عليها ، ففرض وعاد إلى الموصل ، ولوسار إليها لملكها ، لأن الملك الكامل وعسكره لما فارقوا ماردين قصدوا ميافارقين (٢٢١ — ب) لعلمهم أن السعيد نور الدين يقصد البلاد الجزرية ، فأبعدوا عنها خوفاً منه .

ذكر عوده رضى الله عنه إلى بلاد

العادل والصلاح بينهما

قد ذكرنا فيما تقدم عود المولى السعيد نور الدين رضى الله عنه عن ماردين مريضاً ، فلما وصل إلى الموصل بقى أياماً ثم عوفى ، فلما قوى ، عاد وجمع عسكره وسار إلى البلاد الجزرية التي بيد العادل في سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وعزم على حصرها ، وكان بها حينئذ الملك الفائز ولد الملك العادل ومعه عسكر كثير قد سيرهم والده إليه لحفظ (٥) البلاد من نور الدين ، فلما وصل إلى رأس عين ، جاءته رسل الفائز ورسول من معه من أكابر الأمراء يرغبون في الصلح ويشيرون به ، فاقتضت المصلحة إجابتهم إلى ما طلبوا فصالحهم على ما بأيديهم ، وضمنوا [له] أن يحلفوا له الملك العادل وحلفوا له على ذلك ، فأرسل إلى العادل بالذى تقرر ، وسار مع رسوله أمير كبير من عند ولده خلف له (٢٢٢ — أ) واتفقا واستقرت القواعد وأمنت البلاد ، وعاد السعيد نور الدين إلى الموصل [في ذى القعدة من السنة (٦)] .

في ذكر حصر العادل مدينة (٧) سنجار وما فعله المولى نور الدين

في حفظها وضبطها

في سنة ست وستائة ، سار الملك العادل أبو بكر بن أيوب من الشام إلى سنجار في عساكر الشام ومصر والجزيرة وديار بكر فحصرها وبها صاحبها قطب الدين محمد بن عماد الدين — وهو

(١) بالأصل : منهم . (٢) بالأصل : ينفقون . (٣) بالأصل : به .

(٤) البيكار : لفظ فارسي ، يرسم هكذا : بيكار . وله أكثر من معنى ، منها : الحرب ، وهو المعنى المقصود هنا .

(٥) بالأصل : يحفظ . (٦) الإضافة من الكامل . (أنظر ، المعجم في اللغة الفارسية) .

(٧) بالأصل : الامدينة . (٨/٢٥٥) .

ابن عم المرحوم نور الدين قدس الله روحه — فأرسل قطب الدين ولده إلى الخدمة النورية مستجيراً ومستنصراً ، ثم سار إلى إربل ، إلى الملك المعظم مظفر الدين [كوكبرى (١)] في المعنى ، فأرسل إلى العادل يشفعان في أمر سنجار ويطلبان إبقاءها على صاحبها وترك التعرض إليها ، فاعتذر عن الإجابة ، وذكر لصاحبها ذنباً تقتضى قصده وحصره ، فجمع السعيد نور الدين عساكره ، ووصل إليه الملك المعظم مظفر الدين في عساكر إربل وشهرزور وأعمالها ، واجتمعا بالموصل بعد طول اقتراق ، واتفقا بعد (٢٢٢ — ب) اختلاف ، ووثق (٢) كل واحد منهما بصاحبه وثوقاً لامتداد عليه ، إلى حد أن مظفر الدين كان يبيت (٣) في قلعة الموصل ونور الدين بظاهرها في المعسكر ، وهذا غاية الائتلاف والاتفاق ، وعزما على المسير إلى سنجار ولقاء العادل ومحاربه ، وإنما منعهما عن ذلك ، أن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أعز الله سلطانه ، أرسل رسولا ، وهو بهاء الدين بن الضحاك أستاذ الدار العزيزة في إصلاح الحال ، وناهيك بهذا شرفا وجلالة وقدراً لنور الدين عند أمير المؤمنين ، إذ ينفذ مثل أستاذ داره العزيزة ليسعى في أغراضه ، فأشار بهاء الدين بترك الحرب ، وقال : أى الطائفتين انهزمت ، كان وهذا عظيماً في الإسلام لا يجبر وخرقاً لا يرقع . فسمعا وأطاعا ، وسار إلى سنجار واجتمع بالعادل ، وجرت أمور ، وترددت الرسل ، واستقرت القاعدة على الصلح وإبقاء سنجار على قطب الدين فرحل العادل عنها (٤) .

(٢٢٣ — أ) ذكر وفاة المولى السعيد نور الدين

قدس الله روحه

توفي المولى السعيد نور الدين — قدس الله روحه ونور ضريحه — في (٥) رجب من سنة سبع وستائة . وكان كثير الأمراض منحرف المزاج ، واختلف الأطباء في مرضه الذى توفي به ، فقليل لوث مزاج ، وقيل قرحة وقيل غير ذلك . تنوعت الأسباب والداء واحد .

وكان رضى الله عنه قوى النفس في مرضه ، لم يغفل عن تدبير الملك وسياسته إلى أن فارق الدنيا . ولما اشتد مرضه انحدر في شبابة إلى الحامة (٦) المعروفة بعين القيامة فلم يجد بها راحة ،

(١) الإضافة من الكامل (ح/٩/ص/٣٠١) . (٢) بالأصل : روثق . (٣) بالأصل : بيت .

(٤) ذكر ابن الأثير في الكامل ، (ح/٩/ص/٣٠١) أن سبب حصار الملك العادل سنجار . أن نور الدين اتفق مع العادل على الاستيلاء على بلاد كل من قطب الدين صاحب سنجار وعز الدين محمود صاحب جزيرة ابن عمر ، على أن تكون بلاد قطب الدين لئادل ، وبلاد عز الدين لنور الدين ، فسار العادل إلى بلاد الجزيرة واستولى على الحابور ، ولما حاصر سنجار ، خاف نور الدين منه ففقد الاتفاق معه ، وانضم إلى قطب الدين لتخليص سنجار منه . ورواية الكامل أوسع مما هي هنا في « النص » . (٥) بالأصل : من .

(٦) الحامة : في (ياقوت) : الحمة . عين حارة بين أسعرت وجزيرة ابن عمر على دجلة . وتقصّد من النواحي البعيدة

فأصعد إلى الموصل فأدركه أجله ليلا قبل الوصول إليها ، وكان معه المولى بدر الدين فتاه ، فمكتم موته من طبيب (١) وملاح وخازم إلى أن وصل إلى البلد ، فأدخله الدار ميتا وتركه بالمكان الذى كان فيه مريضاً ، ووكل ببابه من يمنع من الدخول إليه ، وأمضى فى نهاره ذلك ما كان وصاه (٢٢٣ - ب) به فى طريقه إلى أن توفى ، فلما فرغ من جميعه ، أظهر موته آخر النهار ودفن أول الليل بالمدرسة التى أنشأها بباطن الموصل ، وقام فى حفظ البلد المقام المرضى ، بحيث أن أهل البلد الرجال والنساء باتوا يترددون عامة الليل إلى الدار السلطانية ، فلم يفقد من أحد منهم الحبة الفرد . واشتد الحزن عليه ، ولم ينفعهم اشتراكهم فى المصيبة به ، لأنه كان رفيقا بهم ، مشفقاً عليهم ، ناظراً فى مصالحتهم . وأكثر الشعراء رثاءه (٢) وتأبينه (٣) .

قال فيه البليغ ما قال ذو العى وكل بوصفه منطق
وكذاك العدو لم يعد أن قال جميلاً كما يقول الصديق

ولما توفى كان عمره [ثمانيا وثلاثين سنة (٤)] . وكان ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهراً ، وكان أسمر ، خفيف اللحية والعارضين بالمرّة ، مليح الوجه ، وقد أسرع إليه الشيب .

ذكر شىء من سيرته

كان رضى الله عنه بعيد الهمة ، كبير النفس ، كريم الأخلاق (٥٢٤ - أ) حسن الصحبة مع ممالئكه ، يمازحهم وينبسط معهم ، كثير الإحتمال لما يبدو منهم ، فمن ذلك أننى أعلم أنه بقى عدة سنين يشكو من بعض أصحابه ويذمه إلى أن قال : ابتلاء الله تعالى بمخالفتى ، إن أحببت إنساناً أبغضه ، وإن قدمته أخره ، وإن أعطيته حرمة . ومع هذا جميعه ، فكان يحتمله ويحلم عنه ولا يظهر له شيئاً من ذلك .

وكان رضى الله عنه يحلم عن نوابه ويتغافل عنهم مع علمه بحركاتهم وسكناتهم . ولقد قال يوماً لمن يثق إليه : ما أجمل هؤلاء نوابى ، يخدمنى أحدهم وليس له شىء وعليه دين ، فإينقضى عليه سنة حتى يوفى دينه ويعمر الدور والأمالك ، ويرسل إلى يطلب أن يشتري منى قرايا ، ولو أن لهم عقلاً دوخر (٥) الأموال واشتروا بها أملاكاً من غيرى ، فإنهم يعلمون أننى أعرف أحوالهم

(١) بالأصل : طبيب . (٢) بالأصل : مراسه (بدون تنقيط ، ويمكن قراءة اللفظ : مراتبه) . واللفظ الذى اختاره المحقق أوفق للعبارة . (٣) اللفظ بدون تنقيط بالأصل . (٤) ما بين الخاصرتين . (٥) بالأسفل . وهو تحديد ترجيحى على ضوء ما هو وارد فى « النسخ » (ص ١٨٩) أن نور الدين ولى الموصل وعمره نحو عشرين سنة . هكذا بالأصل . ولعل اللفظ تحريفاً للفظ : ادخروا .

قديماً وحديثاً . ومع هذه المعرفة فكان يغضى عنهم كأنه لا يعلم بشيء من أمرهم .

وكان — قدس الله روحه — كثير الإحسان إلى رعيته (٢٢٤ — ب) والرفق بهم والقرب منهم ، سريع الإنفعال للخير . حكى لى أخى مجد الدين رحمه الله تعالى — وكان [على] غاية الخبر به — قال : ما قلت له فى شيء قط من عدل وبذل مال أو غير ذلك من الصلاح فقال لا . وحكى لى أيضاً عنه قال : كنت معه فى بعض أسفاره ، وكان له سردار الموصل يكون معه مفاتيح داره ، فبلغه أن ولد السردار قد سرق من داره شيئاً ، فأرسل إلى ليلا يأمرنى أن أكتب كتاباً إلى الموصل بقطع يده ، فأعدت الجواب : إننى ما أكتب هذا الكتاب الليلة ، وإذا اجتمعت به غدا أعرفه ما عندى فى هذا ، فأعاد مرة ثانية وثالثة وأنا أمتنع من ذلك ، فاستدعانى ، فحضرت عنده فقال لى : لم لا تكتب الكتاب (١) فقلت له : عادنى معكم أننى لا أكتب إلا ما تجيزه (٢) الشريعة . فقال لى : هذا سارق توجب الشريعة المطهرة قطع يده . فقلت له : لا قطع عليه ، لأنه من غير حرز (٣) لأن المفاتيح بيده ، فعفا عنه .

ومن رفاقه برعيته (٢٢٥ — أ) وتعطفه عليهم ، أنه كان له غلام قد خدمه قديماً فى صباه وأوجب عليه حقاً ، وكان يؤثر أن يقدمه ويفوض إليه أمراً ، فولاه ولاية الموصل ، فسلك مع أهلها سيرة فيها بعض الحشونة ، فكتب إليه بعض أهلها يذكر له شيئاً مما يفعله هذا النائب فعزله ، وبقي مدة معزولاً ، ثم حملة (٤) طول خدمته له على أن ولاه غيرها ثانية (٥) ووصاه بالإحسان والرفق . فغلبت (٦) عليه عادته ، فعزله ثانياً ميلاً فى هوى رعيته واستماله لقلوبهم وحفظاً لهم . ومن ذلك [أيضاً] أنه مرض مرضاً شديداً غير مرضه الذى توفى فيه وعظم مرضه ، فكان الناس على طبقاتهم يحضرون كل يوم [إلى] باب داره محبة له فبطلت معاشهم ، فكان يتكلف فى بعض الأوقات القعود لهم ، ويأمر بادخالهم جميعهم إليه . ففى بعض الأيام حضر أخى مجد الدين والناس على الباب مجتمعون ، فحين رأوا أخى استغاثوا وقالوا : نريد نبصر صاحبنا . فلما دخل رآه وبه قوة ، فأشار عليه (٢٢٥ — ب) بالقعود لهم والانتقال إلى مكان فسيح لى (٧) يدخل إليه جميع الناس ، ففعل وتكلف الحركة واحتمل المشقة طلباً لرضاهم ، إذ علم أنهم يؤثرون أن يروه .

وأما وقاره وهيبته فى حركاته وسكناته وملبوسه فإنه النهاية ، لم يكن يلبس إلا مالا يعيبه (٨) به أحد ، فلم يكن يلبس الذهب والحرير والألوان التى يستحسنها الشباب ، ولا يترك على دابته حلية من ذهب

(١) بالأصل : كتاباً . (والتصحيح من ، ابن واصل ، ٣/ص ٢٠٥) . (٢) بالأصل : لا تخبره .
(٣) والتصحيح من ، ابن واصل ، ٣/ص ٢٠٥ . (٤) بالأصل : خزن . (والتصحيح من ، ابن واصل ، ٣/ص ٢٠٥) . (٥) بالأصل : ثابته . (٦) بالأصل : غلب .
(٧) بالأصل : لى أن . (٨) بالأصل : نعيته .

ولا غيرها ، بل ترك ما كان يسلكه غيره من قواعد السلطنة وألقاه تحت قدمه ونزه نفسه عنه أنفة منه .

وأما شجاعته ، فالذى ذكرنا من حاله يدل على غاية الشجاعة وقوة النفس وزيادة الإقدام ، ونحن نذكر ههنا نكتة ، وهى إنه رضى الله عنه [لما] عزم على قصد بلاد العادل بما يليه ، وكذلك أيضاً عزم الملك الظاهر بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، والسلطان غياث الدين وغيرهما ، كل منهم (٢٢٦ — أ) يقصد ما يليه منها ، فأقام العادل بحران ليكن فى الوسط ليبادر الى من يسبق إلى التقدم ، فاتفق أن السعيد نور الدين كان منحرف المزاج وزاد به ذلك ، فرأى مصالحة العادل فصالحه ، وكان العادل لا يزال يرأسه سرا يستميله ، فلما تم الصلح بينهما سار العادل عن حران إلى دمشق ، فقبل له لو أقمت حتى ينفصل الحال مع الباقين لكان جيداً . فقال : ليس فيهم من يفكر فيه ، إنما الذى يخاف ويرجى هو نور الدين ، ومن عداه فليس بشئ ، وسار ولم يقيم . فكان كما قال ، ليس فيهم من يحرك [ساكناً] . ومن ذلك [أيضاً] ، أن العادل كان له ديار مصر ، والشام ، وديار الجزيرة ، وبلاد أرمينية ، وبعض ديار بكر وبقاياها فى طاعته ، ومعه أيضاً صاحب سنجار (١) ، والملك المعظم (٢) صاحب إربل ، ومعز الدين (٣) صاحب جزيرة ابن عمر ، وكان المرحوم نور الدين رضى الله عنه كل قليل قد أنشب الحرب معهم ويقصد بلادهم ، فكان العادل (٢٢٦ — ب) بسببه لا يزال يستميل أصحاب الأطراف المجاورين لبلاده والأمراء الذين فى عسكره بمصر والشام ، ليستعين بهم عليه وخوفاً أن يميلوا إليه ، وبلغنى أن العادل قال — وقد بلغه خبر حركته — : أى رجل هو نور الدين ، أنا خصمه بهذه البلاد جميعها وهذه العساكر الكثيرة ، وكل من يجاوره معى عليه وقد أهدقنا به من جميع جهاته ، ومع هذا فلا يقنع منا بالسلامة ، بل يريد أن يملك بلادنا ، ولولا أن الله تعالى أعاننا [عليه] بكثرة أمراضه لعجزنا عنه . وبلغنى أيضاً أنه قال لما توفى السعيد نور الدين — قدس الله روحه — : ذهب من كان يخاف [منه] . ومن ذلك أنه ذكر عنده يوماً ملك والده السعيد قلعة حلب ، وأنه سلمها إلى أخيه عماد الدين ، فقال : والله ما أذكر هذه الحال إلا أعجب منها ، والله لو ملكتها (٤) لجالدت صلاح الدين [عليها] بالسيف بباب مصر .

(٢٢٧ — أ) وأما علو همته

فمن ذلك ما فعله بهاردين من إنقاذها من العسكر العادلى وإبقائها على صاحبها ، ولو أن ذا القرنين فعل ذلك لكان عظيماً . وما ذكرناه من طلب ملك البلاد والتغلب فمن علو الهمة وكبر النفس .

(١) هو قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى (الثانى) . (٢) هو مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على كوجك . (٣) هو معز الدين محمود بن سنجر شاه بن سيف الدين غازى (الثانى) . (٤) بالأصل : ملكها .

وأما عقله وحسن آرائه

فإليه النهاية . سمعت أخى مجد الدين رحمه الله غير مرة ، يقول : ليس عندهذا المولى نور الدين مثله ، والله إنه أعلم بالمصلحة من كل من (١) رأيناه ، ولقد رأيت كثيراً من الملوك من أهله وغيرهم ما رأيت فيهم أسرع إدراكاً ولا أهدى إلى الصواب منه فى سرعة خاطر . ولو رمت ذكر جياذ (٢) آرائه لاحتجت إلى كثير من الأوراق ، لكن المقصود التنبيه من كل خلق على بعضه .

وأما حسن عهده ومراعاته لحقوق خدمه ومماليكه (٣) فى حياته

فأنا أذكر ما رأيت منه . فمن ذلك أن أخى مجد (٢٢٧-ب) الدين - رحمه الله عليه - توفى سلبخ ذى الحجة من سنة ست وستائة ، فأرسل المولى المرحوم نور الدين - رضى الله عنه - إلى ذلك اليوم عدة مرار يقول : لا تخرجه إلى الجامع للصلاة عليه حتى أقول لك ، فإننى أريد أصلى عليه - وكان الزمان صيفاً ، وكان رضى الله عنه ذلك اليوم غير طيب النفس وهو موعوك البدن - فلما كان العصر وقر الحر ، أرسل إلى " يأمرنى بحمله إلى الجامع ، وانحدر هو فسبقنا ، فلما رأى الجنازة ، بلغنى عنه أنه بكى كثيراً وأظهر التأسف ، ولما قصدنا خدمته بعد ذلك أظهر لنا من الهم بسببه شيئاً كثيراً ، وحملاً له ما جرت العادة وفيه سجادة للصلاة ، فرده وسألنى عن شيء كان بلاه (٤) بنفسه ، فأومأت إلى السجادة ، فديده وأخذها ، [حدث] هذا جميعه وهو شديد الوعك . ولم يزل بعد ذلك يزداد مرضاً إلى أن توفى بعده بسبعة أشهر ، رضى الله عنه .

ومن محاسن أعماله المدرسة التى أنشأها بباطن الموصل (٢٢٨ - أ) مقابل دار المملكة ، وهى من أحسن المدارس ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ، وجعلها وقفاً على ستين فقيهاً من الشافعية ، سوى ما فيها من الصدقات الدارة والتعهدات للصوفية والفقراء (٥) .

ذكر ملك ولده المولى الملك القاهر أعز الله أنصاره

كان المولى السعيد نور الدين - قدس الله روحه كما نور ضريحه - قد عهد إلى ولده المولى الملك القاهر العالم العادل المؤيد المنصور المظفر (٦) المجاهد المرباط عن الدنيا والدين ، سلطان

(١) بالأصل : ما . (٢) بالأصل : اجاد . (٣) بالأصل : مملكة .
(٤) بالأصل : بلايه . (٥) أنظر وصف المدرسة فى كتاب « الموصل فى العهد الأتابكى »
(٦) بالأصل : المظفر . المديوه جى (ص/١٤٢) .

الإسلام والمسلمين ، ناصر أمير المؤمنين ، أبي المظفر مسعود أعز الله سلطانه ، وأعلى شأنه ، ونصر جنده وأعوانه ، وخذل عدو دولته وأهانه .

وهذا دعاء لو سكت كفيته لأنى سألت الله فيك وقد فعل

قبل وفاته بعدة سنين ، لأنه كان يرى الدنيا بعينه ، ويسمع منها بأذنه ، ويستسهل صعاب الأمور منه ، ويستحلى بقربه ، ويستلذ نسيم الهواء به (٢٢٨-ب) ولم يزل فى حجره ، وبين سحره ونجره ، فلما اشتد بالمرحوم المرض ، ورأى أن جوهر حياته قد استحال إلى العرض ، جدد العود له ، وأمر بأخذ الميثاق على كافة الأولياء من الأجناد والأمراء والأعيان والأماثل والعلماء والأفاضل (١) .

ساد الملوك لسبع عشرة حجة ولداته إذ ذاك فى أشغال
قعدت بهم همتهم وسمت به همهم الملوك وسورة الأبطال

فلما توفى السعيد رضى الله عنه وأرضاه ، وأكرم نزله ومشواه ، قام مقامه ، وحفظ من الملك نظامه ، وتلافى ذلك الفتق ، ورقع ذلك الخرق ، واقتنى أثر السعيد بأبيه ، فى كل ما يذره ويأتيه

زاد على ما شاد آباؤه به وقد شاد الذى أثلوه
أقصر كل الخلق عن شأوه حسرى وطال السكل إذ طاولوه

(٢٢٩-أ) وأضحت الدولة به باسمه ، بعد أن كانت باكية ، وشاكرة ، بعد أن كانت شاكية ، ومستبشرة ، بعد أن كانت باسرة ، وعابدها بهاؤها وروعها ، وفارقها عبوسها وروعها .

ولما فرغ من وظيفة العزاء ، بذل من الأموال والتشريفات ما لم يسبقه من مضى ولا يدركه من هوآت ، عمت الأمير والمأمور ، وشملت (٢) الصغير والكبير ، وأظهر من الجود ما غير على حاتم وكعب ، وحير كل ذى عقل ولب ، وهذا موضع المثل : ليس السرف فى الشرف . وحين استقر فى الدست ظهر عليه من علو الهمة إلى معالى الأمور ، ومحبة العدل فى سياسة الجمهور ، ومن الغرام بمكارم الأخلاق ، من الحلم والسخاء ، والعفو والإباء ، ما لم يجارده فيه أحد إلا وسبقه ثانياً من عنائه ، ولم يبارره ملك إلا وجاء سكيماً فى ميدانه ، واشتهر عنه من العدل ما لو رآه كسرى لعاد خجلاً يتعثر بأذياله ، ولا يستتر (٣) حياء من وراء حجالة .

(٢٢٩-ب) من كان ذاك أبوه كان لمجده أن يستطيل وأن يشاد بناؤه
من كان من نجل البدور ونجرها لم يعدها إشراقه وعلاؤه

(١) بعد هذا اللفظ ، بياض بمقدار سطر كامل فى « النص » .

(٢) بالأصل : وسامت .

(٣) بالأصل : ولاستر .

ملك إذا افتخرت بآباء العلي أولادها فخرت به آباؤه
من رام مشبهه سوى أسلافه في المكرمات الغرخاب عناؤه
ملك الجلال فأشرق لآلاؤه وحي الجميل فأعرق آلاؤه

ولو رمنا شرح مفردات محاسن أفعاله وحكم أقواله لطال الكتاب ، ولكننا نقتصر على حادثة واحدة يستدل بها على نظائرها ، وهي ، أنه — خاند الله سلطانه — جلس في دار العدل للإنصاف ، والأخذ للضعفاء من الأقوياء والأشراف ، فحضرت امرأة عمياء ادعت أن بعض الملوك من عمومته ضربها (١) ببندقة عند (٢) الجلابين رماها ، كانت سبب عماها ، فأمر بإحضاره إلى الحاكم وهو عنده ، فحضر وساوى خصمه [وقيل له الدية (٣)] أو القصاص ، فقام فزعا قد أيس من الحياة ، وهو لا يصدق بالنجاة ، فأرضى خصمه بماله بذله ، وعن القصاص (٢٣٠ — أ) استنزله ، فعادت الإمراة وذكرت أنها قد رضيت وعفت عن حقها ، وهذه حالة لم يسمح بمثلها ، ولم يدون في كتب التواريخ عدلها .

يأليت شعري من هذى مكارمه ماذا ترى ببلوغ النجم ينتظر

أجرى الله على يده الشريفة كل صالحة ، ودفع عن حضرته العلية كل فادحة ، ووقفه للصواب في الأقوال والأفعال ، ولا زال سلطانه قاهرا ، وفلك سعاده دائرا ، ولا برح جد عدوه عاثرا ، وذكره خاملا دائرا (٤) .

لما فرغ المولى السعيد المرحوم نور الدين أسكنه الله جنانه ، وأفاض عليه عفوه ورضوانه ، وملا ضريحه روحه وريحانه ، من تقرير قواعد ولده المولى الملك القاهر عز الله أنصاره ، أراد أن يشد أزره بمن يجعله له وزيرا ، وعلى ما فوض إليه (٢٣٠ — ب) من أعباء المملكة ظهيرا ، ليكون مدبرا لدولته ، وناظرا في مهام مملكته ، ونائبا عنه في ولاية رعيته ، فاعتبر خواصه وأوليائه ، وبما ليسك وأصفياه ، وكفاته وأمرائه ، ليختار منهم من يكون أهلا لهذا الأمر الكبير ، وقيما بهذا الشأن الخطير ، فلم يرفهم أقوم سيرة ، ولا أخلاص (٥) سريرة ، ولا أتم وفاء ، ولا أعلى همة وأكثر سخاء ، ولا أغزر حياء ومروءة ، ولا أغنى غناء ولا أعظم فتوة ، ولا أحسن اصطلاحا ، ولا أكثر للحق اتباعا ، ولا أعدل منه أحكاما ، ولا أعلم بما يكسب الدولة انتظاما ، من المولى الأمير الأصغر سلالر الكبير العادل العالم الكامل الأسعد المقبل بدر الدين [لؤلؤ (٦)] عضد الإسلام ، وسيد الأمراء ، حسام أمير المؤمنين أسبغ الله ظله ، وأعلى محله ، وقهر عدوه وأذله .

(١) اللفظ بدون تنقيط بالأصل . (٢) بالأصل : عن . (٣) الإضافة من « دى ـ لين » (ص / ٣٧٢) . (٤) بقى هذا اللفظ بياض بالأصل بمقدار سطر ونصف سطر . (٥) بالأصل : أخلاص . (٦) الإضافة من الكامل (ح / ٩ / ص / ٣٠٤) .

أوحده الله فما مثله لطالب ذاك ولا ناشد
ليس على الله بمستنكر (١) أن يجمع العالم في واحد

(٢٣١ - أ) فحيث وجد ما كان ينشده ، وظفر بما كان يريد ، ويقصده (٢) ، تقدم إليه بخدمة ولده ، وحكمه في أمواله ورجاله وبلده ، ورأى أنه قد أسند هذا المهم إلى الولي الوافي ، وفوض هذه الزعامة إلى المخلص الكافي ، وقد كان - رضي الله عنه - يتفرس في هذا الأمير ، إستحقاق التقدم والتدبير ، فلم يزل يدرجه بين أطفاه وكراماته ، وولا ياته وإقطاعاته ، من رتبة إلى أخرى هي أعلى (٣) منها مكانا ، وأرفع شأنا ، إلى أن ولاه إمارة الجيوش والعساكر ، وسياسة القبائل والعشائر .

ولما استأثر الله تعالى بالمرحوم ، قام في خدمة المولى الملك القاهر مقاما يحمد عليه الداني والقاصي ، والمطيع والعاصي ، والبادي والحاضر ، والمنجد والغاير ، ولقد جاء على حين فترة من الكرام ، وكثرة من اللثام ، فجدد من أعلام السيادة ما كان دارسا ، وأضحك من ثغور المروة ما كان عابسا ، واختالت الدولة من حسن تدبيره (٢٣١ - ب) اختيال العروس ، ورفلت من صائب آرائه في أحسن لبوس ، وافتخر به دهره على ساير الدهور .

إذا نحن أثينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وإن جرت الألفاظ بما بمدحة لغيرك (٤) إنسانا فأنت الذي نعني

هذه نبذة يسيرة من محاسنه تليق بهذا المختصر ، وقطرة من بحر مكارمه تناسب هذا المقتصر (٥) ، ولو أوردتها مفصلة لخرجنا عما اعتمدناه ، وتركنا ما قصدناه ، ونحن إن شاء الله تعالى نأتى على كثير من ذلك في المستقصى في التاريخ ، والله الموفق للصواب ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والحمد لله وحده ، وصلى [الله] على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الأبرار وسلم تسليما كثيرا .

(١) ورد هذا الشطر من البيت بالأصل ، هكذا ، وليس لله بمستنكر .
(٢) بالأصل : ويقصد .
(٣) بالأصل : أعلا .
(٤) بالأصل : لغيرك .
(٥) بالأصل : المعتصر .

الفهارس

فہرس الأعلام

آقسنقر (والد عماد الدین زنکی) : ۳ ۴ ۵ ۶ ۱۹ ۲۰ ۲۴ ۲۵ .

آقسنقر البرسقی : ۲۶ ۳۱ ۳۵ ۳۶ ۶۵ .

آن کومنین : ۶ .

إبراهيم بن قريش بن بدران : ۱۲ .

أبق بن محمد بن بوری بن طغدکین : ۵۹ ۸۸ ۱۰۶ ۱۰۷ ۱۰۸ .

ابن الاثير : ۱ ۱۰ ۱۲ ۱۶ ۱۸ ۲۴ .

ابن الأنباری = سديد الدولة بن الأنباری .

ابن البلدی = أحمد بن محمد بن سعيد .

ابن تلليل = خسرو بن تلليل .

ابن الجوزی : ۱۰ .

ابن جوسلین : ۱۲۴ ۱۲۵ .

ابن الخشاب : ۱۷۶ .

ابن خلیکان : ۱۲ .

ابن الخياط : ۱۳۸ .

ابن سکینة : ۵۰ .

ابن الصاحب : ۲۹ .

ابن صدقه : ۵۳ .

ابن طولون : ۱۸ .

ابن عطير النمری : ۷ .

ابن قرجلة : ۱۳۸ .

ابن القلانسی : ۱۹ .

ابن الکافی : ۱۲۹ .

ابن الکرخی : ۵۳ .

ابن منير = أحمد بن منير الطرابلسي .

ابن النديم : ١٣ .

ابن الهنفرى : ١٤٤ .

ابن واصل : ١٢ .

ابن وثاب النيرى : ٧ .

أبو إسحاق السبيعى : ١١ .

أبو بكر الياس البكجى : ٢٦ .

أبو بكر بن أيوب : ١٨٥ ١٨٦ ١٨٩ ١٩٠ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٦ ١٩٧ ٢٠٠ .

أبو بكر بن الداية : ٩١ ٩٥ ١٢٦ ١٣٧ ١٧٢ .

أبو بكر الديبسى : ٧٦ ٨٦ ٨٧ ٩٠ ٩٣ ١١٢ ١١٣ .

أبو بكر الصديق : ١٨١ .

أبو بكر الهمدانى : ٥٧ .

أبو تمام الطائى : ٤١ ٤٢ ٦٧ .

أبو جعفر = أحمد بن محمد بن سعيد .

أبو جعفر المنصور بن المسترشد بالله : ٥٠ .

أبو الحسن = على بن جمال الدين .

أبو حنيفة : ١١ ١٦٥ ١٩٣ .

أبو سعد : ١١ .

أبو سلامة = مرشد بن على .

أبو العباس = أحمد المستظهر بالله .

أبو العباس = الحسين بن على الطغرائى الاصفهانى .

أبو العباس = عبد الله بن محمد السفاح .

أبو عبد الله = الحسين بن جبير .

أبو عبد الله بن على بن مهران : ٧ .

أبو عبد الله = محمد بن نصر بن صغير بن خالد بن القيسرانى .

أبو عبد الله = محمد بن المستظهر بالله .

- أبو العساكر = سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكيناني المنقذى .
أبو الفتوح الاسفرائينى : ٤٧ .
أبو الفرج بن رئيس الرؤساء : ١٧٩ ١٥١ .
أبو الفرج الدقاق : ١٨٠ .
أبو الفوارس = سعد بن محمد بن صيفى .
أبو القاسم = عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله .
أبو القاسم = علي بن الحسين بن محمد بن علي العباسى .
أبو القاسم الانساباذى : ٤٢ ٤٣ ٤٥ ٥٤ ١٢٧ .
أبو القاسم الدرگزبى : = أبو القاسم الانساباذى .
أبو القاسم بن عساكر : ١٧٣ ٨٩ .
أبو القاسم محمد : ١٣ ١٤ ١٥٧ .
أبو المرفف = نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ .
أبو المظفر = مسعود بن نور الدين أرسلان شاه .
أبو النجيب السهروردى : ٢٢ .
أبو النجيب الفقيه الصوفى : ٥٣ .
أبو الهيجاء الكردى الهذباني : ٣٠ ١٤٢ .
الأتراك : ٩ .
أحمد بن أبى الخير : ١٨٣ ١٨٤ .
أحمد بن حامد بن محمد أبو نصر : ٣٠ ٤٢ .
أحمد بن محمد بن سعيد : ١٥١ .
أحمد (المستظهر بالله) : ١٣ ١٤ ٢٢ ٥٠ ١٥٠ .
أحمد بن مسعود الموصلى المقرئ : ١٢٦ .
أحمد بن منير الطرابلسى (الشاعر) : ١٠٠ ١٠١ ١٠٤ ١٠٩ ١٣١ .
أحمد بن نظام الملك : ٢٥ .
الأخطل : ٧٥ .

الأراتقة (والأرتقية) : ٣٨ ٣٩ ٩٠ .

أرتق بن أكسب التركاني : ٥ ٧ .

أرسلان بيغو بن سليجق : ٩ .

أرسلان شاه بن عز الدين مسعود : ١ ٢ ٣٧ ٩٥ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥

١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ .

الأرمن : ١٩ ٣٣ ٨٦ ١٦٩ .

الأزهرى : ١١ .

أسامة بن مرشد : ١١١ ١١٢ ١١٦ .

الإسبتارية : ٢١ .

إسحاق : ١٤ .

أسد الدين = شيركوه بن شاذى .

اسماعيل بن أبى سعيد الصوفى (صدر الدين شيخ الشيوخ) : ٢٦ .

اسماعيل بن محمد (المنصور بالله أبو طاهر) : ١٥٧ .

اسماعيل بن نور الدين محمود : ٧٧ ١٦٢ ١٦٣ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٨١ .

اسماعيل بن ياقوتى : ١٣ .

أغلبك (مملوك الدييسى) : ١١٢ .

الإفرنج = الفرنج .

إقبال المسترشدى : ٤٦ ٤٩ ٥٢ .

الأكراد : ٤٨ ٦٤ .

الأكراد البشنوية : ٧٣ .

الأكراد الجلالية : ٥٨ .

الأكراد الروادية : ١١٩ .

أكن : ٤٦ .

آل منقذ : ١١٠ .

ألب أرسلان بن السلطان محمود السلجوقى : ٤ ٩ ١٠ ٣٥ ٤٨ ٧١ ٧٢ ٨٤ .

ألجى بن تمر تاش بن إيلغازى بن أرتق : ١٠٦ ١٢٣ .

الامر بأحكام الله : ١٥٧ .

- الأمير العالم : ١٥٦ .
أميرك الجاندار : ٨٤ .
أمين الدين يمن : ١٩٠ .
الأمين محمد : ١٤ .
أنر (معين الدين) : ٥٨ ٥٩ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ١٣١ .
الأنساباذى = أبو القاسم الأنساباذى .
أنو شروان بن خالد : ٣٥ ٤٩ .
أوحد الزمان الطبيب : ٣٠ ٩٢ .
إياز قفجاق (الأمير) : ١٠٦ .
أيتكين الخادم : ٤٥ .
إيكلى بن نغر الدولة إبراهيم (سعد الدولة أبو منصور) : ٣٨ .
إيلدكز (شمس الدولة) : ١٠٦ ١٥٣ .
إيلغازى بن أرتق : ١٨ ٢٦ ٧٤ .
إيلغازى بن ألي : ٩٤ .
أيوب (نجم الدين) : ٤٤ ٥٩ ١١٩ ١٢٠ ١٢٦ ١٤١ ١٥٨ ١٧٢ .

ب

- الباطنية : ٣١ ٥١ .
بدر الدين : ١٩٨ .
البراض بن قيس : ٧٥ .
بردويل : ١٨ .
برسق : ١٣ ٤٩ .
البرسقى = آقسنقر البرسقى .
برغش : ١٣٣ ١٣٩ .
البشارى : ١٨ .
بركياروق بن ملكشاه : ٤ ١٢ ١٣ ١٥ ١٦ ٢١ ٢٢ .

البرنس (صاحب أنطاكية) : ٩٨ ٩٩ ١٢٤ .

بغدوين = بردويل .

البقش : ٥٢ .

البقة قتلغ السكالي : ١٦٢ .

بك أبة المحمودى : ٥٠ .

بللك بن بهرام بن أرتق (الأمير) : ٧٤ .

بليمان : ٨١ ٨٢ .

بنو بويه : ٥١ .

بنو تغلب : ٧٥ .

بنو قشير : ٧٣ .

بنو كلب : ٤٦ ١٣٦ .

بنو مالك : ١٣٧ .

بنو مروان : ٥ .

بهاء الدين = على بن الشكرى .

بهاء الدين = على بن الشهرزورى .

بهاء الدين بن الضحاك : ١٩٧ .

بهروز (مجاهد الدين) : ٤٢ ١١٩ .

البهلوان : ٤ .

بورى بن طغديكين : ٤٦

بوازبه : ٥٤ .

بوزان (الأمير) : ٧ ١٢ ١٣ ١٥ ١٠٩ ١٣٥ .

بيمند (ابن البرنس صاحب أنطاكية) : ٩٩ ١٠٩ .

ت

تاج الدولة = تاش بن ألب أرسلان .

تاج الدين = يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى .

تاج الملوك = بوري بن طغتكين .

تبر (الأمير) : ١٣٥ .

التدروس : ٦ .

الترك : ٥١ .

تركان خاتون : ١١ .

التركان : ١٦ ٣٨ ٨٠ .

تمر تاش بن ايلغازي بن أرتق : ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٧٠ ٧٩ ٨٠ ٩٠ ٩١ ٩٤ ١٠٦ ١٤٦ .

توران شاه بن أيوب : ١٤٣ ١٦٢ .

التوناش الأبري : ١٧ ٢٥ .

ث

ثقة الدين = حسن البربطي .

ج

جاولي سقاووا : ٨ ١٦ ١٧ ٣٢ ٣٤ ٣٥ ٦٥ .

جاولي القسيمي : ٤٩ .

الجحاف بن حكيم السليمي : ٧٥ .

الجراكسة : ١٢٦ .

جرديك (عز الدين) : ١٣٩ ١٤٠ ١٩٣ .

جغري بك داود : ١٠ .

جقر (نصير الدين) : ٣٤ ٣٥ ٤٧ ٦٤ ٦٥ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٨ ٨١ ٨٢ ٨٤ ١٥٠ .

جكرمش (شمس الدولة) : ١٦ .

- جلال الدين : ١٧٨ .
- جمال الدين = محمد بن علي الأصفهاني (الوزير) .
- جمال الدين الوزير = محمد بن علي الأصفهاني .
- جوسلين : ١٨ ٣٧ ٦٦ ٦٧ ٦٩ ٧٠ ٨٦ ١٠١ ١٠٢ ١٠٤ .
- جيوش بك : ١٩ ٢٠ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٦٥ .

ح

- الحارمي = محمود الحارمي .
- الحافظ لدين الله : ١٥٧ .
- الحاكم بأمر الله : ١٥٧ .
- الحجاج بن يوسف الثقفي : ١١ ٢٤ .
- حجة الدين = يوسف بن ذي ناس الفندلاوي .
- حسام الدين = تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق .
- حسام الدين = الحسين بن عيسى الجراحي .
- حسام الدين = يولق أرسلان بن ايلغازي بن أرتق .
- حسان المنبجي : ٧٤ .
- الحسن بن اسحاق (نظام الملك) : ٤ ٥ ٨ ٩ ١٠ ١١ ٥١ .
- حسن البربطي : ٨٤ .
- حسين أوزبك : ٤٤ ٤٥ .
- الحسين بن جهير : ٥١ .
- الحسين بن علي الطغراني الأصفهاني : ٢٣ .
- الحسين بن عيسى الجراحي : ١٦٢ .
- الحيص بيص = سعد بن محمد بن صيفي .

خ

- الخاتون : ۱۸۳ ۱۶۴ ۱۴۶ .
- خاتون بهشت جهان : ۲۵ .
- الخاتون السكمانية : ۷۱ ۹۱ ۹۴ .
- خسرو بن تلیل : ۱۴۱ ۱۴۲ .
- خوارز مشاه : ۴۴ ۴۵ .
- خویلد : ۸ .

د

- داود بن السلطان محمود : ۹ ۱۰ ۴۳ ۵۱ ۵۲ ۵۴ .
- داود بن سقمان بن أرتق : ۳۶ ۳۷ ۳۸ ۳۹ ۴۷ ۶۴ ۸۰ ۸۱ .
- دبیس بن صدقة الأسدی : ۲۲ ۲۴ ۲۵ ۲۶ ۲۷ ۳۵ ۴۴ ۴۵ ۴۶ ۴۷ ۷۱ .
- الديوية : ۴۱ .
- دقاق : ۱۷ .
- دی سلین : ۶ ۹ ۱۴ ۶۹ .

ذ

- ذبیان : ۷۵ .
- ذو النون بن دانشمند : ۱۶۰ ۱۶۱ .

ر

- الرائد بالله : ٤٨ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ .
 الراضى بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله : ١٤ .
 الرجى : ١٦١ .
 الرشيد : ١٤ ٢٦ .
 رضوان : ١٥ ١٧ .
 رينون شاتون : ٩٩ .

ز

- زامباور : ٩ ١٦ .
 الزبير بن العوام بن خويلد : ٨ .
 زعيم الدين بن جعفر : ١٥١ ١٥٢ .
 زنى بن برسق : ١٩ .
 زنى الجاندار : ١٠٥ .
 زنى الشامى = زنى بن قسيم الدولة آقسنقر .

زنى بن قسيم الدولة آقسنقر : ٣ ٥ ٨ ١٥ ١٦ ١٧ ١٩ ٢٠ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٨
 ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٤ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٣ ٤٤ ٤٥
 ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥١ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٦٢
 ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٨ ٧١ ٧٤ ٧٧ ٧٨ ٨٠ ٨٢ ٨٤
 ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٩١ ٩٢ ٩٥ ١١٨ ١١٩ ١٤٦ ١٥٠ ١٥٣
 ١٨٢ ١٨٣ ١٨٥ ١٨٦ ١٩١ ١٩٢ ٢٠٠ .

- زين الدين = على بن بكتكين .
 زين الدين = يوسف بن زين الدين على .

س

- سالم بن مالك العقيلي : ٧٣ ٨ .
- سبكتكين : ٩ .
- سبلتوه : ٧٩ .
- سديد الدولة بن الأنباري : ٤٦ ٤٧ ٥٠ .
- سعد بن محمد بن صيفي : ٩٣ ١٣٦ .
- السعيد = أرسلان شاه بن عز الدين مسعود .
- سقيمان بن أرتق : ١٦ .
- سكان القطبي : ٨٠ ١٨ .
- السلاجقة (والسلاجقية) : ٥١ ٦١ .
- سلجوق شاه بن محمد : ٤٢ ٤٤ ٥٢ .
- سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ السكناني المنقذى : ٥٥ ١١٠ ١١١ ١١٢ .
- سليمان بن الجندار : ١٢٦ .
- سليمان شاه بن السلطان محمد : ١٠٨ ١١٤ ١١٥ .
- سليمان بن قتلش : ٦ ٧ ٨ .
- سن بن عطير : ٦٧ .
- سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود : ١٨١ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ .
- سنجر بن ملكشاه بن الب أرسلان : ٢١ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٩ ٥٤ .
- سنقرجة : ١٦ .
- سنقر الأحديلي : ٤٣ ٥٠ .
- سنقر الخمارتكيني : ٤٩ .
- سيف الدين = علي بن أحمد الهكاري .
- سيف الدين = غازي بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر .
- سيف الدين = غازي (الثاني) بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي .

ش

- شاذبخت : ١٨٢ .
- شاذى : ١١٩ .
- الشاشى ١٤ .
- شاور السعدى : ١٢٠ ١٢١ ١٣٢ ١٣٤ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ .
- شجاع بن شاور : ١٣٤ ١٤٠ .
- شرف الدولة = مسلم بن قريش بن بدران العقيلي .
- شرف الدولة = أحمد بن محمد بن سعيد .
- شرف الدين = أحمد بن أبي الخير .
- شرف الدين = أنوشروان بن خالد .
- شرف الدين = برغش .
- شرف الدين الزينبي : ٥٠ ٥٣ .
- شرف الدين بن قطب الدين مودود : ٤ ٩ ١٨ ١٩٠ .
- شمر أبو كرب : ١١ .
- شمس الدولة = توران شاه بن أيوب .
- شمس الدين = عبدالله بن ابراهيم .
- شمس الدين = على بن الداية .
- شمس الدين = محمد بن المقدم .
- شمس النهار (القهرمانه) : ١٣ .
- شهاب الدين = مالك بن على بن مالك العقيلي .
- شهاب الدين = محمد بن بوزان .
- شهاب الدين = محمود بن الياس بن إيلغازي بن أرتق .
- شهاب الدين = محمود الحارمى .
- الشهيد = زنكى بن قسيم الدولة آقسنقر .
- شيركوه بن شاذى : ٤٣ ٤٤ ٩١ ٩٥ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٦ ١٢٧ ١٣٢ ١٣٣ .
- ١٣٧ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٦٨ ١٧٢ .

ص

- صاحب أنطاكية : ١٢٤ ١٢٥
صالح بن مرداس : ١١٠ .
صلاح الدين = يوسف بن أيوب .

ض

- ضرغام (الوزير الفاطمي) : ١٢٠ .
ضياء الدين = عيسى الهكاري .
ضياء الدين بن الكفرتوئي : ٤٨ ١١٨ .

ط

- الطائع لله أبو بكر عبدالله : ١٤ .
طاهر بن الحسين : ٥٢ .
طر نطاي : ٥٢ .
طغتكين (طغتكين) : ١٧ ١٨ ١٩ ٣٨ ٥٨ .
طغرل بن السلطان محمد : ٢٧ ٢٨ ٤٤ ٤٥ ٤٩ .
طغرلبك : ١٠ .

ظ

- الظاهر بالله : ١٥٧ .
الظاهر بن صلاح الدين يوسف : ٢٠٠ .
الظاهر لاعزاز دين الله : ١٥٧ .

ظهير الدين = يولق بن بلنكرى الذكرى .
ظهير الدين بن العطار : ١٧٩ .

ع

- عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان : ٩٤ .
العاقد لدين الله العلوى : ١٢٠ ١٣٤ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٥٦ ١٥٧ .
عبد الرحمن بن طغايرك : ٤٩ .
عبدالله بن ابراهيم : ١٩٣ .
عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد : ٨ .
عبدالله بن طاهر بن الحسين : ٥٢ .
عبد الله بن عيسى المهراني : ١٩٢ ١٩٣ .
عبد الله بن محمد السفاح : ١١ .
عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله : ٥ ١٣ ١٤ ٥٠ .
عبد الله بن المسكتفي بالله : ١٤ ٥١ .
عبد المسيح (غفر الدين) : ١٣٦ ١٤٦ ١٤٧ ١٥٢ ١٥٤ ١٦١ ١٧٥ .
عبد الملك بن مروان : ٩٤ ٩٧ .
عبد الملك (والد شمس الدين محمد) : ٩٥ .
عبيد الله المهدي : ١٥٧ .
عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب : ١٩٤ .
عز الدولة أبو الحسن علي : ١١١ .
عز الدين = أبو بكر الديبسي .
عز الدين = قلج أرسلان بن مسعود .
عز الدين أتابك = مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي .
عز الملك بن نظام الملك : ١٣ .
العزير بالله : ١٥٧ .

- العزیز المستوفی = أحمد بن حامد بن محمد .
عضد الدین = أبو الفرج بن رئیس الرؤساء .
عطاء بن حفاظ السلسی الخادم : ١٠٧ .
عقیف الخادم : ٢٩ .
علاء الدین = تنامش .
علاء الدین الکاشانی : ١٨٢ .
علم الدین = سلیمان بن الجندار .
علی بن ابی طالب : ٧٦ .
علی بن أحمد الهکاری : ١٤٢ .
علی بن بکتکین : ١٥ ٢٧ ٧٢ ٧٣ ٨٢ ٨٥ ٨٧ ٩٣ ٩٤ ٩٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٣
١١٤ ١١٥ ١١٩ ١٢٣ ١٢٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٤٩ ١٧٧ .
علی بن جمال الدین : ١٧٧ .
علی بن الحسین بن محمد بن علی العباسی : ٢٦ ٥٥ .
علی بن الدایة : ١٦٣ ١٧٥ ١٧٦ .
علی بن شرف الدولة العقیلی : ١٦ .
علی بن الشکری : ١٦٥ ١٨٦ ١٩٢ .
علی بن صلاح الدین یوسف بن آیوب : ١٩٤ .
علی بن طراد الزینبی : ٢٥ .
علی بن القاسم الشهرزوری (أبو الحسن) : ٣٤ ٣٥ ٥٧ .
علی بن محمد الدامغانی : ٢٢ .
علی بن المعتضد بالله (الخلیفة) : ١٤ ٥١ .
عماد الدین بن الوزير عضد الدین : ١٥٢ .
عماد الدین = زنکی بن قسیم الدولة آقسنقر .
عماد الدین = صندل المقتوی .
العماد الکاتب = محمد بن حامد الکاتب .

- عمر (تقي الدين) : ١٨٢ ١٥٨ .
- عمر بن الخطاب = ١٨١ .
- عمر بن عبد العزيز : ١٦٣ ٩٤ ٥٨ .
- عمر الملاء : ١٧٠ ١٢٩ .
- عمر النسائي : ١٨٨ ١٢٩ .
- عميد الدولة بن جبير ٥ ١٤ ٢٦ .
- عنبر بن أبي العسكر الجاواني : ٥١ ٢٦ .
- العوام بن خويلد : ٨ .
- عون الدين بن هبيرة : ١١٤ ١١٣ .
- عيسى بن أبي هاشم : ١٢٨ .
- عيسى الحميدى : ٤٨ .
- عيسى الهكاري : ١٤٢ .
- عين الدولة = الياروقى .

(غ)

- غازى بن حسان المنبجى : ١٣٤ .
- غازى بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر : ٤ ٦٥ ٧٦ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ .
- ٩٤ ٩٥ ٩٧ .
- غازى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى : ١١٩ ١٢٠ ١٤٦ ١٥٠ ١٥٣ ١٥٤ .
- ١٦١ ١٦٣ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ .
- ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ .

الغزالي : ١٤ .

ف

الفائز بنصر الله : ١٥٧

فاطمة ابنة الخريث : ١٥٠

فاطمة بنت عبد الملك بن مروان بن الحكم : ٩٤

نغر الدين = عبد الله بن عيسى المهراني .

نغر الدين = عبد المسيح .

نغر الدين = قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق .

نغر الدين = مسعود بن أبي علي بن الزعفراني .

نغر الملك : ١٠

فرخشاه بن السلطان محمود : ٧٥

الفردروس : ٦ .

الفرنج : ١٢ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢٧ ٣٥ ٣٩ ٥٥ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩١ ٩٢ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠

١٠١ ١٠٢ ١٠٤ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١٢ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١٢١ ١٢٢

١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٧ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣

١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٩ ١٧١ ١٧٢ .

الفنش : ٩٠ .

فولك : ٣٩ .

فيلاريت : ٦ .

فيليب بن الرفيق : ١٤٤ .

ق

القادر بالله (الخليفة) : ١٤ .

قاضي القضاة الزينبي = علي بن الحسين بن محمد بن علي العباسي .

القاهر بالله (الخليفة) : ١٤ .

قايماز (مجاهد الدين) : ١٣٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٩ ١٩٠

١٩١ ١٩٢ ١٩٣ .

قتلش بن أرسلان بيغو : ٨ ٩ .

قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق : ٩٦ ١٢٣ ١٢٤ .

قراجة تجنه (الأمير) : ١٠٦ ١١٩ .

قراجة الساقى : ٤٣ ٤٤ ٤٥ .

قول آخر : ٤٥ ٤٩ .

قسيم الدولة = آقسنقر (والد عماد الدين زنكى) .

قطب الدين = خسرو بن تليل .

قطب الدين = مودود بن زنكى بن آقسنقر .

قطب الدين = ينال بن حسان المنبجى .

قطب الدين النيسابورى : ١٦٩ ١٧١ .

قفجاق بن أرسلان تاش التركانى : ٤٣ ٥٧ .

قلج أرسلان بن مسعود : ٨ ٢١ ١٣٩ ١٦٠ ١٦١ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٨

١٩٠ ١٩١ .

قجاج (الأمير) : ٤٤ .

القيامة : ٤١ .

القمص صاحب طرابلس : ١٢٤ ١٢٥ .

قويدان (الأمير) : ١٠٨ .

القيسرانى (الشاعر) : ٩٩ ١٠٣ .

ك

الكامل = شجاع بن شاور .

كربوغا : ١٥ ١٦ .

- الكرج : ١٥٣ .
كسرى : ٢٠٢ .
كسك (ناصر الدين) : ١٨١ .
كمال الدين = محمد الشهرزورى .
كمال الدين الدرگزى = ابو القاسم الانساياذى .
كمال الدين بن طلحة : ٥٠ .
كمال الدين بن العديم : ١٢٦ .
كمال الدين بن عضد الدين : ١٥١ ١٦٣ ١٦٤ .
كمال الدين نيسان : ١٧٧ .
كشتكين (سعد الدين) : ١٥٤ ١٧٦ ١٨٧ .
الكند : ٤١ .
كند غدى : ٢٨ .
كورى (ناصر الدين) : ١٦ ٧٧ .
كونراد الثالث : ٨٨ .
كونستانس : ٩٩ .
كوهرامين : ١٣ .
كينخسرو (صاحب قونية) : ٦ .

(ل)

لويس السابع : ٨٨ .

(م)

المأمون (الخليفة) : ١٤ .
مالك بن على بن مالك العقيلي : ١٣٦ ١٣٧ .

المتقى بالله أبو إسحاق إبراهيم : ١٤ .

المتوكل على الله (الخليفة) : ١٤ .

مجد الدين = أبو بكر بن الداية .

مجير الدين = أبق بن محمد بن بوري بن طغديكين .

محاسن (جمال الدين) : ١٩٣ .

محمد (الملك الكامل الأيوبي) : ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ .

محمد بن أحمد بن صدقة : ٥١ ٥٢ .

محمد بن بوري بن طغديكين : ٥٨ ٥٩ .

محمد بن بوزان : ١٧٨ .

محمد بن حامد السكاتب : ٤٢ ١٥٤ ١٧٤ .

محمد بن حميد الطائي : ٤١ .

محمد بن سبكتكين : ٩ ٢٨ .

محمد بن شرف الدولة العقيلي : ١٢ .

محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري : ٥٤ ٥٨ ٦٤ ١٥٣ ١٦٢ ١٦٧ .

محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني : ١١ ٧٨ ٨٢ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٩٣ ٩٤ ٩٧ ٩٨ ١١٥ .

١١٨ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٤٩ .

محمد بن القائم بأمر الله : ١٤ .

محمد بن قرا أرسلان : ١٥٢ .

محمد بن محمد بن جهمير (فخر الدولة) : ٥ ١٣ .

محمد بن محمود (السلطان) : ١٠٥ ١٠٨ ١١٤ ١١٥ .

محمد بن المستظهر بالله : ٥٣ ٥٤ ١٠٨ ١١٣ ١١٤ ١٢٨ ١٥١ .

محمد بن المقدم : ١٦٢ ١٧٥ ١٧٦ .

محمد بن ملكشاه : ١٢ ٢٠ ٢١ .

محمد بن نصر بن صغير بن خالد القيسراني : ٩٢ .

محمد بن الواثق بن المعتصم : ١٤ .

محمود بن إلياس بن إيلغازي بن أرتق : ١٤٥ ١٤٦ .

محمود الحارمى : ١٥٨ ١٤٢ ١٣٤ .

محمود زلف دار (عز الدين) : ١٨٣ ١٧٥ .

محمود بن عماد الدين زنىكى (نور الدين) : ٨ ١١ ١٢ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٧ ٢٨ ٣١

٣٢ ٣٤ ٣٥ ٣٨ ٤٢ ٤٥ ٤٦ ٥١ ٧١ ٧٦

٨٥ ٨٦ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٥ ٩٧ ٩٨

٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٦ ١٠٧

١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١٢ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١٢١

١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢

١٣٣ ١٣٤ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١

١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٦ ١٤٩ ١٥٠ ١٥٢ ١٥٣

١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢

١٦٣ ١٦٤ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧٢

١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢

١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢

محمود بن سبكتكين : ٩

محمود بن محمد الأرتقى (ناصر الدين) : ١٦ .

محمود بن محمد بن ملكشاه : ١٦ ٢٠ ٤٢ .

مرشد بن على (الأمير) : ١١٠ ١١٢ .

مروان بن الحكم : ٩٤ .

مروان بن محمد (المعروف بمروان الحمار) : ١٠٣ .

مرى : ١٣٧ .

المسترشد بالله : ٢٢ ٢٤ ٢٥ ٢٨ ٣١ ٣٥ ٤٤ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٧٨ ٨٠ .

المستضىء بأمر الله : ١٥٠ ١٥١ ١٥٤ ١٥٦ ١٥٧ ١٧٩ .

المستظهر بالله = أحمد المستظهر بالله .

المستعلى بالله : ١٥٧ .

المستكنى بالله = عبد الله بن المكتنى بالله بن المعتضد بالله .

المستنجد بالله = يوسف بن المقتنى لأمر الله .

المستنصر بالله : ١٥٧ ٥١ .

مسعر بن المهامل (الأديب) : ٥٨ .

مسعود بن آقسنقر البرسقي : ٣٥ ٣٤ ٣٢ .

مسعود بن أبي علي بن الزعفراني : ١٣٦ .

مسعود بن قطب الدين مودود : ١٨١ ١٥٣ ٧٦ .

مسعود بن محمد بن ملكشاه : ١٩ ٢٠ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٨ ٤٩ ٥١

١٠١ ٩٧ ٩٣ ٨٦ ٨١ ٨٠ ٧١ ٦٥ ٦٣ ٦٢ ٥٧ ٥٤ ٥٣

. ١٠٦ ١٠٥ ١٠٢

مسعود بن نور الدين أرسلان شاه : ٩٥ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٤ .

المسلم بن الخضر بن قسيم الجوى : ٥٦ .

مسلم بن قریش بن بدران العقيلي : ٥ ٦ ٧ ٨ ٧٨ .

المصريون : ١٣٣ ١٣٤ ١٣٨ ١٤٣ .

المطيع لله أبو القاسم الفضل : ١٤ .

مظفر الدين كوكبوري : ١٣٦ ١٨٥ ١٩٧ ٢٠٠ .

معاوية بن يزيد : ٩٤ .

المعتز بالله : ١٤ .

المعتصم بالله : ١٤ ٤٢ ٥١ ٦٧ .

المعتضد بالله : ١٤ ٥١ .

المعتمد على الله : ١٤ .

معز الدولة البويهى : ٥١ .

معز الدين بن سيف الدين : ١٩٤ ٢٠٠ .

المعز لدين الله أبو تميم سعد : ١٥٧ .

المقتدر : ١٤ .

المقتدى بأمر الله = عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله .

المقتفى لأمر الله = محمد بن المستظهر بالله .

المكتفى بالله = علي بن المعتضد بالله .

الملك الأفضل = علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب .

- ملك الروم : ١٢٥ ٥٦ ٥٥ .
- الملك الصالح = إسماعيل بن نور الدين محمود .
- الملك العادل = محمود بن عماد الدين زنكى .
- الملك العادل = أبو بكر بن أيوب .
- الملك العزيز = عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب
- الملك الفائز : ١٩٦ .
- الملك القاهر = مسعود بن نور الدين أرسلان شاه .
- الملك الكامل = محمد (الملك الكامل) .
- الملك المعظم = مظفر الدين كوكبورى .
- الملك الناصر : ١٤٢ .
- الملك المنصور (أمير الجيوش) : ١٤٠ .
- ملكشاه : ٤ ٥ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٦ ٢٤ ٧٣ ١٠٥ ١٠٨ ١١٤ ١٣٦ ١٨١ .
- المماليك : ٥١ .
- مليح بن ليون : ١٦٩ .
- المنتصر بالله : ١٤ ٥١ .
- المنصور (الخليفة) : ١٤ ٥٠ ١١٣ .
- المنصور بالله = اسماعيل بن محمد .
- منكبر من : ٥٤ .
- المهدي (الخليفة العباسي) : ١٤ ٦٢ .
- المهلب بن أبي صفرة : ١٥٠ .
- مؤيد الدلة = أسامة بن مرشد .
- مؤيد الدين بن الصوفي : ١٠٦ .
- مؤيد الملك بن نظام الملك : ١٠ ٥ .

مودود بن زنكى بن آقسنقر : ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٦٥ ٧٦ ٨٢ ٩١ ٩٢ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧
٩٨ ١٠٨ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٩ ١٢٢ ١٢٣ ١٣٥
١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٥٠ ١٥٢ ١٥٤ ١٦٣ ١٧٥ ١٩١ ١٩٢
١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ .

موسى التريكانى : ١٦ .

موسى بن المهدي (الخليفة الهادي) : ١٤ .

الموفق الناصر لدين الله أبو أحمد بن المتوكل : ١٤ .

المولى السعيد = أرسلان شاه بن عز الدين مسعود .

ن

الناصر لدين الله : ١٨٣ .

نجم الدين = ألبى بن تمر تاش بن إيلغازى بن أرتق .

النصارى : ٥٥ .

نصر بن على بن المقلد بن نصر بن منقذ الكنانى : ٨ ١١٠ .

نصرة الدين أمير أميران : ٧٦ ١٣٠ .

نظر الخادم : ٢٧ ٤٨ .

نقيب النقباء = على بن طراد الزينبي .

نور الدين = أرسلان شاه بن عز الدين مسعود .

نور الدين = محمود بن عماد الدين زنكى .

هـ

هارون الرشيد : ٢٦ .

و

الوائق بالله (الخليفة العباسي) : ۱۴ .

ی

یاخر (الأمير) : ۱۰۹ .

البارق (الأمير) : ۸۰ .

الباروقی : ۱۳۹ ۱۴۱ ۱۴۲ .

یاغی سیان : ۸ ۱۲ ۱۳ ۱۱۴ .

یاقوتی : ۱۶ .

یحیی بن عبد الله بن قاسم الشهرزوری : ۷۲ .

یرنقش بازدار (مجاهد الدين) : ۴۴ ۴۹ ۵۱ ۱۹۱ ۱۹۲ .

یرنقش الزکوی : ۲۷ ۲۸ .

یزدن : ۱۵۱ .

ینال بن حسان المنبجی : ۱۳۵ ۱۳۹ .

یوحنا الثاني کالو جوهانیر : ۵۵ .

یوسف بن آدم : ۱۷۳ .

یوسف بن أيوب (صلاح الدين) : ۳۵ ۴۴ ۱۲۶ ۱۳۳ ۱۳۴ ۱۳۹ ۱۴۰ ۱۴۱ ۱۴۲

۱۴۳ ۱۴۴ ۱۵۳ ۱۵۶ ۱۵۷ ۱۵۸ ۱۵۹ ۱۶۱ ۱۶۲

۱۶۳ ۱۶۷ ۱۷۱ ۱۷۲ ۱۷۳ ۱۷۶ ۱۸۱ ۱۸۲ ۱۸۳

. ۱۸۵ ۱۸۸ ۲۰۰ .

یوسف بن ذی ناس الفندلاوی : ۸۹ .

یوسف بن زین الدين : ۱۸۳ .

یوسف جاووش : ۴۳ ۴۴ ۴۵ .

یوسف بن المقتفی لأمر الله : ۱۱۴ ۱۱۵ ۱۵۰ ۱۵۱ .

یولق أرسلان بن إيلغازی بن أرتق : ۱۹۴ .

یولق بن بلنکری الذکری : ۱۹۳ .

فهرس الأماكن والبلدان

١

- آمد : ٧ ١٢ ١٦ ٣٢ ٣٦ ٣٨ ٤٨ ٦٤ ٦٧ ١٧٧ .
- الأجمة : ١٣ .
- أخلاط : ٧٣ .
- أذربيجان : ١٣ ١٥ ٢١ ٢٣ ٤٣ ٥١ ٥٤ ٧٣ ٨٠ ١١٩ ١٥٣ .
- أران : ١٥٣ .
- إربل : ٢٠ ٣٠ ٥٨ ١٣٥ ١٣٦ ١٤٢ ١٧٧ ١٨٥ ١٩٧ ٢٠٠ .
- أرتاح : ١٢٤ .
- الأردن : ١٨ ١٩ .
- أرمينية : ٢١ ٦٦ ٦٧ ٨٠ ٢٠٠ .
- أسبيجاب : ١١ .
- أستوا : ٩ .
- أسعرت : ٦٦ ٨٦ ١٩٧ .
- أسعرد = أسعرت .
- الإسكندرية : ١٣٣ ١٣٤ ١٤١ .
- آسيا الصغرى : ١٦٠ .
- أصفهان = أصفهان .
- أصفهان : ٥ ١١ ٢١ ٤٥ ٥٥ ١٠٦ ١٢٩ .
- أطفيح : ١٣٢ .
- أعزاز : ١٠٣ .
- أفامية : ٨ ١٠٠ .
- أفريقية : ٧٠ ٩٠ .
- أقصرا : ١٠١ ١٦٠ .

- ألبيرة : ٧٠ ٦٧ ٤٥ .
- ألتوتة : ١١٣ .
- إنب : ١٠٥ ٩٩ .
- الأنبار : ٦٤ ٧ ٦ .
- الأندلس : ١٤٣ .
- أنطاكيا : ١٥٥ ١٥٤ ١٢٥ ١٠٩ ١٠٣ ١٠١ ٩٩ ٦٧ ٤٢ ٣٢ ١٩ ١٢ ٨ ٧ ٦ .
- إيطاليا : ٤١ .
- أيلة : ١٤٤ .

ب

- باب الأزج : ١٣ .
- باب زراعة : ١٣٧ .
- باب البصرة : ١١٣ .
- باب الجنان : ٣٨ ٣٣ .
- باب العراق : ١٨٩ .
- الباب العمادي : ٧٨ .
- باب كندة : ١٨٩ .
- باب الميدان : ١١٣ .
- باب النوبي : ٢٩ .
- البابين : ١٣٣ ١٣٢ .
- باجبارة : ١٨٨ .
- البارة : ١٠٣ .
- بارين : ١٧٠ ١٤٥ ١١٠ ٦٢ .
- بالس : ١٠٨ ١٨ .
- بانياس : ١٤٩ ١٣١ ١٣٠ ١٢٢ ٨٩ .
- بحر الشام : ٥٨ .

بحر القلزم : ١٤٤ .

بحيرة طبرية : ١٨ .

بحيرة قدس : ١٧٧ .

بدر : ٦٧ .

برج الرصاص : ١٠٣ .

بزاعة : ٣٨ ٥٥ ٦٢ ٦٣ .

البساتين : ١٣ .

بسرفوث : ١٠٣ .

البصرة : ٢٤ ٢٥ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ .

البصلية : ١٣ .

البطائح : ٣٠ .

بعرين = بارين .

بعلبك : ٥٨ ٥٩ ٨١ ٩٠ ١٠٧ ١٢٠ ١٤٥ .

بغداد : ٦ ٧ ١١ ١٢ ١٣ ٢١ ٢٢ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٣ ٣٤ ٤٢

١٠٩ ١٠٨ ٩٢ ٦٣ ٦٢ ٥٣ ٥٢ ٥١ ٥٠ ٤٩ ٤٨ ٤٧ ٤٦ ٤٥ ٤٤ ٤٣

١١٣ ١١٤ ١١٥ ١٢٥ ١٥١ .

البقعاء = بقعاء الموصل .

بقعاء الموصل : ٨٧ ٧ .

البقيعه : ١١٦ .

بلاد الترك : ١١ .

بلاد الجبل : ٤٣ ٤٥ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٨ ١١٤ ١١٥ ١٥٢ ١٥٣ .

البلاد الجزرية : ٣٦ ٣٧ .

بلاد الروم : ١٩ ١٠٣ .

بلاد الهياطلة : ١١ .

بلاساغون : ١١ .

بلييس : ١٢١ ١٢٢ ١٣٨ .

بلخ : ٩ .

- بلد : ١٥٣ .
بلد الهكارية : ١٤٢ ١٣٥ ١٠٦ ٦٤ .
البلقاء : ١٤٤ .
بهسنا : ١٦٠ ١٠٣ .
بهمرد : ٤٧ .
البوازيح = بوازيح الملك .
بوازيح الملك : ٣٥ ٥ .
بيت الأحزان : ٤١ .
بيت جبريل : ٤١ .
بيت المقدس : ١٧٠ ١٤٤ ١٤٣ ١٢١ ١٠٣ ٦٧ ٤١ ٣٩ ١٨ ١٢ ٧ .
بيسان : ١٩ .
بين النهرين : ١٩١ .

ت

- تبريز : ١٥٥ ٤٣ ١٨ .
تركستان : ١١ .
تكريت : ١٣٥ ١١٩ ٤٤ ٤٣ ٤٢ ٥ .
تل باشر : ١٠٥ ١٠٢ ١٠١ ٨٦ ١٨ ١٧ .
تل خالد : ١٠٣ .
تل السلطان : ١٥ .
تل موزن : ١٨٦ ١٨٥ .
تليعفر : ٩٦ .
توقات : ١٦٠ .

ج

- الجامع العميق : ٧٧ ٣١ .
الجامع النورى : ١٥٤ .

جبال أرمينية : ٧٣ .

جبل بنى عليم : ١٠٣ .

جبل جور : ٦٧ .

جبل الطور : ١٨ .

جبل عرفات : ١٢٨ .

جبل لبنان : ٥٥ .

جبل اللكام : ١٦٠ .

جبلّة : ٨ .

جبل : ٦٦ .

الجزيرة = جزيرة ابن عمر .

جزيرة ابن عمر : ٧ ٢٠ ٢١ ٢٤ ٢٧ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٨ ٦٤ ٦٦

١٤٨ ١٤٧ ١٢٩ ١١٨ ١١٥ ١١٢ ٩٥ ٩٣ ٨٧ ٨٢ ٨١ ٧٦ ٧٣

١٩٤ ١٨٥ ١٨٤ ١٨٣ ١٨١ ١٦٦ ١٦٤ ١٦١ ١٦٠ ١٥٤ ١٤٩

٢٠٠ ١٩٧ ١٩٦

جزيرة أقور : ٣٣ ٧ .

جزيرة العرب : ١٦٦ .

جفر الهباءة : ٧٥ .

جملين : ٦٧ .

الجزيرة : ١٣٢ .

ح

حارم : ٤٢ ٩٨ ٩٩ ١٠٩ ١١٦ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٦ ١٣٠ ١٣١ ١٤٩ ١٧٨ .

الحامة : ١٩٧ .

حاني : ٦٦ ٦٧ .

الحجاز : ١١ ١٦٦ .

حديثه : ٦٤ .

حديثه الفرات : ٦٤ .

حديثه الموصل : ٦٤ .

حديثه النورة : ٦٤ .

حران : ٧ ١٢ ١٥ ٢٠ ٢٣ ٣٧ ٦٧ ٨١ ١٢٥ ١٣٥ ١٧٤ ١٧٥ ١٨٥ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٦ ٢٠٠

الحرمين الشريفين . ١٢٦ .

الحريم الطاهري : ٥٢ .

حصن الأتارب : ٣٩ .

حصن أفامية = أفامية .

حصن الأكراد : ٤١ ١١٦ ١١٨ ١٢٢ ١٤٦ .

حصن إنب = إنب .

حصن باتاسا : ٦٦ .

حصن البارة = البارة .

حصن بارين = بارين .

حصن بسرفوث = بسرفوث .

حصن بهسنا = بهسنا .

حصن حارم = حارم .

الحصن = حصن كيفا .

حصن ذى القرنين : ٦٦ .

حصن الزوق : ٦٦ .

حصن شاروا : ٧٣ .

حصن شيزر = شيزر .

حصن صافينا = صافينا .

حصن عرقه = عرقه .

حصن عريمة = عريمة .

حصن عين تاب = عين تاب .

حصن فطليس : ٦٦ .

حصن فك : ٧٣ .

حصن كيفا : ١٦ ٣٦ ٤٧ ٦٤ ٧٣ ٨٠ ٨١ ١٢٣ ١٥٢ .

حصن مرعش = مرعش .

حصن المنيطرة = المنيطرة .

حصن نينوى : ١٥٣ .

حصن الهيثم : ٧٣ .

حضر موت : ١٦٦ .

الحكمة : ٥٨ .

حلب : ٤ ٦ ٧ ٨ ١٥ ١٧ ١٨ ٢٠ ٢٢ ٢٣ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٤٠ ٥٥ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٧٣ ٨٠

٨١ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٨ ٩٠ ٩١ ٩٥ ٩٨ ٩٩ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٩ ١١٦ ١١٧

١٢٤ ١٣٧ ١٣٩ ١٤١ ١٤٤ ١٤٥ ١٦٠ ١٦٣ ١٧٠ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٨ ١٨١ ١٨٢

١٨٣ ١٨٥ ٢٠٠ .

الخلبة : ١٣ .

الحلة : ٢٢ ٢٤ ٢٦ ٤٦ ١٠٨ ١٢٧ .

حلوان : ١٠٨ .

حماة : ٨ ١٧ ٢٢ ٢٧ ٣٨ ٥٥ ٥٦ ٦١ ٨١ ٨٥ ١٠٠ ١١٠ ١١٢ ١٤٥ ١٧٠ ١٨٢ ١٨٥ .

حصص : ٨ ١٢ ١٥ ١٧ ٢٢ ٦١ ٦٣ ٨١ ٨٩ ٩٠ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ١٠٢ ١٠٧ ١٠٨ ١١٧

١٢٠ ١٣٨ ١٤١ ١٤٥ ١٦٠ ١٦٤ ١٧٠ ١٨٥ .

حوران : ١٤٤ .

حيزان : ٦٦ ٨٠ ٨٦ .

خ

الخابور : ٧ ٨ ٢٧ ٨٥ ١٥٢ ١٥٤ ١٧٥ ١٩١ .

خائقين : ٤٥ .

خرابة ابن جرادة : ١٣ .

خراسان : ٥ ٩ ١١ ٢١ ٤٤ ٥٢ ١٥٠ ١٧١ .

خضراء الحجاج : ٢٤ .

خوارزم : ١١ .

خوزستان : ٢١ ٤٣ ٤٩ ٥٤ ١٠٥ .

خونج : ٤٥ .

د

دار الحديث : ١٧٢ .

دار الخلافة : ٢٩ .

دار الرقيق : ٥٢ .

دار السلام = بغداد .

دار السلطنة : ١١ .

دار العدل : ١٦٨ .

دار المملكة : ٧٧ ١٨٩ .

دارا : ٣٢ ٣٨ ٣٩ ٩٠ .

الداروم : ١١ ٢١ .

داى مرك : ٤٩ .

دجلة = نهر دجلة .

دجيل : ٥٢ .

درب القيار : ١٣ .

درب هارون : ٥٤ .

الدروب : ١٩٦ .

الدسكرة : ٤٥ .

دقوقا : ١٨٤ ١٨٣ .

دلوك : ١٠١ ١٠٢ ١٠٤ ١٠٥ .

دمشق : ٧ ١٢ ١٥ ١٧ ١٩ ٣٢ ٣٣ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٨١ ٨٨ ٨٩ ٩٠

١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١١٧ ١١٩ ١٢٠ ١٢٥ ١٣١ ١٣٤ ١٣٩ ١٤٤ ١٥٨ ١٦٠

١٦٣ ١٦٤ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٧٠ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٨٥

١٩٣ ١٩٤ ٢٠٠ .

دمياط : ١٤٣ ١٤٤ .

دنيسر : ٧ ٣٢ ٣٣ ٣٩ ٨٧ ١٧٧ ١٨٦ ١٨٩ .

دوين : ١١٩ .

ديار بكر : ٥ ٧ ١٢ ٢١ ٣٢ ٣٦ ٣٩ ٤٧ ٦٦ ٦٧ ٧٣ ٨٠ ٩١ ١٣٠ ١٥٢ ١٦١

١٦٢ ١٧٨ ١٩٢ ١٩٦ ٢٠٠ .

ديار الجزيرة : ٦٧ ١٤٥ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٧٥ ١٧٨ ١٩٣ ٢٠٠ .

ديار ريعة : ٢١ ٨٥ .

ديار مصر = مصر .

ديار مضر : ٧ ٢٠ ٢١ ٣٣ .

الديلم : ٥١ .

الدينور : ٤٤ .

ديوان الإنشاء : ٤٦ .

ر

رأس عين : ٧ ٣٣ ٣٧ ٦٧ ٨١ ١٨٥ ١٩٦ .

رأس الماء : ١٣٩ .

الراوندان : ١٠٣ .

الرحبة : ١٢ ٣٣ ٣٥ ٤٧ ٩٨ ١١٨ ١٢٠ ١٣٠ .

رجبة مالك بن طوق : ٨٥ .

رفع : ١٦٠ .

رفنية : ٥٧ .

الركة : ٧ ١٨ ٢٦ ٣٣ ٦٧ ٨٥ ٩٨ ١٣٠ ١٥٢ ١٧٥ ١٨٢ ١٨٦ .

الرملة : ٤٧ .

الرها : ١٨ ١٧ ١٥٧ ١٩ ٣٣ ٣٧ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٧٠ ٨١ ٨٦ ٧ ٩٨ ١٦٥ ١٧٥ ١٨٦

رويان : ١٥ .

الرى : ١٣ ٤٥ .

ز

الزعفران : ١١٣ .

الزلاقه : ٣٦ .

زنجان : ٤٣ ٥٠ .

الزوزان : ٢٧ ٧٣ ٩٣ ١١٣ .

س

ساحل الشام : ١٢ .

السبيع : ١١ .

سروج : ٢٠ ٣٧ ٦٧ ٦٩ ١٣٧ ١٨٥ .

سرجة : ٣٨ ٣٩ .

سعرت = اسعرت .

سلباس : ١٠٦ .

سمران : ١١ .

- سمرقند : ١١ .
سميساط : ١٦٠ ٦٧ ١٩ .
سنجار : ١٣٥ ١٢٩ ٩٨ ٩٧ ٩٦ ٩٥ ٨٦ ٨٥ ٨٠ ٧١ ٦٤ ٤٧ ٣٧ ٣٢ ٢٤ ٢٠ ٧ .
٢٠٠ ١٩٧ ١٩٦ ١٩٤ ١٩٢ ١٩١ ١٨٥ ١٨٣ ١٧٦ ١٥٣ .
السند : ٦ .
السندية : ٦ .
سوق الخواصين : ١٦١ .
سويدا : ١٢٥ .
سويده = سويدا .
سيواس : ١٧٥ ١٦١ ١٦٠ .

ص

- صافيتا : ١٥٤ .
الصراة : ١١٣ .
صرخد : ٤٦ .
صريفين : ٥٤ .
الصعيد : ١٣٤ ١٣٣ ١٣٢ .
الصغد : ١١ .
صفد : ٤١ .
صفين : ٧٥ .
صقلية : ١٤٣ ٧٠ .
صور : ١٨ .
الصين : ١١ .

ط

الطائف : ١٢٨ .

طبرية : ١٢ ١٨ ١٩ ٨٠ ١٣٠ .

طرابلس : ٥٧ ٩٠ ١١٦ ١٢٤ ١٢٥ ١٣١ ١٥٤ ١٥٥ .

طراز : ١١ .

طليلة : ٩٠ .

طنزة : ٦٦ .

ع

عانة : ٦٤ .

عباسية الخالص : ٤٣ ٤٤ .

العراق : ٦ ٨ ٢١ ٢٥ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣١ ٤٢ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٥١ ٥٢ ٥٤ ١٠٨ ١١٥

١١٩ ١٤٥ ١٥٢ ١٦٦ ١٧١ ١٧٨ .

عرفات : ١١ ١٢٨ .

عركة : ٥٧ ١٥٤ ١٥٥ .

عريش مصر : ٣٢ .

عريمة : ٩٠ ١٥٣ .

عزاز : ٩٩ ١٠١ .

عسقلان : ١٠٦ .

العسكر : ٦٢ .

عشرا : ١٤٤ ١٤٥ .

عقبة أسد آباد : ٢٣ .

العقيمة : ١٤٧ ١٤٨ .

عكا : ١٨ ١٩ .

عكة = عكا .

عم : ١٢٦ ١٢٤ .

العمادية : ٦٤ .

عمورية : ٦٧ ٤٢ .

عين تاب : ١٠٢ ١٠١ .

عين القيارة : ١٩٧ .

ع

الغراف : ١٨٤ ١٨٢ .

غزة : ٤١ .

غزنة : ١٤ ٩ .

الغور : ١٨ .

ف

فارس : ٥٤ ٤٣ ٢١ .

فاميه أفاميه .

الفرات = نهر الفرات .

فرنسا : ٨٨ .

فلسطين : ١٠٦ .

فنك : ٧٩ ٧٨ .

ق

القاهرة : ١٨٣ ١٥٨ ١٥٦ ١٤٠ ١٣٩ ١٣٨ ١٣٧ ١٢١ .

قبر الشافعي : ١٤٠ .

القدس = بيت المقدس .

القرادى : ٦٧ ١٩٣ .

قرقيسيا : ٣٣ ٢٧ .

القرية : ١١٣ .

قزوين : ٥١ .

القسطنطينية : ١١ ٥٥ ٦٧ .

قصر التاج : ٥٢ .

قصر عيسى : ١١٣ .

قطفتا : ١١٣ ١٧٩ .

قلاع الأكراد الحميدية : ٤٨ .

قلاع الهكارية = بلد الهكارية .

قلعة آشب : ٦٤ .

قلعة الأثارب : ٦٣ .

قلعة ألبيرة = ألبيرة .

قلعة بانياس = بانياس .

قلعة برقة : ٧٣ .

قلعة بشير : ٧٣ .

قلعة بعلبك = بعلبك .

قلعة جردقيل : ٧٣ .

قلعة الجزيرة : ٨٤ .

قلعة جعبر : ٨ ٧٣ ٧٤ ٧٨ ١٣٦ ١٥٢ ١٧٥ .

قلعة الجلاب : ٦٤ .

قلعة حارم = حارم .

- قلعة حلب : ٥٦ .
- قلعة داراء : ٩٠ .
- قلعة دمشق : ١٦١ .
- قلعة سرجهان : ٥٠ .
- قلعة الشعباني : ٦٤ .
- قلعة شهر زور : ٥٧ .
- قلعة شوش : ٤٨ .
- قلعة الصور : ٤٨ .
- قلعة عقر الحميدية : ٤٨ ٨٠ ١٣٥ ١٨١ ١٨٣ .
- قلعة العمادية : ٦٤ .
- قلعة فرح : ١١٣ .
- قلعة كواشي : ٧٩ .
- قلعة الهيثم : ٩٦ .
- قورس : ١٠٣ .
- قونية : ٦ ١٠١ ١٦٠ .
- قيسارية : ١٦٠ .

ك

- كاشغر : ١١ .
- الكرخ : ١١٣ .
- الكرك : ١٢٦ ١٤٤ ١٥٨ .
- كرمان : ١٤ ٢١ ٤٤ .
- الكعبة : ١٢٨ .
- كفر سوت : ١٠٣ .
- كفر طاب : ٨ ٦١ .
- كفر لاثا : ١٠٣ .

- كنجة : ٤٣ ٤٥ .
- السكواشي : ١١٣ .
- السكوفة : ١١ ٢٢ .
- كيسوم : ١٦٠ .

ل

- اللاذقية : ٨ ١٢٥ ١٥٤ .
- اللبوة : ١٤٥ .

م

- ماردين : ٥ ٧ ١٦ ١٨ ٣٢ ٣٦ ٣٩ ٦٦ ٦٧ ٧١ ٧٩ ٨٠ ٩٠ ٩١ ١٠٦ ١٢٣ ١٨٢
- ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ٢٠٠ .
- ما كسين : ٣٧ ٨٥ ٩٥ .
- ما وراء النهر : ١١ ١٤ .
- المباركة : ٢٦ .
- المجدل : ٣٧ .
- محلة الطبايين : ٧٧ .
- المدائن : ٢٥ ٢٦ .
- مدرسة رضى الدين : ٩ .
- المدرسة الغربية : ١٨٩ .
- المدرسة النظامية : ١٠٨ .
- المدينة : ١٢٧ ١٢٨ ١٣٠ ١٦٢ ١٧٧ .
- مدينة السلام = بغداد .
- مراغة : ٥٠ .

- المربعة : ١١٣ .
- مرج الصفر : ١٩ .
- مرعش : ١٠٣ ١٦٠ .
- المرقب : ٤١ .
- مرو : ١٠ .
- المستجدة : ١١٣ .
- مسجد الخيف : ١٢٨ .
- مسجد سيرين : ١١٦ .
- مسجد الوزير . ١٢٩ .
- مشهد باب التين : ٢٧ .
- مصر : ٤٣ ٥١ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٤ ١٢٦ ١٣٢ ١٣٤ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠
- ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٥٤ ١٥٦ ١٥٨ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٦
- ١٧٥ ١٧٦ ١٨٣ ١٩٤ ١٩٦ ٢٠٠ .
- المعدن : ٦٦ ٨٠ ٨٦ .
- المعرة = معرة النعمان .
- معرة النعمان : ٨ ١٧ ٥٥ ٦١ ١١٠ .
- المعشوق : ٤٣ .
- المغرب : ١٥٧ .
- المقتدية : ١٣ .
- مكاتب الأيتام : ١٧٢ .
- مكة : ٧٥ ١٢٧ ١٣٠ ١٦٢ ١٨٨ .
- الملاحه : ١٣٧ .
- ملطية : ١٦٠ .
- منارة القرون : ١١ .
- منبج : ٦ ٨ ٣٨ ٧٤ ١٣٤ ١٦٠ ١٧٠ ١٨٢ .
- منى : ١٢٨ .
- المنيطرة : ١٣١ .
- المهدية : ١٥٧ .

الموزن : ٦٧ .

الموصل : ١ ٥ ٧ ٨ ٩ ١٢ ١٣ ١٥ ١٦ ١٧ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٧ ٣١ ٣٢ ٣٣

٣٤ ٣٥ ٣٦ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٥١ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٦٥ ٧٠ ٧١

٧٢ ٧٣ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥

٩٦ ٩٧ ٩٨ ١٠٦ ١٠٨ ١٠٩ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٩ ١٢٢ ١٢٤ ١٢٧

١٢٩ ١٣٠ ١٣٥ ١٣٦ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٦

١٦١ ١٦٢ ١٦٦ ١٧١ ١٧٥ ١٧٧ ١٧٨ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦

١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩١ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠١ .

مياقارقين : ٧ ١٢ ١٩٥ ١٩٦ .

الميدان الأخضر : ٨٩ .



النجمي : ١١٣ .

نصيبين : ٧ ١٢ ١٥ ٢٠ ٢٤ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٦ ٢٧ ٢٩ ٣٩ ٦٧ ٧٣ ٧٦ ٨١ ٨٦ ٩٠

١١٨ ١٢٩ ١٥٢ ١٥٤ ١٧٥ ١٨٣ ١٨٥ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣

١٩٤ .

نهر الأردن : ٥٥ .

نهر الجوز : ١٠٣ .

نهر جيحون : ١١ .

نهر الخابور : ٢٣ .

نهر دجلة : ٥ ٩ ٢٤ ٣٠ ٣٢ ٣٦ ٤٢ ٥٤ ٦٦ ٧٣ ٨٦ ١١٢ ١١٩ ١٢٩ ١٤٧

١٧٩ ١٩٧ .

نهر الزاب : ٥ .

نهر سبعين : ١٥ .

نهر سيحون : ١١ .

نهر عيسى : ٦ .

نهر الفرات : ٧ ١٧ ١٨ ٣٣ ٣٧ ٣٨ ٦٣ ٦٤ ٦٧ ٦٩ ٧٠ ٨٥ ٨٦ ١٢٦ ١٥٢
١٧٥ ١٧٦ ١٨٢ ١٨٣ .

نهر قرل إرمك : ١٦٠ .

نهر القلائين : ١١٣ .

نهر ملك : ٢٤ .

النهر وان : ٥٢ .

نيسابور : ٩ ٦٦ .

نقيقه : ٦ .

النيل : ٢٦ .

نيم أزرای : ٥٨ .

هـ

الهكارية = بلد الهكارية .

همدان : ٤ ١٣ ١٩ ٢١ ٤٢ ٤٤ ٤٥ ٤٩ ٥٤ ٥٨ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٨ ١١٤ ١١٥ ١٢٩
١٥٣ ١٥٩ ١٨٢ .

هيث : ٧ .

و

وادی بطنان : ٣٨ .

وادی الصغد : ١١ .

وادی القرى : ١٣٠ .

واسط : ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٥٢ .

ی

یافا : ٤١ .

الین : ١١ ١٢٦ ١٦٢ ١٦٦ .

فهرس المصطلحات^(١)

ا

- أحداث البلد : ١٠٧ .
- أستاذ الدار : ٥١ .
- الأطلاب : ٥٩ .

ب

- البشكار : ١٨٤ .
- البشكار : ١٩٦ .
- البشكارستان : ١٧٠ .

ت

- تركبلى : ١٤٤ .

ج

- الجامكيات : ٧٨ .
- الجاندارية : ٨٢ .
- جريب : ١٤٧ .
- جريدة : ١٣١ .
- الجنايات : ١٤٨ .

خ

- خشكناسكة : ٧٩ .

(١) اكتبنا هنا بذكر الصفحة الى ورد فيها شرح المصطلح .

د

- درفش : ١٣٥
- درکاة : ٧٨
- دزدار . ٣٥
- الدست : ١٢٧
- دسترك : ١٣٥

ز

- الزبب : ٢٥
- زناطرة : ١٠٧

س

- السلاح دار : ١٠١
- سنجق : ٩٣

ط

- طشت دار : ٧٩

م

- المجانيق : ٥٦
 - المصانع : ١١
-

فهرس الموضوعات

ص	
٢٦— ٥	المقدمة
٧	المؤلف
٧	إسمه ولقبه
٧	مولده
٧	أسرته
١٠	حياته
١٠	تعليمه
١٠	شيوخه
١٣	وفاته
١٣	مؤلفاته :
١٤	اللباب في تهذيب الأنساب
١٤	أسد الغابة في معرفة الصحابة
١٤	الكامل في التاريخ
١٦	التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية
١٧	ملاحظات على « الباهر »
١٨	مميزات كتاب « الباهر »
١٨	أسلوب ابن الأثير
١٩	مصادره
١٩	المخطوطة (تعريف بها)
٢١	التاريخ الباهر والطبعة الفرنسية

المخطوط _____ ة

نموذج من المخطوطة

- ١ مقدمة المؤلف
- ٤ في ذكر ابتداء حال قسيم الدولة آقسنقر رضى الله عنه
- ٥ ذكر مسير قسيم الدولة مع نخر الدولة بن جهير إلى الموصل بأمر السلطان ملكشاه
- ٦ ذكر ملك قسيم الدولة مدينة حلب وغيرها
- ٨ معرفة حسنة
- ٩ ذكر قتل نظام الملك وزير السلطان ملكشاه رحمه الله
- ١٠ ذكر وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان رضى الله عنه
- ذكر صلح قسيم الدولة آقسنقر وتاج الدولة تنش بن ألب أرسلان وما شهد من
- ١٢ الحروب معه
- ١٣ ذكر وفاة أمير المؤمنين المقتدى بأمر الله وولاية ابنه المستظهر بالله
- ١٤ ذكر نسب المستظهر بالله
- ١٥ ذكر قتل قسيم الدولة آقسنقر رضى الله عنه .
- ١٥ ذكر حال عماد الدين زنكى بعد قتل والده رضى الله عنهما .
- ٢٠ ذكر وفاة السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وجلس ولده مغيث الدين محمود في السلطنة .
- ٢٢ ذكر وفاة أمير المؤمنين المستظهر بالله وخلافة المسترشد بالله .
- ٢٢ ذكر الحرب بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود وما أثر عن عماد الدين فيها .
- ٢٤ ذكر ولاية البرسقى الموصل .
- ٢٤ ذكر إقطاع عماد الدين زنكى مدينة واسط .
- ٢٥ ذكر هزيمة ديبس وعسكر بغداد وما ظهر لعماد الدين زنكى من الشجاعة .
- ٢٧ ذكر مفارقة الشهيد عماد الدين البرسقى واتصاله بالسلطان محمود .
- ٢٨ ذكر إقطاعه البصرة من السلطان .
- ٢٨ ذكر ولايته شحنة بغداد .

- ٣١ ذكر قتل البرسقى وشيء من سيرته رحمه الله تعالى .
- ٣٢ ذكر ولاية ابنه عز الدين مسعود ووفاته .
- ٣٢ ذكر ولاية المولى الشهيد عماد الدين زنكى الموصل وسائر بلاد الجزيرة .
- ٣٦ ذكر ملكه جزيرة ابن عمر .
- ٣٦ ذكر ملكه البلاد الجزرية بقوة واقتدار .
- ٣٧ ذكر ملكه مدينة حلب وحماة .
- ٣٨ ذكر الحرب بين الشهيد أتابك وبين الملوك الأرتقية ، وملك مدينة
سرجة ودارا وما إليهما .
- ٣٩ ذكر فتح حصن الأتارب من الفرنج .
- ٤٢ ذكر وفاة السلطان الملك مغيث الدين محمود بن محمد بن ملكشاه .
- ٤٣ ذكر ملك السلطان الملك العادل مسعود والحروب الحادثة إلى أن ملك .
- ٤٤ ذكر الحروب بين السلطان سنجر والسلطان مسعود .
- ٤٥ ذكر وصول الشهيد إلى بغداد وهزيمة .
- ٤٦ ذكر السبب في مصير ديبس عند الشهيد رضى الله عنه .
- ٤٧ ذكر حصر المسترشد بالله أمير المؤمنين الموصل .
- ٤٨ ذكر ملك الشهيد قلاع الأكراد الحميدية .
- ٤٨ في ذكر قتل أمير المؤمنين الخليفة المسترشد بالله وخلافة الراشد .
- ٥٠ ذكر عمر المسترشد بالله وشيء من سيرته رحمه الله تعالى .
- ٥١ ذكر مسير الراشد بالله أمير المؤمنين إلى الموصل مع أتابك الشهيد
- ذكر خلع الراشد بالله أمير المؤمنين وخلافة المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين
- رضى الله عنهما أجمعين .
- ٥٣
- ٥٥ ذكر خروج ملك الروم إلى الشام وما فعله الشهيد .
- ٥٧ ذكر ملك الشهيد قلعة شهرزور .
- ٥٨ ذكر حصار دمشق وبعليك .
- ٥٩ ذكر فتح حصن بارين وهزيمة الفرنج .
- ٦٢ ذكر حصار الروم والإفرنج مدينة حلب .
- ٦٤ ذكر ملك الشعباني وبناء العمادية ببلد الهكارية .

- ٦٥ ذكر الوحشة بين السلطان مسعود وأتابك الشهيد ، رضى الله عنهما .
- ٦٦ ذكر ملكه عدة بلاد وحصون من ديار بكر .
- ٦٦ فى ذكر فتح الشهيد مدينة الرها .
- ٧٠ ذكر محاصرة الشهيد قلعة البيرة
- ٧١ ذكر قتل نصير الدين جقر على يد الملك ألب أرسلان .
- ٧٢ ذكر ولاية زين الدين على قلعة الموصل .
- ٧٣ حصر حصن فنك .
- ٧٣ ذكر حصار قلعة جعبر .
- ٧٤ ذكر قتل الشهيد زنكى رضى الله عنه .
- ٧٦ ذكر بعض سيرة الملك الشهيد رضى الله عنه .
- ٧٨ ومن ذلك حسن رأيه رحمه الله .
- ٨٠ ومن ذلك شجاعته وهيبته الهیوبة .
- ٨١ وأما صدقاته رضى الله عنه .
- ٨٢ وأما قوة عزمه ، وقلة تلونه ، وعلو همته .
- ٨٤ وأما غیرته .
- ٨٤ ذكر ملك سيف الدين غازى بن زنكى ، وما فعله جمال الدين الوزير إلى أن ملك .
- ٨٦ ذكر عصيان أهل الرها واستيلاء المسلمين عليها ثانياً .
- ٨٧ نادرة عجيبة .
- ٨٧ ذكر اجتماع سيف الدين ونور الدين ابنى زنكى .
- ٨٨ ذكر نزول الفرنج على دمشق وحصرها ، وما فعله سيف الدين حتى رحلوا عنها .
- ٩٠ ذكر فتح نور الدين حصن العزيمة .
- ٩٠ ذكر ملك سيف الدين قلعة داراء .
- ٩١ ذكر حصار قلعة ماردين الشهباء .
- ٩١ ذكر غزو الفرنج ببصرى وما جرى لهم فيها .
- ٩٢ ذكر وفاة سيف الدين غازى بن أتابك عماد الدين زنكى .
- ٩٢ فى ذكر بعض سيرته وأخلاقه رحمه الله .

- ٩٤ في ذكر ملك أخيه قطب الدين .
- ٩٤ في ذكر فاطمة ابنة عبد الملك (معرفة حسنة تذكر) .
- ذكر ملك نور الدين محمود ابن الشهيد مدينة سنجار وما كان بينه وبين أخيه قطب الدين .
- ٩٥
- ٩٧ ذكر قضية قلعة سنجار .
- ٩٨ ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية .
- ١٠٠ ذكر ملك حصن آفامية .
- ١٠١ ذكر الحرب بين نور الدين وجوسلين ، وانهمزام نور الدين رضى الله عنه .
- ١٠٢ في ذكر أسر جوسلين وملك بلاده .
- ١٠٤ ذكر المصاف بين نور الدين والافرنج بدلوک .
- ١٠٥ ذكر وفاة السلطان مسعود بن محمد بن السلطان ملكشاه السلجوقي بهمدان .
- ١٠٦ في ذكر ملك نور الدين دمشق .
- ١٠٨ ذكر القبض على سليمان شاه وحمله إلى الموصل .
- ١٠٩ في ذكر حصر نور الدين قلعة حارم .
- ١١٠ في ذكر الزلزلة التي جرت في الشام ونواحيها .
- ١١٠ ذكر ملك نور الدين المرحوم حصن شيزر .
- ١١٢ ذكر وفاة عز الدين الديبسي وحصر الجزيرة .
- ١١٣ ذكر حصار الملك محمد وزين الدين دار السلام بغداد .
- ١١٤ ذكر وفاة المقتنى لأمر الله وخلافة ابنه المستنجد بالله .
- ١١٤ في ذكره مسير سليمان شاه إلى همدان .
- ١١٦ في حصر نور الدين قلعة حارم .
- ١١٦ في ذكر انهزام نور الدين بحصن الأكراد وما جرى له
- ١١٨ في ذكر القبض على جمال الدين الوزير ابن علي الأصفهاني
- ١١٩ ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر
- ١٢٢ في ذكر فتح حصن حارم من الإفرنج
- ١٢٥ في ذكر خبر الواقعة التي جرت في حرب قلعة حارم
- ١٢٧ وفاة جمال الدين الوزير

- ١٢٨ في ذكره شيء من أخباره رحمه الله
- ١٣٠ ذكر فتح قلعة بانياس
- ١٣١ ذكر فتح المنيطرة على يد الشهيد رحمه الله .
- ١٣٢ ذكره عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر مرة أخرى .
- ١٣٣ ذكره ملك أسد الدين نغر الاسكندرية .
- ١٣٤ عصيان غازي .
- ذكر مفارقة زين الدين الموصل ووفاته ، وولاية نغر الدين عبد المسيح قلعة الموصل .
- ١٣٥
- ١٣٦ ملك نور الدين قلعة جعبر من صاحبها وكيف ملكها
- ذكر مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر ثالثة وملكها ، وقتل شاور وتملك أسد الدين سلطنة مصر .
- ١٣٧
- ١٤١ ذكر وفاة أسد الدين شيركوه وملك صلاح الدين يوسف بن أيوب .
- ١٤٣ ذكر حصر الافرنج مدينة دمياط في سنة خمس وستين [وخمسمائة] .
- ١٤٤ ذكر حصر نور الدين رحمه الله الكرك .
- ١٤٥ ذكر الزلزلة التي جرت بالشام وما فعله نور الدين .
- ١٤٥ ذكره غزوة لسرية نورية .
- في ذكر وفاة أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد زنكي بن آقسنقر رضى الله عنه ، وملك ابنه سيف الدين .
- ١٤٦
- ١٤٧ حادثة تحت على العدل .
- ١٤٨ فصل في ذكر بعض سيرة أتابك قطب الدين رضى الله عنه .
- ذكر وفاة المستنجد بالله أمير المؤمنين وخلافة ولده المستضىء بأمر الله رضى الله عنهم .
- ١٥٠
- فصل في ذكر ملك نور الدين الموصل وغيرها من البلاد الجزرية ، وتقرير الموصل على سيف الدين غازي .
- ١٥٢
- ١٥٤ ذكر غزوة نور الدين إلى بلد أنطاكية وطرابلس الشام
- ١٥٥ نادرة غريبة في زماننا هذا

- ١٥٦ ذكر انقراض الدولة العلوية بمصر وإقامة الخطبة العباسية بها .
- ١٥٨ ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطنا .
- ١٥٩ في ذكر إتخاذ نور الدين حمام الهوادى .
- ١٦٠ ذكر قصد نور الدين الشهيد بلاد قلاب أرسلان .
- ١٦١ ذكر وفاة السلطان الملك العادل نور الدين بن عماد الدين زنكى .
- ١٦٢ في ذكر ولاية ابنه الصالح إسماعيل رضى الله عنه
- ١٦٣ في ذكره بعض سيرة الملك العادل نور الدين محمود رضى الله عنه
- ١٦٦ وأما عدله
- ١٦٦ ومن عدله
- ١٦٨ فصل في ذكر بنائه دار العدل رحمه الله وأسكنه فسيح جناته
- ١٧٠ وأما ما فعله من المصالح
- ١٧٢ فصل في ذكر وقاره وهيبته قدس الله روحه ونور ضريحه
- ١٧٣ وأما حفظه أصول الديانات
- ١٧٤ فصل من كلام عماد الدين الكاتب فيه رحمه الله تعالى .
- ١٧٥ في ذكر استيلاء أتابك سيف الدين غازى على البلاد الجزرية بعد وفاة نور الدين .
- في ذكر وصول صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى دمشق دار العشق وتمسكها من
- ١٧٦ يد ابن مولاه .
- ١٧٧ ذكره ولاية مجاهد الدين قلعة الموصل ووزارة جلال الدين أبو الحسن على .
- ١٧٨ ذكر عصيان ابن بوازن وعوده إلى الطاعة .
- ١٧٨ ذكر القبض على سعد الدين كمشتكين النورى .
- ١٧٨ ذكر الغلاء والوباء .
- ١٧٩ فصل في ذكر وفاة أمير المؤمنين المستضىء بأمر الله الخليفة العباسى
- ١٧٩ ذكر شىء من سيرته قدس الله روحه .
- ذكر وفاة الملك سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين
- ١٨٠ زنكى بن آقسنقر .
- ١٨١ في ذكر مملكة المولى السعيد عز الدين بن قطب الدين مودود .

ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل بن العادل نور الدين الشهيد بن

١٨١ عماد الدين زنكي بن آقسنقر الملك شاهی .

١٨٣ فصل في سبب قضية القبض على مجاهد الدين قايماز وما تبعه من الوهن

١٨٤ في ذكر حصر الجزيرة .

١٨٥ ذكر وفاة المولى السيد المرحوم عز الدين مسعود رضى الله عنه .

١٨٦ ذكر شئ من سيرته رحمه الله تعالى .

في ذكر ملك ولده السعيد نور الدين بن عز الدين بن قطب الدين مودود

١٨٩ ابن عماد الدين زنكي .

١٩١ ذكر وفاة عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود .

١٩١ ذكر ملك السعيد نور الدين مدينة نصيبين .

١٩٣ ذكر وفاة مجاهد الدين قايماز ، رحمه الله تعالى .

١٩٤ ذكر ما فعله المرحوم نور الدين ، عفى الله عنه ، بمباردين .

١٩٦ ذكر عوده ، رضى الله عنه ، إلى بلاد العادل والصلح بينهما .

١٩٦ في ذكر حصر العادل مدينة سنجار وما فعله المولى نور الدين في حفظها وضبطها

١٩٧ ذكر وفاة المولى السعيد نور الدين قدس الله روحه .

١٩٨ ذكر شئ من سيرته .

٢٠٠ وأما علو همته .

٢٠١ وأما عقله وحسن آرائه .

٢٠١ ذكر ملك ولده المولى القاهر أعز الله أنصاره .

المراجع

- ن أبي طى : يحيى بن حميدة بن ظافر بن على الغسانى الحلبى .
النصوص المنقولة من بعض كتبه فى « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » ،
لأبى شامة .
- الأنير : على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن الواحد الجزرى .
الكامل فى التاريخ . (مطبعة الإستقامة بالقاهرة) .
- الجوزى : عبد الرحمن بن على بن محمد ، أبو الفرج .
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم . (طبعة الهند : ١٣٥٩ هـ) .
خلكان : أحمد بن محمد بن أبى بكر .
وفيات الأعيان وأبناء الزمان . (طبعة بولاق : ١٢٩٩ هـ) .
شداد : يوسف بن رافع بن تميم الاسدى .
سيرة صلاح الدين الأيوبى ، المسماة ، بالنوادير السلطانية والمحاسن اليوسفية . (مطبعة
الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧ هـ) .
طباطبا : محمد بن على المعروف بابن الطقطقى .
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية . (نشر محمود توفيق الكتبى : ١٣٤٠ هـ) .
عبد ربه : أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسى .
العقد الفريد . (لجنة التأليف والترجمة والنشر : ١٩٤٨) .
لعديم : عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبى جرادة العقيلى .
يعة الحلب فى تاريخ حلب . (تحقيق سامى الدهان) .
بن العماد الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى .
نترات الذهب فى أخبار من ذهب . (نشر مكتبة القدسى بالقاهرة : ١٣٥٠ هـ) .
نرات : محمد بن عبد الرحيم أحمد بن على بن .
اريخ الدول والملوك . (مصور : دار الكتب ، رقم : ٣١٩٧ تاريخ) .
غنى شعبة : بدر الدين محمد بن أبى بكر .

- السكواكب الدرية في السيرة النورية . (مصور : دار الكتب ، رقم : ١٢٢٧ تاريخ) .
- (مخطوط : دار الكتب ، رقم : ٢٠١١ تاريخ) .
- ابن القلانسي : حمزة بن أبي يعلى الاسدي .
- ذيل تاريخ دمشق . (تحقيق امدرود : بيروت ١٩٠٨) .
- ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي .
- البداية والنهاية في التاريخ . (مطبعة السعادة بالقاهرة) .
- ابن واصل : محمد بن سالم .
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . (تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال : ١٩٥٣) .
- ابن الوردي : عمر بن الوردي .
- تنمة المختصر في أخبار البشر . (المطبعة الوهية بالقاهرة : ١٢٨٥ هـ) .
- أبو شامة : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي .
- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية . (مطبعة وادي النيل بمصر : ١٢٨٧ هـ) ؛
- (طبعة سنة ١٩٥٦ ، تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد) .
- أبو النحاسن : يوسف بن تغرى بردى الأتابكي .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . (مطبعة دار الكتب المصرية : ١٩٣٥) .
- الاضطخري : إبراهيم بن محمد الفارسي الاضطخري ، المعروف بالسكرخي .
- المسالك والممالك . (تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني : ١٩٦١) .
- باركر : أرنست باركر .
- الحروب الصليبية . (ترجمة الدكتور السيد الباز العريني . نشر مكتبة النهضة المصرية : ١٩٦٠) .
- البديلي : شرف خان البديلي .
- شرفنامه . (ترجمة محمد علي عوف) .
- البيهقي : إبراهيم بن محمد .
- المحاسن والمساوي . (مطبعة السعادة : ١٩٠٦) .
- الجمعية المصرية للدراسات التاريخية :
- المجلة التاريخية المصرية . (المجلد السابع : سنة ١٩٥٨) .
- حبشي : حسن حبشي (الدكتور) .

نور الدين والصليبيون . (نشر دار الفكر العربي) .

دى سلين :

تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل . (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين : باريس) .
زامباور : ادور دفون زامباور .

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلام . (أخرجه الدكتور زكى محمد حسن وآخرون . مطبعة جامعة فؤاد الأول : ١٩٥١) .

الطبرى : محمد بن جرير .

تاريخ الأمم والملوك . (نشر مصطفى محمد) .

العماد الكاتب : محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني .

١ — تاريخ دولة آل سلجوق . (اختصار الشيخ الفتح بن على بن محمد البندارى الأصفهاني . مطبعة الموسوعات بمصر : ١٩٠٠) .

٢ — جريدة القصر وجريدة العصر . (تحقيق شكرى فيصل : دمشق ١٩٥٩) .

٣ — النصوص المنقولة من بعض كتبه فى « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية »
لأبى شامة .

الفارقى : أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق الفارقى .

تاريخ الفارقى . (تحقيق الدكتور بدوى عبد اللطيف عوض . القاهرة : ١٩٥٩) .

القلقشندى : أبو العباس أحمد القلقشندى .

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا . (المطبعة الأميرية ١٩١٣ — ١٩١٥ بالقاهرة) .

المقرئى : تقى الدين أحمد بن على .

السلوك لمعرفة دول الملوك . (تحقيق الدكتور مصطفى زيادة . مطبعة دار الكتب المصرية : ١٩٣٤)
هنداوى : الدكتور محمد موسى .

المعجم فى اللغة الفارسية . (نشر : مكتبة مطبعة مصر) .

ياقوت بن عبد الله الخوى الرومى .

معجم البلدان . (نشر الخانجى . مطبعة السعادة : ١٩٩٦) .

يوسف بن قزاوغلى التركى ، المعروف بسبط ابن الجوزى .

مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان . (طبعة الهند : ١٩٥١) .

تصويبات

ص	س	الخطأ	الصواب
٨ (م)	٦	سلطنة	سلطنة
٨ (م)	١٠	موود	مودود
١٠ (م)	٨	الثلاث	الثلاثة
١٠ (م)	حاشية (٣)	ج /	ج/٩
١١ (م)	٢٥	()	(٥)
١١ (م)	حاشية (٣)	٢٠١	٢٥١
١٣ (م)	حاشية (٢)	ابن العماء	ابن العهاد
١٤ (م)	١٢	٥١٠	٥٦٣
٢	١٠	الكوراث	الكوارث
١٧	١٠	أدحرها	ادخرها
١٨	حاشية (٨)	السلطان محمد	السلطان محمود
٢٥	١٢	يلس	ديلس
٣٠	١٩	يتعرض	يتعرض
٤٥	٤	فامشهورا	مشهورا
٤٥	٥	رس	فارس
٤٧	٢	الى بر ويحيتها	الى البرية وشحنها
٥١	حاشية (٢) (تضاف إليها : أما الخليفة المستنصر بالله العباسي فإنه ولي الخلافة سنة ٦٢٣).		
٥٧	١٣	وازاد	وازداد
٦١	٧	يستجدونهم	يستجدونهم
٦٨	حاشية (٣)	والجنائب	والنجائب
٧٤	١	المينى	المنبجى
٨٥	٥	ءنا	عونا
٩٩	٦	يمند	يممند

ص	س	الخطأ	الصواب
١٠١	٨	تنامها	تدفاها
١١٦	حاشية (٧)	حجن	حصن
١١٩	٨	زين	زين الدين
١٤١	٥	عليه ، ملك	عليه ملك
١٤٨	حاشية (٤)	بجمل من	من بجمل
١٥٤	حاشية (١)	المستضىء بالله	المستضىء بأمر الله
١٨٩	١٤	فيهاد	فيها
١٩١	٢١	الععل	الفعل
١٩٥	٢٠	الموضع	موضع
١٩٧	١٢	وهذا	وهنا
٢٠٤	حاشية (١)	بمنكر	بمنتكر

(ملحوظة) : ذكرنا في صفحة ١٤ من المقدمة ، أن لابن الاثير كتاب « تحفة العجائب وطرفة الغرائب » ، واعتمدنا في هذا على حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون وعلى فهرس دار الكتب - المخطوط لا يعمل اسم المؤلف - ولما كنا يسبيل اصدار كتاب عن ابن الاثير ومؤلفاته ، فقد رجعنا الى كتاب تحفة العجائب لدراسته والتعريف به تعريفًا واسعًا ، وعند قراءة الكتاب تبين لنا أنه منسوب خطأ لابن الاثير ، في الصفحة ٥ ، ينقل المؤلف عن كتاب « كنز الدرر وجامع الغرر » لأبي بكر بن عبد الله ابن أبيك الدواداري صاحب مرشد ، من رجال القرن الثامن ، وفي الصفحة ٦٥ ، ينقل المؤلف عن ابن الاثير خبرا يستحيل بقوله : ومن غريب ما ذكر ابن الاثير في تاريخه . وقد اكتشفنا خطأ نسبة الكتاب الى ابن الاثير أثناء طبع « التاريخ الباهر » وبعد طبع المقدمة ؟

